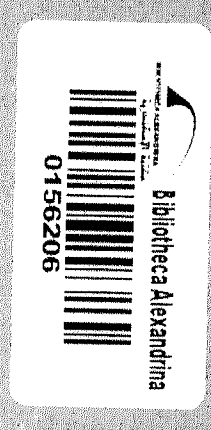


بقلم

الدكتور/ [illegible]

Ps. D., Ms. D. F. T. S.

الحائز على درجتي الدكتوراه في علم النفس وعلوم ما وراء الطبيعة









الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه
٤٤ ش سعد زغلول الاسكندرية تليفون/ فاكس : ٤٨٣٣٣٠٣

فى العلم الروحى الحديث :

قصتى فى الروحية

بقلم
الدكتور / نصيف اسحق
Ps. D., Ms. D. F. T. S.
الحائز على درجتى دكتوراه فى علم النفس وعلوم ما وراء الطبيعة

هى قصة شاب ولع فى السادسة والعشرين من عمره بالأبحاث النفسية ، فعقد جلسات روحية مع عائلته على غرار ما يقوم به أهل الغرب ، فاتصل بسكان العالم الأثيرى عن طريق وسطاء من كلا الجنسين اكتشفهم من بين أفراد أسرته وفى قالب قصصى ممتع يسرد نتيجة أبحاثه واختباراته





إهــــداء الكتاب

إلى .. النفوس المحررة
من قيود العقائد



التيارات الفكرية السابقة والمعاصرة للقرن السابع عشر

(أ) التيارات الفكرية السابقة (العصر الوسيط والنهضة) :

عرف العصر الحديث مجموعة من المفكرين تجاوزوا بتأملاتهم العميقة كل ما عرفه الانسان من قبل وجعلوا من الفلسفة بحثا فى الطبيعة وفى الانسان بقصد ابراز مكانته ومدى سيطرته على الطبيعة وما فيها من أسرار وتابعوا الآراء المتصلة بالمشكلات التى ظهرت منذ العصر القديم حيث تمكنت الفلسفة من الانتقال من الأسطورة الى اللغة العقلية ، ومن تحديد المواقف النمطية التى يمكن للمرء أن يتخذها حين يتخيل العالم أو الوجود أو الانسان •

أو خلال العصر الوسيط حيث حاولت الفلسفة التوفيق بين العقل والايمان أو بين الفلسفة والدين • فالواقع أن العصر الوسيط لم يكن ــ كما أعتقد البعض ــ عصرا مظلما راكدا توقف فيه الفكر الانسانى تماما بعد أن كان متقدما فى أيام اليونان والرومان ، ولكنه فى الحقيقة يمثل خطا للتطور نحو تحرر العقل والتفكير المستقل غير المحدود بمضمون ثابت يفرض عليه من الخارج • ومن ثم فهو دورة من دورات تطور الحضارة الأوروبية التى تسعى الى تحقيق ممكناتها ، ورغم أنه كان دينيا فى صميمه ، وكانت الفلسفة فيه خاضعة للاهوت ، وكان يعوزه العلم الحديث والمناهج القائمة على الاستنباط والاستقراء والتجربة ، الا أننا لا يمكن أن ننسى ما شارك به من جهد فى تقدم العقل البشرى فى عدة وجوه وخاصة المنهج الذى اتبعه فلاسفة هذا العصر فى النظر العقلى والاستدلال الذى بالرغم مما فيه من جفاف وآلية ، استطاع أن يكسب الفكر نفاذا ودقة وقدرة على التمييز والتقسيم والتفريع وغيرها من الصفات التى يندر وجودها فى ذهنية العصر الحديث •



السلطة الشعبية • رفض « مونتزر » فهم الانجيل حرفيا وقدم نظرية ترفض كل لاهوت أو علم مقدس لا توضحه الخبرة المزدوجة للزهد الصوفى والصراع السياسى لعلو شعب الله • هـذا العلو يتطلب منهجا جديدا لتفسير الانجيل وعقيدة تربوية وفعلا سياسيا •

يعتمد المنهج على الصوفية الألمـانية ويجعل من الالهام الضامن للفهم الحقيقى • أرادة الله ليست محصورة لا فى سلطة الكنيسة ولا فى حروف الانجيل وأنما يعيش فى قلب الانسان وتظهرها المعاناة • وبعبارة أخرى يخلص هـذا المنهج المسيحى من سيطرة النص ويعطى للعقل المقياس الواضح ويرفعه فوق الفهم الحسى الذى يظل مرتبطا بالحدود الثابتة للرغبة ويعطيه القوة ليحقق ما يبدوا أنه مستحيل وأن كان قابلا للتحقيق فعلا فى مملكة الله على الأرض •

أما العقيدة التربوية فترمى الى جعل الانجيل مفهوما للشعب وتجعل الشعب يساهم بنشاط فى ازدهار العقيدة التى يجب أن ينظمها فى لغة ألمـانية • ان سـيادة اللاتينية دليل على فساد وانحطاط أخلاق رجل الدين الأنانى والكسول والجشع الذى لا يريد أن يعلم الشعب • أنه لا يخون وظيفته فحسب ، بل هو لص يسرق بغير حق قانونى النص المقدس ، رجل الدين الحقيقى هو الذى يحاكى المسيح ويعلم الشعب ولا يحب أن يظل سلبيا أمام فظاعة المستبدين ؛ أنه ذلك الذى يعلن بوضوح كلمته ويفسرها ويرتلها بالألمـانية ليتمكن الناس من أن يلموا بالصورة المسـيحية •

وهى دعوة تجديدية تؤكد حق الجماعة المسيحية ــ فى صورتها التى جاءت بالانجيل والتى رآها الحواريون والمبشرون الأوائل ــ والتى تقوم على أساس المساواة الكاملة والمحبة والاخوة ، واذا كانت الجماعات الأخرى الفاسدة تقوم على أساس من التفرقة الاجتماعية والسياسية والسعى الى تحقيق الرغبات والشهوات المـادية ، وتعترف بالتدرج فى المستويات وتستخدم العنف والكذب والخيانة ، فان هـذه الدعوة

قد جعلت وظيفتها الأساسية انقاذ البشر من الخطيئة ... فالدور الحقيقى للكنيســة هو دور المربى والسياسى الذى يسهر على الأخلاق وروح المدينــة وتحرير البشر من الشهوة(٢) .

أما عن دور الانسان المتفوق والصورة الجديدة للعالم ، فقد عرف النصف الثانى من القرن السادس عشر تعديلا فى صورة العالم بناء على ما تحقق من تقدم تقنى واكتشافات علمية ، وما تزود به الانســان من أســلحة نظرية تساعده فى فهم الكون وفرض الفروض وتحليل الأفكار . بدأ التجديد فى ايطاليا ببعث القديم وتخطى الفترة المدرسية المنهكة بالتحاليل المبالغ فيها وترتب على ذلك أن ترك (الانسانيون) الفلسفة الطبيعية ليكتشفوا من خلال دراستهم لأفلاطون وأفلوطين ، ومن خلال البحث عن أصل الانســان وعن الدوافع النفسية وحب الحياة والحساسية التى تفوق الدقة العقلية التصورية وأن تعرض لقضية أساسية هى : ما جدوى التفكير فى الطبيعة اذا لم نعرف ما هو الانســان ؟

ظاهرة أخرى وضحت فى هــذه الفترة هى طريقة تناول النصوص وشرحها كل عالم أو باحث يختار بعض المقتطفات التى يحسن اختيارها ويشكل تصوره الشخصى ويشيد فلسفته الخاصة ويتخلص من جمود النص وحذلقة التفسير الحرفى .

وباختصار تحول الفكر الى فكر علمانى خاصــة بعد ظهور دعوة « نيقولا دى كويز » Nicolas de Cues فى كتــابه « الدنيوى » أو « العلمانى » التى تؤكد ان العقل قسمة متساوية بين البشر وتظهر القيم الانسانية والفضائل الدنيوية لقدماء الرومان ، وتحارب الهروب الى الكهوف وتؤكد أن الانسان يحقق سلامه فى المدينة(٣) .

---

(٢) نفس المرجع ص ٤٠ — ٦٦

(٣) نفس المرجع السابق ص ٤٣ — ٤٨ ، ٥٣ — ٥٤

ظاهرة ثالثة هي انتصار الانسان على محاكم التفتيش التى تفرض قانونها بالقوة وقدرته على تطبيق الفضائل الخاصـــة بالعالم العلوى فى عالمه هـــذا •

أما التقابل بين الفكر السائد فى مدينتى بادوا وفلورنسا فهو فى حقيقته تقابل بين الفكر الأفلاطونى والفكر الأرسطى : يتمسك الفكر الفلورنسى بأرسطو فى حين يرى الفكر الســـائد فى بادوا وجود مجالين للبحث : أحدهما يستخدم المناهج العقلية والآخر يعتمد على الايمان ولا يستجيب لمحكمة العقل ولا يخشى سلطة الكنيسة ولا معارضتها ، ويهتم بالأبحاث العلمية وخاصـــة الطب ، ويعتبر هـــذا الفكر المبشر للفكر الفرنسى والتحرر بفضل تياره الرومانى والتحررى ، وهو أكثر اقناعا من الناحية الاجتماعية والدينية من الفكر الفلورنسى •

وباختصار يرتكز الصراع بين الفكر الفلورنسى وفكر بادوا على نقطة أساسية هى : أما أن تكون المعرفة شـــمولية كما تريد فلورنسا أو تكون واقعية جزئية لكل فرع من فروع المعرفة مجاله الخاص كما تريد بادوا وانتهى النزاع بينهما بظهور تيارين أحدهما توفيقى متأثر بالدوافع الفيثاغورية الأفلاطونية والآخر علمى خالص يعتمـــد على الأبحاث التجريبية وكلاهما يؤمن بحقيقة أســـاسية هى ضرورة غزو مجالات جديدة •

(ب) التيارات الفكرية فى القرن السابع عشر :

تميز الفكر الفلسفى الحديث ابتداء من القرن السابع عشر بالميل الى الانشاء وازدهار النهضة العلمية وظهور المذاهب المختلفة عند كل ديكارت ومالبرانش وأسبنوزا وليبنتز وبيكون ولوك وهوبز وغيرهم • وقد حاول فلاسفة هـــذا القرن رفع لواء التجديد والابتكار سواء فى مجال الفلسفة أو العلم أو الدين •

ففي الفلسفة مثلا هاجم البعض ما بعد الطبيعة والمنطق الأرسطي بل وهاجم انتشار الفلسفات اليونانية ذات النظرة الكلية المطلقة باعتبارها فلسفة فارغة لا نفع فيها فيما يتعلق بتحقيق سيطرة الانسان على الطبيعة أو تحقيق تقدمه وارتقائه في الحياة ، ومن ثم طالبوا أن تقتصر مهمة الفلسفة على توضيح المعاني وخدمة البحث العلمي في حين ظهر اتجاه آخر يعود بالفلسفة الى القديم ويحاول اثراء الفكر الفلسفي بالنظرات الشاملة الكلية والعودة الى المنطق الأرسطي بعد تزويده بالرموز الرياضية وتطويره[٤] •

وفي العلم ظهرت صراعات من نوع جديد تستهدف رفض أي بحث نظري وافساح المجال أمام الاختراعات والاكتشافات التي تساعد الانسان علي السيطرة على الطبيعة ، وبدأت العلوم تستقل من الفلسفة متخذة لنفسها مناهج وأساليب تختلف في قليل أو كثير عن مناهج الفلسفة وبدأت المناهج التجريبية والمعتمدة على الاستقراء ، ومع ذلك لم يستطع العلم القضاء على الفلسفة أو التقليل من شأنها بل بقيت الفلسفة تعطي العلم من روحها وطورت نفسها وأنتجت فروعا جديدة لفلسفة العلوم وفلسفة المناهج •

وفي الدين انتشرت موجة الالحاد التي تحاول تفسير كل شيء آليا بعيداً عن التصورات الدينية بل وعن وجود الله ؛ وفي مقابل ذلك نشط التيار المؤمن يحاول أن يثبت وجود الله ويبين أن التفسير الآلي وحده عاجز •

وباختصار تميزت الفلسفة الحديثة بوجود تيارين سارا جنبا الى جنب تيار يرفض كل فكر سابق وتيار تطوري يقبل الفكر السابق ويسعى الى تعديله وتطويره ليتلائم مع ما توصل اليه العقل الانساني من

---

(٤) Emile Boutroux, Etudes d'historie de la philosophie allemande. p 168 , 176, 184.

اكتشافات واختراعات . كما تميزت بوجود عـدة اتجاهات أساسية : اتجاه مثالى يؤمن بالنظرة الشـاملة التى تخضع لمبـدأ الكل ويمثله أسبينوزا صاحب مذهب وحـدة الوجود الروحية . واتجاه ثنائى يحلل الأفكار الى أبسطها وينظر فى كل فكرة على حـدة ليصل الى الوضوح ويمثله ديكارت والديكارتيين .

واتجاه عقلى تعددى يدعو الى التناسق الأزلى بين مكونات العالم ويمثله ليبنتز ، وأتجاه تجريبى يعتمد على الاحساس فى ادراك العالم الخارجى ويمثله جون لوك أو يعتمد على التفسير المـادى ويمثله هوبز .

ليبنتز : أعمـاله وفلسـفته

. . . لكى نحدد موقف ليبنتز من الفكر السـائد فى عصره أو ذلك السـابق له ولكى نوضح الدور الحقيقى والأساسى الذى قام به فى هـذا الصراع الفكرى بين القديم والجديد من جهة أو بين الفكر الفلسفى وكل من الفكر العلمى أو الدينى من جهة أخرى ، ومدى مساهمته فى مشكلة المعرفة التى كانت سـائدة فى عصره والتى تعرض لها ديكارت باتجاهه العقلانى وجون لوك باتجاهه التجريبى من جهة ثالثة ومن أجل كل هـذا سنعرض بايجاز لفكر ليبنتز الفلسفى وخاصـة كما حاول عرضه فى كتابه « أبحاث جديدة فى الفهم الانسانى » وبصفة خاصـة الفصل الرابع الذى تناول نظرية المعرفة وحدد موقفه من جون لوك بصفة خاصـة . وأوضح ما قدمه ليبنتز للفكر الانسانى من اضافات وتجديدات .

لقد امتاز ليبنتز بنشاطه واهتمامه بكل ما يسود عصره من مشاكل فقد كان فيلسوفا وعالما ولاهوتيا وفقيها وسياسيا . وقد نجح فى كل هـذه الميادين وحقق ما يكفى لتخليد ذكراه .

كانت الفكرة السـائدة عند معظم مؤرخى الفلسفة الذين تناولوا

فكره بالدراسة والنقد حتى أواخر القرن التاسع عشر هى أن فلسفته يغلب عليها الطابع الرياضى ؛ فنظروا اليه على أنه عالم رياضى أكثر منه فيلسوفا .

أما فى القرن العشرين فقد تغيرت هـذه الفكرة بفضل ما نشره « لويس كوتوراه » من مخطوطات لم يسبق نشرها وبفضل ما أوضحه « برتراند رسل » من آراء فى كتابه « عرض نقدى لفلسفة ليبنتز » فأصبح الرأى السائد فى النصف الأول من القرن العشرين أن ليبنتز فيلسوف أكثر منه عالما رياضيا ثم اختلف مؤرخوا ليبنتز بعد ذلك :

فريق يعتقد أنه فيلسوف ما بعد طبيعى يقوم مذهبه على أسس ما بعد طبيعية خالصة كفكرة الجوهر أو الوحدة العنصرية البسيطة (الموناد) فى حين يعتقد البعض الآخر أن فلسفة ليبنتز يغلب عليها الطابع المنطقى الذى يصوغ مذهبه فى قضايا موضوعها يتضمن محمولاته .

هـذا وقد اعتمد الفريقان على مؤلفات ليبنتز وخاصة :

١ ـ خطابات الى فوشيه Lattres à Foucher :

التى نشرت ضمن مجموعة من كتابات ليبنتز الفلسفية فى الفترة من ١٦٧٦ الى ١٦٩٥ يعرض فيها وجهة نظره فى اثبات الحقائق الموجودة خارج النفس وتحديد موقفه من ديكارت ورأيه فى الامتداد وقوانين الحركة وعلاقة الروح بالجسد ، الجوهر ، المادة ، الله .

٢ ـ خطابات الى فونتنيل Lattres à Fontenelle :

فى السنوات ١٦٨٤ ، ١٧٠٢ ، ١٧٠٣ ، ١٧٠٥ يعرض فيها أبحاثه العلمية الخاصة بالفلك والهندسة والحركة واللامتناهى .

٣ ـ مقال فى ما بعد الطبيعة discours de Metaphysique 1686 :

يتضمن آراءه المنطقية وما بعد الطبيعية والطبيعية والأخلاقية ، كما يتضمن بعض المشكلات السائدة فى عصره ، خاصة ما يتصل منها بالحقائق الضرورية أو بالعالم الخارجى ، ومبادئه الفلسفية . واللامتشابهات (مبدأ التفرد) والتناسق الأزلى ، وقوانين الحركة ، مبدأ تساوى السبب والأثر الناتج عنه .

٤ ـ خطابات الى أرنولد Correspondance avec Ornauld :

تناول موضوعات ما بعد طبيعية ولاهوتية ترتبت عن قوله أن الجوهر موضوع يتضمن محمولاته ، وما يتبعها من تفسير لحرية الله ولرادته ودافع عن وجهة نظره القائمة على هذه النظرية المنطقية .

٥ ـ مذهب جديد فى الطبيعة وارتباط الجواهر ووحدة الروح والجسد سنة ١٦٩٥

New system of the rature and communication of substances, as well as of the union exi sting between soul and body.

يعرض فيه نظريته فى الاتساق الأزلى بين الجواهر بوجه عام وبين الروح والجسد بوجه خاص ، وقد اعتاد ابتداء من بحثه هذا أن يطلق على نفسه اسم « مؤلف مذهب التناسق الأزلى » ، كما عرف الجوهر تعريفا جديدا أطلق عليه اسم « الوحدة الحقيقية » أو « النقطة ما بعد الطبيعة » .

٦ ـ الأصل النهائى للأشياء
The Ulti mate Origination of things 1617

بحث يثبت وجود وحدة أولية حقيقية هى مصدر ما فى هذا العالم من حقائق وموجودات ، ويفسر ما بين الموجودات من ترابط ، أى يفسر علاقة العلم الطبيعى بما بعد الطبيعة ، وينتهى الى تقرير أن

كل شيء فى العالم يتخذ مكانه وفق قوانين خالده وتبعا لمبدأى عدم التناقض والعلة الكافية •

٧ ـ أبحاث جديدة فى الفهم الانسانى
Nouveaux Essais sur L' entendement humain

من أهم كتب ليبنتز يعرض فيهـا مناقشته لنظرية جون لوك فى المعرفة وفكرة الروح وأصل المعرفة وصلتها بالأفكار الفطرية •

٨ ـ الالهيـات :
Essais de theodiceé , sur la bonté de Dieu, la Liberté I,homme et l,origine de mal.

تناول مشكلة الشر وعلاقته بحرية وخيرية وقدرة الله ، كما تناول فكرة الحرية الالهية والحرية الفردية تناولا يتمشى مع نظرية التناسق الأزلى وتظهر أن الله خلق أحسن عالم ممكن وأن وجود الشر لن ينقص من قدرة الله أو حريته أو خيريته •

٩ ـ مذهب الوحدات العنصرية **Monadology - 1914** :

تلخيص وتجميع لآراء ليبنتز الفلسفية والمنطقية وما تتضمنه من مبادىء ونظريات •

١٠ ـ مبادىءالطبيعة والعناية مؤسسة على العقل
Principles of nature and grace founded on Reason.

تتضمن مع مذهب الوحدات العنصرية فى أنها تلخيص وتجميع لمبادىء آراء ليبنتز النهائية فى الفلسفة والمنطق(٥) •

هـذا وقد اعتمدت احدى القراءات المعاصرة على هـذه الأعمال والمراسلات لتظهر اهتمامه بالفكرة المنطقية التى تجعل موضوع القضية

---

(٥) B. Russell : critical exposition of the philospphy of Leibniz p: 4, 9.

يتضمن محمولاته أو صفاته وتوضح كيف حاول تطبيقها فى المجالات المختلفة سواء فى الرياضيات أو علم الطبيعة أو ما بعد الطبيعة أو اللاهوت •

فقد أعلن ليبنتز هذه الفكرة لأول مرة فى خطاب الى فوشيه سنة ١٦٤٦ وحاول تطبيقها على فكرة الجوهر باعتباره كائنا كاملا يحتوى كل ما يخصه أى باعتباره موضوعا يتضمن محمولاته ، كما تضمنت هذه الرسالة رأيه فى الروح كجوهر يملك المعرفة الحقيقية •

ثم عاد فتعرض لنفس الفكرة بتفصيل فى خطابه الى أرنولد مايو سنة ١٦٨٦ ومقاله ما بعد الطبيعة ومذهبه الجديد سنة ١٦٩٥ ومبادىء الطبيعة والعناية حيث طبق هذه الفكرة على الله باعتباره موضوعا يتضمن محمولاته وانتهى من تحليل هذه المحمولات الى اثبات وجود الله وتحديد صفاته وصلته بالمخلوقات كما ساعدت هذه الفكرة بتطبيقاتها فى المجالات المختلفة على اكتشاف عدة مبادىء ونظريات جديدة وصبغت فلسفة ليبنتز بالصبغة التحليلية التى دفعت معاصرينا الى الاهتمام بدراسته واظهار ما فى فلسفته من عمق وتعيد النظر فى تحديد علاقته بمعاصريه وخاصة ديكارت واسبينوزا •

أما أهم النتائج التى توصلت اليها هذه القراءة المعاصرة فنوجزها فيما يلى :

١ — لكل قضية موضوع ومحمول •

٢ — الجوهر موضوع يحتوى على محمولات تعبر عن صفات توجد فى أزمنة مختلفة •

٣ — القضايا الصادقة التى تثبت الوجود فى زمن معين تكون عرضية وتركيبية وتعتمد على علل نهائية •

٤ — الانا جوهر •

٥ ــ من الممكن معرفة العالم الخارجى وما فيه من موجودات غير النفس وحالاتها •

٦ ــ هنــاك نوعان من القضايا : قضايا ضرورية نقيضها مستحيل وأساسها المنطقى مبــدأ عدم التناقض وقضايا عرضية نقيضها ممكن وأساسها المنطقى مبــدأ العلة الكافية •

وقد أستندت على ما جاء فى خطابه الى أرنولد حيث يقول : « اذا ما حاولنا فحص الفكرة التى لدينا عن كل قضية صادقة ، فاننا نجد أن فكرة الموضوع تتضمن كل ما يدخل فيها من محمولات سواء كان ضروريا أو عرضيا ، ماضيا أو حاضرا أو مستقبلا » •

ويقول فى خطاب آخر « كل قضية صادقة سواء كانت ضرورية أو عرضية كلية أو جزئية ، يحتوى موضوعها على محمولها »[٦] •

أما القراءة الثانية المعاصرة أيضا فقد انتهت الى أن الهدف الحقيقى الذى سعى اليه ليبنتز هو تفسير ما يعرض للذهن الانسانى من مشكلات تتصل بالعالم الخارجى وما فيه من وحدات حقيقية وظواهر محكمة البناء الى أن ينظر الى العالم نظرة تحيل ما فيه من اختلاف الى وحــدة • ويمكن تلخيص النتائج التى توصلت اليها هــذه القراءة فيما يلى :

١ ــ كل الموجودات فى هــذا العالم من نوع واحد ، وهى أشبه بالعقول من أى شىء آخر قد تثيره التجربة •

٢ ــ هــذه الموجودات يختلف بعضها عن بعض فى الدرجة ، فهى تتدرج من الجماد الى النبات الى الحيوان الى العقول •

٣ ــ لا يمكن أن تؤثر بعضها البعض أو أن يعرف بعضها البعض •

٤ ــ العقول وحدها هى التى لديها القدرة على المعرفة والقدرة على تحقيق أغراضها •

---

(٦) Mary Morris; philosophical writions p. 71, 73.

٥ ــ يمكن صياغة قوانين الطبيعة التى تربط أجزاء العالم •

٦ ــ كل وحدة عنصرية تحتوى فى ذاتها ما سيحدث لها فى المستقبل وتتمتع العقول بالحرية •

٧ ــ المــادة والمكان والزمان ظواهر محكمة البناء ، أى أنها غير حقيقية ولكنها ليست وهمية •

٨ــ الله موجود وهو الموجود اللامتناهى وهو العقل الأول وخالق كل ما عداه[٧] •

والآن ما هى هــذه الوحدة العنصرية التى أصبحت أساس التفسير ما بعد الطبيعى ؟

وما هى المبادىء التى توصل اليها ليبنتز من تحليله وتحديده لهذه الوحــدة العنصرية ؟

الوحــدات العنصرية : (الموناد)

لا يوجد فى العالم سوى الوحدات العنصرية والظواهر المحكمة البناء ، الوحدة العنصرية وحدة بسيطة غير منقسمة ، ويوجد منها عدد لا نهائى ، وتعبر عن العالم فهى وجهة نظر أو مرآة أو اله صغير ، لديها واقع يدفعها باستمرار الى الانتقال من الادراكات التى لديها الى ادراكات أخرى ، ومن حالة يكون فيها ادراكها لنفسها وللأشياء غامضا الى حالة يصبح فيها ادراكها أكثر تميزا ووضوحا • وهى محاولة للاقتراب من الكمال الالهى وهــذا يتطلب تناسقا بينها وبين غيرها ، كما يتطلب تسلسلا يبدأ من الوحدات العنصرية التى لاتملك الا اكتفاءها الذاتى بحركاتها يسميها « أنتلخيا » ويليها فى الرقى الوحدات العنصرية الواعية ويسميها « أرواحا » ثم وحدات عنصرية واعية وعاقلة ويسميها « أرواحا عاقلة » ، كل واحدة من هــذه الوحدات لها ميولها الخاصــة التى تعبر

---

(٧) Ruth Lydia saw ; Leibniz p. 28, 29, 42.

عنها ، وهى تتفاوت فى هــذا التعبير أيضا : الانتلخيا تعبر عن ميولها عن طريق الدفع ، وتتسم الأرواح الواعية بما لديها من غريزة ورغبة لا يحكمها الا الشــعور فى حين تعتمد الأرواح العاقلة فى تعبيرها عن ميولها على كل من الرغبة الواعية وغير الواعية ، ومن ثم ليس هناك اختلاف جوهرى بين الفئات المختلفة للوحدات العنصرية ، كل ما بينها من اختلاف يرجع الى درجة وضوح وتميز أفكارها أو ادراكاتها •

هــذه الوحدات العنصرية البسيطة يمكن أن تتجمع مع بعضها وتكون وحدات مركبة ، ولكى نميز بين الوحدات العنصرية المركبة يجب أن نبحث عن الوحدة العنصرية السائدة التى تتصف بصفات خاصة هى التى تميزها عن غيرها وهى شــأنها شأن الوحدات العنصرية البسيطة لديها تصوراتها وميولها الخاصــة ومن ثم فهى أيضا مرآة للعــالم بطريقتها الخاصــة ، وهى رغم أنها لا نوافذ لها الا انها تحتوى فى داخلها على علة تغيراتها ، كما أن لديها فى ذاتها القوة على الانتشار تلقائيا • لن نتمكن من تحقيق ميولها أو من الانتشار التلقائى الا اذا كان من طبيعتها أن تتعاون مع غيرها حتى لا يحدث اضطراب أو تصادم بين الوحدات العنصرية •

أما أهم المبادىء التى ترتبت على ذلك فهى : (أ) مبدأ الاتصال •
(ب) مبدأ اللامتشابهات (التفرد) • (جـ) مبدأ التناسق الأزلى •

(أ) مبــدأ الاتصــال :

اعتمد ليبنتز على هــذا المبدأ فى تفســير التغير المستمر للوحدات العنصرية • هنــاك ثلاثة أنواع من الاتصال :

١ ــ اتصال زمانى ــ مكانى •

٢ ــ اتصال الحالات •

٣ ــ اتصال الوحدات •

يتضمن الاتصال الزمانى المكانى استمرار المكان والزمان من جهة والأشياء الموجودة فيهما من جهة أخرى ، كما يتضمن الحركة وكل أنواع التغير فهو انتقال تدريجى من حالة الى حالة فى صورة متعاقبة متصلة[٨] .

اتصال الحالات يوضح أنه اذا حدث أى تغير فى حالة أية مجموعة من المجموعات لابد وأن يؤثر هـذا التغير فى الحالات المترتبة عليها .

اتصال الوحدات أو الصور يعبر عنه بقوله أن الطبيعة لا تعرف القفزات ، وهو الصورة العامة لكل صور الاتصال وكان يسميه ليبنتز أحيانا مبدأ الانتقال ويقصد به أن التغير يتم تدريجيا وينتج عن سبب طبيعى داخلى ويتعارض مع التغير المفاجىء الذى يرجع عادة الى سبب خارجى . وقد حاول تطبيق هـذا المبدأ فى الرياضيات والطبيعة والميكانيكا وعلم النفس وما بعـد الطبيعة كل الجواهر خالدة وفى تغير مستمر فهى لا تستطيع أن تبدأ الا بالخلق ولا تنتهى الا بمعجـزة لا يقـدر عليهـا الا الله .

امتازت فلسفة ليبنتز بفضل هـذا المبدأ بأنها محاولة مستمرة لاظهار أننا ننتقل من فكرة الى أخرى ومن كائن الى آخر فثمة سلسلة واحدة تشمل كل الكائنات الطبيعية كالفقرات الكثيرة التى ترتبط ببعضها ارتباطا وثيقا بحيث يستحيل للحس أو للخيال ان يحدد بدقة النقطة التى يبدأ منها أو ينتهى[٩] .

(ب) مبـدأ اللامتشابهات : (التفرد)

هـذا التدرج اللانهائى يستـدعى ألا تكون الوحدات العنصرية متشابهة تمام التشابه ، ليست الأنواع وحدها هى التى تختلف عن بعضها بل الأفراد كذلك ، بل وأجزاء الفرد مهما كانت صغيرة . « اذا تشابه

---

(٨) Robert Latta; Monadoloby and other philosophical writings of leibniz. p 50 109, 111.

(٩) نفس المرجع صفحة ٣٨ ــ ٤١

فردان تماما وتساويا لن يمكن التمييز بينهما والحقيقة أن كل جسم يختلف اختلافا حقيقيا عن سواه »[١٠] •

هذا المبدأ يوضح أن مبدأ العلة الكافية لم يستعمل الاستعمال الكافى فى ما بعد الطبيعة وان استخدام اللامتشابهات يؤكد أن الله لا ينتج جزئين من المادة متشابهين ومتساويين تماما ، لأن هذا يعنى ان الله والطبيعة يعملان بدون علة تبرر لماذا اختلفت معاملتهما لأحد الأجزاء عن معاملتهما للجزء الآخر • وعلى هذا فان الله لا يخلق جزئين من المادة متساويين ومتشابهين[١١] •

أما تطبيق مبدأى الاتصال واللامتشابهات على الوحدة العنصرية باعتبارها موضوعا يتضمن محمولاته فقد جعل من الوحدة العنصرية جوهرا بسيطا يتصف بصفات معينة أهمها أنها ذات تصورات وميول داخلية تخصها وتجعلها فى تغير مستمر وتحقق التناسق الأزلى بينهما . كما يجعل منها موضوعات لا حصر لهـا تتدرج فى تسلسل متناسق لا يتشابه فيه وحدتان على الاطلاق •

وبعبارة أخرى يفسر مبدأ الاتصال الحالات المختلفة التى تتعرض لها الوحدة العنصرية الواحدة فى تغيراتها المستمرة ويجعل من هذه الحالات محمولات يمكن أن نستدلها من تحليل الفكرة التى لدينا عن هذه الوحدة العنصرية •

أما مبدأ اللامتشابهات فقد جعل الوحدات العنصرية المختلفة موضوعات مستقلة ومغايرة لبعضها البعض ويؤكد عدم التشابه بين هذه الوحدات وبالتالى يؤكد أن تحليل الوحدات العنصرية يفسر ما فى الكون من نظام وتناسق ويؤكد قدرة الله الكاملة على خلق أحسن عالم ممكن •

---

(١٠) Leibniz : Nouveaux essais p. 182

(١١) Mary lewis; philosophical writings p. 213 .

(جـ) مبـــدأ التناسق الأزلى :

بهذا المبدأ يؤكد ليبنتز أن الله حينما خلق العالم بصورته الحالية انما خلق أحسن عالم ممكن ، وقد اختار هــذا العالم بالذات من بين عـــدد لا حصر له من العوالم الممكنة ليكون دليلا على عظمته وقدرته وعلمه ، ومن الطبيعى أن يكون الله قد زود هــذا العالم منــذ الأزل بكل ما يلزمه من نظام واتساق يحفظ استمراره ويرقب ما بين أجزائه المختلفة من علاقات وارتباط ويكفل تحقيق كل ما يتضمنه من علاقات . وعلى ذلك فمن دلائل عظمة الله أن يشمل هــذا العالم ظواهر محكمة البناء ووحدات عنصرية حقيقية وبسيطة . وخير دليل على هــذا التناسق الأزلى ما نجده فى علاقة الروح بالجسد رغم أن كلا منهما يعمل وفق قوانينه الخاصــة . وقدم ليبنتز مثال صانع الساعات المــاهر الذى يجعلها تبدأ معا ثم يترك العملية الميكانيكية تعمل وحدها بعد ذلك . هــذا هو موقف الله أيضا فقد وضع ابتداء من لحظة الخلق فى كل وحـــدة عنصرية وفى كل حالة كامنة ما ستحتاج اليه وركبها بطريقة تجعل كل وحـــدة منها تبسط طبيعتها على ســلوك الآخرين . هــذا التناسق لا ينقص من قدرة الله بل على العكس هو خير دليل بعدى يمكن أن نقدمه لاثبات وجود الله(١٢) .

والآن كيف أثبت وجود الله ؟ وما علاقته بالمخلوقات ؟

لم يقتصر ليبنتز فى تطبيقه فكرة الموضوع الذى يتضمن محمولاته على ما بعد الطبيعة كما أوضحنا من قبل وانما أمتد الى المجال الدينى والأخلاقى واعتبر فكرة الله موضوعا تحليلها يظهر ما تتضـــمنه من محمولات تثبت وجود الله وتحــدد صفاته وعلاقاته بالمخلوقات .

---

(١٢) Ondré Cresson; leibniz p. 43 - 44.

(أ) اثبات وجـود الله :

اعتمد ليبنتز على أربعـة أدلة :

١ ــ دليل يعتمد على ما تمدنا به التجربة من حقائق عرضية ويمكن تلخيصه فى أن الكون حادث ويتألف من عـدد لا نهائى من الحقائق ، تحليل كل حقيقة منها يؤدى الى ضرورة وجود علة كافية لوجودها هكذا وليس خلاف ذلك . هـذه العلة الأخيرة يجب أن تكون خارج هـذه الحقيقة ، أى فى جوهر واجب الوجود بذاته وهو ما نسميه الله .

٢ ــ دليل يعتمد على الحقائق الضرورية وعلى أنها تنبع كلها من عقل لديه القدرة على اختيارها دون سواها ، ونقلها من الوجود بالقوة أو الامكان الى الوجود بالفعل ، فمن المستحيل أن يكون تحقق وجود الوحدات العنصرية بفعل قوة عمياء جاهلة لأن خالقها يتضمن اختيـارا من بين الممكنات ويستحيل أن يتم الاختيـار بين هـذه الممكنات اذا لم يكن هنـاك معرفة تقرر هـذا الاختيار[١٣] .

٣ ــ دليل يعتمد على مبدأ التناسق الأزلى والنظام السائد فى الكون ، هذا كله يتطلب وجود خالق كامل قادر على تحقيق هذا التناسق .

٤ ــ دليل يعتبر تعديلا لدليل « أنسلم » كما عرضه ديكارت وخلاصته أن الله واجب بموجب ماهيته ، فاذا كان الله ممكنا كان موجودا. الله ممكن والممكن يقتضى الميل الى الوجود بفضل ما فيه من كمال . ولـما كان الله غير متناه فلن يعترض ميله الى الوجود شىء مغاير له ويصبح الممكن موجودا لمجرد كونه ممكنا [١٤] .

---

(١٣) Russell; critical exposition. p 172, 175, 178.

(١٤) Mary Morris, philos. writings of Leibniz p. 11 , 12 , 26, 196 , 197.

(ب) صفات الله :

فكرة الله كموضوع يتضمن محمولاته أثبتت أيضا صفات الله فهو جوهر كامل ووحدة عنصرية كاملة وسامية تتصف بالقدرة والعلم والارادة والخير والعدل وغيرها من الصفات • ومن البديهى أن تكون صفات الله لا نهائية وكاملة تماما فى حين تكون فى الوحدات العنصرية المخلوقة محدودة بقدر مالها من كمال • وقد قارن ليبنتز بين الله الموصوف بهذه الصفات المطلقة وبين المهندس والصانع الماهر وأوضح ما بينهما من تفاوت كبير ، اذ أن الله لا يحتاج فى خلق هذا العالم الى أى مادة من الخارج ما دام يخلق كل ما يلزمه ، بينما يبحث الصانع عن مادته خارج نفسه ، كما أن مخلوقات الله أكثر دواما وأعظم دقة •

(ج) علاقة الله بمخلوقاته :

يميز ليبنتز بين علاقة الله بالعقول من جهة وعلاقته بغيرها من الوحدات العنصرية الاقل رقيا من جهة أخرى : علاقته بالعقول علاقة أمير برعاياه وعلاقته بالوحدات العنصرية غير العاقلة مرايا أو صـور لعالم المخلوقات ، أما العقول فصورة الله ، خالق العالم وهى بذلك قادرة على معرفة نظام العالم ومحاكاة ما فيه من نماذج هندسية ويصبح كل عقل منها اله صغيرا ويقول « لو تأملنا جيدا تصرفات هذه العناية الالهية فى حكمها على الاشياء فأننا نستطيع القول أن ذلك الذى يتصرف هذا التصرف الكامل لن يكون أقل كمالا من العالم الرياضى الممتاز الذى لديه أحسن تركيب للمشكلة أو المهندس الماهر الذى ينظم بناءه بحيث يصبح خاليا مما يشوه جماله أو يقلل كماله ، أو الصانع الدقيق الذى ينتج عمله بأقصر الطرق وأقل التكاليف ؛ الله هو الموضوع الوحيد المباشر خارج أنفسنا واننا نرى كل شىء بواسطته »[١٥] •

---

(١٥) نفس المرجع السابق ص ١٨

خلاصة القول اذن أن ليبنتز فى اهتمامه بالمشكلات الدينية سعى الى اثبات وجود الله وتقرير صـفاته الرئيسية : القدرة ، العلم ، الارادة ، الخير ، وانتهى بتشييد مدينة الله التى تحتوى الوحـدات العنصرية العاقلة تحت رعاية الاله العادل الكامل متبعا فى ذلك نفس المبدأ الرئيسى الذى حرص على تطبيقه فى كل المجالات .

ومن الطبيعى أن تتفق آراء ليبنتز فى هذه المجالات سواء منهـا الفلسفية أو العلمية أو اللاهوتية مع الاتجاهات الفكرية المعاصرة له فى جوانب معينة وتختلف عنها بل وتعارضها فى جوانب أخرى وهـذا ما سنحدده من خلال حديثنا عن موقف ليبنتز من معاصريه وخاصـة ديكارت ولوك واسبينوزا .

موقف ليبنتز من معاصريه

(أ) موقفه من ديكارت :

يتضح لنا اذن من خلال العرض الموجز لفلسفة ليبنتز وخاصة آراءه فى ما بعد الطبيعة واللاهوت ، أنه اتخذ موقفا واضحا من فلسفة ديكارت من جهة ومن فلسفة الديكارتيين من جهة أخرى ، سواء فى مجال العلوم الطبيعية أو ما بعد الطبيعة أو اللاهوت ، أى فى المجالات الثلاثة الرئيسية المتصلة بالعلم والفلسفة والدين . ونحاول الآن تحديد هذا الموقف بتفصيل أكثر لتظهر الى أى مدى استطاع أن يتجاوز فكر عصره وما هى هـذه التجاوزات والاضافات ؟

من أجل هذا يلزمنا أولا مقارنه ما انتهى اليه ديكارت من حقائق ومبادىء بما كان سائدا فى المدارس الفلسفية المشائية والمدرسـية المعاصرة له ، وخاصة بالنسبة لفكرة « الصورة الجوهرية » التى تقرر ان لكل جنس من الجواهر نوعا من المعطى الخاص سيكون حقيقته ويميزه عن غـيره .

فقد عرفت الفلسفة المدرسية عدة تصنيفات للصور الجوهرية نذكر منها تصنيفين اساسيين أولهما يقسمها الى ثلاث فئات : (أ) الله وهو الموجود الدى لا يحتاج لوجوده الى عله أعلى ولا يوجد فى موضوع أسفل منه • (ب) الصور التى تستمد وجودها من غيرها و لاتكون هى نفسها موجودة فى مادة وهى الصور الخالية من كل تعيين جسمى •

(جـ) الصور المعتمدة فى أجزائها والتى تستمد وجودها من علة أعلى وتوجد فى موضوع ، وهى الأعراض ، أولهما الصور الجوهرية التى تحدد المـــادة •

وثانيهما يقسم الصور الجوهرية الى ستة فئات هى : (أ) المادة الأولى أو العناصر • (ب) المركبات الدنيا كالاحجار • (جـ) المركبات الاعلى كالعقاقير مثلا • (د) الكائنات الحية أو النباتات • (هـ) الكائنـــات الحساسة أو الحيوانات • (و) الصور الجوهرية العاقلة التى تشبه الآخرين باعتبارها صورة لجسد ولكنها لا تستمد من الجسد عمليتهـــا الخاصة وهى الفكر[١٦] •

سادت نظرية الصور الجوهرية فى القرن السابع عشر وأدت الى نوع من اللامعقولية دفعت العديد من مفكرى هذه الفترة الى نقدها لمـــا أدت اليه من أخطاء جسيمة أبعدتها عن روح البحث العلمى الذى يطلب الأسباب الحقيقية للظواهر ، لانها ترجع فى تعليلها هذه الظواهر وارتباطها ببعضها البعض الى صفات غامضة أو فضائل تميز هذه الاجسام فالماء مثلا يرتفع فى الانبوبة الفارغة بناء على صفه خفيه من طبيعتها أن تدفعه الى أعلى •

وكان طبيعيا اذن أن ينهض ديكارت وجاسندى ومالبرانش وغيرهم لنقد هذه النظرية وقد أنتهى ديكارت الى وجود جوهرين فقط جوهر

(١٦) مقدمة بياجيه الترجمة الفرنسية لكتاب الابحاث الجديدة « الفهم الانســـانى » •

الفكر وجوهر الامتداد • كل شيء فى الاجسام يرجع الى الامتداد بكل تعديلاته من شكل أو حركة ، وكل شيء فى المعقول يرجع الى الفكر بكل أنماطه من لذة والم ، حكم أو تفكير أو ارادة • وبالتالى أخضع الطبيعة كلها الى آلية لا يوجد خارجها سوى الروح • فقد حرص ديكارت اذن على ان يخلص علم الطبيعة من الاخطاء التى نشرتها نظرية الصور الجوهرية وحاول تأسيس علم طبيعة جديد يفسر الظواهر الطبيعية على أساس فكرة الإمتداد وما يترتب عليه من شكل وحجم وموقع وحركه • واستبعد تماما الصفات الخفية أو الفضائل التى كانت تقول بها نظرية الصور الجوهرية ؛ وسرعان ما انتشرت نظرية ديكارت الآلية فى جميع المجالات وطرحت سؤالا هاما يدخل فى مجال ما بعد الطبيعة وهو : هل تكون مبادىء الآلية نفسها آلية ؟ وبعبارة أخرى هل الآلية هى الكلمة الاخيرة فى الطبيعة ؟ وهل تكتفى بنفسها ويمكن الاعتماد عليها وحدها ؟ فكرة القوة مثلا التى تفسر عدة ظواهر فى مجال علمى الطبيعة والكيمياء ، هل هى آلية ؟ أنها فى نظر ما بعد الطبيعة نشاط حقيقى يفوق الآلية وبالتالى تصبح النظرية الآلية فى ما بعد الطبيعة بالصورة التى عرضها ديكارت فى حاجة الى ما يكملها من خلال نظرية ديناميكية تحقق الاتفاق بين العلم وما بعد الطبيعة وهذا ما حاوله ليبنتز أن يحققه من خلال نظريته الديناميكية ومن خلال نقده لنظرية ديكارت •

لقد أوضحنا فى حديثنا عن فلسفة ليبنتز أن نظريته فى الوحدات العنصرية تعتمد أساسا على فكرة الجوهر بعد أن عرضها عرضا جديدا يجعل منه موضوعا يتضمن محمولاته ، وقد حاول أن يجمع بين موقف كل من ديكارت من جهة وديمقريطس من جهة أخرى ، وأن يتحاشى ما فى نظرية كل منهما من أمور لا تتفق مع نظريته الخاصة • ومن أهم النتائج التى ترتبت على احتفاظه بفكرة الصورة الجوهرية فى صورتها الجديدة تأكيده أن طبيعة الجسم لا تتكون من الامتداد وحده بل يجب التعرف على صلته بالروح ، وهذا ما يقصده بالصورة الجوهرية •

ومن الطبيعى أن يثار النزاع بينه وبين الديكارتيين الرافضين للصور الجوهرية ومن ثم حرص ليبنتز على أن يوضح مايقصده بالصورة الجوهرية وأن يدافع عن نظريته وانتهى الى أن من الأفضل أن يطلق عليها اسمـا جديدا يميزها عن المفهوم القديم للجوهر ويتحاشى ما تعرض له من نقد ، فسـماها أولا بالنقطة ما بعـد الطبيعة ثم أطلق عليها أخيرا لفظـه « الوحدة العنصرية » (موناد) •

لم يقتصر الخلاف بين ليبنتز من جهة وديكارت والديكارتين من جهة أخرى حول فكرة الصورة الجوهرية وضرورة الاحتفاظ بها فى صورتها الجديدة كما أراد ليبنتز أو ضرورة التخلص منها والاكتفاء بجوهرى الفكر والامتداد فحسب كما أراد ديكارت وأنما أمتد الخلاف ليدور حول فكرتى الامتداد والمـادة وما يترتب عليها من نتائج •

فقد ترتب على تصور ليبنتز العالم الخارجى المكون من وحدات عنصرية وظواهر محكمة البناء ، أى من مادة وحركة ومكان وزمان ، أن أختلفت وجهة نظره عن كل من التيار الديكارتى السائد من جهـة والتيار المـادى الذرى من جهة أخرى ، فالمـادة لم تعد جوهرا كما أعتقد ديكارت ، ولم تعد ذرة فردية كما أعتقد الذريون ، وانما هى تجمع من الجواهر البسيطة ، أى ظاهرة محكمة البناء ، هذه الظاهرة الدقيقة والقابلة للقسمة الى ما لا نهاية والايجابية ، الخالية من الروح ومن الحياة فى حاجة الى الوحدة الحقيقة غير القابلة للقسمة لتشكل الاجسـام المادية والمتميزة الموجودة فى هذا العالم •

وبعبارة أخرى رفض ليبنتز الامتداد الديكارتى واعتبار المقاومة ماهية للمادة الأولى وأصبح الامتداد مجرد صفة لهذا الشىء الممتـد وبالتالى لابد من تعديل أساسى لتصور الحركة والمكان والزمان • فالمادة التى ماهيتها المقاومة فى حاجة لقوة تفسر حركتها ما دامت الحركـة تفترض وجود قوة تدفعها دائما للانتقال من حركة بالقوة الى حركـة

فعلية • ويقرر ليبنتز أن هذا الميل الداخلى أو القوة هو الوحيد الثابت ويمكن قياسه بقياس ما يترتب عليه من نتائج ، وأصبح من الضرورى أن نعبر عن الحركة فى الصيغة m v 2 بعد أن كان يعبر عنها ديكارت بالصيغة m v أى أنه بعد أن كان ديكارت يعتبر كمية الحركة نتيجة لقوة تعمل فى زمن محدد ، أعلن ليبنتز أن القوة الحية تعمل خلال مسافة ثابتة • فقــد زمن محدد ، أعلن ليبنتز أن القوة الحية تعمل خلال مسافة ثابتة • فقد أهمل ديكارت المسافة التى تقطعها القوة • وبالتالى عدل ليبنتز مفهوم المكان والزمان ورفض اعتبارهما حقيقتين مطلقتين واعتبرهما نوعا من التتابع : المكان يدل على تتابع الأشياء والزمان يدل على تزامنها •

وباختصار تصور ليبنتز للمادة كموضوع يمكن تحليله لاظهــار ما يتضمنه من محمولات أدى الى القول بفكــرة القوة والمقاومة والى تعديل مفهوم كل من الحركة والمكان والزمان ، وجعل منها ظاهرة محكمة البناء تخضع لمبدأ العلة الكافية الذى يفسر لمــاذا هى كذلك وليست خلاف ذلك شأنها شأن غيرها من الحقائق العرضية ولا تخضع لمبدأ عدم التناقض الخاص بالحقائق الضرورية التى نقيضها مستحيل •

وجدير بالملاحظة أن فكرة الجوهر عند ليبنتز ارتبطت بمشكلات لاهوتية تتصل بالحضور الحقيقى وتحول القربان ولا يمكن حلها فى ضوء الفرض الديكارتى : لانه اذا كان الجسم يتكون أساسا فى الامتداد، فمن التناقض أن يستطيع نفس الجسم أن يتواجد فى عدة اماكن ى نفس الوقت • وقد كتب ليبنتز الى أرنولد يقول : « أن ماهية الجسم لا تتكون فى الامتداد ، والجوهر الجسمى اذا أخذ فى ذاته ، فلن يكون امتدادا ، ولا يخضع لشروط الامتداد ، ويتضح ذلك اذا أكتشف المــرء مما يتكون الجوهر بالمعنى الدقيق » •

لقد أكد ليبنتز اذن أن وراء الآلية الجسمية مبادىء غير آلية ، وأن الأصح أن تخضع فكرة الجسم لفكرة الجواهر النشطه غير القابلة للقسمة الى الوحدات العنصرية •

هذا ويمكن أن نوجز المبررات التى دفعت ليبنتز الى رفض فكرة الامتداد فيما يلى :

١ ـ الامتداد وتعديلاته المختلفة يشكل ما يسمى بالتحديدات الخارجية التى لا تساعد الشخص الذى يريد استنتاج الموجود نفسه ، ماذا يهم بالنسبة لحالة الجسم الداخلية أن يكون دائريا أو مربعا ؟

٢ ـ كل فلسفة آلية تنتهى حتما الى انكار التغير وتقول بالكل الثابت ، وأن ما يوجد من تغير ليس سوى تعديل للموقع أو زحزحه فى المكان أو حركه • ويتساءل ليبنتز : اليست الحركة نفسها تغيرا ؟ ألا يلزمها أن تحصل على سبب فى الكائن الذى يتحرك أو الذى يحرك ؟ الشكل والحركة والموقع وكل التعديلات الخارجية للجسم لابد وأن تصدر من مبدأ داخلى يشبه ذلك الذى يسميه أرسطو أنتلخيا •

٣ ـ فكرة الجوهر تتطلب ضرورة فكرة الوحدة • المركب لن يكون أبدا جوهرا • وهذا يعنى أن المادة لا تكون جوهرا ، أنها ظاهرة ويوضح ليبنتز فكرته بالمثال الآتى :

لو فرضنا وجود حجرين يفصل بينهما مسافة كبيرة فلن نفرض أنهما يشكلان نفس الجوهر ولو أفترضنا أنهما التحما ببعضهما فلن يغير الوضع الجديد المتجاور من طبيعة الاشياء وسيظلا حجرين وليسا حجرا واحدا • بل على فرض أنهما قد ارتبطا أكثر بحيث يستحيل فصلهما فان يمنع ذلك من أن يميز الذهن أحدهما من الآخر وأنهما سيظلان أثنان • وهكذا أما أن نقبل انه ليس للمادة أية حقيقة جوهرية أو أن نقبل أنها تخضع لعناصر بسيطة غير ممتدة نسميها وحدات عنصرية •

٤ ـ يؤكد ليبنتز أن ماهية الجوهر هى القوة أو النشاط ويمكن اثبات ذلك قبليا : أليس من الواضح أن الموجود لا يوجد حقيقة الا بقدر ما يفعل ؟ الموجود السلبى الخالص عدم ويتضمن تناقضا • لأنه على فرض أنه سيقبل كل شىء من الخارج وأنه لا يملك أى شىء بذاته فلن

يكون له أى تحديد أو أى وصف، ويصبح عدما • أذن الوجود البسيط يفترض قوة معينة ونشاطا معينا • الوحدات العنصرية لا نوافذ لها ولا تقبل أى شيء من الخارج ولا تكون سلبية : كل ما يحدث فيها هو انتشار تلقائى لماهيتها الخاصة •

واذا اتصلت احدى الوحدات العنصرية بأخرى فأن احداهما تصبح فاعلة والأخرى منفعلة ويتحقق بين الجميع انسجام أزلى يتيح لكل وحدة عنصرية أن تمثل أو تغير الكون بأكمله ولن يكون ذلك أيضا الا انتشارا تلقائيا لنشاطها الخاص •

نقطة أخرى يختلف فيها ليبنتز عن ديكارت وتتصل بصلة الروح والجسد فالعلاقة بينهما لم تعد علاقة جوهرين منفصلين كما كانت عند ديكارت وأنما هى علاقة تواصل • ورؤية ليبنتز لهذه العلاقة بين الروح والجسد تعبر عن نظرة ترى أن الجسم نوع من الصورة تعبر ديناميكيا أو طبيعيا عن الروح والجسم بطاقة للروح أو أطلس يعرض مظاهـر الروح الجغرافية والبشرية والطبيعية • واذا كانت الروح فكرة فأن الجسم يصبح الكتاب الذى يعرض الفكرة • ولم يعد الجسم والروح الى نصفين متكاملين متفقين وأنما أصبحت العلاقة بينهما علاقة توازى وتواصل وهما متوازيان توازى المعنى والعلامة أو الدال والمدلول(١٧) •

خلاصة القول اذن أنه اذا كانت فلسـفة ديكارت قد دعت الى استخدام نور العقل الطبيعى فى مجال العلم والمعرفة ، واذا كان ديكارت قد وضع أول قاعدة فى دستور العقل الانسانى وهى العقل السليم أعدل الاشياء قسمة بين الناس ، ومن خلال ديكارت اكتشف الفكر الغربى ذاته واتجه الى العلم فان ليبنتز قد استطاع أن يحتفظ بما فى فلسفة ديكارت من أفكار جديدة ولكنه لم يتردد فى نقـد نظرياته وبيان ما فيهـا من

---

(١٧) F. chatelat ; Histoire de la philosophie T. Leib niz. 3.

أخطاء ، وهو فى موقفه هذا لم يرفض الفلسفة الديكارتية وانما نظر اليها على انها وجهة نظر معينة تنظر الى المشكلات الفلسفية من زاوية معينة تختلف فى كثير من الأمور عن وجهة نظر ليبنتز والتى حرص على أن يعرضها ويوضحها ويدافع عنها ضد اعتراضات الديكارتيين وفى هذا تأكيد لروح ليبنتز المتميزة وأصالته القائمة على الدعامتين الاساسيتين التى سبق ان أوضحناهما (أ) الحرص على تحقيق التعادل الكلى من خلال فن الارتباط الذى دعا اليه والاهتمام بالصياغة الرمزية من جهة (ب) والرغبة فى التعميم التى حاول تطبيقها فى مجال العلم والفلسفة والدين من جهة أرخى والتى جعلت لمذهبه طابعا خاصا ومتميزا ويقوم على مبدأ الانسجام الازلى وما ترتب عليه من نتائج• ولم يعد مجرد تعديل بسيط لفكر ديكارت •

موقف ليبنتز من أسبينوزا

بعد أن أنتهينا من تحديد الجوانب الأساسية التى اختلف فيها لبتنز عن ديكارت والديكارتيين ننتقل الى تحديد الجوانب الاساسية الى اختلف فيها عن أسبينوزا • وسنحاول قبل التعرض لهذه النقطة التمهيد بعرض موجز لفلسفة أسبينوزا ومدى تقاربها أو تباعدها عن فلسفة ديكارت •

باروخ أسبينوزا فيلسوف هولندى يهودى ، ولد فى أمستردام سنة ١٦٣٢ وتوفى فى لاهاى سنة ١٦٧٧ • تعرف على فلسفة ديكارت وأعتبره البعض من الديكارتيين وأعتبره لبتنز منشقا على أستاذه وحاول أن ينقد فلسفته • من أهم أعماله التى نشرت فى حياته :

١ ـ مبادىء الفلسفة لديكارت سنة ١٦٦٣

René Descartes principia philosophiae

٢ ـ رسالة لاهوتية سياسية سنة ١٦٧٠ •

Tractatus Theologico - politicus

أما أعمله التى نشرت بعد وفاته فهى :

١ ـ بحث فى اصلاح الذهن
traite de la reforme de L'entendement

٢ ـ بحث قصير عن الله — le·Court traité de Dieu

٣ ـ الاخـلاق — L'Ethique

٤ ـ رسالة سياسية — Tractus Politicus

حاول أسبينوزا أن يوفق بين النزعة العقلية الخالصة والنزعـة الروحية الصافية وأعتمد على المنهج الهندسى الاسـتدلالى فى ابحاثه الفلسفية وفى تعريفه لجوهر الله وصفاته وأحواله فى حين تتمثل نزعته الصوفية فى الأخلاق التى أرادها أن تقوم على محبة الانسان لله حبـا يصل الى درجة القداسة من جهة وعلى الحرية من جهة أخرى وجدير بالملاحظة أن أسبينوزا قد رفض فى الظاهر الانتماء الى الجماعة اليهودية وحاول أن يتقرب الى بعض الفرق المسيحية ولهذا لم يكتف بحثه عن الحرية بالمستوى الاخلاقى وحده وانما أمتد أيضا الى المستوى الدينى ليصل الى سعادة الانسان وخلاصة فى هـذه الحياه وفى الحيـاة الأخرى ، وذلك عن طريق حب الله واتصال النفس بقدرة الله اللانهائية • ولكن أسبينوزا لم يقتنع بطريق العقيدة والايمان كما فعلت الديانتين اليهودية والمسيحية وانما آثر طريق المعرفة العقلية وحاول أن يثبت أن النفس الانسانية بطبيعتها حالة من حالات الجوهر الالهى الواحـد ويستند فى ذلك الى بعض الاكتشافات العلمية الحديثة •

وبوجه عام تعتبر فلسفة اسبينوزا انعكاسا للاتجاهات العلميـة والفلسفية والدينية الى جانب تأثرها بالاتجاهـات الدينيـة السريـة (كابال Kabbale) والفلسفة الطبيعية القائلة بوحدة الوجود للعصر الوسيط بل هناك من يعتقد تأثره بابن رشد عن طريق الفلاسفة اليهود أمثال موسى بن ميمون • وترجع أهمية أسبينوزا الى أنه صاغ هـذه المؤثرات ونسجها نسيجا جديدا تميزت به فلسفته •

أسس فلسفته

تقوم فلسفته على قضيتين أساسيتين أولاهما تقرر أنه لا يمكن أن يوجد ولا يمكن أن نتصور غير جوهر واحد هو الله وثانيهما تقرر أن الله هو العلة الباطنة واللازمة لكل شيء •

(القضيتين ١٤ ، ١٨ من الأخلاق)

لقد تمسك أسبينوزا منذ كتاباته الأولى بفكرة الجوهر الواحد وبوحدة الوجود وهي أفكار ذات جذور لاهوتية وما بعد طبيعية وصوفية ، كما أنها ذات اتجاه طبيعي يسعى الى تأليه الطبيعة ومن ثم فهو في مواجهة الثنائية الديكارتية التي تقول بالفكر والامتداد اتجه الى تخليص الطبيعة من كل آثار غير طبيعية أو فوق طبيعية وأن حرص كل منهما على دعم وجهة نظره ببراهين عقلية قوية • وفي حين تصور ديكارت العالم كعالم نهائي قابل للقسمة الى أجزاء عديدة ، تصوره اسبينوزا كعالم واحد لا نهائي • ومن خلال هذه الاسس يمكن أن نتبين جوانب التقارب أو التباعد بينها وبين فلسفة ديكارت ولنبدأ بفكرة الجوهر :

الجوهر عند أسبينوزا هو الموجود في ذاته والذي نتصوره لذاته بمعنى أن تصوره لا يعتمد على أي تصور آخر • والله هو الموجود اللانهائي على الاطلاق وهو جوهر له صفاته لا نهائية ، كل صفة منها تعبر عن ماهيته اللانهائية والازلية في حين يرى ديكارت أن الجوهر ليس في حاجة لموجود آخر غير ذاته ، والله وحده هو الذي يستغني بوجوده عن كل وجود آخر • أما سائر الموجودات الأخرى فأنها مجرد مخلوقات تحتاج الى قدرة الخالق لبقائها[18] •

وهكذا يبدو الاختلاف الاساسي بين مفهوم الجوهر لدى كل منهما • فقد أعتقد ديكارت وجود عدة جواهر متناهية في حين لم يسلم أسبينوزا

---

(١٨) نازلي ص ٦٠ — ٦١ الفلسفة الحديثة •

خلاصة القول اذن أن ليبنتز فى اهتمامه بالمشكلات الدينية سعى الى اثبات وجود الله وتقرير صفاته الرئيسية : القدرة ، العلم ، الارادة ، الخير ، وانتهى بتشييد مدينة الله التى تحتوى الوحدات العنصرية العاقلة تحت رعاية الاله العادل الكامل متبعا فى ذلك نفس المبدأ الرئيسى الذى حرص على تطبيقه فى كل المجالات •

ومن الطبيعى أن تتفق آراء ليبنتز فى هذه المجالات سواء منها الفلسفية أو العلمية أو اللاهوتية مع الإتجاهات الفكرية المعاصرة له فى جوانب معينة وتختلف عنها بل وتعارضها فى جوانب أخرى وهذا ما سنحدده من خلال حديثنا عن موقف ليبنتز من معاصريه وخاصة ديكارت ولوك واسبينوزا •

موقف ليبنتز من معاصريه

(أ) موقفه من ديكارت :

يتضح لنا اذن من خلال العرض الموجز لفلسفة ليبنتز وخاصة آراءه فى ما بعد الطبيعة واللاهوت ، أنه اتخذ موقفا واضحا من فلسفة ديكارت من جهة ومن فلسفة الديكارتيين من جهة أخرى ، سواء فى مجال العلوم الطبيعية أو ما بعد الطبيعة أو اللاهوت ، أى فى المجالات الثلاثة الرئيسية المتصلة بالعلم والفلسفة والدين • ونحاول الآن تحديد هذا الموقف بتفصيل أكثر لتظهر الى أى مدى استطاع أن يتجاوز فكر عصره وما هى هذه التجاوزات والاضافات ؟

من أجل هذا يلزمنا أولا مقارنه ما انتهى اليه ديكارت من حقائق ومبادىء بما كان سائدا فى المدارس الفلسفية المشائية والمدرسية المعاصرة له ، وخاصة بالنسبة لفكرة « الصورة الجوهرية » التى تقرر ان لكل جنس من الجواهر نوعا من المعطى الخاص سيكون حقيقته ويميزه عن غيره •

فقد عرفت الفلسفة المدرسية عدة تصنيفات للصور الجوهرية نذكر منها تصنيفين اساسيين أولهما يقسمها الى ثلاث فئات : (أ) الله وهو الموجود الذى لا يحتاج لوجوده الى عله أعلى ولا يوجد فى موضوع أسفل منه • (ب) الصور التى تستمد وجودها من غيرها و لاتكون هى نفسها موجودة فى مادة وهى الصور الخالية من كل تعيين جسمى •

(جـ) الصور المعتمدة فى أجزائها والتى تستمد وجودها من علة أعلى وتوجد فى موضوع ، وهى الأعراض ، أولهما الصور الجوهرية التى تحدد المـــادة •

وثانيهما يقسم الصور الجوهرية الى ستة فئات هى : (أ) المادة الأولى أو العناصر • (ب) المركبات الدنيا كالاحجار • (جـ) المركبات الاعلى كالعقاقير مثلا • (د) الكائنات الحية أو النباتات • (هـ) الكائنـــات الحساسة أو الحيوانات • (و) الصور الجوهرية العاقلة التى تشبه الآخرين باعتبارها صورة لجسد ولكنها لا تستمد من الجسد عمليتهـــا الخاصة وهى الفكر[١٦] •

سادت نظرية الصور الجوهرية فى القرن السابع عشر وأدت الى نوع من اللامعقولية دفعت العديد من مفكرى هذه الفترة الى نقدها لمـــا أدت اليه من أخطاء جسيمة أبعدتها عن روح البحث العلمى الذى يطلب الأسباب الحقيقية للظواهر ، لأنها ترجع فى تعليلها هذه الظواهر وارتباطها ببعضها البعض الى صفات غامضة أو فضائل تميز هذه الاجسام فالماء مثلا يرتفع فى الانبوبة الفارغة بناء على صفه خفيه من طبيعتها أن تدفعه الى أعلى •

وكان طبيعيا اذن أن ينهض ديكارت وجاسندى ومالبرانش وغيرهم لنقد هذه النظرية وقد أنتهى ديكارت الى وجود جوهرين فقط جوهر

---

(١٦) مقدمة بياجيه الترجمة الفرنسية لكتاب الابحاث الجديدة « الفهم الانســـانى » •

الفكر وجوهر الامتداد • كل شيء فى الاجسام يرجع الى الامتداد بكل تعديلاته من شكل أو حركة • وكل شيء فى العقول يرجع الى الفكر بكل أنماطة من لذة والم ، حكم أو تفكير أو ارادة • وبالتالى أخضع الطبيعة كلها الى آلية لا يوجد خارجها سوى الروح • فقد حرص ديكارت اذن على ان يخلص علم الطبيعة من الاخطاء التى نشرتها نظرية الصور الجوهرية وحاول تأسيس علم طبيعة جديد يفسر الظواهر الطبيعية على أساس فكرة الإمتداد وما يترتب عليه من شكل وحجم وموقع وحركه • واستبعد تماما الصفات الخفية أو الفضائل التى كانت تقول بها نظرية الصور الجوهرية ، وسرعان ما انتشرت نظرية ديكارت الآلية فى جميع المجالات وطرحت سؤالا هاما يدخل فى مجال ما بعد الطبيعة وهو : هل تكون مبادىء الآلية نفسها آلية ؟ وبعبارة أخرى هل الآلية هى الكلمة الاخيرة فى الطبيعة ؟ وهل تكتفى بنفسها ويمكن الاعتماد عليها وحدها ؟ فكرة القوة مثلا التى تفسر عدة ظواهر فى مجال علمى الطبيعة والكيمياء ، هل هى آلية ؟ أنها فى نظر ما بعد الطبيعة نشاط حقيقى يفوق الآلية وبالتالى تصبح النظرية الآلية فى ما بعد الطبيعة بالصورة التى عرضها ديكارت فى حاجة الى ما يكملها من خلال نظرية ديناميكية تحقق الاتفاق بين العلم وما بعد الطبيعة وهذا ما حاوله ليبنتز أن يحققه من خلال نظريته الديناميكية ومن خلال نقده لنظرية ديكارت •

لقد أوضحنا فى حديثنا عن فلسفة ليبنتز أن نظريته فى الوحدات العنصرية تعتمد أساسا على فكرة الجوهر بعد أن عرضها عرضا جديدا يجعل منه موضوعا يتضمن محمولاته ، وقد حاول أن يجمع بين موقف كل من ديكارت من جهة وديمقريطس من جهة أخرى ، وأن يتحاشى ما فى نظرية كل منهما من أمور لا تتفق مع نظريته الخاصة • ومن أهم النتائج التى ترتبت على احتفاظه بفكرة الصورة الجوهرية فى صورتها الجديدة تأكيده أن طبيعة الجسم لا تتكون من الامتداد وحده بل يجب التعرف على صلته بالروح ، وهذا ما يقصده بالصورة الجوهرية •

ومن الطبيعى أن يثار النزاع بينه وبين الديكارتيين الرافضين للصور الجوهرية ومن ثم حرص ليبنتز على أن يوضح مايقصده بالصورة الجوهرية وأن يدافع عن نظريته وانتهى الى أن من الأفضل أن يطلق عليها اسمـا جديدا يميزها عن المفهوم القديم للجوهر ويتحاشى ما تعرض له من نقد ، فسماها أولا بالنقطة ما بعد الطبيعة ثم أطلق عليها أخيرا لفظـه « الوحدة العنصرية » (موناد) •

لم يقتصر الخلاف بين ليبنتز من جهة وديكارت والديكارتين من جهة أخرى حول فكرة الصورة الجوهرية وضرورة الاحتفاظ بها فى صورتها الجديدة كما أراد ليبنتز أو ضرورة التخلص منها والاكتفاء بجوهرى الفكر والامتداد فحسب كما أراد ديكارت وأنما أمتد الخلاف ليدور حول فكرتى الامتداد والمـادة وما يترتب عليها من نتائج •

فقد ترتب على تصور ليبنتز العالم الخارجى المكون من وحدات عنصرية وظواهر محكمة البناء ، أى من مادة وحركة ومكان وزمان ، أن أختلفت وجهة نظره عن كل من التيار الديكارتى السائد من جهـة والتيار المـادى الذرى من جهة أخرى ، فالمـادة لم تعد جوهرا كما أعتقد ديكارت ، ولم تعد ذرة فردية كما أعتقد الذريون ، وانما هى تجمع من الجواهر البسيطة ، أى ظاهرة محكمة البناء ، هذه الظاهرة الدقيقة والقابلة للقسمة الى ما لا نهاية والايجابية ، الخالية من الروح ومن الحياة فى حاجة الى الوحدة الحقيقة غير القابلة للقسمة لتشكل الاجسـام المادية والمتميزة الموجودة فى هذا العالم •

وبعبارة أخرى رفض ليبنتز الامتداد الديكارتى واعتبار المقاومة ماهية للمادة الأولى وأصبح الامتداد مجرد صفة لهذا الشىء الممتـد وبالتالى لابد من تعديل أساسى لتصور الحركة والمكان والزمان • فالمادة التى ملهيتها المقاومة فى حاجة لقوة تفسر حركتها ما دامت الحركـة تفترض وجود قوة تدفعها دائما للانتقال من حركة بالقوة الى حركـة

فعلية • ويقرر ليبنتز أن هذا الميل الداخلى أو القوة هو الوحيد الثابت ويمكن قياسه بقياس ما يترتب عليه من نتائج ، وأصبح من الضرورى أن نعبر عن الحركة فى الصيغة m v 2 بعد أن كان يعبر عنها ديكارت بالصيغة m v أى أنه بعد أن كان ديكارت يعتبر كمية الحركة نتيجة لقوة تعمل فى زمن محدد ، أعلن ليبنتز أن القوة الحية تعمل خلال مسافة ثابتة • فقد زمن محدد ، أعلن ليبنتز أن القوة الحية تعمل خلال مسافة ثابتة • فقد أهمل ديكارت المسافة التى تقطعها القوة • وبالتالى عدل ليبنتز مفهوم المكان والزمان ورفض اعتبارهما حقيقتين مطلقتين واعتبرهما نوعا من التتابع : المكان يدل على تتابع الأشياء والزمان يدل على تزامنها •

وباختصار تصور ليبنتز للمادة كموضوع يمكن تحليله لاظهار ما يتضمنه من محمولات أدى الى القول بفكرة القوة والمقاومة والى تعديل مفهوم كل من الحركة والمكان والزمان ، وجعل منها ظاهرة محكمة البناء تخضع لمبدأ العلة الكافية الذى يفسر لماذا هى كذلك وليست خلاف ذلك شأنها شأن غيرها من الحقائق العرضية ولا تخضع لمبدأ عدم التناقض الخاص بالحقائق الضرورية التى نقيضها مستحيل •

وجدير بالملاحظة أن فكرة الجوهر عند ليبنتز ارتبطت بمشكلات لاهوتية تتصل بالحضور الحقيقى وتحول القربان ولا يمكن حلها فى ضوء الفرض الديكارتى : لانه اذا كان الجسم يتكون أساسا فى الامتداد، فمن التناقض أن يستطيع نفس الجسم أن يتواجد فى عدة اماكن فى نفس الوقت • وقد كتب ليبنتز الى أرنولد يقول : « أن ماهية الجسم لا تتكون فى الامتداد ، والجوهر الجسمى اذا أخذ فى ذاته ، فلن يكون امتدادا ، ولا يخضع لشروط الامتداد ، ويتضح ذلك اذا اكتشف المرء مما يتكون الجوهر بالمعنى الدقيق » •

لقد أكد ليبنتز اذن أن وراء الآلية الجسمية مبادىء غير آلية ، وأن الأصح أن تخضع فكرة الجسم لفكرة الجواهر النشطه غير القابلة للقسمة الى الوحدات العنصرية •

هذا ويمكن أن نوجز المبررات التى دفعت ليبنتز الى رفض فكرة الامتداد فيما يلى :

١ ــ الامتداد وتعديلاته المختلفة يشكل ما يسمى بالتحديدات الخارجية التى لا تساعد الشخص الذى يريد استنتاج الموجود نفسه ، ماذا يهم بالنسبة لحالة الجسم الداخلية أن يكون دائريا أو مربعا ؟

٢ ــ كل فلسفة آلية تنتهى حتما الى انكار التغير وتقول بالكل الثابت ، وأن ما يوجد من تغير ليس سوى تعديل للموقع أو زحزحه فى المكان أو حركه • ويتساءل ليبنتز : اليست الحركة نفسها تغيرا ؟ ألا يلزمها أن تحصل على سبب فى الكائن الذى يتحرك أو الذى يحرك ؟ الشكل والحركة والموقع وكل التعديلات الخارجية للجسم لابد وأن تصدر من مبدأ داخلى يشبه ذلك الذى يسميه أرسطو أنتلخيا •

٣ ــ فكرة الجوهر تتطلب ضرورة فكرة الوحدة • المركب لن يكون أبدا جوهرا • وهذا يعنى أن المادة لا تكون جوهرا ، أنها ظاهرة ويوضح ليبنتز فكرته بالمثال الآتى :

لو فرضنا وجود حجرين يفصل بينهما مسافة كبيرة فلن نفرض أنهما يشكلان نفس الجوهر ولو أفترضنا أنهما التحما ببعضهما فلن يغير الوضع الجديد المتجاور من طبيعة الاشياء وسيظلا حجرين وليسا حجرا واحدا • بل على فرض أنهما قد ارتبطا أكثر بحيث يستحيل فصلهما فان يمنع ذلك من أن يميز الذهن أحدهما من الآخر وأنهما سيظلان أثنان • وهكذا أما أن نقبل انه ليس للمادة أية حقيقة جوهرية أو أن نقبل أنها تخضع لعناصر بسيطة غير ممتدة نسميها وحدات عنصرية •

٤ ــ يؤكد ليبنتز أن ماهية الجوهر هى القوة أو النشاط ويمكن اثبات ذلك قبليا : أليس من الواضح أن الموجود لا يوجد حقيقة الا بقدر ما يفعل ؟ الموجود السلبى الخالص عدم ويتضمن تناقضا • لأنه على فرض أنه سيقبل كل شىء من الخارج وأنه لا يملك أى شىء بذاته فلن

يكون له أى تحديد أو أى وصف، ويصبح عدما • أذن الوجود البسيط يفترض قوة معينة ونشاطا معينا • الوحدات العنصرية لا نوافذ لها ولا تقبل أى شيء من الخارج ولا تكون سلبية : كل ما يحدث فيها هو انتشار تلقائي لماهيتها الخاصة •

واذا اتصلت احدى الوحدات العنصرية بأخرى فأن احداهما تصبح فاعلة والأخرى منفعلة ويتحقق بين الجميع انسجام أزلى يتيح لكل وحدة عنصرية أن تمثل أو تغير الكون بأكمله ولن يكون ذلك أيضا الا انتشارا تلقائيا لنشاطها الخاص •

نقطة أخرى يختلف فيها ليبنتز عن ديكارت وتتصل بصلة الروح والجسد فالعلاقة بينهما لم تعد علاقة جوهرين منفصلين كما كانت عند ديكارت وأنما هى علاقة تواصل • ورؤية ليبنتز لهذه العلاقة بين الروح والجسد تعبر عن نظرة ترى أن الجسم نوع من الصورة تعبر ديناميكيا أو طبيعيا عن الروح والجسم بطاقة للروح أو أطلس يعرض مظاهـر الروح الجغرافية والبشرية والطبيعية • واذا كانت الروح فكرة فأن الجسم يصبح الكتاب الذى يعرض الفكرة • ولم يعد الجسم والروح إلى نصفين متكاملين متفقين وأنما أصبحت العلاقة بينهما علاقة توازى وتواصل وهما متوازيان توازى المعنى والعلامة أو الدال والمدلول(١٧) •

خلاصة القول اذن أنه اذا كانت فلسـفة ديكارت قد دعت الى استخدام نور العقل الطبيعى فى مجال العلم والمعرفة ، واذا كان ديكارت قد وضع أول قاعدة فى دستور العقل الانسانى وهى العقل السليم أعدل الاشياء قسمة بين الناس ، ومن خلال ديكارت اكتشف الفكر الغربى ذاته واتجه الى العلم فان ليبنتز قد استطاع أن يحتفظ بما فى فلسفة ديكارت من أفكار جديدة ولكنه لم يتردد فى نقـد نظرياته وبيان ما فيهـا من

---

(١٧) F. chatelat ; Histoire de la philosophie T. Leib niz. 3.

أخطاء ، وهو فى موقفه هذا لم يرفض الفلسفة الديكارتية وانما نظر اليها على انها وجهة نظر معينة تنظر الى المشكلات الفلسفية من زاوية معينة تختلف فى كثير من الأمور عن وجهة نظر ليبنتز والتى حرص على أن يعرضها ويوضحها ويدافع عنها ضد اعتراضات الديكارتيين وفى هذا تأكيد لروح ليبنتز المتميزة وأصالته القائمة على الدعامتين الاساسيتين التى سبق ان أوضحناهما (أ) الحرص على تحقيق التعادل الكلى من خلال من الارتباط الذى دعا اليه والاهتمام بالصياغة الرمزية من جهة (ب) والرغبة فى التعميم التى حاول تطبيقها فى مجال العلم والفلسفة والدين من جهة أرخى والتى جعلت لمذهبه طابعا خاصا ومتميزا ويقوم على مبدأ الانسجام الازلى وما ترتب عليه من نتائج• ولم يعد مجرد تعديل بسيط لفكر ديكارت •

موقف ليبنتز من اسبينوزا

بعد أن أنتهينا من تحديد الجوانب الأساسية التى اختلف فيها لبتنز عن ديكارت والديكارتيين ننتقل الى تحديد الجوانب الاساسية الى اختلف فيها عن أسبينوزا • وسنحاول قبل التعرض لهذه النقطة التمهيد بعرض موجز لفلسفة أسبينوزا ومدى تقاربها أو تباعدها عن فلسفة ديكارت •

باروخ أسبينوزا فيلسوف هولندى يهودى ، ولد فى أمستردام سنة ١٦٣٢ وتوفى فى لاهاى سنة ١٦٧٧ • تعرف على فلسفة ديكارت وأعتبره البعض من الديكارتيين وأعتبره لبتنز منشقا على أستاذه وحاول أن ينقد فلسفته • من أهم أعماله التى نشرت فى حياته :

١ ــ مبادىء الفلسفة لديكارت سنة ١٦٦٣

René Descartes principia philosophiae

٢ ــ رسالة لاهوتية سياسية سنة ١٦٧٠ •

Tractatus Theologico - politicus

أما أعماله التى نشرت بعد وفاته فهى :

١ ــ بحث فى اصلاح الذهن
traite de la reforme de L'entendement

٢ ــ بحث قصير عن الله — le Court traité de Dieu

٣ ــ الاخــلاق — L'Ethique

٤ ــ رسالة سياسية — Tractus Politicus

حاول أسبينوزا أن يوفق بين النزعة العقلية الخالصة والنزعــة الروحية الصافية وأعتمد على المنهج الهندسى الاســتدلالى فى ابحاثه الفلسفية وفى تعريفه لجوهر الله وصفاته وأحواله فى حين تتمثل نزعته الصوفية فى الأخلاق التى أرادها أن تقوم على محبة الانسان لله حبــا يصل الى درجة القداسة من جهة وعلى الحرية من جهة أخرى وجدير بالملاحظة أن أسبينوزا قد رفض فى الظاهر الانتماء الى الجماعة اليهودية وحاول أن يتقرب الى بعض الفرق المسيحية ولهذا لم يكتف بحثه عن الحرية بالمستوى الاخلاقى وحده وانما أمتد أيضا الى المستوى الدينى ليصل الى سعادة الانسان وخلاصة فى هــذه الحياه وفى الحيــاة الأخرى ، وذلك عن طريق حب الله واتصال النفس بقدرة الله اللانهائية . ولكن أسبينوزا لم يقتنع بطريق العقيدة والايمان كما فعلت الديانتين اليهودية والمسيحية وانما آثر طريق المعرفة العقلية وحاول أن يثبت أن النفس الانسانية بطبيعتها حالة من حالات الجوهر الالهى الواحــد ويستند فى ذلك الى بعض الاكتشافات العلمية الحديثة .

وبوجه عام تعتبر فلسفة اسبينوزا انعكاسا للاتجاهات العلميــة والفلسفية والدينية الى جانب تأثرها بالاتجاهــات الدينيــة السريــة (كابال Kabbale) والفلسفة الطبيعية القائلة بوحدة الوجود للعصر الوسيط بل هناك من يعتقد تأثره بابن رشد عن طريق الفلاسفة اليهود أمثال موسى بن ميمون . وترجع أهمية أسبينوزا الى أنه صاغ هــذه المؤثرات ونسجها نسيجا جديدا تميزت به فلسفته .

أسس فلسفته

تقوم فلسفته على قضيتين أساسيتين أولاهما تقرر أنه لا يمكن ان يوجد ولا يمكن أن نتصور غير جوهر واحد هو الله وثانيهما تقرر أن الله هو العلة الباطنة واللازمة لكل شيء •

(القضيتين ١٤ ، ١٨ من الأخلاق)

لقد تمسك أسبينوزا منذ كتاباته الأولى بفكرة الجوهر الواحد وبوحدة الوجود وهي أفكار ذات جذور لاهوتية وما بعد طبيعية وصوفية ، كما أنها ذات اتجاه طبيعي يسعى الى تأليه الطبيعة ومن ثم فهو في مواجهة الثنائية الديكارتية التي تقول بالفكر والامتداد اتجه الى تخليص الطبيعة من كل آثار غير طبيعية أو فوق طبيعية وأن حرص كل منهما على دعم وجهة نظره ببراهين عقلية قوية • وفي حين تصور ديكارت العالم كعالم نهائي قابل للقسمة الى أجزاء عديدة ، تصوره اسبينوزا كعالم واحد لا نهائي • ومن خلال هذه الاسس يمكن أن نتبين جوانب التقارب أو التباعد بينها وبين فلسفة ديكارت ولنبدأ بفكرة الجوهر :

الجوهر عند أسبينوزا هو الموجود في ذاته والذي نتصوره لذاته بمعنى أن تصوره لا يعتمد على أي تصور آخر • والله هو الموجود اللانهائي على الاطلاق وهو جوهر له صفاته لا نهائية ، كل صفة منها تعبر عن ماهيته اللانهائية والازلية في حين يرى ديكارت أن الجوهر ليس في حاجة لموجود آخر غير ذاته ، والله وحده هو الذي يستغني بوجوده عن كل وجود آخر • أما سائر الموجودات الأخرى فأنها مجرد مخلوقات تحتاج الى قدرة الخالق لبقائها[١٨] •

وهكذا يبدو الاختلاف الاساسي بين مفهوم الجوهر لدى كل منهما • فقد أعتقد ديكارت وجود عدة جواهر متناهية في حين لم يسلم أسبينوزا

(١٨) نازلي ص ٦٠ — ٦١ الفلسفة الحديثة .

الا بوجود جوهر واحد لا متناهى ، كما أن ما يسميه ديكارت جوهـر ا كالفكر والامتداد يسميه أسبينوزا صفات أو أحوال ، وذلك لأن من المستحيل فى نظره أن يوجد جوهران ، فالجوهر بمحض تعريفه يجب أن يكون لا متناهى وقد حاول أسبينوزا اثبات أن الامتداد غير قابل للقسمة شأن الجوهر الروحى تماما والخيال وحده هو الذى يتخيل الامتداد متناهيا وقابلا للقسمة • كما قرر أسبينوزا عدم أمكان رد الامتداد الى الفكر أو رد الفكر الى الامتداد الا فى طبيعة الجوهر الواحد • معتمدا على قول القديس توما الاكوينى بالطبيعة الطابعة natura naturae والطبيعة المطبوعة natura naturata واعتبار الله الطبيعة الطابعة •

وبعبارة أخرى فهم كلمة طبيعة بمفهومين مختلفين (طابعة ومطبوعة) واعتبرها مصدر الوحدة التى منها تنبع الكثرة •

٢ ــ فكرة الخلق :

لم يؤمن أسبينوزا بالخلق بمفهومه اللاهوتى وأنما آمن بعملية صدور الأحوال من الصفات والصفات من الجوهر الواحد • وبعبارة أخرى يتجلى الجوهر من خلال الصفات وتتجلى الصفات من خلال الأحوال : والضرورة هى التى تحكم هذا الصدور وهذا التجلى • أنه بهذا يشبه أفلوطين والأفلاطونيين الجدد •

هـذه الضرورة العقلية تتطلب علة فعالة واحدة تصدر بها جميع الموجودات عن الجوهر الواحد • واذا كانت الماهيات (ماهية الانسان مثلا أو ماهية المثلث) تصدر كأحوال للفكر الالهى فان جميع الموجودات التى تشغل حيزا فى المكان هى أحوال للامتداد •

٣ ــ فكرة اللـه :

ان تصور الله فى صورة جوهر يتصف بالفكر والامتداد يعتبر معادلة فلسفية ما بعد طبيعية للتصور المسيحى للتجسيد اذ ليس هناك

ما يمنع ــ من ناحية ما بعد الطبيعة ــ من الاعتقاد بأن الله يتجسد فى العالم • وقد اعتبر أسبينوزا التجسيد بمجرد رمز لحقيقة أكبر وأشمل هى ان الله مجسد فى العالم وأن الامتداد صفة له وبعبارة أوضح فهم أسبينوزا الامتداد بالمعنى التشــبيهى الذى يطابق بين الله والعالم •

٤ ــ الحــرية الالهيــة :

الحرية الالهية مطلقة والقدرة الالهية لا نهائية لا تخضع الا للطبيعة الالهية ذاتها .ويقول : « أن الحرية ليست حرية الاختيار ولكنها تكمن فى الضرورة الحرة » الله يعرف ذاته بذاته وهــذه المعرفة هى الحرية وينتج عنها بالضرورة عدد لا نهائى من الأفكار أو من الأحوال وبذلك تصبح الحرية الالهية دليلا على أن العالم فى الله ، لا الله فى العالم • الله هو العلة الفاعلة والعالم أثر لها ، ويستحيل أن تكون العلة بنفس قدرة المعلول (١٩) •

٥ ــ علاقة النفس بالجســد :

حاول أسبينوزا أن يوضح فى الجزء الثانى من كتاب الأخلاق أن النفوس أحوال للفكر الالهى والأجســام أحوال للامتداد ، وهنــاك توازى بين أحوال الفكر واحوال الامتداد • هــذا التوازى يفسر صله النفس بالجســد • واذا كان ديكارت قد اعتقد أمكان تعريف النفس بدون الجســد فان أسبينوزا يرى أن النفس لا تستقل عن الجســد لأنها فكرته • واذا كان تصور ديكارت لصلة النفس بالجسد خاطئا لأنه لا يفسر كيف تكون النفس مصدرا لحركة الجســد ، فان أسبينوزا ــ مع أنه يرى أنه لا توجد علاقة علية بين النفس والجســد ، أو بين الارادة والحركة ، وان من الممكن أن نؤكد أن النفس لها جانب مستقل عن الجســد هو الذى يتصل بالله ويتحد معه ــ يرى أن هنــاك تأثيرا متعادلا بينهما ، أى أن هنــاك تأثيرا بين أحوال الفكر وأحوال الامتداد

---

(١٩) نظلى اسماعيل « الفلســفة الحديثة » .

ومن ثم هنـــاك توافق جزئى بين أحوالهما فى اطار التوافق الكلى يبرره وحدة الجوهر والطبيعة اللانهائية ، ولتصبح ثنائية النفس والجســد قائمة على أســـاس الاختلاف بين صفتين الهيتين وليس على أســـاس اختلاف بين جوهر وآخر كما اعتقد ديكارت ، كما يصبح من الممكن القول أن النفس تكون فى وحدة مع الجسد وأن هــذه الوحدة لها وجهان : الفكر والامتداد •

أما الحيـــاة التى حاول ديكارت تفسيرها آليا بأن يخضعها لقوانين الحركة فان أسبينوزا يفسرها تفسيرا عقليا بالمظاهر الموازية للفكر : هنـــاك درجات من الحيـــاة تختلف باختلاف تركيب الأجســـام : منها البسيط ومنها المركب ، ومن خلال الفكرة يخضع الجسم للغائية الباطنة التى تبدأ من الله وتنتهى الى الأحوال ، فى حين تخضع العلية الخارجية التى تسبب الحركة الآلية للقوانين العلمية •

٦ ـــ المعرفة طبيعتها ودرجاتها :

اهتم أسبينوزا بمسألة المعرفة باعتبارها الطريق السلطانى الذى يقود الانســـان الى معرفة الله والاتحاد معه • وقد اهتم فى كتـــابه « اصلاح الذهن » بمعرفة الطبيعة فى حين اهتم فى كتاب الأخلاق بالصلة بين نوعين من المعرفة : المعرفة التى تفسر الطبيعة والمعرفة التى تخلص الانســـان واعتبر المعرفة نوعا من الانفعال الذى ينتج من أثر الأشـــياء فى النفس وبدون هـــذا الأثر لا يتم ادراك النفس للأشـــياء ولا تصل ماهيتها ، وفى كتابه « البحث القصير » يذكر ثلاث درجات للمعرفة يمكن أن نجعلها أربع اذا قســـمنا الدرجة الأولى الى درجتين فرعيتين :

(أ) المعرفة الظنية التى تأتى من الآراء التى نسمعها •

(ب) المعرفة التى نكتسبها من التجارب الخاصـــة •

(ﺟ) الاعتقاد القائم على الاستدلالات العقلية •

(د) المعرفة الواضحة المتميزة •

الغاية من المعرفة تحقيق سـعادة الانسان وخلاصه فى هـذه الحيـاة الدنيا والمعرفة فى صورتها الكاملة هى معرفة الله سـبحانه وهى التى تكشف لنا عن حقيقة أمرنا ووجودنا وعن الحب الذى يصل الانسان بالله • فالعلم اذن ليس لذات العلم وانما لخلوص الانسان •

يتفق أسبينوزا مع ديكارت فى ضرورة التمييز بين المعرفة الواضحة القائمة على الذهن والمعرفة التى تأتى عن طريق الخيال والحواس وأن اختلف عنه فى أنه لم يفترض ذلك الشيطان المـاكر • كما يختلف عنه فى انه رغم اعترافه بدور الاستنباط يرى أنه يجب أن يسـتند الى الأشـياء الواقعية • ويرفض كل اسـتدلال عقلى يعتمد على المعانى المجردة والكلية : الاستنباط فى نظره يبدأ من ماهية جزئية تقابلها فكرة واضحة متميزة وقد نسـتدل من المعلول على العلة ، أو من علة على علة أخرى ، أو من كائن على كائن آخر ويؤكد فى كتاب الأخلاق أن المعرفة الحقيقية تثبت وجود الكائن اللانهائى بوصفه علة ومبدأ لجميع الأشياء • ومن فكرة هـذا الكائن نستطيع أن نستنبط جميع الأفكار التى تمثل النظـام الكامل للطبيعة • أما دور التجربة فى هـذه الحقيقة فهو الأشياء التى تبحث عن حقيقتها والذهن وحده هو القادر على معرفة هذه الحقيقة •

موقف ليبنتز من فلسـفة أسبينوزا :

يمكن أن نتناول موقف ليبنتز من أسبينوزا من جانبين أولهما المراحل التى مرت بهـا علاقة ليبنتز بأسبينوزا والتى انتهت بالرفض الصريح لفلسفته وثانيهما الاهتمامات التى شغلت ذهن اسبينوزا والموضوعات التى أثارها باعتباره عالمـا من جهة وفيلسوفا ولاهوتيا من جهة أخرى •

بالنسبة لعلاقة ليبنتز بأسبينوزا نجد أنها مرت بعدة مراحل :

(أ) الفتـرة من ١٦٦٩ الى ١٦٧٥ وهـى فتـرة اقامة ليبنتز فى فرنكفورت •

(ب) رحلة ليبنتز الى لندن وهولندا ولقاءه بأسبينوزا سنة ١٦٧٦ في طريق العودة الى هانوفر .

(جـ) سنة ١٦٧٧ بعد العودة الى هانوفر . وهى بدورها تنقسم الى فترتين :

١ ــ فترة الاطلاع على خطابات أسبينوزا الى شبولر schuller وأولدنبرج ومحاولة شرح أو تفسير ما جاء فيها من آراء والتقريب بينها وبين فلسفته القائمة على مبدأ الانسجام الأزلى .

٢ ــ فترة الاطلاع على أعمال أسبينوزا الفلسفية التى نشرت بعد وفاته والتى أعلن فيها ليبنتز عن موقفه النهائى والصريح من فلسفة أسبينوزا كما جاءت فى كتابه « الأخلاق » بوجه خاص وفى باقى أعماله الفلسفية بوجه عام .

أما أول مرة يذكر فيها ليبنتز اسم أسبينوزا فكان فى خطاب الى أستاذه جاكوب توماسيوس فى ٢٠ ابريل سنة ١٦٦٩ ولم يكن يعرف عن أسبينوزا سوى أنه مؤلف كتاب (مبادىء الفلسفة الديكارت) وقد جاء ذكره ضمن مجموعة من مفسرى الفلسفة الديكارتية ، وبعدها بدأ مراسلة بعض معارفه ممن لهم صلة بأسبينوزا أو بأعماله ليحصل على المعلومات التى توضح نشاطه العلمى والسياسى والدينى[٥] .

وفى سنة ١٦٧١ تسلم رسالة من العالم اللغوى graevius « جرايفوس » يخبره فيها أن أسبينوزا هو مؤلف « الرسالة اللاهوتية السياسية » التى نشرت سنة ١٦٧٠ بدون ذكر مؤلفها والتى أثارت ضجة فى أوساط اللاهوتين سواء فى هولندا أو فرنسا أو ألمانيا وبالتالىساير ليبنتز الاتجاه السائد وهاجم بدوره ما جاء فى هذه الرسالة من آراء تتصل بالكتب المقدسة ومملكة الله الخالدة وكتب الى أستاذه توماسيوس مهنئا له لموقفه من هذا الكتاب قائلا : « لقد أطلعت على

---

(٢٠) georges Freedmann; leibniz et spinoza p. 86.

دحضك الذى كتب فى ليبزج متناولا ذلك الكتاب الذى تعرض بجرأة غير محتملة لحرية التفلسف : ويبدو أن مؤلف الكتاب يتبع ، ليس فقط سياسة ، بل أيضا نظرية هوبز الدينية التى عرضها فى كتابه (الوحش) .

لأن هـذا النقد الذى يمارسه هـذا الجسور ضد الكتاب المقدس قد بذر بذوره هوبز فى فصل كامل من كتابه .

وهكذا ارتبط اسم أسبينوزا باسم هوبز فى ذهن ليبنتز وبعد أن كان ينظر اليه باعتباره ديكارتيا أصبح يهاجمه باعتباره من أتباع هوبز المـاديين والملحدين .

نفس الموقف نجده فى رده على خطاب جرايفوس حيث يكرر اتهامه باتباع ما جاء فى كتاب هوبز .

وفى يناير سـنة ١٦٧٢ كتب ليبنتز الى أرنولد خطابا يعرض فيه أعماله وأفكاره ويتناول الرسـالة اللاهوتية والسياسية ويذكر أسبينوزا ضـمن الرافضين الخضوع للسـلطة والراغبين فى التفلسف وقبول ما يدركونه بوضوح وتميز ، أنهم يكرهون كل تسلط يفرض على الأذهان ويرون أن القدماء والمدرسيين اعتمـدوا على البلاغة ليجعلوا أسرار الايمان أكثر قبولا لدى الجماهير ، أما المحدثون فمسئولون عن هـذه الفلسفة الباطلة غير المفهومة التى تحتمى فى جزء كبير منها وراء سر القربان والدفاع عنه . هـذا ما عرضه وهلل له كل من اتباع بيكون وهوبز ومؤلف هـذا الكتاب الفظيع الذى نشر حديثا عن حرية التفلسف : ولا تندهش اذ نجدهم يقبلون بحماس كبير فلسفة ديكارت لا لأنها تبدو لهم صـحيحة وانما لأنها تبـدو فى نظرهم غير متفقة مع الكنيسـة الكاثوليكية الرومانية [٢١] .

اعتبر ليبنتز اذن « الرسـالة اللاهوتية السياسية » خطرا على

---

(٢١) نفس المرجع السابق ص ٩٨ ، ١٠٥ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٤ .

العقيدة المسيحية ولابد من تصدى العلماء المتخصصين فى اللغات الشرقية لدحضه وحماية المسيحيين مما جاء فيه من سموم تهدد الدين ؛ ولكننا نلاحظ أن ليبنتز رغم موقفه هذا العدائى من فكر أسبينوزا وما أثاره من خطر يهدد الدين المسيحى قد حرص على أن يفصل بين الرجل وكتابه • واذا كان الكتاب جدير بالدحض والرفض فان صاحبه يتميز بصفات جديرة بالاحترام والتقدير ، فهو عالم بصريات وصانع نظارات مشهور وطبيب • لهذا لم يتردد ليبنتز فى أن يكتب الى أسبينوزا فى أكتوبر سنة ١٦٧١ وبعبارة أوضح احترم ليبنتز وقدر أسبينوزا العالم والطبيب • وحرص على الاتصال به والاطلاع على أعماله ولكنه عارض وهاجم أسبينوزا السياسى واللاهوتى والملحد الذى زعزع الثقة فى العقيدة باسم حرية التفلسف واذا كان أسبينوزا قد أراد أن يدعو البشر لطاعة المبادىء الأخلاقية الأساسية اذ هى وحدها الكفيلة بتحقيق الخلاص • أن ليبنتز فى معارضته لاسبينوزا يدافع عن الدين المسيحى ويؤكد أن هذه المبادىء الأخلاقية أو الاجتماعية لن تكون كافية بدون المسيحية ، واذا كانت نقطة الارتكاز الأساسية عند أسبينوزا هى العقل فانها عند ليبنتز المسيحية التى ستوحد المبادىء الاجتماعية والأخلاقية والسياسية •

وعندما وصل ليبنتز الى باريس فى مارس سنة ١٦٧٢ بدأ الاهتمام بالرياضيات وباكتشافه حساب اللامتناهيات وحرص على الاتصال بكل من له اهتمام بهذا المجال ومن الطبيعى أن يكون أسبينوزا أحد الشخصيات التى سعى الى الاتصال بها خاصة وأنه قد اشيع فى هذه الفترة أن له بحثا عن الله والنفس والانفعالات استخدم فيه المنهج الاستدلالى •

وبالاجمال يمكن القول أن معرفة ليبنتز بفلسفة اسبينوزا خلال هذه الفترة لم تكن كافية ولم تساعده على التعرف الحقيقى لفكره خاصة وأن مصادره لا تتعدى ما أثير حول الرسالة اللاهوتية السياسية ؛

ومن ثم لم تسمح له بأن يتأمل فلسفة أسبينوزا بذهن متحرر ؛ مع أنه حرص على أن يميز بين اهتمامين أساسين من اهتمامات أسبينوزا أولهما الاهتمام العلمى الخاص بالبصريات والطب وصناعة النظارات ــ وهو موضع تقدير وأعجاب فى نظر ليبنتز ــ وثانيهما الاهتمام بالدعوة الى حرية التفلسف وتخليصها من سـلطة اللاهوتين وما أثارته من قضايا فلسفية ولاهوتية حاول أن يدحضها وأن يعارضها دفاعا عن المسيحية •

المرحلة الثانية التى تتمثل فى رحلة ليبنتز سـنة ١٦٧٦ الى لندن حيث قضى فيها أسـبوعا تقابل فيه مع كل من نيوتن وبويل ثم سـفره الى هولندا حيث قضى شهران وتمكن من لقاء أسبينوزا ونجده يسجل ما دار خلال هــذه الزيارة من نقاش حول موضوعات تتصل بالعلم وبالفلسفة من جهة وما أثارته الرسـالة اللاهوتية السياسية من قضايا ومشكلات من جهة أخرى فى خطاب الى الأب جالويوز l' Abbé Galloys جاء فيه : « لم يتبين أسبينوزا عيوب قواعد الحركة التى ذكرها ديكارت وأندهش عندما شرعت فى اظهار أنها تتعارض مع مسـاواة السبب والمسبب » أما عن المناقشة التى دارت بينهما حول الدليل الأنطولوجى على وجود الله فيقول : « لقد أظهرت لأسبينوزا عندما كنت فى لاهاى هذا الدليل الذى يرى أنه متين ونظرا لأنه كان قد عارضه فى البداية شرعت فى الكتابة وقرأت له هــذه الورقة » •

ونظرا لقصر المـدة التى قضاها فى هولندا لم يتمكن من الاطلاع الكافى على فلسفة أسبينوزا ولكنه تمكن من الحصـول على نصوص رسائل أسبينوزا الى كل من شولر Schuller واولدنبرج التى ساعدت على توضيح الرؤية نسـبيا ولكنها أيضا لم تكن كافية ليكون فكرة كاملة عن فلسفته وقد دفعته هــذه الرسائل المتبادلة بين أسبينوزا واولدنبرج الى محاولة تفسير آراءه الخاصـة بفكرة الله وصلته بالخلق تفسيرا يتمشى مع نظريته فى الانسـجام الأزلى وتتفق مع عقيدته المسيحية التى يدافع عنها بحماس • وقد وجد نفسه مضطرا الى المعارضة الصريحة

لبعض الأمور التى تتصل بالعقيدة بوجه عام وبمشكلة تجسد المسيح بوجه خاص ورفض ما ذهب اليه أسبينوزا من وحدة الله والطبيعة من جهة ووحدة الروح بالجسد من جهة أخرى • كما رفض تفسير أسبينوزا للمعجزة الذى يقول بصددها فى خطاب الى « أولدنبرج » : المعجزات والجهل أمران متساويان ، لأن أولئك الذين يلتزمون باثبات وجود الله وتدعيم الدين بناء على المعجزات يريدون اثبات الغامض بما هو أكثر غموضا » •

أما ليبنتز فيدافع عن المعجزات ويعتبرها دعامة أساسية للدين المسيحى ويرى أن المعجزة تظهر سياقا فريدا للأسباب التى قد رتبت من قبل • أنها لا تفوق طبيعة الأشياء بوجه عام وانما هو تفوق طبيعة الأجسام الحسية •

وجدير بالملاحظة أن تفسيرات ليبنتز وتعليقاته على رسائل أسبينوزا الى « أولدنبرج » قد انتهت باظهار التقابل الواضح بين اتجاهين مختلفين وتحديد موقف ليبنتز الأساسى الذى يمثل فى القول بمذهب تفاؤلى فى الأخلاق والدين ، وغائية فى الكون تعتمد على مبدأ الانسجام الأزلى كما يتمثل فى أن تأييده لبعض الآراء التى قال بها أسبينوزا ومعارضته لآراء أخرى انما كان تمشيا مع مذهبه وفلسفته الخاصة التى كان قد انتهى من تشكيلها وصياغتها قبل أن يتم لقاءه مع أسبينوزا •

أما المرحلة الأخيرة من علاقة ليبنتز بأسبينوزا والتى تتمثل فى اطلاعه على أعماله التى نشرت بعد وفاته فقد كانت أكثر تعمقا وأكثر صراحة ؛ واذا كانت القراءة الأولى لكتاب الأخلاق دفعت ليبنتز الى الكتابة الى جوستل Justel فى ٤ فبراير سنة ١٦٧٨ قائلا : « أخيرا انشرت أعمال المرحوم أبنوزا وأهمها كتاب الأخلاق الذى يتألف من خمس أبحاث ••• لقد وجدت فيه عددا من الأفكار الجميلة والتى ـ

كما يعرف أصدقائى وأصدقائه ــ تتفق مع أفكارى » فان القراءة الناضجة للكتاب قد صدمت ليبنتز بما فيه من تناقضات واستدلالات خاطئة وكتب الى «جوستل» محددا الأمور التى لا تعجبه من فلسفة أسبينوزا وخاصة•

١ ــ فكرة الجوهر الوحيد •

٢ ــ وأنه هو الله •

٣ ــ والقول بأن المخلوقات أحوال وآثار لله •

٤ ــ وان الله لا يعمل وفق غاية •

٥ ــ كل شىء خاضع لضرورة حتمية •••• الخ •

لقد بدأت الهوة تتسع بينهما اذن وأصبح من الضرورى أن يقوم بدحض ما جاء فى كتـــاب الأخلاق ، فالأمر هنا لا يحتاج الى علمـــاء متخصصين أو اللغات الشرقية كما كان الشأن فى الرســـالة اللاهوتية والسياسية وقد نقد القضايا العشرين الأولى من الجزء الأول مهتما بما فيها من تعريفات وبديهيات واستدلالات : يصحح البعض ويوضح ما فيها من غموض (التعريفات ٢ ، ٣ ، ٤ والقضايا : ٥ ، ٨) أو يبين عـــدم جدواها (البديهيات ٢ ، ٧) أو يثبتها (التعريفان ٧ ، ٨) ويضيف اليها الملاحظات والاستدلالات المساعدة (القضايا : ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) •

وباختصار تناول الكتاب من الناحية المنطقية الصورية دون أن يهمل ما فيه من أفكار حاول أسبينوزا أظهارها وأثباتها من خلال هـــذه الاستدلالات الصورية التى استخدمها • ومن ثم تناول فكرة الجوهر مثلا وأوضح مدى تعارضها مع نظريته التى تقول بالجواهر الروحيـــة المتعددة والتى خلقها الله مستقلة بعضها عن بعض ولكنها غير مستقلة عن خالقها ومنظمها وفق أنسجام آزلى • ويعارض مفهوم أسبينوزا عن الممكن مؤكدا طرق الاختيار من بين الممكنات واختيار أحسن عالم ممكن يحقق الانسجام الأزلى الكلى •

وفى الجزء الثـــانى من نقده للكتاب الذى ركز على القضـــايا : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ حرص على نقد الطريقة التى استخدمها أسبينوزا لاثبات هـــذه القضايا كما حرص على مناقشة مشكلتى الضرورة الكلية والعرضى ، موضحا ضعف استدلالات أسبينوزا

هـــذه اذن صورة أسبينوزا فى نظر ليبنتز وهى صورة مزدوجة فى جانب منها نرى ذلك اليهودى ، عدو الدين والأخلاق ونظام الدولة والرجل المتمرد على الايمان والقانون ، والذى تجرأ على كل الحرمات الدينية والاجتماعية . وبالتالى نسب اليه ليبنتز — كما فعل معاصريه — كل النقائص التى تنسب الى الملحد أو المتحرر فكريا ٠

وفى الجانب الآخر نرى ذلك العالم والطبيب الجدير بالثناء والتقدير التى تجعل منه صاحب دعوة الى الحرية الفكرية من جهة وصاحب فلسفة صـــوفية من جهـــة أخرى وهى الصـــورة التى ظلت غير معروفة بل ومجهولة تمـــاما ٠

لقد لعن ليبنتز ومعاصريه اسبينوزا دون أن يفهموه بل ودون أن يقرأوه ٠ وقد اســـتخدم ليبنتز نفس الأســـلحة التى استخدمها معاصروه وحكم على أسبينوزا بالالحاد ولكنه رغم كل هـــذا لم ينس ما امتاز به اسبينوزا العالم من عبقرية وبصيرة وسعى الى اللقاء والتعرف على فكره وفلسفته وقد استطاع ليبنتز فعلا أن يفصل بين الرجل وما ترك من أعمال تحتاج الى دحض أو رفض وليس هذا بعجيب بالنسبة لليبنتز الذى حرص دائمـــا على احترام وجهات نظر الآخرين والذى كان لا يميل الى احتقار أى رأى أيا كان والذى كان يتردد باستمرار أننا وحدات عنصرية مستقلة كل واحدة منها مرآة للعالم وأننا نعيش دائمـــا فى انسجام أزلى أراده الله خالق هذا الكون ومنظمه ٠

واذا كانت مشاعر ليبنتز ومواقفه من آراء أسبينوزا قد تمشت مع المناخ الفكرى السائد وما سيطر عليـــه من ردود فعل ذهنية وأخلاقية

فاندفع يهاجمه دفاعا عن المسيحية وغائية العالم وما يسوده من انسجام أزلى • فان اطلاعه على أعماله قد جعله ينظر اليه فى بداية الأمر على أنه ديكارتيا ثم عاد فنظر اليه على أنه من أتباع هوبز وخاصة بعد أن اطلع على الرسالة اللاهوتية السياسية وانتهى أخيرا الى اعتباره نمطا فريدا جديرا بالاهتمام لا لأنه انفصل عن ديكارت وانما لأنه استطاع أن يعلن صراحة ما أراد أن يقوله ديكارت فى سرية ؛ وليبنتز فى موقفه الأخير أراد أن يضرب عصفورين بحجر واحد ، فهو أراد أن يزعزع الثقة فى منافسة (ديكارت وأسبينوزا) بأن ربط بينهما وجعل من اسبينوزا امتدادا للديكارتية قائلا : « ان ديكارت يفكر بصوت خافت فى كل ما يقوله أسبينوزا بصوت مرتفع ، لم يعد الأمر اذن أمر توضيح ما يفصل أسبينوزا عن ديكارت ، وانما على العكس أن نذكر ما يوحد بينهما »[٧] •

وهو ثانيا يدعم مركزه وسمعته ضد كل التيارات التقليدية الكاثوليكية منها والبروتستنطية التى تترصد له • ولم يعد فعلا ابتداء من سنة ١٦٧٩ يشير الى أسبينوزا الا بالقدر الذى يساعده فى نقد ديكارت من جهة أو تدعيم مذهبه من جهة أخرى • خاصة فى كتابه عن الألوهية « التيوديس » theodicée الذى دافع فيه عن الحتمية الأخلاقية ضد الضرورة العمياء الأسبينوزية •

خلاصة القول اذن أن تحديد موقف ليبنتز من أسبينوزا قد أوضح جوانب فلسفة كل منهما وأظهر ما بينهما من اختلاف أساسى يمكن أن نوجزه فى الأمور الآتية :

١ ــ أعلن أسبينوزا أنه لا يدعى أنه اكتشف أحسن فلسفة وانما يعرف أن لديه معرفة بالحقيقى ــ خطاب أسبينوزا الى بورج Burgh بينما يعلن ليبنتز منذ محاولاته الأولى ويكرر ذلك فى كثير من المناسبات أنه يسعى الى تأسيس فلسفة تكون الأحسن •

---

(٧) نفس المرجع ص ٢٧٦ ، ٢٨١

وبعبارة أخرى حرص أسبينوزا على أن يكون موضوعيا وبعيدا عن أى فكر ذاتى ويقدم الحقيقى على الأحسن ، فى حين ظل ليبنتز ذاتيا هدفه الأساسى أن يزود البشرية بمذهب يخدم الخير العام ويطابق بين الأحسن والحقيقى[8] •

٢ ــ تقوم فلسفة ليبنتز على حتمية اخلاقية بناء على اختيار أحسن عالم ممكن وتسلسل العلة والمعلول : بينما تعتمد فلسفة أسبينوزا على حتمية عقلية تفصل بين الفعل والجزاء وتفتح الطريق أمام العقل الأخلاقى الحر •

٣ ــ حرص أسبينوزا منذ الرسالة اللاهوتية السياسية أن يحمى الفلسفة وحرية الفكر من سيطرة اللاهوت وأن يميز بين مجال العقل الأخلاقى الذى يخص الحكماء وسلوك الجمهور وضرورة طاعتهم للقانون الأخلاقى ــ « على الجمهور أن يطيع وأن يعتقد أما الحكماء فمن واجبهم وحدهم أن يفهموا » •

٤ ــ يفكر أسبينوزا فحسب فى حين يفكر ليبنتز من أجل الانسان ، ويدور مذهب ليبنتز حول الانسان ومن أجله ، فى حين يدور مذهب أسبينوزا حول اللانهائى ويسعى الى أبعاد التفكير الانسانى من الانسان ويجعل الانسان جزءا من كل لا نهائى •

٥ ــ مذهب أسبينوزا أقل انتشارا ويصعب تقبل الجمهور له لأنه لا يمده الا بالقليل مما يحتاج اليه لراحته وسلوانه ولأنه يعتمد على حدس ذهنى للكل ويغلب عليه التصوف الروحى ، فى حين انتشر مذهب ليبنتز لما فيه من بريق واهتمام بالعلم الحديث ودعوة تفاؤلية فى مجالى الدين والأخلاق •

وبالاجمال يمكن القول اذن أن القرن السابع عشر شاهد حوارا بل

---

(٨) نفس المرجع ص ٣٠٧

صراعا فكريا خصيب بين ثلاثة من رواد الفكر العقلانى الحديث وقـد حاولت من خلال تحديد موقف أسبينوزا من ديكارت وموقف ليبنتز من كل من ديكارت وأسبينوزا أن أوضح أهم الموضوعات التى كانت مثار نقاش واختلاف بينهم وخاصـة بالنسبة لمفهوم :

١ ــ الجـوهر ٠

٢ ــ الله وصـفاته ٠

٣ ــ المعرفة طبيعتها ودرجاتها ٠

٤ ــ النفس وصلتها بالجسد ٠

٥ ــ صلة الفلسفة باللاهوت ٠

وهى موضوعات نظر اليها كل واحد منهم من وجهة نظر خاصـة وان كانت كلها عقلانية وجهة نظر واحديه يعرضها أسبينوزا من خلال مفهوم الطبيعة الطابعة والمطبوعة لله الجوهر الوحيد وما ترتب عليها من نتائج فلسفية وأخلاقية ودينية ٠ ووجهه نظر ثنائية يقول بها ديكارت ويعتبر الفكر والامتداد جوهرين وما ترتب على هـذه الثنائية من نتائج فلسفية تميزت بهـا الديكارتية بوجه عام ٠ وأخيرا وجهة نظر ليبنتز التعددية التى تعترف بعدد لا نهائى من الوحدات العنصرية يسودها الانسـجام الأزلى وتحقق للانسان خلاصه وللمسيحية الاسـتقرار والانتشـار ٠

وعلينا الآن أن ننتقل من التيار العقلانى بجوانبه الثلاثة التى تحدثنا عنها الى التيار التجريبى الذى يتزعمه جون لوك فى إنجلترا لنرى موقف ليبنتز من الفكر الانجليزى التجريبى بوجه عام .٠ ومن فلسـفة جون لوك بوجه خاص ومن نظريته فى المعرفة بوجه أخص خاصـة وأن ليبنتز خصص كتابا بأكمله للرد على نظرية جون لوك وهو « أبحاث جديدة فى الفهم الانسانى » وحرصنا على ترجمة الفصل الرابع منه الخاص بنظرية المعرفة.٠

موقف ليبنتز من فلسفة جون لوك :

يعتبر جون لوك أول من اهتم بالبحث عن أصول المعرفة فى الذهن الانسانى وأول من نقد بشجاعة الأفكار الفطرية التى قال بها ديكارت على أساس من التحليل النفسى الدقيق وأعلن أنه لا مبادىء فطرية فى العقل • وقد بحث فى طبيعة ومصدر الأفكار مبينا أن مصدرها التجربة متمشيا فى ذلك مع الاتجاه الانجليزى التقليدى ومتفقا مع الاسميين الذين رأوا فى التصورات وفى المعانى المجردة مجرد بناء عقلى داخلى : أن الأفكار كما يفهمها الجميع ولكى يفهمها الجميع يجب أن يكون مصدرها التجربة والاحساس ، واذا كانت اللغة بألفاظها مجرد اشارات الى المعانى فلابد وأن نتفق جميعا على دلالة هـذه المعانى •

ويعتبر كتاب لوك « مبحث فى الفهم الانسانى » سنة ١٦٩٠ عملا فلسفيا خالدا يقول فى مقدمته أنه عكف على تأليفه أثر مناقشة بينه وبين بعض الأصدقاء حول مشكلات تتصل بالدين والأخلاق ، ورأى أن من الخير لنا أن نشرع فى تحديد طبيعة تصوراتنا وفى تحليل أصول مفاهيمنا قبل أن يناقش بعضنا البعض الآخر فى مشكلات تتصل بصميم حياتنا ويشمل الكتاب أربعة أبواب : الباب الأول ينقد نظرية الأفكار والمبادىء الفطرية • الباب الثانى يعرض الأصول التى تنبع منها أفكارنا ويحلل التجربة الحسية ليرد الأفكار المركبة الى أبسط عناصرها • الباب الثالث يبحث صلة الفكر باللغة وتأثير الألفاظ فى التفكير وينقد الفلسفة المدرسية فى ضوء علاقة اللغة بالفكر ويوضح أنها فى نهاية الأمر فلسفة ألفاظ وليست فلسفة معانى • الباب الرابع يحدد الاطار العام للمعرفة ويعرض نظريته فى المعرفة •

تهدف الفلسفة عند لوك الكشف بطريقة منهجية عن أصول المعرفة وتبديد الأباطيل التى تعترض الطريق الى المعرفة السليمة ويركز نقده على نزعتين هامتين أولاهما الميل الى الاعتقاد بأن المعرفة تعتمد على مبادىء فطرية سابقة على التجربة والثانية اعتبار القياس المنهج الصحيح للمعرفة ويلاحظ أن اصرار المفكرين مع رد كل حجة الى القياس

قد أساء الى العلم • ولن يتقدم العلم الا اذا استخدم الاستقراء واعتمد على الملاحظة والتجربة •

المعرفة عند لوك نوعان : معرفة يقينية ومعرفة احتمالية ، والمعرفة الاحتمالية تشمل الجانب الأكبر من معرفتنا ، والمعرفة اليقينية من الضيق بحيث لا نستطيع الاعتماد عليها وحدها فى حياتنا ويطرح سؤالين :

كيف نميز بين الاحتمال واليقين ؟

كيف نقيس درجة الاحتمال فى قضية من القضايا ؟

يعتمد اليقين على اتفاق أو اختلاف فكرتين بتدخل دليل أو أكثر بينهما رابطة ثابتة واضحة ، أما الاحتمال فيعتمد على مظهر الاتفاق والاختلاف بتدخل أدلة لا تكون الرابطة بينهما مطردة ثابتة ولكنها كافية ليمضى الذهن الى الحكم على القضية بالصدق أو البطلان • وبعبارة أخرى يعتمد اليقين على حدس يدرك الرابطة الضرورية أما الاحتمال فيفترض الرابطة ليس لأنهـا ضرورية وانما لأن ثمة سبب خارجى يعزز الرابطة •

وبالنسبة لقياس درجة الاحتمال يقترح لوك معيارين أولهما الاتفاق بين ما توحى به القضية وسائر ما فى التجربة ، وثانيهما البينة التى تعزز القضية وتشمل ستة نقط :

١ — عـدد الشهود المؤيدين •
٢ — سـلامة هؤلاء الشهود •
٣ — مهارتهـم •
٤ — خطـة المؤلف اذا صيغت البينة فى كتاب •
٥ — إتسـاق الأجزاء والملابسات فى العلاقة •
٦ — الشهادات المعارضة •

أعلى درجات الاحتمال تكون حين يتفق الاعتقاد مع شـهادة جميع

الناس فى جميع العصور أما المعرفة اليقينية فتعتمد على الربط بين الأفكار من خلال العلاقات الأربعة الآتيــة :

١ ــ الهويــة •

٢ ــ الاضــافة •

٣ ــ الارتباط الضرورى •

٤ ــ الوجود الحقيقى •

يقصد لوك بالهوية أن تكون الفكرة على ما هى عليــه ، والفكرة الواحدة ليست هى الفكرة الأخرى • ويقصد بالاضافة ربط الأفكار بعلاقات مجردة عديدة ، ويقصد بالارتباط الضرورى ذلك الذى يتمثل فى الظواهر الطبيعية والتى تستهدف اكتشاف القوانين ، أى الارتباط العلى بين الأشــياء ، ويقصد بالوجود الحقيقى ما تظهره كل قضــية تؤكد وجود جوهر أو تنفى وجوده مستقلا عن أدراكنا • هــذه المعرفة اليقينية تعتمد على أساسين هما الحدس والبرهان : بالحدس ندرك العلاقة ادراكا فوريا كما تدرك العين الضوء ، وهى قوة قائمة فى الذهن تجعلنا نعرف الحقيقة بيقين مطلق ، أما البرهان فيزودنا أيضا بيقين مطلق ولكنه يختلف عن الحدس فى أنه يشمل عنصر الذاكرة وبالتالى فهو عملية مركبة فيهــا جهد ومشقة وانتباه • الذاكرة تكفل للذهن القدرة على استرجاع الخطوات التى تمكنه من الوصــول الى النتيجة المطلوبة • وقد تخطىء الذاكرة ولهذا لا يجب أن نعتمد على البرهان اعتمادنا على الحدس[٩] •

الحدس عند لوك يختلف عنه عند ديكارت ، أن موضوعه عند لوك ليس موضوعا عقليا خالصا ــ كما عند ديكارت ــ وانما هو علاقة بين بعض معطيات الاحساس والادراك المنعكس ، أى بين أفكار مركبــة

(٩) د • فتحى الشنيطى : جون لوك ص ١١٨ ، ١٢٦

مستمدة أصلا من هـذه المعطيات وباختصار معرفتنا محدودة بالتجربة وحينما لا يكون لدينا أفكار لن يكون لدينا معرفة ٠

الى جانب الاهتمام بالمعرفة ومحاولة تحديد مصدرها وطبيعتها وحدودها اهتم لوك بفكرة الخطأ سواء ذلك الناتج عن سوء استخدام اللغـة أو غيره من أنواع الخطأ التى يذكر منها :

١ ــ أخذ ما هو غير محتمل على أنه محتمل ، اذ ما دام هناك درجات للاحتمال فقد نتعجل باعتبار قضية ما فى درجة من الاحتمال أعلى مما هى عليه فى الواقع ٠ ويرجع هذا الى القصور فى التفكير وعـدم التروى أو الحماس أو الاندفاع أو الكسل أو الغباء ٠

٢ ــ قد يميل المرء بالحكم المسبق والعاطفة الى ترجيح كفة دليل لأنه يأتى على هواه ويترك دليلا آخر أصح ٠

٣ ــ قصور الذاكرة والبرهان لاعتماده على الذاكرة لا يملك القياس التام للقيم الذى يملكه الحدس وأن كنا نستطيع أن نستخدم المنهج الرياضى الذى يحررنا من الاعتماد على الذاكرة ٠

٤ ــ خلط الماهية الاسمية بالماهية العقلية فقد نظن أن موضوع تفكيرنا شىء من أشياء العالم المادى بينما لا يعدو أن يكون مجرد فكرة ٠

٥ ــ قد تضللنا الحواس فى كثير من الأحيان فنقع فى الخطأ اذا افترضنا أن الواقع هو ما يظهر لنا ٠

أما الأخطاء التى تترتب على استخدام اللغة أو التى نقع فيها نتيجة الاهمال فيمكن اجمالها فيما يلى :

١ ــ قد نستخدم كلمات لا تكون لدينا أفكار مطابقة لها فتكون مجرد ترديد أصـوات ٠

٢ ــ قد نستخدم الكلمات فى غير ثبات ونعبر بكلمة واحدة عن مجموعة من الأفكار البسيطة ٠

٣ ــ قد نؤثر الغموض لنخلع على كلماتنا روعة وفخامة ونخفى ما فى خواطرنا من خلط ولبس •

٤ ــ قد نجعل الكلمات تقوم مقام الأشياء التى لا نستطيع الدلالة عليها وقد نأخذ الكلمات على أنها الأشياء ، أى قد نفترض أنه حيثما توجد كلمة فلابد وأن يوجد شىء مطابق لها •

٥ ــ قد نستخدم كلمات واضحة المعنى فى نظرنا وقد تكون غير واضحة للآخرين •

٦ ــ الاكثار من الاستعارة والكناية والتشبيه •

ويقترح لوك لتفادى هذه العيوب الوسائل الآتية :

١ ــ الاحتياط : عندما نستخدم كلمة لابد أن نكون على بينة من الفكرة التى تدل عليهــا •

٢ ــ معرفة الفكرة بوضوح وتميز واذا كانت تدل على فكرة مركبة يجب أن تكون الفــكرة متحددة بحيث نعرف الأفكار البســيطة التى نجمت عنهــا •

٣ ــ ينبغى استخدام الكلمات فى اتساق مع الاستعمال المألوف واذا انحرفنا عن الاســتعمال المألوف ينبغى أن نوضــح بأية طريقة نفعل ذلك •

٤ ــ يجب بقدر الامكان استخدام الكلمة ذاتها فى نفس المعنى باطراد ولكننا لسوء الحظ نضطر فى كثير من الأحيان الى استخدام نفس الكلمة فى معانى مختلفة عن بعضها اختلافا طفيفا •

جدير بالملاحظة أن التعريف عند لوك تعريف للكلمات : أن نعرف هو أن تظهر معنى كلمة بكلمات أخرى ليست مترادفة ، أن نعرف هو أن نعلن المعنى ، أن اظهار معنى كلمة أو أعلان مغزاها لا يعدو أن يكون مجرد تقرير الفكرة التى تعنيها الكلمة • وفى هــذا الصدد يقول لوك :

« لما كان معنى الكلمات لا يعدو لأفكار التى تمثلها هذه الكلمات عند من يستخدمها ، فان معنى أى لفظ يظهر ، وكلمة تعرف ، حين تمثل الفكرة التى ترمزاليها هذه الكلمة فى ذهن المتكلم لشخص آخر وبذلك يتأكد مغزاها . تلك هى الفائدة الوحيدة والغاية من التعريفات »[10] .

بهذا يصبح التعريف عند لوك غير مترادف مع الماهية الحقيقية ويصبح التعريف بالجنس والفصل لونا واحدا من ألوان التعريف ، وليس هو اللون الوحيد .

هذه المواقف التى حددها لوك من خلال تحديده للمعرفة هى التى دفعت ليبنتز الى الاهتمام أولا بدارسة هذه النظرية ثم تأليف كتابه « أبحاث جديدة فى الفهم الانسانى » ليرد فيه بتفصيل على هذه المواقف وليحدد موقفه الخاص . وبهذا حقق خطوة أساسية فى تطوير الفكر الألمانى الحديث ونقل اليه فلسفة التنوير الانجليزية التى كان لوك رائدها ويعلن ليبنتز فى بحثه عن الحكمة « لا شىء يمكن أن يدخل الغبطة الى نفوسنا الا بتنوير الذهن وخضوع الارادة له . وأن نبحث عن هذا النور فى معرفة الأشياء التى تسمو بالذهن الى أعلى » واذا كان لوك وهيوم وغيرهما من فلاسفة الانجليز قد هاجموا ما بعد الطبيعة باعتبارها فكرا خالصا : فان ليبنتز قد دافع عن ما بعد الطبيعة . واذا كان لوك قد أراد أن تكون الفلسفة دراسة تجريبية للذهن الانسانى فان ليبنتز أراد اصلاح ما بعد الطبيعة التقليدية أو نقدها وبنائها على أسس العلم الحديث ومن أجل هذا ألف كتابه الأبحاث الجديدة فى الفهم الانسانى . « سنة ١٧٠٣ ليلقى الضوء على الكثير من المسائل الفلسفية التى أثارها لوك وخاصة السؤال الهام : هل النفس صفحة بيضاء وكل ما سطر بها مصدره الحواس والتجربة أم أن فيها أفكارا ومبادىء فطرية ؟

---

(١٠) بياجيه الترجمة الفرنسية .

اعتقد ليبنتز أن الحواس لا تعطينا الحقيقة العـامة التى نتصف بالضرورة الكلية وانما تعطينا أمثلة من الحقائق الجزئية والفردية أننا نكتشف فى ذاتنا الحقائق الضرورية كلما توفرت لنا مناسبة لذلك بواسطة معطيات الحواس وبالتالى يكون نجاح التجارب تأكيدا للعقل وبعبارة أوضح لم ينكر ليبنتز قيمة الحواس لأنها هى التى تقدم للعقل المناسبة التى تظهر فيها الحقيقة •

وفى سـنة ١٦٩٦ كتب ليبنتز ملاحظات أرسلها الى لوك ليطلع عليها ويرفقها ضمن الترجمة الفرنسـية لكتابه الذى كان يعد للنشر فى ذلك الحين فى أمستردام ، وقد وجدت بعد ذلك ضمن أوراق لوك ونشرت ضمن رسائله بعد وفاته فى لندن سنة ١٧٠٨ ونجدها فى المقتطفات التى نشرها Maiseaux فى أمستردام سـنة ١٧٤٠ ج ٢ وفى مقـدمة المقتطفات نجد خطابا من لوك الى Maulineux . يعبر فيه عن تألمه مما جاء فى هذه الملاحظات من نقد وقد سجل ليبنتز هـذه الملاحظات بعنوان Reflexion sur l'entendement humain.

ونوجزها فيما يلى :

يستهل نقده للكتاب بتأكيد أنه وجد فيه من العمق غير العادى مـا جعله غـير نـادم على الوقت الـذى خصصـه لقـراءاته ، خاصـة وأن موضوعه يتصل بأسس معارفنا وهو من الموضوعات التى كانت تشغل ذهنه والتى كان له فيها عدة تأملات ثم ينتقل الى مناقشة الأبواب الأربعة التى يشملها الكتاب :

فى الباب الأول الخاص برفض المبادىء والأفكار الفطرية يرى ليبنتز أن لوك لديه العديد من المبررات التى تدعوه الى رفضها ومن أهم هـذه المبررات :

١ ـــ أن الفلاسفة العاديين قد صاغوا المبادىء حسب هواهم •

٢ ـــ أن الديكارتيين ، رغم أنهم أكثر دقة ، قد أساءوا استخدام

كامتى أفكار ومبادىء بحجة ان الذين يتأملون الأفكار سيجدون فيهـا نفس الشيء الذى وجدوه وأن من يمارس طريقتهم فى التفكير سيصل الى نفس الأحكام التى وصلوا اليها ويقترح ليبنتز أن يفعل الفلاسفة ما فعله أقليدس وأن يكتفوا بعـدد قليل من البديهيات يعتمدون عليهـا فى استدلالاتهم وأن يتركوا للآخرين مهمة اثبات هـذه البديهيات ، أى أن يصلوا الى بعض الوقائع المثبتة ويشير الى ما سبق أن ذكره من ايضاحات تتصل بالأفكار فى بحث صغير عنوانه « تأملات فى المعرفة والحقيقة والأفكار » ويتمنى أن يكون لوك قد اطلع عليهـا ، ويضيف أنه يقصد بالأفكار الحقيقية التى نتأكد من امكان تنفيذها ويميز بينها وبين الأفكار المشكوك فيها أو المستحيلة باعتبارها أفكارا وهمية من جهة وبينها وبين الأفكار المحتملة التى يمكن اثباتها أما قبليا بالاستدلال واعتمادا على أفكار أبسط منها ، أو بعديا عن طريق التجربة من جهة ثانية وبينها وبين الأفكار الأولية التى لا يمكن اثبات امكانها وليست فى الواقع سوى صفات الله من جهة ثالثة •

وبالنسبة للسؤال هل الأفكار والحقائق فطرية ؟ لا يجد ليبنتز أى ضرورة لتقرير فطريتها ؛ فهى سواء جاءت كلها من الخارج أو من داخل أنفسنا فاننا سنفكر بدقة اذا التزمنا بما سبق أن ذكره وبشرط أن نتقدم بنظام وبدون حكم مسبق • ويؤكد أن أفكارنا ، بما فى ذلك تلك التى من الأشياء الحسية ، تأتى من أعماقنا ويمكن أن نحكم عليها فى ضوء ما قرره عن طبيعة واتصال الجواهر وما يسميه بوحدة الروح بالجسد ، ويرفض القول بالصـفحة البيضاء مؤيدا ما قاله أفلاطون عن التذكر ويضيف أننا لا نتذكر فقط أفكارنا الماضية وانما لدينا استشعار لكل أفكارنا ولكل أحساساتنا •

وعن الباب الثانى وخاصة ما يتصل بالأفكار يعلن ليبنتز أنه غير مقتنع بالمبررات التى ذكرها لوك ليثبت أن الروح قد توجد أحيانا دون أن تفكر فى شىء ، ويرى أن الروح بل والجسم لا يكونا أبدا بدون فعل •

وأن الروح لا تكون أبدا بدون تصور ما : لدينا مثلا أثناء النوم شعور غامض ومعتم للمكان الذى نكون فيه ولأشياء أخرى وقد اختلف معه أيضا بالنسبة لمشكلة الخلاء : اعتقد لوك وغيره بالخلاء واعتقد ليبنتز نفسه فى فترة من فترات حياته الفكرية بالخلاء ثم عاد وتخلى ورفض الدليل الذى ذكره لوك المأخوذ من الحركة والذى يفترض أن الجسم فى أساسه صلب وأنه مركب من عدد معين من الأجزاء الصلبة ، ففى هذه الحالة لن يكون للحركة أى محل بدون خلاء ولكن الواقع أن أجزاء المادة قابلة للقسمة ولينة .

تعرض ليبنتز أيضا لفكرة اللانهائى ويتفق مع لوك فى أنه لا يمكن القول بدقة أنه لا يوجد مكان ولا زمان ولا عدد لا نهائى ، وانما الحق هو أنه أيا كان المكان أو الزمان أو العدد كبيرا فهناك دائما ما هو أكبر منه الى ما لا نهاية . وعلى هذا لن يوجد اللانهائى الحقيقى فى المركب أبدا ، ولكن هذا لا يمنع من أن يوجد اللانهائى المطلق ، الذى لا أجزاء له والذى يؤثر فى الأشياء المركبة لأنها تنتج من تحديدات المطلق وبعبارة أخرى اللانهائى الموجب ليس شيئا آخر سوى المطلق .

وهو أيضا لا يعترض على تعريف لوك للافكار الكافية adequate ولكنه يقصد بها شيئا آخر ، فهى فى نظره تتطلب درجة معينة لابد من توافرها لتصبح الأفكار كافية ويريد بهذه الدرجة ألا تكون الفكرة فى حاجة الى تفسير ، ولما كانت الأفكار الخاصة بالصفات الحسية كالضوء أو اللون أو الحرارة لا تصل الى هذه الدرجة فلا يمكن أن يعتبرها من الأفكار الكافية لأننا لا نعرف حقيقتها الا بالتجربة .

عن الباب الثالث الخاص بالكلمات أو الحدود يتفق مع لوك أيضا فى أن من الكلمات ما لا يمكن تعريفها وأن تعريف الصفات الحسية ليس تعريفا اسميا ومن ثم لن تمكننا من الحصول على تعريف حقيقى . ويشير الى تمييزه بين هذين النوعين من التعريفات : فالتعريف الاسمى

يفسر الاسم بعلامات الشىء فى حين يجعلنا التعريف الحقيقى نعرف قبليا امكانية المحدد ويؤيد ما ذكره لوك بالنسبة لامكان البرهنة على الحقائق الأخلاقية •

وفى الباب الرابع الخاص بمعرفة الحقيقة يجد ليبنتز الكثير من الأفكار الجيدة ولكنه يلاحظ أن لوك لم يعرض البديهيات العرض الذى تستحقه ويرجع ذلك الي أننا باستثناء الرياضيات لا نجد فى المجالات الأخرى ما هو هام وقوى • وقد حاول ليبنتز معالجة هـذا النقص ، فهو لا ينقص من قدر القضايا الذاتية ويعترف بفائدتها فى التحليل •

ويتفق مع لوك فى اننا نعرف وجودنا بالحدس ، ونعرف وجود الله بالاستدلال وأن المـادة خالية من الادراك ولا يمكن أن تكون قادرة على التفكير كما أنه لا ينتقص من قدر دليل أنسلم على اثبات وجود الله بل يحاول اكماله ويتفق معه أيضا فى أن التجربة وحدها لا تكفى رغم أهميتها فى علم الطبيعة الا أنه يرى أن الذهن النافذ قادر على أن يستدل نتائج من التجارب العادية قد تفوق وتزيد على ما يمكن أن يستدله أى شخص آخر من التجارب الأكثر اختيارا • ويختلف مع لوك لاعتقاده أن صورية المنطق غير مفيدة ويحاول اثبات أن العيب ليس فى الأقية وخاصـة الأقية المتعددة وانما العيب فى أننـا لم نحسن اسـتخدامها •

وأخيرا يرفض دعوة بعض معاصريه الى احتقار كل ما جاءت به الفلسفة المدرسية ويرى أن الأفضل أن نميز بين الطيب والخبيث وأن نأخذ الطيب ونترك الخبيث •

هـذا ولم يكتف ليبنتز بذكر هـذه الملاحظات وانما اهتم بتأليف كتاب كامل جعل عنوانه « أبحاث جديدة فى الفهم الانسانى » يرد فيه بتفصيل على ما ذكره بايجاز فى هـذه الملاحظات •

وهذا ما سنعرضه فى الباب القادم الخاص بالغرض التحليلى لنظرية المعرفة •

(ب) نظـرية المعرفة عنـد ليبنتز :

تميزت فلسفة ليبنتز بالطابع التحليلى الذى يسعى الى تحليل كل فكرة من الأفكار ليصل الى ما تتضمنه من علاقات وتصورات وليستخلص ما يمكن فيهـا من مبادىء وقوانين • واذا كان تحليله لفكرة الجوهر والوحدة العنصرية قد آدى به الى اعتبار العالم الخارجى عالما يتكون من وحدات حقيقية وظواهر محكمة البناء ، أى من روح ومادة ، فان تحليله لفكرة الروح — والروح الانســانية بصفة خاصـــة — سينتهى الى تحديد نظريته فى المعرفة •

لقد رأينا فى حديثنا عن الوحدات العنصرية أنه قد قرر أن هـــذه الوحدات لا يختلف بعضها عن بعض الا من حيث أنها تعبير عن العالم من وجهة نظرها الخاصـــة والا من حيث درجة وضوح ما لديها من ادراكات ، بعض الادراكات واضح ومتميز وبعضها غامض وبعضها الآخر متناهى الصغر بحيث لا نشعر به رغم وجوده فعلا • كما رأينا كيف رتب ليبنتز هـــذه الوحدات العنصرية حسب وضــوحها ترتيبا يتسلسل من الانتلخيا الى النبات فالحيوان فالانسان • يتميز الانسان بالمقدرة على الوعى الذاتى والتفكير بحيث يصل الى الأفكار والاستدلالات وما يتبعها من اكتشافات علمية ومعارف وتقدم •

هـــذه الاستدلالات اذا اعتمدت على أفكار كافية ومتميزة وواضحة تؤدى الى معرفة الحقائق الضرورية ، واذا اعتمدت على أفكار يشوبها الغموض أو عدم الكفاية فانها تكفى لمعرفة العالم الخارجى بما فيـــه من حقائق عرضة[11] •

يقرر ليبنتز أن المعرفة فطرية ومكتسبة معا ويرفض أن يوجد تعارض بين هذين النوعين من المعرفة وبالتـــالى يتخذ موقفا مخالفا للنظريتين السائدتين فى عصره : النظرية الديكارتية التى ترى أن المعرفة فطرية •

---

(11) Ruth Lydia Saw, Leibniz 201.

ونظرية لوك التى تعتبرها مكتسبة : حقائق الاعداد مثلا فطرية ولكن هـذا لا يمنع من تعلمها وكذلك الحال بالنسبة للعلوم الأكثر تعقيدا ؛ بالرغم من أن معرفتنا لها مكتسبة وتجريبية الا أن معرفتنا الفطرية لهذه العلوم كامنة فى نفوسنا شأنها فى ذلك شأن الخطوط الموجودة فى المرمر ، فان وجودها يسبق معرفتنا أنها موجودة •

وبعبارة أخرى انتهى ليبنتز الى القول بأن المعرفة فطرية ومكتسبة ، فطرية بمعنى أن الذهن لديه القدرة على معرفتها وأن هذه المعارف تنبثق من داخل الوحدة العنصرية ومكتسبة بمعنى أنها تتأثر بما تثيره أدراكاتها للعالم الخارجى وما تمدها به تجاربها من مادة خام تتيح الفرصة لنقـل ما لديها من أفكار موجودة بالقوة الى الوجود بالفعل • تتقبل الوحدة العنصرية باستمرار الانطباعات الخارجية ثم تحليلها بفضل ما لديها من قوة نشطة الى معارف وأفكار ، ولكن هذه الأفكار لا تكون واضحة ومتميزة منذ البداية ، بل تبدو لأول وهله مختلطة وغامضة ولن تكتسب الوضـوح والتميز الا عندما تصبح موضوع تفكير الوحدة العنصرية ووعيها •

لهذا رفض ليبنتز الرأى القائل بالتناقض بين المعرفة الفطريـة والمعرفة المكتسبة ، ويقرر وجود أفكار كامنة فى نفوسنا لا يحققها ولا ينقلها من الوجود بالقوة الى الوجود بالفعل الا ما تثيره الاشيـاء الحسية وما يصاحبها من معرفة مكتسبة • وقد اعتمد ليبنتز فى الربط بين الفطرية والاكتساب على اعتبار الوحدة العنصرية كائنا كاملا يحتوى فى ذاته كل معارفه ويتصل بالعالم الخارجى وما فيه من وحدات عنصرية أخرى فتثير ما يمكن فى ذاته من ادراكات ومعارف • وهنا يطرح السؤال : كيف حدد ليبنتز موقفه من نظريتى ديكارت ولوك ؟

رفض ليبنتز تقرير ديكارت حدا فاصلا بين التفكير الواضح والمتميز من جهة وما عداه من جهة أخرى اذ أن ذلك يدعو الى انكار الأفكار الغامضة وعـدم الاعتراف بحقيقتها • كما رفض الاكتفاء بمبدأ عـندم

التناقض وحده لأنه لا يتفق مع الحقائق العرضية ؛ ورأى أن الوضوح فى الأفكار وتميزها لن يكون له قيمة ما لم يكن لدينا ما يؤيد هـذا الوضوح والتميز وبالتـالى لا يريد أن يجعل تقـرير وجودنا كمقدمة للحقائق الأخرى •

وكذلك الأمر بالنسبة لنظرية لوك التى تعتبر العقل لوحة خاليـة تنطبع عليهـا ما تثيره الحواس عند اتصالها بالعالم الخارجى فقد اعترف ليبنتز بنوعى المعرفة : الفطرية والمكتسبة ولم يقتصر على هـذا المفهوم الضيق وسعى الى تصور المعرفة تصورا عاما يشـمل الحقائق التجريبية والحقائق الضرورية ، فالمعرفة لا يمكن أن تكون حدسية كلها لأننا لا نستطيع مقارنة الأشـياء مباشرة باستمرار ولن تكون استدلالية دائمـا لأننا لا نستطيع الوصول دائما الى الأفكار المتوسطة وكذلك لن تكون حسية دائمـا لأن معرفتنا الحسية تنحصر فى معرفة الأشياء التى تؤثر فى اللحظة الراهنة على حواسنا • الواقع أن معرفتنا تجمع بين الحدس والاستدلال والحس •

وباختصار ارجع ليبنتز خطأ كل من ديكارت ولوك الى تجاهل كل منهما عاملا من العاملين الهامين فى المعرفة ؛ وهما الضرورى والعرضى • يمكن قبول رأى ديكارت اذا كانت المعرفة كلها ضرورية ويمكن قبول رأى لوك اذا كانت المعرفة كلها عرضية • ولكن الحقيقة ان المعرفة الانسانية تحتوى عليهما معا • والنظرية الصحيحة هى التى تضمهما معا وهى التى انتهى اليها خلال تحليله لفكرة الوحدة العنصرية وتحديد صلة المعرفة بالحقيقة من جهة وبالأفكار من جهة أخرى •

فما هى هـذه الصلة ؟

رأى ليبنتز أن وجود العالم الخارجى يؤكد وجود حقيقتين لا شك فيهما ، الأولى أننا نفكر والثانية أن أفكارنا مختلفة اختلافا كبيرا • عن الأولى ينتج أننا موجودون وعن الثانية ينتج وجود شىء آخر خلاف أنفسنا ؛ هو علة ما فى أفكارنا من اختلاف •

يقرر ليبنتز وجود نوعين من الحقائق : حقائق عرضية تتناول ما فى العالم الخارجى من موجودات مادية وتعتمد على الخبرات الحسية والتجريبية ولا تحتاج الى دليل قبلى ، بل يكتفى لتفسيرها دليل بعدى يبرهن على علتها الكافية ، ويوضح ما بينها من ارتباطات محكمة ويميز بين الارتباطات الحقيقية والارتباطات الوهمية • وحقائق ضرورية تعتمد على الدليل القبلى الذى ينبع من أنفسنا ويوضح عدم تضمنها على تناقض ويوصل الى ما تتضمنه من علاقات وارتباطات يقينية يقينا مطلقا •

ولكى تشمل المعرفة هذين النوعين من الحقائق لابد وأن يتسع معناها وتكون اما معرفة متميزة أو غامضة ، حملية أو شرطية أو حدسية ، كافية أو غير كافية • ولا تقتصر على ما أراده لوك من كونها البحث عن التوافق أو عدم التوافق • ان المعرفة بمعناها الواسع قادرة على تناول كل ما تتضمنه من أفكار وهنا يطرح السؤال :

كيف يدرك العقل الأفكار ؟

يقول ليبنتز من خلال عرضه لنظريته فى الأفكار : « فى مستطاع الروح أن يتمثل اى صورة أو أى شىء عندما تتاح له فرصة التفكير فيه • وأعتقد أن هـذا يدل على أن الفكرة المتمثلة موجودة فى الروح سواء كنا نفكر فيها أو لانفكر ، الروح تشمل على فكرة الله وسائر الماهيات والموجودات ، هـذا يتفق مع مبادئى ، اذ من الطبيعى ألا يكتسب العقل شيئا من الخارج ، وأعتقد أن من الخطأ القول أن الروح يتقبل الرسائل كما لو كانت له نوافذ وأبواب » •

ويتساءل ليبنتز فى كتابه « الأبحاث الجديدة فى الفهم الانسانى » : هل الروح لوحة خالية من كل أثر أم أنه مشتمل أصلا على مبادىء كثير من النظريات والأفكار التى تثيرها الموضوعات الخارجية ؟

وأجاب ليبنتز بوجود الأفكار الفطرية التى يقسمها الى أفكار بسيطة وأفكار مركبة ، أفكار تأتى من حاسة واحدة وأفكار تأتى من أكثر من حاسة ، أفكار تنبع من الذهن مباشرة وأفكار

يشـــترك فى اظهــارها الحس والفكــر معــا • ويبــين مــدى أهمية الادراك فى معرفة هــذه الأفكار والتمييز بين الأفكار البسيطة والمركبة ، الصحيحة والخاطئة ، الحقيقية والوهمية وينتهى ليبنتز الى تقرير تداعى هــذه الأفكار وارتباطها ببعضها ارتباطا يتيح معرفتها وبالتالى يؤكد خطأ لوك فى انكاره وجود الأفكار الفطرية وعدم الاعتراف الا بالأفكار التى يؤيدها الواقع الخارجى •

ومن الطبيعى أن يحاول ليبنتز تحديد ما يقصده بالأفكار الفطرية التى لا تعتمد على الحواس ويقارن بين الفكرة التى تقرر أن السكر ليس مرا ، وهى فى نظره فكرة غير فطرية ، والفكرة التى تقرر أن المربع ليس دائرة ،وهى فكرة فطرية ، وذلك لأن معرفة الحلاوة والمرارة تأتى عن طريق الحواس فى حين تعتمد معرفتنا للمربع والدائرة على الذهن •

أما كيف يميز ليبنتز بين الأفكار الحســية وغيرها فيظهر مما قاله فى مقالته « ما بعد الطبيعة » : « كما أن من الممكن الاعتراف بتأثير الجواهر بعضها فى بعض فان من الممكن القول أننا نكتسب المعرفة من الخارج عن طريق الحواس لأن بعض الأشياء الخارجية تحتوى على بعض الأســباب الجزئية التى تحدد موقف أرواحنا من بعض الأفكار • هذه الأفكار الحسية ستكون أفكارا قابلة للتأثير ولكنها ستكون أفكارا مختلطة لا تعبر الا عن العالم الخارجى » ويقصد ليبنتز بالأفكار الحسية تلك التى تعتبر عن الامتداد المكان وغيرها من العلاقات الخارجية فى حين أنه لم يعتبر فكرة المكان نفسها فكرة حسية ويقول : « أن الأفكار التى تأتى من أكثر من حاسة واحدة مثل تلك الخاصة بالمكان والشكل والحركة والسكون ، أفكار تعتمد على الحس العام ، أى على العقل نفسه ، لأنها أفكار تخص الفهم الخالص ولكنها تتصل بالعالم الخارجى ولابد من الاعتماد على الحواس لمعرفتها » •

معنى هــذا أن ليبنتز يعتبر الصــفات التى تبدو خارجية أفكارا حسية ويعتبر كل ما يدخل فى هــذا الوجود الخارجى نفسه غير حسى ،

وبالتالى يعتبر كل الصفات المتعلقة بالوجود الخارجى صـفات مختلطة ولا تصلح أن تكون حالات للوحدات الروحية ، أما الأفكار المشتقة من الفكر والتى ستكون واضحة فهى تلك التى يمكن أن تصف حالات الذهن ومن ثم لابد وأن تكون شـيئا فعليا وليس ظاهرة من الظواهر •

وهذا يعنى أيضا أن الأفكار الحسية تتصف بالغموض وعدم القدرة على تمثل الأشـياء الخارجية تمثلا واضحا ، ولكن هـذا لن يحول دون اعتبارها فطرية هى الأخرى ، الاختلاف بينهما وبين الأفكار العقليـة اختلاف فى درجة الوضوح فحسب ، وسبب هـذا الغموض هـو أنها تتصل بالظواهر فى حين تتصل الأفكار العقليـة بحالات العقل وتصف شـيئا فعليا حقيقيا • الأفكار الحسية تمدنا بالحقائق العرضية والأفكار العقلية تمدنا بالحقائق الضرورية •

الادراكات المتناهية فى الصغر :

يعارض ليبنتز قول لوك أنه لا يمـكن أن يحدث شىء دون أن يشـعر به العقل وتمسكه بانكار الاحساسات التى لا تشـعر بها وتساءل مبينا خطأ لوك قائلا : « كيف نفسر محتويات الذاكرة وما تتضمنه أفعالنا العادية وميولنا ؟ يستحيل تفسيرها اذا أنكرنا وجود هـذه الاحساسات التى لا نشعر بها وضرب مثالا الفروق التى نجدها فى المرمر ، فهى موجودة فعلا حتى قبل أن نعرف أنها موجودة ، وكذلك الحال بالنسبة لنا ، اذ لابد من وجود بعض الأفكار منـذ البداية حتى وان كنا لا نعرف أنهـا موجودة »ويذكر دليلا ثالث يؤيد وجود هـذه الادراكات التى لا نشعر بها ويقول أنه من المستحيل أن نفكر باستمرار فى كل أفكارنا ، والا فان الذهن سيفكر فى كل فكرة الى ما لا نهاية دون أن يستطيع الانتقال من فكرة الى أخرى • مثلا عندما ندرك وجدانا معينا فان الذهن سيفكر فى هـذا الوجدان ثم يفكر فى أنه يفكر فى هـذا الوجدان وهكذا الى ما لا نهاية •

يميز ليبنتز بين الادراكات المتناهية فى الصغر والادراكات الغامضة:
الادراك الغامض لا نشعر بكل أجزائه ويعطينا معرفة غامضة ، ويجعلنا غير قادرين على ذكر كل العلاقات المطلوبة للتمييز بين الشىء الذى نريد معرفته وغيره من الأشـــياء • أما الادراك المتناهى فى الصغر فادراك على درجة من الدقة والصغر بحيث يصعب على الذهن ادراكه مباشرة وتمييزه عن غيره وعـــدم ادراك الذهن له لا ينفى وجوده ، بل هو موجود فعـــلا فى الذهن وأن كنا لا ندركه الا اذا تجمع مع غيره من الادراكات فالادراكات المتناهية فى الصغر فى حاجة الى أن تصل الى حجم معين حتى يتمكن العقل من ادراكها •

تقرير وجود الادراكات المتناهية فى الصغر ساعد ليبنتز فى اثبات نظرية الأفكار وأن العقل ليس لوحة خالية كما ساعد فى اثبات ذاتية اللامتشابهات التى تقرر اختلاف الوحدات العنصرية بفضل ما فيها من اختلاف فى درجة وضوح ادراكاتها ، وبالتالى تعتبر تطبيقا لمبدأ الاتصال فى المجال العقلى : كما أن الطبيعة لا تعرف الانتقال المفاجىء ، بل هى تنتقل من حالة الى أخرى انتقالا تدريجيا يمر بكل الحالات المتوسطة ، كذلك الأمر بالنسبة لادراكاتنا واحساساتنا ، فالعقل لا ينتقل من ادراك الى آخر الا بعد أن يمر بما يتوسطهما من ادراكات • وأخيرا ساعدت فى التوفيق بين نظريتى لوك وديكارت وجعلته يعترف بالمعرفتين معـــا معتمدا فى ذلك على منهجه التحليلى للقضايا والأفكار • فما هو اذن هذا المنهج التحليلى الذى استخدمه ؟

منهج ليبنتز :

اهتم ليبنتز بالمنهج الرياضى منـــذ أن كان طالبا فى جامعة «ليبزج» حيث تتلمذ على أســـتاذه يعقوب توماسيوس Jacob Thomasius وقدم بحثه عن « مبدأ التفرد » Principe de l'individualite ثم انتقل الى جامعة « يينا » Yena ودرس التاريخ والرياضة على يد أستاذه « ايرهارد فيجل » Ehrard Weigel وحاول فى هذه الفترة

تطبيق المنهج الرياضى على كل الدراسات ونشر بحثه « فن الارتباط » L'art de combinatoire سنة ١٦٦٦ وكان هذا البحث بمثابة الأساس الأول لما تعرض له من دراسات فى العلم الكلى ثم بدأ فى تأليف لغة عالمية يتفاهم بها الجميع على أن تؤخذ عناصرها من جميع اللغات •

أما اهتماماته بالمنهج الفلسفى فلم تظهر الا عندما نشر رسالته عن « اساوب نيزوليو الفلسفى » de Stylo Philosophico Nisolii وفيزوليو هذا كان من كتاب عصر النهضة فى ايطاليا فى القرن السادس عشر دافع عن المحدثين ضد المدرسيين ، وحاول ليبنتز فى رسالته أن يوضح خصائص الأسلوب الفلسفى الثلاثة وهى : « الوضوح والصحة واللياقة » وقد نقد ليبنتز نيزوليو لأنه لم يميز بين الفلاسفة القدماء والمدرسين ولأنه لم يعترف بعظمة توماس الكوينى ومكانته الفكرية •

وفى سنة ١٦٨٤ كتب مخطوطه
Meditationes de Cognitione Veritate et idéis.

ومخطوطه :

de scientia unversali seu Calcule philosophico

حيث يعرض أسسه المنطقية ويظهر اهتمامه بتحليل القضايا واخضاعها لصورة الموضوع والمحمول ويقول فى خطاب الى أرنولد سنة ١٦٨٦ « اذا ما حاولنا فحص الفكرة التى لدينا عن كل قضية صادقة فاننا نجد أن فكرة الموضوع تتضمن كل ما يدخل فيها من محمولات سواء كان ضروريا أو عرضيا ، ماضيا أو حاضرا أو مستقبلا[١٢] •

وفى هذا الصدد أكد « رسل » ان فلسفة ليبنتز الحقيقية التى تعتمد على المنطق اتخذت أساسا لها مبدأى التناقض والعلة الكافية ،

(١٢) Mary Morris ; philosophical witings p. 71, 73.

وصاغت نظريته فى قضية أساسية تقرر ان موضوع القضيه الصادقة يتضمن محمولاتها ومن ثم يمكن اثبات كل الحقائق قبليا عن طريق التحليل وتصبح الحقائق كلها تحليلية[١٣] •

هذا التحليل للموضوع لنصل الى ما يرتبط به من محمولات سيكون كاملا فى القضايا الضرورية المعتمدة على مبدأ عدم التناقض أما فى القضايا العرضية فيكفى الوصول الى علة كافية تبرر وجودها هكذا •

وقد حاول ليبنتز تطبيق منهجه التحليلى هذا على نظريته فى الجوهر وفى الوحدات العنصرية (الموناد) وفى مجالات الأخلاق والدين • ولم يعد تحليل الموضوع يهدف الى الوصول الى الوضوح والتميز كما أراد ديكارت وانما أصبح يهدف الى الوصول الى ما يرتبط به من محمولات •

ففى مجال الطبيعة مثلا انتهى اقتناعه بنظريته المنطقية فى القضية التحليلية الى تطبيقها على مشكلات العالم الخارجى والى تصور جديد للمادة ترتب عليه تعديل جوهرى فى نظرية الحركة الديكارتية وذلك بأن أدخل عنصرا جديدا هو القوة ، وترتب عليه تدعيم علم الديناميكا وتزويده بالمبادىء المنطقية الدقيقة التى تفسر ما يتناوله من ظواهر تفسيرا علميا وصحيحا[١٤] •

وباختصار اعتمد ليبنتز على مبدئه المنطقى فى تفسير المادة والقوة والحركة والمكان والزمان تفسيرا تحليليا يجعل من المادة موضوعا ويجعل من القوة والمقاومة والحركة والوضع وغيرها من الصفات محمولا لهذا الموضوع • وأخيرا يجعل المادة ظاهرة محكمة البناء وليست جوهرا ،

---

(١٣) B. Russell ; p 4.

(١٤) Emile Ban Biema l'espace et le temps chez libniz et Kant, p 161, 174, 188, 191.

وبالتــالى فهى تخضع لمبدأ العلة الكافية الذى يفسر لمــاذا هى كذلك وليست خلاف ذلك ٠

وفى مجال ما بعد الطبيعة واللاهوت يستخدم هــذا المنهج التحليلى فى اثبات وجود الله ويرى من الضرورى أن نتقدم فى ما بعد الطبيعة بنفس الدقة التى استخدمها أقليدس فى الهندسة ٠ ويعلن أن من الواجب أن تلعب ما بعد الطبيعة بالنسبة للعلوم الأخرى نفس الدور الذى تلعبه الهندسة بالنسبة للعلوم الرياضية ٠ فالفلسفة الحقيقية يجب أن تخدم الدين بان ترفعنا الى الله وتجعلنا نعرفه ونعجب به ، ولكن لا سبيل لتقديم ما بعد الطبيعة الا باتباع القواعد الخاصــة بالمنهج الرياضى ، فهى التى توصلنا الى براهين دقيقة عن وجود الله[١٥] ٠

ويبرر ليبنتز دعوته الى تطبيق المنهج الرياضى على اللاهوت بقوله : « أن خالق الأشــياء يتصرف كمنهدس ماهر ٠ أو بقوله « أن الله يعمل كل شيء تبعا لقوانين الرياضة ، أو كما يقول فيثاغورس أن الله خلق كل شيء تبعا للأوزان والقياس والعدد » ٠

ولمــا كان التحليل التام لا يساعدنا فى اثبات وجود الله لأنه مستحيل بالنسبة لنا ، فان التحليل الجزئى يمكن أن يكون أساس البرهنة على وجود الله وبالتالى حاول اثبات وجود الله بطريقتين احداهما قبلية والأخرى بعدية ٠ الاتجاه البعدى يعتمد على فكرة القوة التى اعتبرها العلة القريبة لمــا فى العالم الخارجى من موجودات ، ثم يحاول تحليل فكرة العالم الجسمانى ويظهر عدم كفايته وضرورة استنتاج محرك أول ٠ أما الاتجاه القبلى فقد اعتمد عليــه ديكارت وأسبينوزا وغيرهما باستدلال الموجود من فكرة الله نفسها ٠ وقد رأى ليبنتز عــدم كفاية هــذه الأدلة القبلية وضرورة اكمالها باظهار ان مجرد أمكانها يكفى لاثبات وجود

---

(١٥) Joseph Iwancki; Leibniz et les demonstrations mathematiques de l'existence de Dieu p 102.

الله • ويعلن فى كتابه « أبحاث جديدة فى الفهم الانسانى » : « أنه يمكن اثبات فكرة الله وأمكانها ووجودها بأكثر من طريقة ، حتى التناسق الأزلى نفسه يمدنا بوسيلة جديدة لا شك فيها • كل الوسائل التى استخدمت من قبل فى اثبات وجود الله مقبولة وجيدة ويمكن استخدامها اذا أكملناها • وأنى لا أوافق مطلقا على استبعاد الأدلة المستخدمة من نظام الأشياء »(١٦) •

وفى سنة ١٦٨٦ دعا ليبنتز فى بحثه « مشروع لفن الاختراع » الى البحث عن اليقين والدقة فى براهيننا واستدلالاتنا • لقد اطلع على محاولات السابقين له فى هذا المجال وخاصة ريموندليل وفرنسيس بيكون واتضح له أن هذه المحاولات ينقصها التحليل الكامل وأخذ على عاتقه أن يقيم منهجا جديدا عرضه فى الخصائص الكلية
Caracteristique Universelle
وفى فن الارتباط وفى بحثه « اللغة العالمية » Langue Universelle حيث يقول : « أن الخصائص التى تعبر عن كل أفكارنا ستكون لغة جديدة يمكن كتابتها ونطقها ، هذه اللغة من الصعب تأليفها ولكنها سهلة التعلم • سيقبلها الجميع بسرعة وسهولة ولن يخطىء من يستخدمها اذ ستجنبه أخطاء الحساب والقواعد والتركيب ••• وكل ما أسعى اليه الآن هو أن يتحقق هذا المشروع اذا ما أطال الله فى عمرى خاصة وانى لا أدين لأحد فى اختراعه ، اذ جاءتنى فكرته الأولى وأنا فى الثامنة عشر من عمرى كما بينت من قبل فى فن الارتباط » •

وفى الخصائص الكلية « يقرر أن دراستنا لموضوع ما لابد وان نخطو خطوتين : فى الخطوة الأولى نبحث عما فى هذا الموضوع من تصورات بسيطة ، وفى الخطوة الثانية نبحث عما بين هذه التصورات البسيطة من علاقات ، ثم علينا بعد ذلك أن نحاول التعبير عن هذه التصورات البسيطة بعلامات أو خصائص رياضية • ولكى نحقق الخطوة

(١٦) Leibniz ; Noveaux Essais ; p 386, 387.

الأولى لابد وان يكون لدينا قائمة كاملة من التعريفات لأنها هى التى ستكون وسيلتنا فى الوصـــول الى التصورات البسيطة ، وهى التى تساعدنا فى تشـــييد أبجدية حقيقية للأفكار ، وبالتالى من الضرورى تأليف قاموس منطقى يمكن تسميته « دائرة معارف » تصبح الوســيلة الوحيدة الممكنة لتيسير الاختراع وتقدم العلم وتوفر علينا البحث من جديد عما هو موجود فعلا •

وفى الخطوة الثانية أى عند الانتقال من التعريفات الى التصورات الأولية أو البســيطة علينا أن نعتمد على الاســتنباط أو الاستقراء : الاســتنباط يساعد فى استخراج فكرة ما من فكرة أخرى ، أو استنتاج نتيجة من مقدمات وتحديد ما بينهما من علاقات • أما فى الحالات التى لا يساعدنا الاســتنباط فى الوصــول الى ما بين الفكرتين أو الواقعتين من علاقة فاننا نلجأ الى الاستقراء ، وخاصة فى الوقائع التى تتصل بما فى العالم الخارجى من حقائق عرضية •

وأخيرا علينا أن نترجم هــذه العلاقات التى تقوم بين التصورات التى حصلنا عليها الى حدود رياضية • والا فلن نخرج من اللغــة العادية غير المضــبوطة وغير الكاملة ، ولن نتخلص مما يشــوبها من غموض واختلاط •

وجدير بالملاحظــة أن ليبنتز تناول فى بحثــه « فن الارتباط » العلامات Signes التى يمكن أن نعبر بها عما بين التصورات والأفكار من علاقات تعبيرا واضحا ومتميزا ، وقد لجأ أولا الى الاعداد ويضرب لنا مثالا فيقول : « نضع لكل من الحدود البسيطة عددا معينا ثم نرمز للحدود المركبة بحاصل ضرب هــذه الحدود البسيطة ، فلو رمزنا لكلمة حيــوان بالعدد «٢» ولكلمة عاقل بالعدد «٣» فان التعبير عن كلمة « انسان » هو ٢×٣ = ٦ • وقد سيطرت هــذه الفكرة على ذهن ليبنتز حتى ســنة ١٦٧٩ حيث عدل الرموز ولجأ الى رموز أخرى ذات طابع جبرى نشرها فى بحثه Specimen do Calcul universel •

وحاول تطبيقها فى بحثه « اللغة العالمية » بعد أن اتضح له أن هـــذه الرموز التى قد تصلح للتعبير عن العلاقات القائمة بين التصورات البسيطة لا تصلح للتعبير عن علاقات المكان والزمان ، والفعل والانفعال ، وغيرها من العلاقات التى تخص أفكارنا وبالتالى وجد من الضرورى البحث عن لغـــة عقلية langue rationnelle ذات قواعد خاصـــة ساعدنا فى التعبير عن أفكارنا تعبيرا واضحا وضوح العمليات الرياضة .

خلاصة القول اذن ان محاولة ليبنتز ربط المنطق بالرياضة بقصد الحصول على منطق رياضى تحليلى يساعد على استدلال ما يتضمنه الموضوع من محمولات ويظهر أهمية مبدأ عدم التناقض باعتباره المبدأ الذى يعطينا التعريف الحقيقى الذى لا يتضمن تناقضا ويقرر صدق القضية أو كذبها . كما يظهر أهمية مبدأ العلة الكافية عندما لاحظ أن تحليلنا لتصور ما أو لفكرة ما قد لا يؤدى الى ما نعتمد عليـــه من أفكار أولية بسيطة وخاصة التصورات التى تتصل بالعالم الخارجى والتى يلزمها دليل تجريبى يحقق صدقها أو كذبها(١٧) .

وقد لاحظ ليبنتز أنه فى حاجة الى منهج يكمل هـــذا المنهج التحليلى حتى يستطيع الوصـــول الى الاختراعات والاكتشافات . هـــذا المنهج الجديد يسميه « فن التركيب » ويشمل كل التركيبات الممكنة لأى فكرة بسيطة بحيث لو أمكن تكوين قائمة من الأفكار البسيطة أمكن أن نحصل على قائمة تتضمن كل ما يمكن أن يوجد فى العالم من أشياء لنفرض مثلا أننا رمزنا لخمسة أفكار بسيطة بالرموز ا ، ب ، ج ، د ، هـ ، فمن الممكن أن نحصل على المركبات الآتية : أ ب ، أ ب ج ، أ ب ج د ، أ ب ج د هـ

أو أ ج ، أ ب د ، أ ب د هـ

أو أ د ، أ هـ .... وهكذا .

(١٧) Clodius Piat, Leibniz p. 71 - 102.

ويمكن أن نجمل أهم الأفكار الرئيسية التى توصل اليها من خلال منهجه التركيبى فيما يلى :

١ ـ من الممكن ارجاع جميع التصورات الى تصورات بسيطة بعملية تشبه تلك التى نصل بها الى المعاملات الأولى للأعداد .

٢ ـ يمكن تركيب كل التصورات المركبة اذا ما رتبنا البسائط .

٣ ـ لا يوجد الا عدد قليل من الأفكار البسيطة ولكن يتولد عنها الكثرة بفضل التركيب .

٤ ـ يجب أن نرمز للأفكار البسيطة برموز بسيطة وللأفكار المركبة برموز مركبة ، الرمز المركب تعريف للتصور المركب .

٥ ـ يتكون التفكير من كشف الغطاء عن كل العلاقات الموجودة بين البسائط[١٨] .

من الطبيعى أن يتعرض ليبنتز لمحاولات الديكارتيين ولاحظ :

١ ـ محاولتهم تقسيم الموضوع الى عدد من القضايا الصغيرة يدفع الذهن الى التشتت ، ولهذا يفضل ليبنتز أن نميز بين القضايا الهامة والقضايا الأقل أهمية أو التافهة .

٢ ـ لاحظ أن من يستعمل القضايا فى استدلالاته لا يعرف متى يجب أن ينتهى ، لأن القضايا تذهب الى ما لا نهاية .

٣ ـ لاحظ ليبنتز أننا نفترض بديهيات من الممكن البرهنة عليها وبالتالى لا تكون فى عداد البديهيات .

٤ ـ اخضع ديكارت ارتباط الأشياء والأفكار لمبدأ واحد ، وعلى ذلك فان الحكم عليها لابد وأن يعتمد على ما فيها من وضوح ذاتى أو خلوها من التناقض . وقد أدى ذلك بديكارت والديكارتيين وأسبينوزا الى جعل المنطق لا يهتم الا بالقضايا الذاتية التى يؤدى نفيها الى تناقض وأهملت غيرها من القضايا . وبعبارة أخرى اختصت بنوع معين

(١٨) R. L. Saw; p 212, 213.

من الحقيقة مع انه يوجد أنواع أخرى من الحقيقة يلزمها مبدأ آخـر ويقول فى بحثه « الوحدات العنصرية » (المونادولوجى) : « براهيننا مؤسسة على مبدأين عظيمين : مبدأ عـدم التناقض الذى بفضله تحكم ببطلان كل ما هو متناقض وصدق كل ما يعارض أو يناقض ما هو باطل . ومبدأ العلة الكافية الذى به لا نعد أى واقعة قائمة فى الواقع أو موجودة فى الوجود الفعلى ، لا نعد أى قضية صادقة ما لم يكن لها علة كافية تبين لـماذا كانت الواقعة أو القضية على ما هى عليـه ولم تكن على نحو آخر ، على الرغم من أن هذه العلل فى معظم الحالات تظل خافية علينا » (الفقرات ٣١ ، ٣٢) .

ويقول فى كتابه « مبادىء الطبيعة والعناية » سنة ١٧١٤ :

« لقد تكلمنا حتى الآن كعلماء طبيعة ويجب أن نرتفع الى ما بعد الطبيعة مستعملين المبـدأ العظيم الذى لم يستعمل بعد الاسـتعمال اللائق به والذى يقرر أنه لا يوجد شىء بدون علة »(١٩) .

ويقول فى خطاب الى كلارك سـنة ١٧١٥ : « لكى نتقدم من الرياضـة الى الفيزياء لابد من مبدأ آخر هو مبدأ العلة الكافية وقد استخدمه أرشميدس عندما أراد التقدم من الرياضـة الى الفيزياء فى كتابه (فى التعادل) On Equilibrum وان كان قد اكتفى باستخدامه فى حالة جزئية ، وذلك عندما أظهر أنه اذا وجد ميزان يتساوى ما فـى كفتيه فاننا لو وضعنا فى هاتين الكفتين وزنين متساويين فانه سيبقى فى حالة سكون وذلك لعدم وجود علة تبرر أن يهبط أحـد الجانبين اكثر من الآخر . أما الآن فان هـذا المبدأ وحـده أى العلة الكافية لوجود الأشـياء وهكذا دون أن تكون خلاف ذلك ــ يمكنه اثبات كل ما يتعلق باللاهوت وما بعد الطبيعة والفيزياء»(٢٠) .

(١٩) R. Latta . p 58, 90.

(٢٠) M. Morris p 35.

وهكذا حرص ليبنتز على عدم الاكتفاء بمبدأ عـدم التناقض كما فعل ديكارت كما حرص على أن يحاول تطبيقه فى جميع المجالات مؤكدا ان فحص فكرة أية قضية صادقة لابد وأن ينتهى الى أن فكرة الموضوع تتضمن كل ما يدخل فيها من محمولات سواء كان ضروريا أو عرضيا ، ماضيا أو حاضرا أو مستقبلا •

لقد اتخذ ليبنتز موقفا وسطا بين ديكارت وأرسطو ، فهو يتفق مع ديكارت فى الاهتمام بالمنهج الرياضى وامكان تطبيقه فى كل مجالات المعرفة وان اختلف معه فى عدم الاكتفاء بتحليل الحقائق الضرورية • ويتفق مع أرسطو فى اعتبار القضية ذات الموضوع والمحمول الوحدة الأولية التى تقوم عليها كل معرفة ، كما يتفق معه فى ضرورة الاهتمام بالقياس ويعلن أن القياس المدرسى مع أنه ممل وطويل بحيث يؤدى الى الاضطراب والخطأ وجمود الذهن • الا أنه يعتقد ـ أن اختراع القياس من أحسن حسنات الذهن البشرى وأهمها ، اذ هو نوع من الرياضية الكلية التى لم تعرف بعد المعرفة الكافية التى تبين أهميته ، خاصـة وان استعماله الصحيح يعصمنا من الخطأ • كل ما فى الأمر أننا للأسف لا نعرف كيف نستخدمه • لهذا رأى ليبنتز ضرورة تصور القضية التى موضوعها يتضمن محمولاته تصورا أوسع وأشمل من تصور أرسطو وذلك بأن أدخل فيها القضايا الضرورية والعرضية ، كما رأى ضرورة الاهتمام بالاستدلال الرياضى الذى يسـاعد على تحليل القضايا للوصول الى القضايا الأولية البسيطة وبذلك يكون قد حدد الأساس الحقيقى لفلسفته وهو أن معرفتنا لابد وأن تعتمد على القضية التحليلية وحاول تطبيق هـذه القاعدة الأساسية فى مجالات الطبيعة وما بعد الطبيعة واللاهوت •

هـذا الاهتمام بالجانب المنطقى من فلسفة ليبنتز وما تعرض له من قضايا تحليلية دفع المهتمين بفلسفة ليبنتز من المعاصرين الى اثارة مشـكلة أساسية تتصل بصلة المنطق بما بعد الطبيعة وطرحت السؤال :

هل فلسفة ليبنتز فى صميمها تطبيق للمنطق فى مجال مابعد الطبيعة ؟

أم العكس أى أن منطق ليبنتز مجرد انعكاس لجوانب ما بعد الطبيعة وخاصة نظريته فى الوحدات العنصرية ؟

هذا ما سنعرض له فى حديثنا عن نقد ليبنتز عندما نعرض لموقف المعاصرين من هذه المشكلة •

نقد فلسفة ليبنتز

تحدثنا حتى الآن عن فلسفة ليبنتز وموقفه من رواد الفكر الفلسفى المعاصرين له وخاصة ديكارت وأسبينوزا ولوك كما قدمنا عرضا تحليليا للباب الرابع من كتابه « أبحاث جديدة فى الفهم الانسانى » والخاص بنظرية المعرفة وانتقلنا منه الى الحديث عن نظرية ليبنتز فى المعرفة ومدى اتفاقها أو اختلافها عن نظرية لوك وأخيرا تعرضنا للمنهج التحليلى الذى استخدمه ليبنتز فى تحديد ملامح فلسفته القائمة على مبداى التناسق الأزلى والوحدات العنصرية وحاولنا مرة أخرى المقارنة بين المنهج التحليلى الذى استخدمه كل من ديكارت وليبنتز وبقى علينا أن نعرض لأهم النقاط التى تعرضت للنقد من معاصرى ليبنتز ومن المعاصرين لنا[٢١] •

١ ــ مفهوم المادة :

اعترض البعض على تصور ليبنتز للمادة بقولهم انه جعل المادة مثالية وفوق الحس وقد رد بياجيه على هذا الاعتراض فى مقدمته لكتاب « أبحاث جديدة فى الفهم الانسانى » بقوله « أن ليبنتز ــ فى رأيى ــ قد أثبت قبليا وبطريقة هندسية تقريبا ، أن المادة ، فى ذاتها ، تكون شيئا مثاليا وتفوق الحس • فمن البديهيات فى ما بعد الطبيعة

---

(٢١) بياجيه (مقدمة الترجمة الفرنسية) .

أن الله لا حواس له ولا يمكن أن يمتلك احساسات . فهو لا يمكن أن يشعر بالحر أو البرد ولا يحس برائحة الأزهار أو يسمع الأصوات أو يرى الألوان أو يحس بالاتصالات الكهربائية • وباختصار مادام الله عقل خالص فلا يمكن أن يتصور سوى المعقول الخالص ، ولا يعنى أنه يجعل أى ظاهرة من الظواهر الطبيعية وانما هو لا يعرفها الا بأسبابها المعقولة وليس بالانطباعات الحسية التى يحس بها المخلوقات ، المحسوس يفترض ذاتا حاسة وأعضاء وأعصاب وارتباط بين الأشياء معقولة • فالمادة اذن فى نظر الله ليست شيئا محسوسا ، والله لكونه عقلا مطلقا يرى بالضرورة الأشياء كما تكون ، وبالتالى فالأشياء فى ذاتها تكون كما يراها الله • المادة اذن فى ذاتها هى كما يراها الله ، وبما أنه لا يراها الا فى ماهيتها المثالية المعقولة فانها اذن شيء معقول وليست شيئا محسوسا ولذلك لا يمكن أن نلوم ليبنتز أنه جعل المادة مثالية مادام ذلك ضروريا لأى مذهب يقبل الكلمة المقدسة والنظام السابق تنظيمه •

٢ ـ الوحدات العنصرية :

تعرضت لاعتراضات نذكر منها :

(أ) اعتراض ايلر Euler :

فى خطاب له الى احدى أميرات ألمانيا يرتكز على أن من المستحيل أن نركب كلا ممتدا من عناصر غير ممتدة وينتهى الى أن النتيجة الضرورية لهذا المذهب هى أنكار حقيقة الامتداد والمكان والتورط فى مشكلات مثالية •

ويرى بياجيه أن من الممكن أن نفصل مذهب الوحدات العنصرية عن مذهب مثالية المكان وأن نرجىء كل الأسئلة المتصلة بالمكان ونحتفظ بها دون أن نشوه افتراض الوحدات العنصرية •

لنفرض مع الذريين وكلارك ونيوتن حقيقة المكان فلن يكون تصور الوحدات العنصرية فى المكان أصعب من تصوير الذرات فى المكان : النقطة النشطة غير القابلة للقسمة يمكن أن تكون فى نقطة معينة من المكان واتحاد هـذه النقط النشطة يكون التجمعات التى نسميها جسما • ويكفى أن نفترض أن هـذه النقط من النشـاط تكون على مسافة من بعضها البعض حتى يمكن أن يحدث اتحادها انطباعا بالامتداد المستمر ، وكلنا يعرف أن للرخام مساما : أى فراغات بين الأجزاء ولكن نظرا لاننا لا ندرك هـذه الفراغات بالحواس ، فان المـائدة المكونة من الرخام تبدو متصـلة ـ وباختصـار تتكون الأجسـام من عنصرين كمـا يقول للفيثاغوريون : الوحـدات العنصرية والفواصل • وكل ما بين ليبنتز والفيثاغوريين من اختلاف هو أن الوحـدات العنصرية عندهم مجـرد نقط هندسية وعند ليبنتز نقط نشطة ذات طاقة •

أما القول بصعوبة قبول أن تكون القوى غير الممتدة فى مكان فان ذلك ممكنا عند أولئك الذين يعتبرون الروح قوة غير ممتدة وجوهرا فردا ويقولون أنها فى مكان ؛ مع أنه ليس لها بماهيتها أى علاقة بالمكان • لا تناقض اذن فى نظر هؤلاء أن تكون قوة بسيطة فى مكان والا اضطروا الى انكار أن تكون الروح فى مكان ، أى أن تكون فى جسم ، بل وفى جزء معين من الجسم • أما الذين يعتبرون الروح فكرة الهية وصورة خالدة متحـدة مؤقتا بالفردية فانها فى هـذه الحالة ـ كما عند أسبينوزا ـ لا تكون فى مكان •

(ب) اعـتراض أرنولـد :

يرى أن مذهب الوحـدات العنصرية يضعف دليل المحرك الأول لأنه يســمح بتخمين أن المـادة يمكنها أن تتمتع بقوة نشطة وبالتالى بحركة تلقائية •

ويرى بياجيه أن رد ابينتز على هـذا الاعتراض لم يكن حاسما

وانما اكتفى بقوله بضرورة أن نلجأ الى الله لنفسر تنسيق المحركات • ومن ثم هو لم يتعرض للسؤال مباشرة لأن التنسيق دليل على النظام والترتيب وهو دليل مختلف تماما عن دليل المحرك الأول • ولكن نلاحظ ان ليبنتز لكى يقرر حقيقة القوة فى الجوهر الجسمى استخدم فكرة مقاومة الحركة أكثر من فكرة الحركة المفروض أنها تلقائية ، وعلى هـذا يمكن أن يكون أحـد أدلته الرئيسية هو أن الجسم الذى يتحرك عندما يتقابل مع جسم آخر يفقد من حركته بقدر ما يقابل من مقاومة الجسـم الآخر ويسميه بالقصـور الذاتى أو المقاومة السلبية • تصبح هـذه المقاومة دليلا يكمل دليل المحرك الأول ولا ينقص من شأنه ، ما دام قبول أن عناصر الأجسـام مهيأة تلقائيا للحركة ، فان هـذا التهيؤ لا ينتقل الى الفعل الا بأثاره فعل غريب ،اذ لا يبدأ جسم فى الحركة الا بحضور جسم آخر • ليس من الضرورى طبعا أن يوجد السبب الأول للحركة فى الجسـم المتحرك ، فقد يكون سـببا كليا أو شاملا ، بل يكفى أن يكون سـببا مكملا completive كما يسميه المدرسون ، خاصة وأن ليبنتز يؤكد أن الفعل والوجود أمر واحد بالنسـبة لأى موجود وأن الجواهر السـلبية تماما تكون عدما خالصا •

٣ ــ نظرية التناسق الأزلى :

١ ــ أرنولـد :

يعترض فى خطاب مؤرخ ٢٨ سـبتمبر سـنة ١٦٨٦ بقوله أنه اقتنع بفكر الموضوع الذى يتضمن محمولاته وبقى فى شك فيما يختص قول ليبنتز أن الله يختار العالم من ممكنات لا نهاية لها ويتسـاءل : ما هو التعاون بين الجوهر أو ما يسمى بالانسجام الأزلى ؟ قد يؤلمنى شخص فى ذراعى وتؤكد روحى آلامى : أليس حركة تمزق الأنسـجة الجسدية هى التى تنتج الألم فى الروح ؟ أريد أن أرفع قبعتى أو أرفع ذراعى ، أليس رغبة الروح هى التى تنتج حركة الجسم ؟

يرد ليبنتز على هذا التساؤل بقوله بالتوازى النفسى الفسيولوجى وما يتبعه من قول بالادراكات المتناهية فى الصغر[٢٢] • ولكى يوضح علاقة الروح بالجسد رغم أن كلا منهما يعمل تبعا لقوانين خاصة يقدم مثال صانع الساعات ، الله ليس صانعا للساعات تنقصه المهارة مثل ذلك الذى تصوره مالبرانش : بل هو صانع خبير وممتاز معا وذلك بان جعلها تبدأ معا ثم يترك العملية الميكانيكية تعمل وحدها بعد ذلك ، هذا هو موقف الصانع الكامل فى صناعته ، لقد وضع ابتداء من لحظة الخالق فى كل وحدة عنصرية ، وفى كل حالة كامنة كل ماستحتاج اليه من تصورات ، وقد ركبها بطريقة تجعل كل واحدة منها تبسط طبيعتها كما لو كانت وحدها فى هذا العالم ، ومع ذلك يجىء سلوكها متسقا فى كل لحظة مع سلوك الآخرين • هذا الاتساق لا ينقص من قوة الله بل على العكس هو خير دليل بعدى يمكن أن نقدمه لاثبات وجود الله منظور اليه على أنه كائن يمثل كل العلاقات بين الجواهر ، أما الوحدات العنصرية فلا يحكمها الا مبدأ تحقيق الأحسن والانسجام التام والنظام[٢٣] •

٢ ــ الأب فوشيه دى كاريل :

فى خطاب الى ليبنتز سنة ١٦٩٦ ينقد نظرية الانسجام الأزلى نفترض ان الله ينتج فى أرواحنا أفكارا معينة تتصل بحركات الأجسام ولكن لماذا لم ينتج هذه الأفكار بدون أن يتأثر فى عمله هذا بتوجيه الأجسام له ؟

وأجاب ليبنتز : « ان الله يفضل وجود كثرة فى الجواهر على وجود قلة منها ، ووجد انه من الأفضل أن تتصل تغيرات الروح بشىء اخرج عنها ، فالانسجام الأزلى يمكن أن ينظر اليه لعى أنه نظرية توازى

---

(٢٢) Emile Thouvrez discours de metaphysique p. 105, 106.

(٢٣) André Cresson; Leibniz p 43. 44.

بين التغيرات فى الأجســام التى تتم وفقا لقوانين طبيعية ، وتغيرات الروح التى تتم وفق قوانين نفسية وحدود المجموعتين يتصل بعضها ببعض فى كل نقطة بدون أن يتداخلا ، وكل منهما يبسط طبيعته بانتظام بغير حاجة للتدخل الالهى »[٢٤] .

٣ — ســـتارك Stark :

يرى أن ليبنتز اللاهوتى والفيلسوف بقيا شــيئا واحدا وقد ساد كليهما فكرة الانســجام الآزلى بين الطبيعة والعناية ، وهى فكرة تزودنا بأبجدية الأفكار الفلسفية وتمكننا من التعبير عن كل شىء فى الســماء والأرض . ولكن يعترضنا الصعوبة الآتية : اذا اعتبرنا أن الآلة الانسانية تحتوى على عدد لا نهائى من الأعضاء ، وأنها دائمــا عرضة للاصطدام بالأجســام التى تحيط بها ، وأن آلافا من التغيرات تطرأ عليهــا نتيجة هــذه الصدمات ، فكيف يمكن تصور أن هذا الانسجام الأزلى لن يضطرب وأنه يجب أن يستمر طوال حياة الانسان ؟ ولنفرض أن كثرة الأعضاء والعوامل الخارجية ضرورية للتغير اللانهائى فى الجســم الانســانى هل سيكون لهــذا التغير الدقة المطلوبة ؟ هل لن يضطرب الترابط بين هــذه التغيرات وتغيرات الروح ؟ ان هــذا يبدو مستحيلا وعلى ذلك يمكن رفض نظرية ليبنتز باعتبارها مستحيلة ، ولاسيما أنها مرتبطة بصعوبة أكبر من صعوبة النظرية الديكارتية[٢٥] . التى تجعل الحيوانات مجرد آلات . فهو يقرر انسجاما بين موجودين لا يؤثر احدهما فى الآخر ، حتى لو افترضنا أنها كالخدم يجب أن تطيع أوامر سيدها فلن نستطيع القول أنها تعمل هــذا دون تأثير حقيقى من سيدها ، لأن السيد سينطق بكلمات ويصدر اشارات ستحرك أعضاء الخدم .

ويعتمد ستارك اذن فى نقده على نقطتين أساسيتين أولاهما احتمال وقوع اضطراب فى الارتباط الذى قرره ليبنتز بين الروح والجسد .

---

(٢٤) H.W. josoph lectures on the phil of 'leibniz p. 64.

(٢٥) W. Strak theodicy of leibniz p. 40, 14, 111.

والثانية استحالة تقرير الانسجام بين موجودين لا يؤثر احدهما في الآخر : القول بان الانسجام الأزلى يتطلب خضوع أحد الطرفين للآخر ولو خضوعا غير مباشر •

وللرد على هـذا النقد نقول ان ليبنتز عندما قرر نظرية الانسجام الأزلى أعلن منـذ اللحظة الأولى ان هـذا الانسـجام الأزلى دليل على قدرة الله وكماله ، فهو الذى خلق هـذا العالم من بين عوالم أخرى ممكنة لا حصر لها • وقد اختاره باعتباره أحسن عالم ، كما أنه سـبق ان قرر منذ اللحظة الأولى لخلقه كل ما سيتضمنه من تغيرات وتعديلات ، وما التعديلات والتغييرات سـوى محمولات متضمنة فى الموضوع ، وما انتقالها من الوجود بالقوة الى الوجود بالفعل الا بفضل ما منحها الله من تصورات وميول داخليـة تعمل وفق مبدأ الأحسن ؟ وبالتالى لن يحدث توقف أو خلل لأن أى نقص أو أى خلل فى هـذه الوحدات العنصرية ينقص من قدرة الله وكماله ومن ثم يستحيل تصور حدوث اضطراب فى علاقة الوحدات ببعضها •

أما القول بأن من المستحيل وجود اتساق بين موجودين لا يؤثر احدهما فى الآخر ، فمن الممكن الرد عليـه بما قاله ليبنتز فى الفقرة الرابعة عشر من مقال ما بعد الطبيعة « ان الله جعل من طبيعة كل جوهر أن يتأثر بما يحدث لغيره من الجواهر ، ولكنه عاد فقرر أن هـذا الأثر غير مباشر ، فمن المسلم به أن ادراكات وتغيرات كل جوهر تتجاوب مع ادراكات وتغيرات غيره من الجواهر وضرب مثلا وجود عدد من الأفراد فى موقف واحد ومكان واحد ولكنهم مع ذلك يعبرون عن هـذا الموقف كل من وجهة نظره الخاصـة • يكفى أن تكون هـذه التغيرات متناسبة وليس من الضرورى أن تكون متشابهة الله وحـده القادر على أن يرى العالم ليس فقط كما تراه الوحدات العنصرية المخلوقة بل قد يراه أيضا مخالفا لـما نراه •

وباختصار الوحدات العنصرية لا تؤثر فى بعضها البعض مباشرة وأن كان هذا لا ينفى وجود تأثير غير مباشر وارتباط وثيق ينظم ما بينهما من تأثير غير مباشر ويحقق ما قدره الله من انسجام أزلى •

٤ — معنى الارادة :

فهم ليبنتز الارادة فهما جديدا يختلف عن فهم الديكارتيين ، سواء فى ذلك ارادة الله أو ارادة الوحدات العنصرية ويؤكد ليبنتز ان كل ارادة تتطلب علة ذاتية تفسر لماذا هى هكذا وليست خلاف ذلك • وبمعنى آخر ارادة كل وحدة عنصرية تنبع من ذاتها وتحقق ما تتضمنه من أفعال وتصبح العلة الكافية لتغيراتها • أما ارادة الله فقد اعتبرها ليبنتز علة ما فى الكون من تغير تبعا لمبدأ الأحسن وتحقيقا للانسجام الأزلى ، أى أنه جعل ارادة الله تتصل بما فى هذا العالم من حقائق عرضية فحسب أما الحقائق الضرورية فيجب أن تعتمد على عقل الله وتصبح موضوعه الداخلى ولا صلة لها بارادته ، وهو فى هذا يعارض الديكارتيين الذين اعتقدوا ان صدق الحقائق الضرورية يعتمد على ارادة الله •

هذا التصور الجديد للارادة آثار كثيرا من الجدل بينه وبين الديكارتيين وخاصة أرنولد الذى رأى أن تصور ليبنتز لارادة الله يؤدى الى الحتمية التى تلغى حرية الله تماما ، لأنه اذا كانت كل فكرة فردية لكل جوهر تتضمن كل أفعاله فى المستقبل بضرورة افتراضية ، فان الممكنات تكون ممكنة قبل أن يأمر بها الله • وتبعا لذلك يخضع الله لعالم من الأفكار الحتمية أعلى منه • وانتهى أرنولد من نقده الى أن لتصور ليبنتز لارادة الله يتنافى مع التصور المسيحى •

ويرد ليبنتز على أرنولد مدافعا عن وجهة نظره التى تقرر أن الفكرة الفردية لكل جوهر تتضمن مرة واحدة كل ما سيحدث له والتى استنتج منها أرنولد أن كل ما يحدث للفرد بل لكل الجنس البشرى يجب أن تحدثه

الضرورية الحتمية ، وأعلن ليبنتز أن خطـأ أرنولد يرجع الى الخلط بين الضرورى افتراضا والضرورة المطلقة • هنـاك فرق كبير بين قولنا ان الله حر تماما فى أن يعمل وبين قولنا انه مضطر الى العمل وفقـا لفروض معينة • لايجدر بنا أن نتصور الله كما يتصوره الذين يحاولون تشبيهه بالانسان الذى يتخذ قراراته تبعا للظروف ، فهذا يجعلنا نتصوره كأنه غير حر فى خلق ما يعتبره خيرا • يجب القول ان الله قد قرر منذ الأزل تتابع كل الأحداث دون أن يقلل هـذا من حريته بأى حال من الأحوال • يجب ألا نعتبر ارادة الله خلق آدم معين على أنها منفصلة عن كل أفعال ارادته الأخرى بأبناء آدم ، وانما آدم معين يتمثله الله تمثلا أكمل من تمثله لغيره من الموجودات الممكنة ، فآدم هـذا يصحبه ظروف فردية معينة ، ومن صفاته أن له على مر الزمان خلف معين ، قليل من التفكير يبين فى وضوح أن تحليل الحدود يوصلنا الى أن فكرة آدم الفردية تعطينا تمثلا كاملا لآدم معين له شروط فردية معينة تميزه عن غيره من الأشخاص الممكنة • وقد فضله الله لأنه يرضيه أن يختار هـذا النظام المعين للكون وان كل ما سينتج تبعا لارادته سيكون ضروريا ضرورة فرضية فقط ولن ينقص هـذا من حـرية الله ولا من حـرية العقول المخلوقة •

٥ ـــ منهج التحليل الفسلفى والقضية التحليلية :

تناول برتراند رسل فى نقده فلسفة ليبنتز عدة أسـئلة منها :

١ ـــ هل تخضع كل القضايا لصورة الموضوع والمحمول ؟

٢ ـــ هل توجد قضايا تحليلية ؟ واذا وجدت هل هى أسـاسية وضرورية •

٣ ـــ كيف يميز ليبنتز بين القضايا الضرورية والعرضية[٢٦] ؟

بالنسبة للسـؤال الأول يرى رسل أن من الممكن اثبـات وجود

---

(٢٦) Mary Morris; philosophical writings of leibniz. p 59-61.

قضايا لا تخضع لهـذه الصـورة كالقضايا التى تعبر عـن العلاقات المختلفة ، علاقة الوضع المكانى ، أو علاقة الأكبر والأصغر ، علاقة الكل والجزء ، وكذلك القضايا التى تعبر عن العدد مثل « هناك ثلاثة رجال » هـذه القضايا لا تخضع لضرورة الموضوع والمحمول لأنها تؤكد تعددا فى الموضوعات وقد نعطى محمولا لكل موضوع من هـذه الموضوعات ولكن لا يمكن أن نعتبرها مجـرد جمع لعدة قضايا كل منها يتكون من موضوع ومحمول ، ومادامت فكرة العدد لا توجد الا نتيجة كونها قضية واحدة وتزول اذا أكدنا أنها مجموع ثلاث قضايا كل منها تمثل رجلا واحدا . هـذا لا يعنى أن ليبنتز أهمل مثل هـذه القضايا بل حاول أن يخضعها لصورة الموضوع والمحمول ليحتفظ بنظريته ، وهذه هى نقطة الضعف . فالقضايا التى تعبر عن العدد أو العلاقات بين الوحـدات العنصرية موجودة فعلا ومن المفروض أن يدركها الله ادراكا صحيحا وستؤدى الى القول ان الله يعتقد فى صدق ما لا معنى له أو الى القول أن هـذه القضية صـادقة ، ومعنى هـذا أنه توجد قضايا صـادقة لا تخضع لصورة الموضوع والمحمول .

بالنسبة للسـؤال الثانى « هل توجد قضايا تحليلية ؟ » لاحظ رسل أن ليبنتز يعتبر كل القضايا المتعلقة بالمنطق والحساب والهندسـة قضايا تحليلية ، أما القضايا التى تعبر عن الوجود ما عدا تلك الخاصـة بوجود الله قضايا تركيبية ؛ فى حين رأى رسل أن الأمثلة التى ذكرها ليبنتز على أنها تحليلية تتعرض لأحد هذين العيبين : بعضها من الممكن أن تظهر أنها ليست تحليلية وذلك فى قضايا الحساب والهندسـة وبعضها الآخر قضايا تحصيل حاصل ومن ثم فهى ليست قضايا على الاطلاق اذ معظمها لا يؤكد شيئا ولن يوصل الى حقيقة صادقة علاوة على أنها تحتـاج الى افتراض قضايا تركيبية تعتمد عليهـا وتؤيد صـدقها . أما بالنسبة للقضية ٢ + ١ = ٣ التى اعتبرها ليبنتز تحليلية كغيرها من قضايا الحساب ، والواقع أنها ليست تحليلية ، بل هى تركيبية . هـذه القضية تعتمد على أن الفكرة البسيطة هى التى لا تؤدى الى تناقض .

ولكن اذا كانت القضية ٢ +١ = ٣ ممكنة فلابد وأن تكون تركيبية لأن الفكرة الممكنة لا يمكن فى تحليلها الأخير أن تكون مجرد فكرة لا تؤدى الى تناقض ، لأن هذا التناقض نفســه يحتاج الى قضايا تركيبية نســتدله منها •

وينتهى رسل الى أن خطأ نظرية ليبنتز يرجع الى تقرير أن القضايا مثل القضية (المثلث المتساوى الاضلاع مثلث) قضايا تحليلية فى حين يرى رسل أنها ليست تحليلية كلهــا ، بل هى نتائج منطقية للقضايا التركيبية التى تؤكد ان مكونات الموضوع من الممكن أن توجد معا ولكن رسل عاد وغير رأيه وأعلن فى مقدمة طبعته الثانية لكتابه عن ليبنتز أنه فى الفترة التى كتبه فيها لم يكن يعرف الا القليل عن المنطق الرياضى وعن نظــرية جورج كانتور George Cantor فى العدد اللانهائى : أما الآن بعد أن اطلع على هــذه البحوث فقد أصبح من الضرورى أن يميز بين القضايا التى نستنتجها من المنطق والقضايا التى لا يمكن أن نستنتجها منه ، الأولى يمكن أن نعرفها على أنها تحليلية أما الأخرى فتركيبية وبذلك يكون رسل قد عاد فاقتنع بصحة مذهب ليبنتز الفلسفى الذى يقوم على نظريته المنطقية فى القضية التحليلية(٢٧) •

أما السؤال الثالث : كيف يميز ليبنتز بين القضــايا الضروريــة والعرضية فقد كانت اجابة ليبنتز هى أن القضايا الضرورية تختلف عن القضايا العرضية كما تختلف اللانهائى عن النهائى أو كما تختلف الاعداد المقيسة عن الاعداد اللامقيسه • القضايا العرضية فى رأى ليبنتز تحدثنا عن وجود فعلى وقع فى لحظة معينة من الزمن ، وأراد بهذا التحديد الزمنى فى الوقوع أن يستثنى القضية التى تثبت وجود الله وجودا فعليا : لأن هذه القضية ــ على خلاف سائر قضايا الوجود الفعلى ــ ضرورة الصدق • أما القضايا الضرورية فهى لا تشير الى واقع معين فى لحظة معينة أو بعبارة أخرى هى ــ باستثناء قضية وجود الله ــ القضايا

(٢٧) Russell P. 17, 21, 22, 25, 26.

التى لا تؤكد وجود موضوعها وجودا فعليا وكأنها فى حقيقة أمرها قضايا شرطية تقول : اذا فرضنا وجود الشىء الفلانى وجودا فعليا فلا بد أن يوجد معه كذا وكذا من لواحقه • فصدق القضية الضرورية لا يعتمد على تحقق موضوعها تحققا فعليا • ووصف القضية الضرورية بأنها أزليه والصدق لا يعنى سوى أن صدقها لا يشير الى لحظة معينة من الزمن ، فهى صادقة أيا ما كانت اللحظة التى تتحقق فيها ولأنها ستظل صادقة حتى وأن لم تتحقق قط فى الواقع • لقد اعتمد رسل فى نقده فلسفة ليبنتز على نقطة أساسية هى صلة ما بعد الطبيعة بالعلوم وخاصة الرياضيات وقد كان لديكارت وليبنتز فضل أثارة هذا الموضوع عندما تزعما الدعوة الى تطبيق المنهج الرياضى التحليلى على ما بعد الطبيعة •

يرد بوترو Boutruaux وكوتوراه Couturat على انتقادات رسل ويظهران أنه لم يكن موفقا فى هذا النقد للاسباب الآتية :

١ — لم يفهم رسل دور مبدأ العلة الكافية الفهم الصحيح ، فقد امتاز هـذا المبدأ بخاصية ميتافيزيقية ولا يعتمد على المنطق وحده كما هو الحال بالنسبة لمبدأ عدم التناقض • هـذا التمييز بين المبدأين جعل ليبنتز يعتقد أننا نستطيع تحليل العرضيات ولكن تحليلنا سيكون لانهائيا• أما خطأ رسل ففى أنه اعتقد أن هذا يعنى أن ليبنتز اعتبر التركيب خاصية للعرضيات •

٢ — بالنسبة لفكرة الجوهر واعتبرها موضوعا يتضمن محمولاته فقد رأى « بوترو » ان تفسير رسل لا يتفق مع فكرة ليبنتز • فقد احتاج ليبنتز لفكرة الجوهر ليوفق بين الكثرة والوحدة : فالموضوع كما تصوره ليبنتز ليس الا معطى entité ما بعد طبيعى قبل أى شىء • وعلى هذا ليس من حقنا أن نطالب ما بعد الطبيعة باهمال الجوهر كموضوع لمجرد أن العلم الحديث لم يهتم بهذه الموضوعات(٢٨) •

(٢٨) Pierre Boutrux ; Etudes critiques sur la philosophie de Leibniz; Revue de Metaphysique et morale; 1904 p. 329 — 333.

٣ ــ ما بعد الطبيعة عند ليبنتز لا تفرض ضرورة القول أن الحقائق الرياضية ، التى ليست الا علاقات ، لا نملك الا وجودا منطقيا فقط ، ولا تنبع الا من مبدأ عدم التناقض وبشكل تحليلى فحسب • الوقائع الرياضية فى نظر ليبنتز ذات دلالات وجودية خارج المنطق extra logique لانهــا تعبــر عن علاقات بين الجواهــر الحقيقيــة أو بين ما فى نفسى من أفكار فطرية • كما يرى أن ارتباط أفكارى ليس من انتاجى. وانمــا يعتمد على عقل الله •

وهذه هى النقطة التى هاجمها رسل قائلا أنها لا تعطينا أى أساس كاف يرضى الحقائق الرياضية مادمنا نؤكد أنها توجد فى العقل الالهى •

ويرى « بوترو » أن رسل لم يوفق كذلك فى تفسير ما قصــد اليــه ليبنتز من هذه النقطة وذلك لأنه لم يدرك أن ليبنتز لا يوافق على جعــل الافكار الرياضية الاولية التى هى موضوع التعريفات ويمكن استخدامها كنقطة بداية ــ نتائج لمبدأ عدم التناقض كما أنه لا يعتقد أنها من خلق عقلنا وانما يتخذ لنفسه موقفا وسط يسوده التفسير ما بعد الطبيعى ونظرية العقل الالهى والافكار الفطرية • قد لا تكون هذه النظريــات كافية ومرضية ولكنها بالرغم من هذا لاتجعل هذا الحل معيبا من وجهــة نظر المنطق • فقد قبل ليبنتز ــ مثل ديكارت ــ وجود روابط تسبق أى تدخل للمبادىء المنطقية فالحقيقة توجد فى الأفكار أو الحدود قبل أن تصل الى قضايا او الحقائق هذه الافكار البسيطة ستكون مادة التعريفات، فاذا أردنا بواسطتها تعريف الافكار المركبة فيلزمنا التأكد أن هــذه الافكار المركبة ممكنة لهذا يجب أن نبدأ بتحليل الافكار المركبة الى عناصرها ثم نبحث بعد ذلك هل هذه العناصر متفقة مع بعضها ، مع أنها غير متناقضة. ولكن ليبنتز يعود فيقرر أنه ليس من الضرورى أن نعتمد على التحليل لكى نصل الى هذا القرار ، وأنما يجب أن نعتمد على الحدس ، اذ هــو الذى يجعلنا نرى اذا ما كان ارتباط الافكار البسيطة التى تكون الفكرة المركبة ارتباطا متماسكا أم لا ؟

ينتهى بوترو من مناقشة نقد رسل الى تقرير أن ليبنتز لا يستخرج كل الرياضة من مبدأ عدم التناقض ما دام قد اعتبر الحقائق الرياضية حقائق حدسية نجدها بشكل تحليلي بشرط أن يبدأ تحليلنا بالافكار التى ستكون مادة تفكيرنا • كل ما يمكن أن يأخذه على ليبنتز هو أنه حصر كلمة تحليل فى أضيق حدودها •فالبرهان التحليلى عند الرياضى يبدو ببساطة — فى نظر ليبنتز — كأنه قياسى يربط موضوعا بمحمول • والاجدر أن نتفق مع رسل فى نقطة واحدة هى دعوته الى ضرورة النظر الى التحليل نظرة أوسع من نظرة ليبنتز هذه النظرة سنجدها فى الفلسفة الكانطية وماتلاها •

وعلى أية حال نفسير رسل لفلسفة ليبنتز تفسيرا منطقا ليس الا تفسيرا من جانب واحد ولا يرضى ليبنتز نفسه • حقا هناك توازيا بين نظرياته المنطقية وما بعد الطبيعية ولكن هذا لا يجيز لنا أن نعتبر مجموعة واحدة من النظريات على أنها النظريات التى أرادها ليبنتز فعلاونترك الأخرى والاجدر بنا أن نفحصها لنرى ما بينها من علاقة ، خاصة وأن ليبنتز نفسه نظر الى الفروض المتقابلة باعتبارها وجهات نظر مختلفة لنفس الموضوع • وكل ما يلزمنا هو أن نحدد الزاوية التى ننظر منها الى الموضوع أو الفكرة وأن نعبر عن وجهة نظرنا كما نراها أو نعتقدها وعلينا أن نجمع بين وجهات النظر المختلفة اذا أردنا أن نحصل على رؤية شاملة ومتميزة لهذا العالم وما فيه من نظام وانسجام •

حقا ما أحوجنا اليوم الى هذا المنهج التحليلى وما أحوجنا الى هذه الرؤية الشاملة •

* * *



ثانيـــــــــــا

ابحـــــات جديدة فى الفهـــــم الانســـانى

نظريـــــة المعــــــرفة



عرض تحليلى للباب الرابع من كتاب ليبنتز

أبحاث جديدة فى الفهم الانسانى

نظريـــــة المعرفـــــة

يعتبر باب المعرفة تلخيصا لاهم الافكار الرئيسية التى تناولها الحوار بين كل من فيلاليت ـــ المعبر عن رأى جون لوك ، كما جاء فى كتاب « أبحاث فى الفهم الانسانى » ، وتيوفيل ـــ المعبر عن رأى ليبنتز فى هذا الكتاب وهو بمثابة الرد على رأى لوك •

يشمل الباب ٢١ فصلا يتناول عدة موضوعات رئيسية :

(أ) المعرفـــــة :

ما هى ؟ درجاتها ؟ امتدادها وحقيقتها • (الفصول ١،٢،٣،٤)

(ب) الحقيقـــــة :

ما هى ؟ ما المقصود بالقضايا الكلية وما حقيقتها ؟ ما يقينها ؟ ما هى البديهيات أو المسلمات؟ ما المقصود بالقضايا التافهة ؟
(الفصل : ٥،٦،٧،٨) •

(ج) الوجود وصلته بالمعرفة :

كيف تثبت وجودنا ووجود الله ووجود الاشياء الخارجية ؟ وسائل زيادة المعرفة وغيرها من اعتبارات • (الفصول ٩،١٠،١١،١٢،١٣) •

(د) الحكم ودرجات التصديق :

ما الحكم ؟ وما الاحتمال ؟ وما هى درجات التصديق (الفصـــول ١٤ ، ١٥ ، ١٦) •

(هـ) مصـــادر المعرفة :

العقل ، الايمان ، الحماس • (الفصول ١٧ ، ١٨ ، ١٩) •

(و) الخطـــــــــأ :

أنواعه ، أسبابه ووسائل تجنبه (الفصل ٢٠) •

(ز) تصنيف العلـــوم :

(الفصل ٢١) •

هذا ونعرض بايجاز لكل موضوع من الموضوعات لنبين أوجه الاتفاق والاختلاف بين لوك وليبنتز وكيف حاول تفـــادى ما تعرض لـــه لوك من نقد أو خطأ •

(ا) المعرفـــــة :

تعريفها ، درجاتها ، امتدادها ، حقيقتها •

يرى لوك أن المعرفة ادراك علاقة الارتباط والآفاق أو التقابل وعدم الاتفاق فى حين يرى ليبنتز أن هذا التعريف ينظر الى المعرفة بمعناها الضيق ولا بد من أن نعرض لها بمعناها الاوسع والتى يقصد بها :

١ ــ العلاقة بين الافكار أو بين الحدود أو بين الحقائق أو بـــين القضايا •

٢ ــ المعرفة بمعنى تفسير أو وصف الاشياء أو تفسير الافـــكار أو القضايا أو الحقائق •

٣ ــ المباحث التى تتوسط الفكرة والقضية •

٤ ــ وصف الاشياء المثالية الخالصة •

٥ ــ وصف المستحيل •

٦ ــ تفسير ودحض الخطأ •

أما المعرفة بمعناها الضيق ، وهى المعرفة الحقيقية التى تقوم على ادراك الاتفاق أو عدم الاتفاق بين الافكار فيلاحظ ليبنتز أن تعريف لوك يثير بعض الصعوبات منها •

١ ـ هذا الاتفاق بين الافكار يستبعد حالات أخرى تكتفى فيها بالتفسير أو التوضيح دون الاهتمام بالبحث عن أدله تثبت حقيقتها •

٢ ـ هذا التعريف يصدق على الحقائق المقولية فقط ولا يتفق مع الحقائق الشرطية المنفصلة أو المتصلة التى تشمل أكثر من فكرتين •

وكما اختلفا فى مفهوم المعرفة اختلفا فى نوع الاتفاق بين الافكار ، يرى لوك أنها أربعة :

١ ـ التطابق أو الاختلاف •

٢ ـ العلاقة •

٣ ـ التواجد معا أو الارتباط الضرورى •

٤ ـ الوجود الحقيقى •

فى حين يجملها ليبنتز فى نوعين فقط :

١ ـ المقارنة •

٢ ـ المؤازرة •

على أساس أن الارتباط بين الافكار ليس سوى نسبة أو علاقة ، مأخوذة بصفة عامة ، وبالتالى لا تخرج عن هاتين العلاقتين : المقارنة تعطى الاختلاف أو التطابق ، أما فى الكل أو فى الجزء ، أو ما يجعل الشىء مشابها أومغايرا • والمؤازرة تحتوى ما يسميه لوك بالتواجد معا أو الارتباط بالوجود • ويلفت ليبنتز النظر الى خطورة الاعتماد على الذاكرة ، وهو وان اتفق مع لوك فى القول أن المعرفة أما أن تكون فعلية تقوم على الادراك الحاضر لصلة الافكار ببعضها أو تكون عادية

يدرك فيها الذهن الاتفاق أو التباين ويحتفظ بها • فى الذاكرة . يقترح طريقة جديدة لكتابة الحساب توفر الجهد والوقت وتسهل المراجعة وتصحح الخطأ وينبه الى ضرورة مراعاة الدقة للوصول الى اليقين •

٢ ــ درجات المعرفة :

أعلى درجات المعرفة هى المعرفة الحدسية التى تعتمد على الادراك المباشر لاتفاق فكرتين دون تدخل أية فكرة أخرى وهى الاوضح والاكثر يقينا وتمدنا بالحقائق الاولية سواء منها الضرورية أو العرضية ، ويحاول ليبنتز تأكيد أهمية الحقائق الضرورية التى نعبر عنها بقضايا ذاتية وتخضع لمبدأ عدم التناقض ويضرب أمثلة من أشكال القياس الارسطى المختلفة ليؤكد اهميتها وفائدتها خاصة فى التجريد • ويلفت النظر الى الخطأ الذى وقع فيه لوك عندما أعتبر القضية ٣=٢+١ نموذجا للمعرفة الحدسية وذلك لأنه لم يميز بين المعرفة الحدسية والتعريف ، أما الحقائق الاولية العرضية فيقصد بها الخبرات المباشرة الداخلية المتصلة بالعاطفة ويضرب مثلا كوجيتو ديكارت والقديس أوغسطين وينتهى الى أنه الحقائق الاولية سواء الضرورية الخاصة بالعقل أو العرضية الخاصة بالواقع تشترك فى خاصية أساسية هى أنه لا يمكن اثباتها بشىء له يقين أكثر •

بعد المعرفة الحدسية تأتى المعرفة الاستدلالية وهى ليست سوى تسلسل للمعرفة الحدسية وهى أقل وضوحا منها ويرى ليبنتز أنها تحتاج الى فن التحليل لتصل الى الافكار المتوسطة ، وهذا التحليل بدوره يحتاج الى فن الابتكار الذى يحتاج الى جهد ومشقة والى مساندة التركيب القائم على الاستقراء والذى ينتقل من البسيط الى المركب ، ونظرا لان التركيب وحده لا يكفى فلا بد من استخدام منهج الاستبعاد ليتخلص من الارتباطات غير المقيدة ، ولا بد أيضا من فن تقسيم الصعوبات واستدلال القضايا المتداخلة • صعوبة أخرى تعترض المعرفة الاستدلالية هى الاعتقاد أن الرياضيات وحدها هى القادرة على اليقين

الاستنباطى فى حين أن من الممكن استخدامه فى مجالات أخرى كالمنطق والقانون والاخلاق وما بعد الطبيعة والطبيعة والسبب فى ذلك أن من السهل فى الرياضيات أن تؤيد التجربة التفكير الاستدلالى فى حين يصعب ذلك فى المجالات الأخرى أو قد يكون استخدام التجربة مكلفا ومرهقا كما هو الحال فى علم الطبيعة مثلا ، والسبيل الى تفادى هذا الخطأ الذى وقع فيه القدماء هو أن تساند التجربة الاستدلال •

الدرجة الثالثة من درجات المعرفة هى الاعتقاد أو الايمان ولهذا من الضرورى الاهتمام بالمعرفة الاحتمالية التى أهملها المناطقة حتى عصر ليبنتز فى حين اهتم بها الاخلاقيون وخاصة الجيزويت ، وان وقعوا فى خطأ هام اذ خلطوا بين ما هو محتمل من جهة وما هو شائع بالمعنى الذى حدده أرسطو فى « الطوبيقا » والواقع أن المحتمل أكثر اتساعا من الشائع •

الدرجة الرابعة هى المعرفة الحسية التى تقرر وجود الجزئيات خارج الذات ويلفت النظر هنا الى ضرورة التمييز بين المعرفة الحسية والاحلام : هناك فارق بين أننا نحلم أننا فى النار وبين أننا فعلا فيها •

ينتهى النقاش حول درجات المعرفة الى تقرير لوك ثلاثة درجات هى : المعرفة الحدسية والاستدلالية والحسية فى حين يضيف اليها ليبنتز المعرفة الاحتمالية ويعترض على الشكاك الذين ينكرون وجود الاشياء خارج الذات بأنهم أفسدوا ما فى قولهم من صواب بأن أرادوا أن يمتد شكهم الى الخبرات المباشرة والحقائق العقلية ، وفى هذا مبالغة لا داعى لهـا كما يلفت النظر الى ما بين الاحساسات والخيالات من اختلاف مؤكدا أن المحك الحقيقى لموضوعات الحس هو ارتباط الظواهر • المهم أن تكون الظواهر مرتبطة وأن تظهر التجربة اننا لا نخطىء فى المقاييس التى نقيس بها هذه الظواهر • كما يؤكد أن الخيال لن يمدنا بالافكار الواضحة ومن ثم لن يساعدنا فى فهم الارتباط •

٣ ــ حدود المعرفة :

معرفتنا محدودة أكثر من أفكارنا فنحن لا نستطيع الالمـام بكل ما نرغب فى معرفته مما يتصل بما لدينا من أفكار ، بالاضافة الى مالدينا من أفكار مختلطة لا نعرفها معرفة كاملة والى أننا لا نملك المنهج الذى يحدد أفضل البناءات • وتطرح مشكلة أساسية هى : هل يفكر الكائن المـادى ؟ وما يترتب عليها من صلة النفس بالجسد ويحاول ليبنتز تناولها من خلال مبدأ التناسق الاولى موضحا أن المـادة يقصد بها المـادة الثانية وليس المـادة الاولى التى هى شىء سلبى غير كامل تعترض جوهرا بسيطا أو وحدة حقيقية لديها الادراك ولواحقه •

وبعبارة أخرى لتحديد صلة الروح بالجسد لا بد من الانتقال من عالم المحسوسات والظواهر الى عالم المعقولات والجواهر • ومن ثم الانتقال من معرفة المـادة من الخارج الى معرفة داخلها لتظهر ما هى قادرة عليه بصورة طبيعية المـادة لا يمكن أن توجد بدون جوهر غـير مادى ، أى بدون وحدات عنصرية (موناد) ، وأما اذا لم يكن لهـذه الجواهر هذا الترابط وهذا التناسق فلن يكون الله قد تصرف وفق النظام الطبيعى ، ويرفض القول أن الله قادر على أن يعطى المـادة المقـدرة على الادراك لان ذلك يعنى العودة الى القول بما قاله المدرسيون من ملكات أو يجعل من المـادة جوهرا •

النقطة الثانية التى تتصل بحدود معرفتنا تؤكد ضرورة الاكتفـاء بالاحتمال والايمان فى معرفة الكثير من الاشياء وخاصة بالنسبة لخلـود الروح أو غايات الاخلاق والدين والتى لا تحتاج الى الادلة مستمدة من الفلسفة كما أنها ليست فى حاجة الى المعجزات كما أعتقد البعض • ويوضح أهمية مبدأ التناسق الازلى الذى قرر صلة الروح بالجسـد بصورة أكثر تنظيما وأكثر ترابطا يقضى على كل شك فى وجود ما ليس بامتداد ويؤكد أن التغيرات المختلفة لا تصدر عن الامتداد أو عن الطبائع السلبية أو الطبائع الجزئية النشطة الا بالفعل الكلى للجوهر الاسمى •

نقطة ثالثة تثيرها صلة الفكر بالمـادة وتخص مصدر اللذة والالم وغيرها من الافكار كاللون أو الصوت وهل هذه من انتاج الجسد أم الروح ؟ يرى ليبنتز أنها من انتاج الروح اتفاقا مع ما يحدث فى المادة ، أى انها تنتج حسب العلل التوافقية ، اما رغبة الله الطيبة فتبدو فى أنه نظم الاشياء وفق طبائعها بحيث لا تنتج ولا تحفظ سوى ما يناسـبها وما يمكن أن تفسر حسب طبائعها • وبالتالى لا بد من وجود توازى مستمر بين قدرة الله وحكمته •

النقطة الرابعة تتصل بالصفات الحسية وما تزودنا به من قدرات وأفكار غامضة ومن ثم تتطلب الاعتماد على التجربة وربطها بأفكـار عن الصفات الحسية تتطلب أن تكون معرفة الروابط هى المجال الاوسع لمعرفتنا •

النقطة الخامسة تتصل بالاخلاق وصلتها بكل من اللاهوت وما بعـد الطبيعة وفيها يطرح أمران أولهما مالهذه المجالات الثلاثة من يقين لا يقل عن يقين الرياضيات والثانى محاولة ليبنتز اعتمادا على فن الارتبـاط أن يستخدم الاشكال والرموز بدلا من الكلمات ويذكر المحاولات السابقة فى هذا المجال وخاصة محاولة كل من فيجيلوس وايرهارد وفيجل فـى الاخلاق وصمويل بوفندور فى مجال الفقه ويلاحظ أن الامور الاخلاقية تتميز بقابليتها للتجديد بواسطة العقل وحده وهذا ما دفعه الى البحث عن الوسائل الصحيحة لامتداد فن البرهنة الى ما وراء الحدود القديمـة السائدة لدى علماء الرياضة ليطبقها على مجال الاخلاق وليؤكد أهميـة التجربة فى العلوم الطبيعية والفلكية والطب والسياسة والاخلاق •

النقطة السادسة تتعرض لأسباب جهلنا وأخطائنا والتى أرجعها لوك الى :

١ ــ نقص الافكار •

٢ ــ عدم اكتشاف الارتباط بين الافكار •

٣ ــ اهمال تتبعها وفحصها بدقة •

٤ ــ عدم وجود الافكار المتوسطة سواء تلك التى تأتى عن طريــق الحواس الداخلية أو الخارجية •

ويضيف ليبنتز أن معظم شرورنا ترجع الى خطئنا والى أننا نستخدم القليل مما تقدمه لنا الطبيعة الرحيمة مؤكدا أن لدينا الكثير من الأمور التى نفخر بها وأننا حققنا الكثير فى مجال تفسير الظواهر بفضــل اعتمادنا على التجارب ، وكل ما ينقصنا هو فن استخدام التجربة الذى سيكمل البدايات المتواضعة التى تحققت فعلا ، كما يلفت النظر الى أننا تقدمنا أيضا فى كشف الارتباطات بين الافكار بفضل سيطرة العقل على المــادة الذى جعل من الانسان اله صغيرا يحاكى المهندس البارع الخالق للكون معتمدا على مبدأ التناسق الازلى وتبين القوانين التى تخضع لهــا الاجسام أما عدم الحصول على الافكار المتوسطة فيرجــع الى ســوء استخدام الكلمات وهو سبب الكثير من الفوضى السائدة فى معارفنــا ليس فقط فى مجال الاخلاق وما بعد الطبيعة بل فى الطب أيضا ولن نتخلص من هذا العيب الا باستخدام الرموز الجبرية أو غيرها من الوسائل التى لها نفس الطبيعة •

٤ ــ حقيقة المعرفة :

البحث فى حقيقة المعرفة يطرح سؤالين أساسيين :

(ا) هل الافكار فطرية أم مكتسبة ؟

(ب) هل الابله وسط بين الانسان والحيوان ؟

يرفض ليبنتز قول لوك أن الافكار البسيطة مكتسبة وتعتمد على الحواس ويؤكد أنها فطرية لا تخضع لأى تأثير مباشر على النفس وأن أساس يقين الحقائق الكلية يكون فى الافكار نفسها مستقلة عن الحواس ، أما حقيقة الاشياء العرضية فتعتمد على مدى ارتباط الظواهر التــى نعرفها بالحس بالصورة التى تتطلبها الحقائق الذهنية • وبهذا يبــدو

مجال الاختلاف بين ليبنتز ولوك : ليبنتز يميز بين الحقائق الكليــة والحقائق العرضية ولوك يميز بين الافكار البسيطة والافكار المركبــة من جهة وبين الافكار المركبة المتصلة بالجوهر وتلك المتصلة بالاعراض من جهة أخرى •

يرى ليبنتز أن الافكار المركبة ليست من اختراعنا ، كما أن أفكارنا عن الجواهر التى توجد خارج أنفسنا تكون حقيقية بقدر اتفاقها مــع النماذج الاصلية الموجودة فى عقلنا واذا عجز العقل عن الحكم باتفاقها أو ارتباطها أصبحت غامضة شأنها شأن الصفات الخاصة بالحــواس •

السؤال الثانى يتصل بتعريف الانسان ويرى ليبنتز أن الانسان يتميز بملكة التفكير ومن ثم لا يمكن للابله أن يكون وسطا بين الانسان والحيوان • ويرفض أن نحكم على الابله أو المشوه بمجرد الشــكل الخارجى ، فنحن لا نهتم بالشكل وانما بالعقل والله لم يخلق هــذا الكائن عبثــــا •

(ب) الحقيقـــــــــــة :

ما هى ؟ هل هى اسمية ؟ وما أنواعها ؟ وما صلتها بالقضايا ؟

١ ــ معنى الحقيقة :

الحقيقة فى نظر لوك هى ارتباط العلامات وفق اتفاق الاشـــياء فيما بينها أو انفصال هذه العلامات فى حالة عدم اتفاق الاشــــياء فيما بينها وبعبارة أخرى الحقيقة هى اتفاق القضايا مع الاشياء التى تعبر عنها • يعترض ليبنتز على هذا التعريف للاسباب الآتية :

١ ــ الصفة لا تكون قضية ومع ذلك هناك ارتباط بين الصــفة والموصوف (الانسان عاقل) •

٢ ــ النفى يختلف عن الانفعال •

٣ ـ الاتفاق أو عدم الاتفاق لا يقتصر على القضية وحدها (هناك اتفاق بين البيضتين مثلا وعدم اتفاق بين الخصمين) •

٤ ـ الحقيقة لا تقتصر على الكلمات فحسب •

لهذا رفض ليبنتز أن تكون الحقيقية اسمية ، لأن هذا سيؤدى الى وجود حقائق لفظية تختلف عن الحقائق التى نكتبها بحروف المطبعة ، ما دمنا سنميز بينها بالعلامات فحسب • الحقيقة عند ليبنتز تعتمد على علاقة الموضوعات بالافكار وليست على العلاقة اللغوية القائمة بين القضية والشىء • يكتفى الذهن أحيانا بملاحظة الحقيقة دون محاولة فهمها فى الوقت الحاضر مقتنعا بأنه يستطيع فهمها عندما يريد •

يميز ليبنتز بين أنواع ثلاثة من الحقيقة : الحقيقة الاخلاقية التى تعتمد على الصدق والحقيقة ما بعد الطبيعية التى تصف الوجود والحقيقة الناتجة من اتفاق القضايا التى فى الذهن مع الاشياء التى تخصها • وهذا النوع الأخير هو الذى يهتم به أكثر ولهذا يهتم بتحديد معنى القضايا وخاصة القضايا الكلية ويوضح حقيقتها ويقينها • ويتعرض للاسئلة الآتيـــة :

١ ـ هل يمكن معرفة الحقائق العامة والجزئية ؟

٢ ـ هل معرفتها مرتبط بالكلمات التى تعبر عنها ؟

٣ ـ ما دور البديهيات ؟ وما فائدتها ؟ هل يمكن الاستغناء عنهـا •

٢ ـ القضايا الكليـة :

يرى لوك أن معرفة الحقائق العامة لا تكون الا بقدر ما هـى مدركة ومعبر عنها بالكلمات • ويعترض ليبنتز على هذا متعرضا لخصائص اللغة وامكان استخدام الاشكال بدلا من الكلمات حتى يسهل الاتصال بين الامم من جهة واثراء اللغة السائدة وجعل تصوراتها أكثر حقيقية والكتابة أكثر راحة من جهة أخرى •

واذا كان لوك يميز بين فرعين من اليقين : يقين الحقيقة عندما ترتبط الكلمات بطريقة معينة فى قضايا وتعبر بدقة عن الاتفاق أو الاختلاف كما هو ، ويقين المعرفة الذى يتكون من ادراك اتفاق ، واختلاف الافكار بقدر ما تعبر عنه القضايا • فأن ليبنتز يرى أن يقين المعرفة يكفى دون استخدام الكلمات وأن من الممكن الحصول على عدد لا حصر له من القضايا العامة التى تصدر عن العقل وعن صفات أخرى نعرفها فى موضوعها والتى لها حقائقها ومفاهيمها الداخلية التى يمكن أن نعرفها بالعلاقات الخارجية • وبعبارة أخرى يرفض ليبنتز افتراض لوك أن الصفات الحسية وما نحصل عليه من أفكار تتصل بالاشكال والحركات الطبيعية انما تعتمد فقط على رغبة الله الذى يمنحنا هذه الافكار • مؤكدا على العكس من ذلك أن التكوين الداخلى للاجسام هو الذى يجعلنا نحصل على الصفات التى تخضع بدورها لأسباب معقوله ، حتى عندما لا نستطيع معرفتها حسيا ، كما فى تحليلنا اللون الاخضر الى اللونين الازرق والاصفر فاليقين الذى نصل اليه هنا يقين تجريبى يتصل بالواقع وليس بالضرورى أن يكون يقينا قائما على اتفاق أو عدم اتفاق الافكار • يعود ليبنتز مرة أخرى الى بيان أهمية ومزايا المنهج الذى استخدمه والذى يعتمد على الارقام بدلا من الحروف • .

وبالنسبة للبديهيات ودورها فى المعرفة فان لوك يرى عدم جدواها فهى لاتمدنا بأى معرفة للكائنات الخارجية باستثناء وجود الله • ويعترض ليبنتز على ذلك موضحا أن قضية مثل « أنا موجود » قضية واضحة بذاتها ولا يمكن أثباتها بقضية أخرى ولا بحقيقة مباشرة أو أنها قضية واقع قائمة على تجربة مباشرة وليست قضية ضرورية نرى ضرورتها فى الاتفاق المباشر للافكار : الله وحده هو الذى يرى كيف يرتبط الحدان : أنا والوجود وبالتالى هذه القضية بديهية بالمعنى الاوسع للكلمة أى باعتبارها حقيقة مباشرة وغير قابلة للبرهنة •

واذا كان لوك يرفض القاعدة السائدة فى المدارس والتى تقرر أن « كل تفكير صادر عن الاشياء المعروفة فعلا والمسلم بها » وبالتالى

يرفض أن نعتمد الحقائق على البديهيات بحجة أن البديهيات ليست أولية ، ودليله على ذلك أن الطفل لا يحتاج اليها ليميز بين قطعة خشب وقطعة سكر ، فأن ليبنتز فى مناقشته مفهوم البديهيات وأهميتها يستعرض الاعتراضات التى ذكرها لوك ويرد عليها مبينا وجه الخطأ فى كل اعتراض ونجملها فيما يلى :

١ ـ القول ان البديهيات ستكون كثيرة ومتعددة يرد عليه بأمكان اخضاعها الى أقل عدد ممكن •

٢ ـ القول أن وظيفة البديهيات الاساسية هى أسكات المعارضين وليس دعم العلوم ، يرد عليه بقوله أن الهندسة وغيرها من العلوم الرياضية تعتمد أصلا على البديهيات •

٣ ـ القول أن الوحى قادر على تعريفنا بديننا ولسنا فى حاجة الى البديهيات ، يرد عليه أن هذا يشبه القول أن الطب القائم على التجربة لن يحتاج الى العقل فى شىء : اللاهوت الحقيقى وهو الطب الحقيقى للنفوس والمؤسس على الوحى لا يستغنى عن اللاهوت الطبيعى المعتمد على بديهيات العقل •

٤ ـ القول بوجوب التمييز بين وسيلة اكتساب المعرفة ووسيلة تعليمها فالبديهيات تصلح لتعليم الآخرين وتوصيل المعارف اليهم ولا فائدة لها فى اكتساب المعرفة • يرد ليبنتز أن العلوم المختلفة وخاصة الرياضيات والطبيعيات لا تستغنى عن البديهيات التى بدونها ستظل اكتشافاتها ناقصة •

٥ ـ القول أن الحاجة الى البديهيات جاءت نتيجة لما قررته المدارس من اعتبار النقاش محكا لمهارة المتخاصمين •

يتعرض ليبنتز لفن الجدل مبينا ظروف انتشاره ومدى تطبيقه فى المجالات المختلفة ، وهو فن هام ولكن لسوء الحظ أسىء تنظيمه وأسىء

استخدامه • العيب ليس فى فن الجدل وانما فى طريقة استخدامه ويجب اعادة تنظيمه •

٦ ـ القول أنها ليست وسيلة لتحديد النزاع وانما هى وسيلة لجعلها لانهائية ولارهاق الخصم يرد ليبنتز بالتعرض للنتائج السيئة التى تترتب على الاستطراد والتفريعات ويطالب بأن تكون التعريفات فى أضيق نطاق •

٧ ـ يرفض القول أن الفلسفة المشائية هى التى أدخلت فن الجدل وأعتبرت البديهيات أساسا للعلوم وسندا هاما للتقدم فى معرفة الاشياء • ويؤكد أن صياغة البديهيات يرجع أصلا الى الغريزة العامة والعاقلة لدى الجنس البشرى وأن المدارس المشائية لم تفعل سوى تنظيمها وترتيبها •

٨ ـ القول أنها تستخدم أحيانا فى تأييد الاخطاء وخاصة عندما ترتبط بأفكار خاطئة أو غامضة أو غير يقينية ، ويؤكد ليبنتز أن سوء استخدام البديهيات لا يعنى لوم استخدامها بوجه عام والا حق بنا أن نتمرن على صياغة الادلة التى نستخدمها صياغة صورية تتحاشى الوقوع فى الخطأ •

٩ ـ القول بأن استخدام البديهيات فى القضايا اللفظية لا يعطى أى معرفة عن الجواهر الموجودة خارج أنفسنا • ويرد ليبنتز مؤكدا أن استخدام البديهيات ساعد فى تقدم علم البصريات وعلم الضوء وأثبت كل ما يحدث خارج أنفسنا من أفعال الضوء بناء على البديهية التى تقرر ان الطبيعة تعمل بأقصر الطرق •

ويختم ليبنتز دفاعه عن البديهيات واهميتها ودورها فى الوصول الى الحقيقة مؤكدا أن العيب ليس فى استخدام البديهيات وانما فى سوء استخدامها •

ويعرض ليبنتز بعد ذلك للسؤال : هل القضايا الذاتية ذات فائدة ؟ يرى لوك أن القضايا الذاتية لا فائدة منها ولا تتضمن أى معرفة اللهم الا أنها تظهر للمرء ما يمكن أن يكون قد تورط فيه من لا معقوليه •

ويوضح ليبنتز أن هذا ليس بالامر التافه ما دام أخضاع قضية ما للامعقولية يعنى أثبات نقيضها ويذكر المبررات التى تؤكد أن هذه القضايا مفيدة وبالتالى يرد على اعتراضات لوك الآتية :

١ ــ لا يتعلم المرء من مجرد القول أنه لا يمكن أثبات ونفى نفس الشىء فى نفس الوقت ولكنه يتعلم ذلك من خلال الممارسة وبملاحظة أنه يفعل ذلك فى مناسبات متعددة دون أن يفكر فى ذلك •

٢ ــ يصعب التخلص من أدلة الخلف التى تؤدى الى اللامعقول •

٣ ــ من الممكن أن نشكل العديد من هذه القضايا بأقل جهد ولكنها ستكون قليلة النفع •

ويرد ليبنتز على هذه الانتقادات مؤكدا ضرورة أن نوضح كيف يجب استخدام هذه القضايا استخداما صحيحا يظهر فائدتها وخاصة فى مجال التعبير عن القضايا الاخلاقية وهى وان كانت لا تعرفنا شيئا جديدا فأنها على الاقل تجعلنا نفكر فى ضوء ما نعرف : قولنا « الانسان العاقل انسان » يجعلنا نفكر فى أن الانسان ليس معصوما وأنه ميت • وقولنا « النقود الفضية قابلة للصهر » يجعل الشخص الذى فى حاجة الى قذيفة لمسدسه أن يفكر فى طريقة يصهر بها النقود الفضية التى معه ليصنع منها القذيفة التى يحتاجها •

أما القول أن القضايا العامة المعبرة عن الجواهر قضايا تافهة لان كل من يعرف دلالات كلمات مثل جوهر ، أنسان ، حيوان ••• الخ يستطيع أن يشكل العديد من القضايا التى لا يمكن الشك فيها ولكنها غير مفيده ، والدليل على ذلك ما فى كتب ما بعد الطبيعة واللاهوت المدرسى من

قضايا وأستدلالات لا حصر لها • قراءتها لا تعلمنا شيئا عن الله أو العقل أو الاجسام أكثر مما كنا نعرفه قبل قراءتها •

يرد ليبنتز موضحا أنه رغم أن كتب ما بعد الطبيعة وغيرها التى من هذا النوع لا تعلمنا سوى كلمات ولا تعطينا سوى الافكار الغامضة ، وفى هذا أساءة للعلم ، الا أن هذا لا يمنع من الاعتراف بأن لـــدى المدرسيين أمثال « سوريز » نماذج من الحوار جديرة بالاعتبار وأنهم ناقشوا أفكارا مثل اللامتناهى ، المستمر ، العرضى ، المجرد ، مبدأ التفرد ، النفس وملكاتها ، العون الالهى للمخلوقات •

وبعبارة أخرى يجب الاعتراف أن هذه المعادن غير النقية لا تخلو من ذهب خالص ، ومن الواجب أن نستفيد منها دون أن نضيع وقتنا فى الحشو من الكلام غير المفيد • ويعلن محاولة تشييد ما بعد الطبيعـــة حقيقية تقيم الحقائق على العقل مدعما بالتجربة ويتعشم أن يحقق تقدما ملحوظا فى مجال المعرفة العامة وأن تقترب ما بعد الطبيعة من الصورة التى طالب بها أرسطو ، أى ان تصبح العلم المرغوب فيه وأن تصبح علاقتها بغيرها من العلوم كعلاقة المهندس بالعمال ، أى أن تصبح العلم الاعم الذى تعتمد عليه باقى العلوم وتستمد منها مبادئها وأن تصبح علاقتها بالاخلاق كعلاقة النظرية بالممارسة مؤكدا أن اعتماد الاخلاق على ما بعد الطبيعة يضفى على العدالة والفضيلة شمولا واتساعا ولا يجعل الاخلاق تقتصر على الحاضر كما كان الامر لدى سقراط أو الامبراطور مارك أنطون وأبيقور وأنما ستدعمه ما بعد الطبيعة بنظريات عامة تسمح بفهم ما فى الكون من نظام وتناسق وتساعد على رؤية مستقبل بدون حـــدود •

النقطة الاساسية اذن فى نظر ليبنتز هى الاهتمام بالقضايا الذاتية والتعرف على ما يمكن أن تقدمه من فائدة فى مجال المعرفة وخاصة عندما تحسن استخدامها ويقترح تشييد ما بعد طبيعة حقيقية تساعد على اقامة اخلاق جديدة لا تكتفى بالحاضر وانما تتطلع الى المستقبل •

واذا كان لوك قد حاول التخلى عن ما بعد الطبيعة التقليدية لما فيها من تصور فان ليبنتز يصر على التمسك بها ويدعو الى تطويرها وتجديدها لتتمشى مع مقتضيات عصره وتكون سندا للاخلاق •

(جـ) الوجود وصلته بالمعرفة :

ينتهى النقاش الى طرح السؤال : كيف نعرف الوجود الحقيقى ؟

يرى لوك أن القضايا الكلية لا تعطى سوى الارتباط بين الاشياء الموجودة والماهيات والتى لا نعرفها الا بالتجريد ومن ثم فهى لا تعطى أى معرفة للوجود الحقيقى ، ويرد ليبنتز موضحا أن أولئك الذين يميزون بين الماهية والوجود ينسبون كل ما هو عرضى الى الوجود ، والافضل ان ننظر الى العرضى بصورة أضيق بحيث يصبح الطبيعى وسطا بين ما هو أساسى أو جوهرى وما هو عرضى وبحيث يمكن القول أن السيولة طبيعية بالنسبة للماء وليست أساسية •

وبالنسبة لكيفية معرفة الوجود الحقيقى فقد ذهب لوك الى أننا نعرف وجودنا بالحدس ونعرف وجود الله بالاستدلال ووجود الاشياء الاخرى بالاحساس • الحدس لا يسمح بأدنى شك فى وجودى ويمدنى بأعلى درجة من اليقين لهذا الوجود ويضيف ليبنتز أن الادراك المباشر لوجودنا يزودنا بالحقائق الاولية سواء منها القبلية المعتمدة على العقل أو البعدية المتصلة بالواقع •

ولكن كيف نثبت وجود الله ؟

يذكر لوك الادلة الاتية :

١ ــ وجود الله لا يحتاج الا التفكير فى أنفسنا وفى وجودنا الذى لا شك فيه •

٢ ــ معرفة أننا نوجد تتطلب وجودا حقيقيا •

٣ ــ العدم الخالص لا ينتج كائنا حقيقيا وما دام كل ماله بداية يجب أن يوجده شىء آخر فأننا نستنتج وجود شىء ما منذ الازل ••

٤ — كل شيء يستمد وجوده من غيره يستمد أيضا كل ما يخصه وكل ملكاته وبالتالى لابد أن يكون قادرا .

٥ — لا يمكن للمادة أن تكون مصدرا لمعرفة الانسان .

٦ — الله الكائن الخالد والخالق والقادر والعاقل ومن العبث القول أن الانسان قد خلق بالصدفة .

يعترض ليبنتز على استنتاج لوك وجود شيء ما منذ الازل لما يثيره من غموض ، ولانه اذا كان هذا يعنى عدم وجود زمان لا يوجد فيه شيء ، فان العدم لن ينتج شيئا اطلاقا وبالتالى لن نوجد نحن أنفسنا وفى هذا تناقض مع الحقيقة الأولى من حقائق الواقع . واذا كان هذا يعنى أنه شيء خالد فليس فى الاستدلال الذى ذكره لوك ما يثبت انه اذا وجد شيء فلابد وأن يكون خالدا .

الاعتراض الآخر الذى يذكره ليبنتز هو ذلك الذى يمكن أن يذكره الانيقوريين مثلا الذين ينكرون أن يكون شيء واحد مصدرا لكل شيء ولكل القــدرات .

الاعتراض الثالث يرى أنه على فرض أن تفكيرنا يصدر عن كائن مفكر فليس ضروريا أن يكون ذلك الكائن المفكر هو الله .

وقد أعترض ليبنتز أيضا على أدلة ديكارت المشتقة من فكرة الله وخاصة الدليل المشتق من دليل « أنسلم » الذى يثبت وجود الله قبليا عن طريق فكرته الخاصة دون أن يلجأ الى آثاره ويرتكز اعتراضه على أن الدليل كما ذكره ديكارت غير تام وحاول أن يتم هذا الاستدلال ليصبح ذا وضوح رياضى ويظهر ما يمكن أن يترتب على هذا الدليل ما بعــد الطبيعى من نتائج أخلاقية .

كما يعترض على دليل ديكارت الثانى الذى يثبت وجود الله بناء على وجود فكرته فى أنفسنا — كلاهما يعيبهما فى نظر ليبنتز أنهمـا

يفترضان أن الله ممكن • وفى هذا نوع من الغموض فنحن مثلا عندمـا نتحدث عن الحركة الآلية المستمرة فنحن نعرف ما نقول مع أن هذه الحركة نفسها مستحيلة فنحن اذن لا نحصل عنها الا على فكرة ظاهرية ، كما يعيبهما أنهما لا يثبتان أنه اذا حصلنا على فكرة الله فمن الضرورى ان تكون صادرة عن الأصل • وينتهى من مناقشة أدلة كل من لوك القائمة على وجودنا ووجود الاشياء الحسية أو أدلة ديكارت القائمة على وجود فكرة الله فى انفسنا الى تفضيل ما ذكره من أدلة تعتمد على مبدأ التناسق الأزلى دون أن يستبعد أى دليل يعتمد على نظام الاشياء فى اثبات وجود الله فكلها أدلة مقبولة لا يجوز اهمالها انما يجب اكمالها •

بعد اثبات وجود الله يدور البحث حول اثبات أنه كائن مفكر ولا يمكن أن يكون ماديا وقد أثبت لوك استحالة أن يكون ماديا بقوله « الجزء من المـادة لا ينتج شيئا بنفسه ولا يمنحه الحركة وبالتالى أما أن تكون حركته خالدة أو أن تكون قد طبعت فيه بواسطة كائن أقوى ، اذا كانت حركته خالده فلن تكون قادرة على انتاج المعرفة • الفكرة العامة التى لدينا عن المـادة تجعلنا نعتبرها كأنها شىء وحيد فى العدد ولكنها ليست أساسا شيئا فرديا وبالتالى اذا كانت المـادة أول كائن خالد مفكر فلن يكون كائنا وحيدا فريدا لانهائيا ، وانما سيكون عدد لانهائيا من الكائنات الخالدة اللانهائية المفكرة المستقلة بعضها عن بعض ، محدودة القوة • ومن ثم لن يستطيع أبدا انتاج هذا النظام وهـذا التناسق وهذا الجمال • الذى نلاحظه فى الطبيعة اذن لن تكون المـادة أول كائن خالد » •

يوافق ليبنتز على استدلال لوك ويكمله ليصبح متفقا مع مبدأ التناسق الأزلى ، فهو لا يعتبر المـادة وحدة عنصرية وانما هو مجرد تكتل من عدد لانهائى من الكائنات ، فى حين تستمد الوحدة العنصرية ايجابيتها وسلبيتها من علة أسمى وأعم ، حتى يتسنى لها أن تحقق التناسق والجمال السائد فى الطبيعة •

الفارق الاساسى بين دليل كل من لوك وليبنتز هو أن دليل ليبنتز ما بعد طبيعى يجعل كل وحدة عنصرية تعبر بطريقتها الخاصة عما يحدث خارجها ولا يمكنها أن تؤثر على الكائنات الأخرى الا بسبب داخلى يعتمد على العلة الكلية التى تجعلها فى تناسق مع غيرها وكل ما يأخذه ليبنتز على لوك أنه يتردد فى اكمال استدلاله وأنه لم يضع فى الاعتبار ما ذهب اليه الافلاطونيون الذين لديهم فكرة مختلفة عن كل من العقل والمـادة •

والآن كيف نعرف وجود الاشياء الاخرى ؟

هل يمكن الاعتماد على المعرفة الحسية فى اثبات وجود الاشياء الخارجية ؟

يرى لوك أن الانطباعات والتأثيرات التى تسببها الاشياء الخارجية كفيلة أن تجعلنا نعرفها وبعبارة أخرى شهادة الحواس كاملة وقادرة أن تعطينا يقينا ومن العبث اذن أن نشك فى وجود البشر فى العالم عندما لا نراهم ، كما أن الذاكرة تساعدنا فى معرفة الاشياء الماضية ولكنها لا تساعد فى الحكم على وجودها الحاضر وباختصار يرى أن معرفة الاشياء الاخرى خلاف انفسنا والله يمكن أن تعتمد على الحواس أو على الذاكرة أو على الايمان والوحى • أما ليبنتز فيرى أن الذاكرة خادعة وقد يدعمها الايمان فى بعض الاحيان وقد تعتمد على الصدفة أحيانا •

واذا كان لوك قد صنف القضايا الى جزئية تتصل بالوجود وعامة تتصل بارتباط الافكار والحقائق الخالدة ، فان ليبنتز يصنفها الى قضايا واقع وقضايا العقل ، قضايا العقل عامة ضرورية أما قضايا الواقع يمكن أن تكون عامة ولكن عموميتها ليست كاملة لانها لا تعتمد على الضرورة وقـد يزودنا العقل بقضايا احتمالية وممكنة وقضايا مختلفة مشتقة من مقدمات بعضها يأتى من الواقع وبعضها يأتى من القضايا الضرورية •

واذا تساءل البعض عن الاساس الحقيقى ليقين الحقائق الضرورية الخالدة اجاب ليبنتز الاساس هو العقل الكلى السامى الذى هو المبدأ المنظم للموجودات •

وســائل زيادة معارفنا :

ينتقل الحوار الى المنهج اللازم للوصول الى اليقين ويؤكد ليبنتز أن مبدأ المبادىء وأساس المعرفة الحقيقية هو حسن استخدام الأفكار والتجارب اعتمادا على التعريفات والبديهيات وبعبارة أخرى لابد من منهج يقوم على فن الاكتشاف والحصول على الأدلة وتوضيح الافكــار المتوسطة وتنظيمها • ويعتمد هــذا المنهج على أساسين رئيسين أولهما البدء بالبديهيات والتعريفات لنصعد بخطوات صغيرة وبتسلسل مستمر الى اثبات الحقائق التى قد تبدو فى بداية الأمر انها تفوق طاقة البشر وثانيها الاعتماد على التجربة التى تفسر الظواهر وتساعد على التنبؤ فى مجال الممارسة • ويشير انى ما حققه بيكون فى مجال التجريب فقد استطاع صياغة القواعد التى تمكن « نوبل » من ممارستها وتطبيقها فى مجال العلوم الطبيعية • كما يشير الى ما حققه ديكارت وأسبينوزا اعتمادا على المبدأ الذى يقرر أن كل شىء فى الطبيعة يتم آليا •

(د) الأحكام ودرجات التصديق

١ ــ معنى الحكم :

ينتقل الحوار الى مجال جديد يتصل بالأحكام وما يتبعها من احتمال وتصديق وما تثيره من مشــاكل تتصل بدور كل من العقــل والايمان والحماس فى الوصول الى الحقيقة •

يبدأ الحوار بتحديد التعريفات المختلفة للحكم التى يذكرها لوك وهى :

١ ــ الحكم ملكه نستخدمها احيانا وقد نقنع به بالضرورة أحيانا وقد نقبله لنقص فى المهمة أو الصبر أو المهارة احيانا اخرى •

٢ ــ هو التصديق عندما نسلم بالصدق قبل الحصول على الدليل فاذا أتفق مع حقيقة الاشياء أصبح الحكم صوابا •

ويضيف ليبنتز الى ذلك أنه الفعل الذى نفعله بعد أن تعرف السبب • هذه التعريفات للحكم تتطلب التمييز بينه وبين الاعتقاد على أساس ان الاعتقاد ليس يقينا ، كما يتطلب التمييز بين التخمين والظن فالتخمين يعتبر صوابا الى ان يثبت العكس أما الظن فيحتاج الى أن نقابله بظن آخر ، التخمين لا يقصد به التسـليم قبل الدليل وانمـا يقصد به التسليم مقدما بناء على اساس فى انتظار الدليل الذى ينقصه •

أما الاحتمال فيقصد به لوك الارتباط الظاهرى القائم على ادلة لا تظهر الارتباط الثابت فى حين يقصد به ليبنتز ما يقوم على ما يبـدو صادقا أو ما يتفق مع الحقيقة وهنا أثير النقاش حول أهمية شهادة الآخرين : يرى لوك أنها بالرغم من أنها تجعل الواقع محتملا لا يجب أن تتخذ رأى الاخريين أساسا حقيقيا للاحتمال ؟ فى حين يرى ليبنتز أن شهادة الأخرين لها أهميتها فى مجالات معينة وخاصة لدى القضاة وفى حسم النزاع بين رجال الدين •

٢ ـ درجات التصـديق :

رأى لوك أن درجات التصديق تعتمد على أسس الاحتمال ولا تتجاوز درجة الظاهر الذى نجدها فيه ولن تقوم على رؤية فعلية وعلى ذلك يجب ألا نتمادى فى الشك أو نتمسك بالخطأ أو نتوقف عن الحكم فى الأمور التى لن نصل فيها الى معرفة يقينية •

ويضيف ليبنتز أن قرارات ذهننا المعتمدة على الاحتمال يجب ألا تكون ثابتة وعلينا أن نكون مستعدين لمراجعة تفكيرنا كلما اعترضنا أسس جديدة أما اذا لم يكن لدينا الوقت للتروى علينا أن نتبع الحكم الذى نصدره باعتباره حكما صحيحا •

يحذرنا لوك من ارغام أى فرد على اعتقاد شىء ما ومن استخدام العنف فى أرغام الآخرين على قبول أى رأى • ويتفق معه ليبنتز فى هذه النقطة ويضرب أمثلة من تعنت بعض رجال اللاهوت مما أدى الى

نشوب الحروب الأهلية بين المتعصبين والمتسامحين • ويؤكد أن للآخرين الحق في التمسك باعتقاداتهم بل ونشرها اذا آمنوا بأهميتها باستثناء الاعتقادات التي تحث على الجريمة فمن واجبنا القضاء عليها واستخدام العنف لو استدعى الأمر •

أما عن درجات التصديق فهي تتمشى مع نوع القضايا : القضايا التأمليه لا تعتمد على شهادة البشر وقضايا الواقع تعتمد على شهادتهم ويمكن ترتيبها على النحو التالي :

١ ـ اليقين أو أعلى درجات الاحتمال عندما تتفق شهادة جميع الناس في جميع العصور مثلا النار تحرق •

٢ ـ الثقة التي نعتمد على ما يقرره جميع المؤرخين •

٣ ـ اعتقاد ثابت عندما تؤيد طبيعة الاشياء أو لا تعارض هذا الـواقع •

٤ ـ الظن والتخمين والشك عندما تتعارض شهادة الشهود مع التيار الطبيعي أو عندما يتعارض الشهود بعضهم مع بعض يصبح ظنا وفي هذه الحالة يلزما الدقة لنصدر حكما صوابا •

يقارن ليبنتز بين هذه الدرجات من التصديق وبين ما قرره رجال القانون من قرائن وتخمينات ومتواترات سواء منها ما يتصل بالقوانين المدنية أو القوانين الجنائية ، كما يقارنها بما لدى الأطباء من درجات التصديق تعتمد على علامات ودرجات الاختلاف التي تساعدهم في تشخيص المرض • ويلفت النظر الى ضرورة ادخال عنصر الصدفة أو الحظ ، ويستطرد ليتحدث عن اهتمام علماء الرياضيات بدراسة الصـدفة في الألعاب وخاصة « دي ميري » و « بسكال » و « هيوجينز » ويطالب بضرورة الاهتمام بدرجات الاحتمال كما يحذرنا من شهادة المعاصرين للواقعة وما يشوبها من هجاء أو تشهير أو مبالغة • كما ينصحنا بضرورة التأكد مما نأخذه عن الأصول القديمة أو الأساطير أو القصص القديمة

وذلك بأن نطابق بينها وبين ما يصاحبها من مخطوطات أو اثار فنية ، كما ينصحنا الاهتمام بالتنقيب فى الماضى وكتابة تاريخ الفنــون المختلفة التى تتصل بالملابس أو فن الخياطة أو غيرها وباختصار يقترح أن نحصل على تاريخ كلى شامل يسجل معارف ومهارات البشر وتكون بمثابة أمثلة غير عادية تحثنا على الفضيلة •

الى جانب درجات التصديق بالاشياء التى تقع تحت حواســنا هناك تصديق بالاشياء غير الحسية وغير القابلة لأى شهادة مثل وجــود وطبيعة الملائكة والشياطين والكواكب الأخرى ، وهى كلها أمور تعتمد على المقارنة ولا تبدو محتملة الا بقدر تناسبها مع الحقائق المقررة ونظرا لأننا نتدرج من المحسوس الى اللامحسوس فأننا نحتاج الى شهادة الوحى والايمان ومن ثم لابد من التمييز بين التصديق الطبيعى والتصــديق المتصل بالوحى والايمان والذى يفوق الطبيعة •

(هـ) مصادر المعرفة : العقل والايمان والحماس :

١ ــ معنى العقل :

التمييز بين التصديق الطبيعى والتصديق المتصل بالايمان يطرح أسئلة تتصل بالمقصود بكل من العقل والايمان والحماس من جهة والصلة بينهما من جهة أخرى ؟

يعرف لوك العقــل بأنه :

١ ــ المبادىء الواضــحة والحقيقية •

٢ ــ النتائج المستدلة من هذه المبادىء •

٣ ــ الملكة التى تميز الانسان عن الحيوان والعلة النهائية •

وظيفته أن يمدنا بالمعارف وينظم اعتقاداتنا ويشمل ملكتين : الفطنة التى تحصل على الأفكار المتوســطة ، والاســتدلال أو اســتخراج النتائج • وله أربعة درجات :

١ ــ اكتشاف الأدلة .

٢ ــ تنظيمها بطريقة تظهر ارتباطها .

٣ ــ ادراك الارتباط فى كل جزء من الاستدلال .

٤ ــ استدلال النتيجة .

ــ ويقصد به ليبنتز :

١ ــ الحقيقة المعروفة التى بارتباطها بحقيقة أخرى أقل منها تصديق الأخيرة .

٢ ــ علة كل من الحكم والحقيقة .

٣ ــ العقلى القبلى أى معرفة علة الأشياء استجابة للعقل وأحيانا تسمى هذه العلة عقلا .

٤ ــ الملكة التى تدرك هذه الرابطة بين الحقائق .

٥ ــ ملكة التفكير وتشمل جزئين متميزين : الاختراع والحكم .

ويطرح سؤال آخر يتصل بأهمية القياس ودوره كأداة للعقل ووسيلة لملكة التفكير . وقد رأى لوك عدم جدواه لعدة أسباب منها :

١ ــ يساعد فى رؤية الارتباط بين الأدلة فى مثال واحد وحسب .

٢ ــ الذين يستخدمون أشكاله وانماطه يعملون وفق قانون واضح وضعه استاذهم دون أن يفهموا علته .

٣ ــ اذا كان القياس ضروريا فلن يعرف العقل الانسانى أى شىء قبل اكتشافه خلق الله الانسان حيوانا ذا ساقين وترك لارسطو مهمة أن يجعل منه حيوانا عاقلا .

٤ ــ عدد قليل من الناس يمكنهم الاهتمام بفحص أسس الأقيسة .

٥ ـ هذه الوسيلة ليست الوسيلة الوحيدة ولا الافضل للتفكير ، وأرسطو نفسه لم يصل اليه بواسطة هذه الاشكال وانما عن طريق التوافق الواضح بين الافكار •

٦ ـ المعرفة التى نكتسبها بواسطة النظام الطبيعى فى الاستدلال أفضل بدون سـند من أى قياس •

٧ ـ يلزمنا أن نعرف أى الارتباطات لديه الفكرة المتوسطة بين أول القياس وآخره وهذا ما لا يمكن لأى قياس أن يثبته • فالعقل هو الذى يستطيع أدراك هذه الافكار عن طريق التجاور ورؤيته الخاصة فما فائـدة القياس ؟

٨ ـ يمكن أن نستخدم الأقيسة فى اكتشاف الخطأ المستتر وراء بريق البلاغة وتجنب الفطنة المقنعة ولكن الفحص الدقيق أظهر أنه علينا نميز بين الافكار التى تعتمد عليها النتائج وتلك التى تكون سطحية وأن نرتبها فى نظام طبيعى يظهر تنافرها •

٩ ـ اذا كان القياس مفيدا فلن يفوت الأمراء أن يستخدموه فى المناقشات الهامة التى تخص عرشهم أو مصالحهم •

١٠ ـ هذه الأشكال المدرسية لا تخلو من خداع ومن النادر جدا أن تقنع الخصم •

١١ ـ اذا أدخلت استدلالات خاطئة فى القياس فمن الواجب اكتشاف هذا الخطأ بوسيلة أخرى غير القياس •

بالرغم من هذه العيوب لا يرى لوك مانعا من استخدام القياس ولا يرى داعيا لأن نحرم أنفسنا من وسيلة يمكنها أن تساعد الفهم : وحجته فى ذلك انه اذا كان هناك عيون لا تستطيع أن ترى بدون نظارة فليس معنى ذلك أن نلزم الجميع باستخدام النظارة •

أما دفاع ليبنتز عن القياس فيعتمد على أنه من أحسن ما صنع العقل

البشرى وأحقها بالتقدير وهو نوع من الرياضة الكلية يحتوى على فن العصمة من الخطأ ، بشرط أن نحسن استخدامه وهذا ليس يسيرا دائما ويتطلب استخدام الادلة الصورية بالمعنى الذى يجعل كل استدلال نستدله بطريقة صورية لا يحتاج لاضافة أى موضوع آخر • ويستطرد فى ذكر أمثلة من الأقيسة ليوضح كيف نستخدم الصور المنطقية بالطريقة التى يريدها • ويثبت خطأ قول لوك أن القياس لا يستخدم الا لرؤية الارتباطات بين الادلة فى مثال واحد فحسب • وليؤكد أهمية استخدام الحساب الجبرى أو حساب اللامتناهى الذى يدعو اليه لما يمتاز به من مزايا •

بعد الانتهاء من تعريف العقل والدفاع عن القياس واثبات أهميته فى التفكير الاستدلالى يعرض ليبنتز لنقطة أخرى هى الحجج التى يمكن استخدامها للاقناع والتى يجملها لوك فى الحجج الاربعة :

١ ــ الاقناع عن طريق السلطة والمركز •

٢ ــ المطالبة بدليل أفضل •

٣ ــ الضغط على الشخص بما يقول هو نفسه •

٤ ــ استخدام الادلة للاقناع •

ويلفت ليبنتز النظر الى ضرورة التمييز بين ما يحسن قوله وما هو جدير بأن نعتقده • لدينا العديد من الحجج التى يمكن أن يستخدمها العقل لاقناع الاخرين ، كما يلفت النظر الى التمييز بين ما يعارض العقل وما يفوق العقل : الاول يشمل كل ما هو غير متفق مع أفكارنا الواضحة والمتميزة والثانى يشمل كل احساس لا نرى ان صدقه أو احتماله يمكن أن يخضع للاحساس أو التفكير وبذلك يكون وجود أكثر من اله واحد يعارض العقل وبعث الموتى يفوق العقل • وينبهنا الى ما يمكن أن يثيره تعبير « يفوق العقل » من غموض أو لبس ، فقد يقصد به كل ما نجهله ولا نستطيع معرفته فى حالتنا الحاضرة ، مع أن هناك من الوقائع

معرفتها تفوق عقلنا ليس لانها فوق الحس وأنما لنقص المعلومات أو الاعضاء التى اذا حصلنا عليها أمكن معرفتها • والواقع أنه ليس هناك ما يفوق العقل لان الله يستطيع دائمـــا أن يعطينا الوسائل لمعرفة أى حقيقة وهنا تطرح مسألة الصلة بين العقل والايمان ويرفض ليبنتز القول بتقابلهما ويفضل القول أن الايمان يؤسس علي العقل وبالتالى رفض القول أنه لا داعى لبذل الجهد وتقديم الحجج والمبررات للأمور التى تتصل بالاعتقاد وكذلك القول بفصل الفلسفة عن اللاهوت • ويؤكد أن نظام الطبيعة نفسه مؤسس بناء على رغبة الله الطيبة بحيث يمكن أن يستبعد عنها ، لمبررات عليا تتطلبها العناية كل ما لا يجب أن يحدث الا بناء على أدلة جيدة لا يمكن أن تأتى الا من شهادة الله نفسه التى يجب أن تمتثلها كلية عندما تتحقق كمـــا ينبغى •

نقطة أخرى يثيرها صلة العقل بالايمان هى ضرورة التمييز بين الوحى الأصيل والوحى التقليدى : الأول يصنعه الله مباشرة فى العقل ؛ والثانى يأتى بالطرق العادية للاتصال ولا يعطى أفكارا جديدة بسيطة كما أن الوحى المباشر لا يخطىء مطلقا ولهذا لن نسلم بأى قضـــية باعتبارها وحيا الهيا اذا ما تناقضت مع المعرفة المباشرة والا لمـــا وجد اختلاف بين الحق والباطل أو بين الاعتقاد الصادق والاعتقاد الباطل ، لانه ليس من المناسب مطلقا أن يصدر من الله ، هذا الصانع الخير لوجودنا والـــذى نسلم بحقيقته ، ما يقلب أسس معارفنا ويجعل كل ملكاتنا بغير فائدة • وتأكيدا لمـــا ذهب اليه من صلة العقل بالايمان يعرض لبعض المشكلات التى أثارها اللاهوتيون منهـــا :

١ ــ النزاع القائم بين أصــحاب المذهب الذى ينكر الثالوث وألوهية المسيح من جهة والكاثوليك أو المصلحين من جهة أخرى مبينا خطأ أصحاب هذا المذهب لرفضهم مالا يتفق مع نظام الطبيعة طالمـــا لم يتمكنوا من اثبات استحالته ؛ وخطأ خصومهم الذين دفعوا هذا السر الى حدود التناقض فأضروا بالحقيقة التى حاولوا الدفاع عنهـــا •

٢ ـ النزاع حول الضرورة المنطقية والضرورة الطبيعية وهل يمكن للجسد ألا يكون فى محل ، ويرى أنه اذا لم نتمكن من اثبات الضرورة المنطقية فلا أقل من اثبات الضرورة الطبيعية •

٣ ـ النزاع حول التسليم بحرفية النص أو القول بالتأويل ويرى أن هناك أمورا يجب قبول النص فيها وحالات أخرى لابد من تأوليها •

٤ ـ النزاع حول أمكان أثبات التثليث عقليا ومحاولة البعض ذلك•

٥ ـ النزاع حول الذين ماتوا قبل ان يعرفوا العهد القديم ولديهم ايمان طبيعى يمكن أن ينقذهم ويناقش الرأيين السائدين فى عصره الرأى الذى يقرر أن الله لا يرفض عنايته لهؤلاء الذين لديهم المشاعر الطيبة ، والرأى الذى يتهم حتى الأطفال الذين توفوا دون تعميد ويميل ليبنتز الى الفريق الأول مؤكدا أن الله أكثر محبة للبشر من البشر مقتنعا بأن الله لن يعمل شيئا لا يكون مليئا بالخيرية والعدالة •

وأخيرا يعرض ليبنتز لقضية الالهام وما يتصل به من حماس دينى لدى بعض الافراد الذين يتصورون أنهم أصحاب الهام أو وحى مباشر • ويثير قضية هل يصلح الخيال مرشدا ومصدرا للوحى ؟ أننا نعرف أن للشيطان ضحايا ، فاذا أكتفينا بالاقتناع وحده لن نميز بين أوهام الشيطان والهامات الروح القدسى ، حقا اننا نستطيع التثبت مما يقوله القديسون الذين يتقبلون الوحى من الله مباشرة بالعلامات الخارجية والمعجزات التى تدعم النور الداخلى •

يعترض ليبنتز على هذا النوع من الحماس الدينى القائم على الخيال الخصب لدى بعض الأشخاص والذى يجعلهم يتخيلون أمورا وتصورات لم تكن لديهم من قبل • ويذكر العديد من الأمثلة عن الشخصيات التى عرف عنها ذلك (الآنسة التى تخيلت أنها تتحدث الى المسيح وأنها زوجته ، القديسة تريزا فى أسبانيا). ويلاحظ أنهم يلزمهم المعجزات التى تدعم دعواهم حتى نؤمن بهم • ويؤكد عدم جدوى هذه التنبؤات

التى لا أساس لها والتى كان لها آثارها الضارة على من اعتقدها ، وان كان من الممكن أن تستفيد منها فى جوانب أخرى لان الله يستطيع أن يستخدم الخطأ ليدعم الحقيقة ، ولكن يجب ألا نسمح لأنفسنا أن نستخدم الخداع وسيلة لغاية طيبة . أما عقائد الدين نفسها فليست فى حاجة مطلقا الى تجليات جديد ويكفى أن نقترح قواعد ملائمة نتبعها دون حاجة الى معجزات ، والمسيح نفسه ، مع أنه لجأ الى المعجزات ، رفض أحيانا أن يعتمد عليها فى اقناع المنحرفين الذين طالبوه بالادلة ، ما دام لم يأت الا ليبشر بالفضيلة وما يدعو اليه العقل الطبيعى والانبياء .

(هـ) الخطـــــا :

يرجع لوك خطأ البشر الى أربعة أسباب أساسية :

١ — نقص الأدلة .

٢ — قلة الخبرة فى اســتخدامها .

٣ — نقص فى ارادة استخدامها .

٤ — قواعد الاحتمال الخاطئة .

يهتم ليبنتز بما يضمن استمرار الحياة وينقصهم الكثير كالقراءة وتعلم اللغات وملاحظة الطبيعة والاهتمام بالفن وليس لديهم الوقت للتفكير فى الجانب الروحى والتزود بالثقافة الدينية أو غـيرها من الثقافات .

تدفعنا هذه الحالة الى التساؤل هل يمكن أن ترجع سعادة البشر أو شقاؤهم الى الصدفة ؟ وهل الاجدر بهم أن يتخلوا عن الاعتقادات السائدة وعدم الانقياد وراء مرشديهم والمسئولين فى بلادهم ؟

يجيب ليبنتز أن الامر لا يرجع الى الصدفة ويؤكد أن الذيـــن لا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم أو التفرغ للبحث فى الحقائق الصعبة

التى لا تمس مشاغل حياتهم ، يمكنهم أن يتبعوا المشاعر المسموح بها وأن يكون لديهم قابلية للتصديق والارادة الطيبة التى تسمو بهم والتى يزودهم بها الله الخير والعادل والرحيم بعبادة . أما أولئك الذين ينقصهم المهارة لتقييم ما لديهم من أدلة ، ويكتفون بقياس أو قياسين . فلا حصر لهم وهناك نماذج منهم فى كل مكان (فى القصور أو البورصة أو المستشفيات أو المنازل الصغيرة) ويرى ليبنتز أن الاغنياء ينقصهم هذه المهارة أكثر من الفقراء لأنهم يضعون أنفسهم باختيارهم فى نوع من الفاقة والحرمان تمنعهم من التفرغ للاعتبارات الهامة ، أما أولئك الذين ينقصهم القدرة وهم قلة فان ما لديهم من فطرة سليمة وممارسة يكفى لتحقيق كل ما لا يحتاج الى يقظة اذ أن أرواحهم رغم ما بينها من اختلاف أصيل لا ينقصها سوى حسن التوجيه . فريق آخر لديهم الارادة ولكن يغلب عليهم الانغماس فى الملذات أو الكسل أو الاهمال والنفور من الدراسة والتأمل مما يعوقهم عن البحث عن الحقيقة بل هناك من يخشى مواجهة الحقيقة ويفضل البقاء فى الجهل . وهناك من يسلم قيادة نفسه لغيره ممن هم أقل مكانه ولكنهم متفوقون فى العلم والمعرفة . وهؤلاء هم أسوأ نموذج من البشر لا ليس أسوأ من عبودية الذهن . ويضيف ليبنتز الى هذه النماذج من البشر الذين يقعون فى الخطأ أولئك الذين يهملون صحتهم التى هى أكبر ثروة ، وأولئك الذين ينظرون الى الفكر على أنه من عمل الشيطان ولا بد من التغلب عليه بتوجيه ذهنهم وجهه أخرى . ويرجع كل هذا الى عدم الاهتمام بالعلوم والفنون وتاريخ اللغات ويقترح ليبنتز تأليف موجز (مختصر) يضم اهتمامات الانسان يشبه ذلك الموجز الذى قدمه القديس أوغسطين لقوى وحاجات الدولة .

أما الاخطاء الصادرة من المقاييس الخاطئة للاحتمال فأن لوك يرجعها الى :

١ — القضايا المشكوك فيها والتى نأخذها على أنها مبادىء .

٢ — الافتراضات المقبولة .

٣ ــ السلطة •

ويضرب لوك مثالا للقضايا المشكوك فيها والتى نأخذها على أنها مبادىء موقف الشخص العادى من مشكلة سر القربان ومدى تجاوبه مع النظرية التواجدية التى قالها لوثر والتى تؤكد أن الوجود الجوهر الالهى فى القربان لا يمنع وجود الخبز والخمر ؛ ويرد عليه ليبنتز من خلال شرح النظرية الانجليكية وموقفها من الحضور الحقيقى لجسد الرب فى سر القربان ويقارن بينها وبين نظرية كل من لوثر وكالفين •

أما الاخطاء الناتجة عن قبول الافتراضات والتمسك بها كأنها مبادىء مؤكدة والتى يصعب التخلص منها ، فأن ليبنتز ، مع اتفاقه مع لوك فى خطورة هذه النقطة ، يحاول أن يوضح أهمية هذه الافتراضات فى مجال العلم مستندا الى ما حققه كوبرنيق وديكارت من ثورة علمية بناء على افتراضات ثبت صحتها رغم المعارضة الشديدة التى تعرضوا لها لعدم توافر الحرية الفكرية والفلسفية •

أما عن الأخطاء الناتجة من السلطة التى يساء فهمها والتى تجعل الناس فى جهل فهى أخطر من غيرها وتقوم على نظرية قديمة اعتقدها القدماء واستمرت طوال القرون ليؤمن بها معاصرى لوك وليبنتز والتى ترى أن المرء يكون فى مأمن من الخطأ عندما يؤمن بما هو سائد وشائع يحاول لوك أن يبين خطورة التسليم بهذا الرأى ويوضح أن التأمل فى الدوافع الخفية التى يتعرض لها العلماء والرؤساء والاحزاب يظهر أنهم بعيدون تماما عن الحب الخالص للحقيقة • ويشير ليبنتز مرة أخرى الى كتاب القديس أوغسطين الذى يعرض فيه موقفه من السلطة ويؤكد أننا لا نملك أرغام أى شخص على اتباع اعتقاد ما أو التخلى عن اعتقاد ما لاننا لا نملك الدليل المعارض وليس من حقنا أن نغير شيئا بدون سبب • ويستشهد على ذلك بما حدث عندما عجز لاهوتيو حزب روما عن تدعيم سلطة الكنيسة وسلطة أصحاب المقام الاسمى فيها بالاحتكام

الى الاستدلال العقلى فاضطروا الى اخضاعها لتقرير الواقع والاعتراف بالعرف . وهذا ما فعله أيضا كل من « هنرى هولدن » الانجليزى فى كتابه « تحليل الايمان » وجريستر العالم الجيزوينى فى كتابه أيضا « تحليل الايمان » عندما قررا أن الدور الحقيقى للكنيسة هو تقرير نظرية سائدة فعلا أو توضيحها ، ويقترح ليبنتز لتفادى هذا الخطر تأليف سجل يضم القضايا التى تقررها أو تحرمها المجالس والبابوات والقساوسة والرؤساء والتى تخدم تاريخ الكنيسة وتساعد البشر فى الوصول الى ايمان ضمنى بدلا من أن يستسلموا استسلاما أعمى ، قد يكون بحسن نية ، لاحكام الآخرين ، وقد اكتفت الكنيسة الرومانية بهذا الايمان الضمنى الذى يجعل الثقة شرطا ضروريا للسلام .

(ز) تصنيف العلوم :

نصل الى الفصل الأخير الذى يعرض فيه ليبنتز موقفه من تصنيف لوك العلوم الى ثلاثة أنواع :

١ — علم الطبيعة أو الفلسفة الطبيعية التى تضم كل ما يتصل بالاجسام ومتعلقاتها من عدد وحجم وشكل وأرواح وملائكة بل والله نفسه .

٢ — الأخلاق أو الفلسفة العملية الذى يعلمنا الوسيلة التى نحصل بها على ما هو خير ومفيد ولا يقتصر على معرفة الحقيقة فحسب بل يدعو الى ممارسة ما هو صواب .

٣ — المنطق أو معرفة العلامات التى تدل على أفكارنا وتساعدنا فى تبادلها مع الآخرين .

يرى لوك أن هذه الفروع الثلاثة تمثل ثلاثة ممالك مستقلة منفصلة عن بعضها ومتميزة عن بعضها يعترض ليبنتز على تصنيف لوك لأنه تصنيف عرفه القدماء وثانيا ما يثيره من صعوبات أهمها :

١ ـ المنطق كعلم للتفكير والحكم والاختراع يختلف عن علم اشتقاق الكلمات واستخدام اللغات ، والتقسيم الذى قال به لوك يجعلنا نتبع فى العلم نفس الطريقة التى نتبعها فى المعاجم •

٢ ـ لا بد فى علم المنطق من التعرض لتعريف الحدود •

٣ ـ هذا التصنيف يجعل كل علم من العلوم الثلاثة يبتلع العلمين الآخرين : فالأخلاق والمنطق مثلا سيدخلان فى مجال علم الطبيعة لأن الحديث عن الاذهان أى الجواهر التى لديها فهم وأرادة يجعلنا نتعرض لعلم المنطق والاخلاق • كذلك الامر بالنسبة للفلسفة العملية أى الاخلاق باعتبارها تساعد على تحقيق سعادتنا تتطلب علم اللاهوت والسياسة والقانون والطب • وباختصار ستصبح الممالك الثلاثة فى صراع مستمر وحرب دائمة ما دام كل مملكة منها تعتدى على حقوق المملكتين الاخريتين •

هناك تصنيف آخر قال به الاسميون الذين يعترفون بوجود من العلوم الجزئية بقدر ما يوجد من حقائق والتى يمكن تشكيلها فى مجموعات يمكن ترتيبها •

تصنيف ثالث يقارن معرفتنا بمحيط ذا مساحة واحدة ولا يقسم الى أقسام الا بخطوط وهمية تعسفية وذلك لأن الحقيقة الواحدة يمكن أن توضع فى أكثر من مكان حسب الحدود التى تحتويها أو حسب الاسباب التى تعتمد عليها أو النتائج التى يمكن أن نحصل عليها •

أما التصنيف الذى يقترحه ليبنتز فيعتمد على ثلاثة نظم رئيسية نظام تركيبى يرتب الحقائق حسب نظام الأدلة ، كما يفعل الرياضيون بحيث تعتمد كل قضية على ما قبلها ونظام تحليلى عملى يبدأ بالخبرات التى تجعل السعادة فى القمة ويمدنا بالوسيلة التى تجعلنا نكتسب هذه الخبرات ونتجنب الشرور والثالث نوع من الفهرست للحدود التى ترتبها أما حسب المحمولات التى نعبر عنها أو نرتبها أبجديا وفق

اللغة المعترف بها لدى العلماء هذا الفهرست ضرورى للحصول على كل القضايا التى يدخل فيها هذا الحد • ويلاحظ ليبنتز أن هذا التقسيم يتفق مع تقسيم لوك فالنظام التركيبى يتفق مع علم الطبيعة والنظام التحليلى يتفق مع الاخلاق والفهرست الخاص بالحدود يتفق مع المنطق ولكنه يختلف عن تقسيم لوك فى أن هذه المجالات مترابطة وغير منفصلة وغير متميزة كما أراد لوك فهى ترتيبات مختلفة لنفس الحقائق •

ويضيف ليبنتز تصنيفا آخر يقسم العلوم حسب الملكات والمهن الى اللاهوت والتشريع والطب والفلسفة ، على أن ترتب الحدود الداخلة فى كل قسم ترتيبا أبجديا ويؤخذ على هذا التصنيف مافيه من أخطاء كثيرة وما فيه من تسميات مختلفة لنفس الشىء الواحد •

ويختم ليبنتز حواره برأيه الذى عبر عنه فى أكثر من مجال وهو الا نحتقر أى تصنيف أو أى فكرة والا نرفض أى وجهة نظر وانما واجبنا أن نعمل على استكمال ما فيها من نقص وتحاشى ما فيها من خطأ أو عيب وينصح الشباب بأن يقبلوا على تعلم التاريخ وفن الكلام وأصول اللاهوت وما بعد الطبيعة كما ينصح الفلاسفة والمفكرين من معاصريه بالا يهملوا أو يحتقروا المهن الاخرى وأن يجمعوا بين النظر والعمل فقد كان الأطباء قديما يجمعون بين الطب والجراحة والصيدلة ، وأن يلموا بفنون الحرب والموسيقى والرسم والنحت بل عليهم ألا يحتقروا الحرف المختلفة • أنهم أن فعلوا ذلك أصبحوا بحق معلمى الجنس البشرى وحققوا الكثير وساعدوا على تغيير الحالة الحاضرة التى يعيشها مجتمعهم وخاصة فى مجالى الأدب والسياسة واذا كانت البشرية قد حققت تقدما منذ قرن أو قرنين فان ما ننتظره من اصلاح وتقدم وخير للجنس البشرى سيكون أكثر فى المستقبل خاصة لو منح الله البشر حاكما صالحا •

ثالثـــــا

ترجمة الباب الرابـــع

نظريـــــة المعرفـــــة



البـــــاب الرابـــــع

فى المعرفـــــــــة

الفصل الاول : فى المعرفة بوجه علم :

فيلاليــــــت :

١ ــ لقد تحدثنا حتى الآن عن الأفكار والكلمات التى تمثلها . نصل الآن الى المعارف التى تمدنا بها الافكار ، لأنها لا تتصل الا بأفكارنا .

٢ ــ والمعرفة ليست سوى ادراك علاقة الارتباط أو الاتفـــاق أو التقابل وعدم الاتفاق التى توجد بين فكرتين من أفكارنا . وهى كذلك دائما سواء كنا نتخيلها أن نخمنها أو نعتقدها فنحن مثلا ندرك بهــذه الطريقة أن الابيض ليس بالأسود .

وان هناك ارتباط ضرورى بين زوايا المثلث ومساواتها بقائمتين .

تيوفيــــــــل :

اننا ننظر الى المعرفة نظرة أعم ما دامت توجد ايضا فى الأفكار او الحدود قبل أن نصل الى القضايا أو الحقائق ، ويمكن القول أن ذلك الذى رأى بوعى ، الاكثر من صور النباتات والحيوانات ، والاكثر من أشكال الآلات ، والاكثر من الاوصاف أو التمثلات للمنازل أو القلاع ، والذى قرأ الاكثر من القصص البارعة ، والذى استمع للاكثر من الحكايات الشيقة ، أقول أن ذلك الشخص لديه معرفة أكثر من أى شخص آخر حتى وان لم توجد كلمة واحدة صادقة فى كل ما وصف أو حكى له ، لأن ممارسة القدرة على تمثل ذهنه للكثيرمن التصورات والافكار الواضحة والفعلية تمكنه أكثر من تصور كل ما يعرض له ، ومن المؤكد أنه سيكون أكثر ثقافة وأقدر من شخص آخر لم ير ولم يقرأ ولم يسمع شيئا ، بشرط

الا يأخذ فى هذه القصص والتمثلات ما هو غير حق على أنه حق والا تعوقه انطباعاته عن التمييز بين الحقيقى والخيالى ، أو التمييز بين الموجود والممكن لهذا لم يخطىء بعض المناطقة من عصر الاصلاح التابعين لراموس •

١ ــ عندما قالوا أن الحجج ومصادر الكتشافات (الادلة كما يسمونها) تستخدم كثيرا فى تفسير أو وصف مناسب تماما لمبحث غير مركب أى لشىء أو فكرة وموافقاته لاثبات المبحث المركب كالفرض (الموضوع) أو الحقيقة • ويمكن أيضا تفسير الغرض لنعرف معناه وقوته ، دون أن يتطلب ذلك التعرض لحقيقته أو اثباته ، مثل ما نراه فى المواعظ أو الخطب الاخلاقية التى تفسر فقرات معينة من الكتاب المقدس أو فى قرارات بعض نصوص القانون المدنى أو الكنيسى ، حيث نفترض مقدما صدقها • يمكن أيضا القول أن هناك مباحث تتوسط الفكرة والقضية • وهى أسئلة منها ما يتطلب فقط الاجابة بلا أو نعم وهى أقرب من القضايا • ولكن هناك أيضا أسئلة تتطلب الكيف والحالات •••• الخ • وحيث يلزم أن نضيف الكثير لنجعل منها قضايا ، حقا أنه يمكن القول أنه فى الاوصاف (حتى الاشياء المثالية الخالصة) يوجد اثبات مضمر للامكانية ولكن من الحق أيضا أن من الممكن أن نتناول تفسير واثبات الخطأ مما يساعد أحيانا فى حسن دحضها ، كما أن من الممكن أن نطبق فن الوصف على المستحيل •

هـذا ما نجده مثلا فى قصص الكونت سكانديانو Scandiano الخيالية والتى سار على منوالها آريوست Arioste وفى قصص أماديز دى جول Amadis des Gaules وغيرها من القصص القديمة • وقصص العفاريت التى بدأت تنتشر مرة أخرى منذ سنوات • وفى القصص الحقيقية التى كتبها لوسيان Lucien

٢ ــ ورحلات سيرانودى برجيراك Cyranoe de Bergerac علاوة على ما فى الزخارف الاسطورية للرسامين (فى القرن ١٥ ، ١٦ فى

ايطاليا) • ومن المعروف أيضا أن لدى علماء البلاغة العديد من المقدمات والتمرينات التمهيدية • ولكن اذا أخذنا المعرفة بمعنى أضيق ، أى المعرفة الحقيقية ، كما فعلت هنا ياسيدى ، أقول أن من الحق تماما أن الحقيقة تقوم دائما على الاتفاق أو عدم الاتفاق بين الافكار ، ولكن ليس من الحق بوجه عام أن تكون معرفتنا للحقيقة ادراكا لهذا الاتفاق أو عدم الاتفاق • لأنه عندما لا نعرف الحقيقة الا تجريبيا ، لأننا اختبرناها دون أن نعرف ارتباط الاشياء والعلة الموجودة فيما نختبر فاننا لا نملك ادراكا لهـذا الاتفاق أو عـدم الاتفاق ، وما لم يكن هذا يعنى أننا نشعر بصـورة غامضة دون أن ندركه • ويبدو من أمثلتك أنك تطلب دائما معرفة تدرك فيها الارتباط والتقابل وهذا ما لا يمكن أن نوافقك عليه • علاوة على ذلك يمكن أن نتناول المبحث المركب ليس فقط لنبحث عن أدلة الحقيقة ولكن أيضا لنفسره ونوضحه وفق الحجج والافكار النموذجية كما سبق أن وضحت • وأخيرا لدى ملاحظة أبديها على تعريفك هو أنه يبدو فقط متفقا مع الحقائق (المقولية) التى تشمل على فكرتين : موضوع ومحمول ولكن هناك أيضا معرفة للحقائق (الشرطية) أو التى يمكن اخضاعها لهـا (كالشرطية المنفصلة وغيرها) حيث يوجد ارتباط بين القضية الاولى (المقدم) والقضية الثانية (التالى) ومن ثم يمكن أن تدخل أكثر من فكرتين •

٣ فيـــــلاليت :

علينـــا أن نقتصر هنا على معرفة الحقيقة وأن نطبق على ارتباط القضايا ما سنقوله عن ارتباط الافكار لكى نفهم كلا من القضايا الحمليـة والشرطية معا واعتقد أن من الممكن أن نخضع هذا الاتفاق أو عدم الاتفاق لاربعة أنواع هى :

١ ـ تطابق أو اختلاف •

٢ ـ عـــــلاقة •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ ــ التواجد معا أو الارتباط الضرورى •

٤ ــ الوجـــــود الحقيقى •

٤ ــ لأن الذهن يدرك مباشرة أن فكرة ما ليست هى فكرة أخرى • أن الابيض ليس أسود •

٥ ــ ثم يدرك الارتباط بينهما بأن يقارنهما • مثلا المثلثان الذى تتساوى قاعدتهما متســاويان والموجــودان بين مســتقيمين متوازيــان متســاويان •

٦ ــ بعد هذا ، هناك تواجد معا (وبالاحرى ارتباط) مثل فكرة استمرار مصاحبة الثباتلافكارنا الاخرى عن الذهب •

٧ ــ أخيرا هناك وجود حقيقى خارج الذهن كما نقول : الله موجود •

تيــــوفيـــل :

أعتقد أنه يمكن القول أن الارتباط ليس سوى النسبة أو العلاقة ؛ مأخوذه بصفة عامة • وقد أوضحت من قبل أن كل نسبة تكون أما مقارنة أو مؤازرة • المقارنة تعطى الاختلاف والتطابق أما فى الكل أو فى البعض، وما يجعل منه نفس الشىء أو مغاير له ؛ المشابه أو غير المشابه • المؤازرة تحتوى ما تسميه أنت التواجد معا أى الارتباط بالوجود • ولكن عندما نقــول أن شيئا يوجد أو أن له وجود حقيقى ، هذا الوجود نفسه يصبح المحمول ، أى له مفهوم مرتبط بالفكرة التى يتعلق بها وهناك ارتباط بين هذين المفهومين • يمكن أيضا أن ندرك وجود موضوع فكرة ما مثل مؤازرة هذا الموضوع لى ، وهكذا أعتقد أنه يمكن القول أنه لا يوجد سوى مقارنة أو مؤازرة • ولكن المقارنة التى تدل على التطابق أو الاختلاف ، ومؤازرة الشىء لى يصبحان الرابطتين الجديرتين بالتمييز من بين غيرها • ربمـــا يمكن عمل أبحاث أعمق وادق ولكنى أكتفى هنا بذكر الملاحظـــات •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٨ ــ فيــــلاليت :

توجد معرفة فعلية هى الادراك الحاضر لعلاقة الافكار • وهناك ماهية عادية (مألوفة) عندما يدرك الذهن بوضوح اتفاق الأفكار ويحتفظ بهـا بطريقة معينة فى الذاكرة بحيث كلما فكر فى القضية تأكد أولا من الحقيقة التى تحتويها دون أدنى شك • لأنه يعجز عن أن يفكر بوضـوح وتميز فى أكثر من شيء واحد فى نفس الوقت واذا لم يعرف البشر سوى الموضوع الفعلى لأفكارهم فأنهم سيظلون جهلاء وذلك الذى سيعرف أكثر لن يعرف سوى حقيقة واحدة •

تيوفيـــــــل :

حقا أن علمنا ، وحتى البرهانى منه يجب أن نصل اليه غالبا بسلسلة طويلة من النتائج • ولا بد من أن يتطلب تذكر برهان سابق نواجهه بوضوح تام عندما نقرر النتيجة والا لزمنا أن نكرر باستمرار هـــذا البرهان وأيضا عندما يستمر لا نستطيعفهمه بأكمله دفعة واحدة لأن كل أجزاءه لن تحضر فى الذهن فى نفس الوقت • وعلى هذا اذا وضعنا باستمرار نصب أعيننا الجزء السابق ، لن نتقدم أبدا لنصل الى الجزء الاخير الذى يكمل النتيجة ، هذا يجعل من الصعب تقرير العلوم بــدون كتابة ، ما دامت الذاكرة لن تكون متأكدة بما فيه الكفاية • ولكن لاننــا سجلنا كتابة البرهان الطويل ، مثل برهان أبولو Apollonius

٣ ــ ومررنا بها كلها كأننا نفحص حلقات السلسلة حلقة بعــد حلقة ، وبهذا :قد استطاع البشر التأكد من أدلتهم الاختبارات ما دام النجاح سيبرز الكل • ما فائدة الادلة اذن ما دام النجاح سيكون من نصيب الكل فى النهاية •

ومع ذلك فهذا يظهر أن كل اعتقاد قائم على تذكر الرؤية الماضية للحجج أو المبررات ، إن يكونفى مقدرتنا ولا فى ارادتنا الحرة للاعتقاد

أو عدم الاعتقاد ، ما دامت الذاكرة ليست بالشيء الذى يعتمد على ارادتنا •

٩ ـ فيلاليت :

حقا أن معرفتنا المألوفة نوعان أو درجتان ، أحيانا لا يتمثل الذهن أبدا الحقائق المخزنة بالذاكرة وانما يرى الذهن الرابطة بين الافكار الداخلة فيها ولكنه أحيانا يقتنع بتذكر الاتفاق دون أن يحتفظ بالحجج، بل أحيانا دون أن يستطيع وضعها اذا أراد • يمكن أن يتخيل المرء أنه يثق فى ذاكرته أكثر من أن يعرف حقا الحقيقة التى هو بصددها ، وقد ظهر لى فيما مضى أن ثمة وسط بين الاعتقاد والمعرفة وأنها تأكيد يفوق الاعتقاد البسيط القائم على شهادة الاخرين ، ومع ذلك أجد ، بعد أن فكرت فيها تماما أن هذه المعرفة تتضمن يقينا كاملا • كونى اتذكر يعنى أنى أعرف (الذكرى ليست سوى تجديد شىء مضى) أنى كنت ذات مرة متأكدا من حقيقة هذه القضية « ان مجموع زوايا المثلث تساوى قائمتان » الا أن عدم تغير نفس الروابط بين نفس الأشياء الثابتة ، تصبح حاليا الفكرة الوسيطة التى تجعلنى أرى أنه اذا كانت متساوية ذات مرة فستكون كذلك مرة أخرى وعلى هذا الاساس تزودنا هذه البراهين الجزئية للرياضيات بالمعارف العامة ، والا فلن تمتد معرفة عالم الهندسة لتتعدى هذا الشكل الجزئى الذى رسمه وهو يبرهن •

تيوفيل :

الفكرة الوسيطة التى نتحدث عنها ياسيدى نفترض اخلاص ذاكرتنا، ولكن يحدث أن تخدعنا ذاكرتنا وأننا لم نتخذ كل الاحتياطات وعمل كل الاجراءات الضرورية مع أننا قد نعتقد ذلك الآن • هذا يبدو بوضوح فى مراجعة الحسابات • يوجد أحيانا مراجعون رسميون مثل أولئك الذين يعملن فى مناجم « هارز » Harz ولكى يصبح محصلو المناجم أكثر انتباها فرضت غرامات مالية على كل غلطة فى الحسابات ومع ذلك

وجدت الاخطـــاء رغم هذه الغرامات • ومع ذلك كلما زدنا العناية كلما أمكن الثقة فى البراهين السابقة • لقد اقترحت طريقة لكتابة الحسابات تجعل من يجمع مجموعات الاعمدة (الجداول) يسجل على الورق آثار تقدم البرهان ، بحيث لا يخطو أى خطوة لا فائدة منها • يمكنه دائما أن يراجعها وأن يصحح الأخطاء الأخيرة دون أن تؤثر على الخطوات الأولى : وبهذه الطريقة لن تتطلب المراجعة التى يريد أن يقوم بها أى شخص آخر بدون أى جهد تقريبا لأنهيستطيع فحص نفس الآثار بنظرة عين : بالاضافة الى وسائل التحقق من حسابات كل بند بنوع من البرهان العـــادى جدا، دون أن تزيد هذه الملاحظات عمل الحساب • هذا يوضح تماما أن من الممكن أن يحصل الناس علىبراهين دقيقة على الورق ، وأن لديهـــم بدون شك عددا لا نهائيا • ولكن ما لم نتذكر أننا استخدمنا الدقة التامة ، فلن نحصل على هذا اليقين فى الذهن وتتكون هذه الدقة فى نظام يجعل من ملاحظة كل جزء تأكيدا للكل • كما يحدث عندما نفحص السلسلة من خلال حلقاتها • أو معاينة كل حلقة منها لنرى ان كانت قوية ، ونعتمد على القياس باليـــد حتى لا نغفل أحداها ، وعندئذ نتأكد من صلاحية السلسلة • بهذه الطريقة نصل الى اليقين الكامل بقدر الطاقة البشرية ولكنى ــ بالنسبة للرياضيات ــ لا أتفق معك فى أن البراهين الجزئية للشكل الذى نرسمه تمدنا باليقين العام الذى يبدو أنك تقره • لأنه يجب أن تعرف أنـــه ليست الاشكال هى التى تعطىالدليلعند علماء الهندسةرغم أنهذا الاسلوب(*) Ecthétique الشـــكلى يجعلنا نعتقد ذلك • قوة البرهان مستقلة عن الشكل المرسوم ، التى ليست سوى مجرد تبسيط لما نريد أن نقـــوله وأن نلفت نظر الذهن اليه • أنها القضايا الكلية ، أى التعريفات والمسلمات والنظريات التى تم اثباتها فعلا ، فهى التى تعمل البرهان وتسنده عندما لا يوجد الشكل • ولهذا نجد عالما فى الهندسة مثل شيبيلوس قد قدم أشكال اقليدس بدون حروفها التى يمكن أن تربطها بالبرهان الذى يلحقه

(*) يقصد بهـــذا الاسلوب ان يبدأ عالم الهندسة بوضع القضية التى يريد اثباتها ثم يحاول بواسطة رسم الشكل ان يثبت المطلوب .

بهـــا . وعالم آخر مثل هرلينوس Herlinus أخضع نفس البراهين للاقيسة والاقيســـة المركبة •

الشخصيـــــــــــات

١ — Ramistes تلاميذ راموس أو بيير دى لارامى ، مصلح منطقى مشهور فى القرن ١٦ ومعارض كبير لارسطو ، ولد فى « كوث » Cuth (فيرماندوا) عام ١٥١٥ وتوفى فى باريس عام ١٥٧٢ فى مذبحة القديس بارتيلمى • أهم أعماله هى :

1 — dialecticae partitiones
2 — aristoteliene animaduersiones .
3 — Schola dialecticae.

لقد ذكر M. ch. Waddington القائمة الكاملة لاعماله فى كتابه « عن حياة وكتابات راموس » •

٢ — Lucien سفسطائى وصاحب مصنفات فى موضوعــات متعددة مشهور فى العصر القديم ولد فى ساموسات وعاش فى القرن الثانى الميلادى (حوالى ١٢٠ الى ٢٠٠) من كتاباته العديدة نذكر خصوصا محاوراته عن الآلهة والموتى ، وبحثه عن فن كتابة التاريخ ، ومجتمـع الآلهة ، طوائف فى مزاد Sectes a l'encan. أجمل طبعة قديمة لاعماله هى طبعة هيمسرهوز Hemsterhuys التى أكملها الاخوة « رتز » (٤ مجلدات فى امستردام عامى ١٧٤٣ ، ١٧٤٤) أما التراجم الفرنســية فهى لا حصر لهـــا وقد تالبوت M. Talbot. طبعة كاملة أخـــيرا (مجلدين باريس ١٨٦٠) •

٣ — apollonius de perge. فى مامفيلى أحد أكبر أربعة علمــاء هندسة فى العصر القديم (مع أقليدس ، أرشـــميدس ، وديوفـــانت diophante) ولد حـــوالى ٢٧٤ ق•م ازدهر فى عصر بطليموس فيلوبانور philopator (٢٠١٣ — ٢٢١) وتاريخ وفاته غير معروف

بحثه عن Sections coniques مشهور شهرة عناصر elements أقليدس • نشر halley طبعة جميلة فى أكسفورد عام ١٧١٠ •

٤ — Scheubelius عالم هندسة فى القرن ١٦ نشر

Euclidis sex libros priores de geometricis principiis, graece et latine.

أعمال أقليدس الستة السابقة لمبادىء الهندسة ، الاغريقية واللاتينية •

٥ — Euclide عالم هندسة كبير فى العصر القديم (لا يجب أن نخلط بينه وبين الفيلسوف أقليدس الميغارى (تلميذ سقراط) لا نعرف تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته نعرف فقط أنه عاش فى الاسكندرية فى حكم بطليموس ابن لاجوس فى القرن الثالث ق•م أهم أعماله هو كتابه (المبادىء) الذى ما زال حتى اليوم أساس التعليم • طبعة يونانية — لاتينية — فرنسية نشرها payrard فى باريس عام ١٨١٤ •

الفصـــل الثانـــى

درجات معرفتنـا

١ ــ **فيلاليت** : المعرفة : اذن تكون حدســية عندما يدرك الذهن اتفاق الفكرتين مباشرة بذاتها دون تدخل أى فكرة أخرى • فى هذه الحالة لن يتعب الذهن لاثبات أو فحص الحقيقة • أنها كرؤية العين للضوء ، يرى الذهن أن الابيض ليس أسود وأن الدائرة ليست مثلثا وأن الثلاثة تساوى اثنين وواحد • هذه المعرفة هى أوضح وأكثر يقينــا والتى يقدر عليها الضعف الانســانى ، أنها تعمــل بطريقة لا تقاوم ولا تسمح للذهن بالتردد • انها معرفة أن الفكرة تكون فى الذهن كمــا ندركها ، وكل من يطلب يقينا أكثر فهو لا يعرف ماذا يطلب •

تيوفيل : الحقائق الأولية التى نعرفها بالحدس نوعان مثل الحقائق المشتقة • أنها بعدد حقائق العقل أو حقائق الواقع • حقائق العقل ضرورية وحقائق الواقع عرضية • الحقائق الأولية للعقل هى تلك التى أسميها باسم عام هو التطابق identiques موجبة أو سالبة : الموجبة مثل الآتى : كل شىء هــو ما هــو عليه • والكثير من الامثلــة التى نريدها أ هى أ ، ب هى ب ، سأكون ما أكونه • كتبت ما كتبت • ولا شىء ، فى الشعر أو النثر ، يكون لا شيئا أو قليلا من الشىء المثلث المتساوى الاضلاع ، وهذا الشكل مثلث • القضايا العطفيــة والشرطية المنفصلة وغيرها القابلة هى الاخرى لهذا التطابق واعتبر ضمن القضــايا الموجبــة لا أ هى لا أ وهــذه القضــية الشرطيــة ، اذا كان أ هى لا ب ينتج أن أ هى لا ب • وبالمثــل اذا كان لا أ هو ب جـ ينتج أن لا أ هو ب جـ • اذا كان الشــكل الذى له زاوية منفرجة مثلثا فان الشــكل الذى ليس له زاوية منفــرجة يمكن أن يكــون مثلثا متســاوى الأضـــلاع والزوايا Regulier أصــل الآن

الى التطابق السلبى الذى يكون أما متناقضـــا أو متبايذا **disparates** مبدأ التناقض هو بوجه عام : القضية تكون أما صادقة أو كاذبة • والتى تشير الى نمطين من البيانات الصادقة احدهما أن الصدق والكـــذب لا يجتمعان معا فى نفس القضية الواحدة وثانيهما أن القضية لن تكون صادقة وكاذبة معا • علاوة على مقابلها أى نفى الصدق والكـــذب لا يجتمعان ، أو لا يوجد وسط بين الصدق والكذب ، أو لا يمكن أن يكون القضية لا صادقة ولا كاذبة • ولكن كل هذا يصدق على كل القضايا التى يمكن تخيلها •

·· مثل : ما هو أ لن يكون لا أ • مثلا حقا أنه قد يوجـــد شخص ما ليس حيوانا • يمكن تغيير هذه البيانات بأكثر من طريقة تطبيقها على القضايا العطفية والشرطية المنفصلة وغيرها أما عن القضايا المتباينة فهى القضايا التى تقول ان موضوع فكرة ما ليس بموضوع فكرة أخرى مثل الحرارة ليست نفس الشىء واللون ، وأن الانسان والحيوان ليسا نفس الشىء مع ان كل انسان حيوان كل هذا يمكن أن تؤكده مستقلا عن أى برهان أو اخضاعه للتقابل أو مبدأ التناقض ، ما دامت هذه الافكار مفهومة بحيث لا يحتاج هنا الى تحليل ، ومن جهة أخرى يمكن أن نتعرض الى سوء الفهم : لان قولنا أن المثلث والشكل ثلاثى الاضلاع ليسا نفس الشىء ، قد يخدعنا ، مادام اعتبارنا له يجعلنا نرى أن الجوانب الثلاثة والزوايا الثلاثة يسيران معا دائما • كما يمكن أن يخدعنا القول أن رباعى الاضلاع والمثلث ليسا نفس الشىء ، لانه قد يحدث أن يحصل الشكل الوحيد ذا الاضلاع الاربعة على كل الزوايا القائمة • ومع ذلك يمكن القول دائما فى التجريد أن المثلث ليس بالشكل ثلاثى الأضلاع ، أو أن المبررات الصورية لكل من المثلث والشكل ثلاثى الاضلاع ليست هى نفسها كما يقول الفلاسفة • انها ارتباطات مختلفة لنفس الشىء • ان الشخص الذى يسمع بصبر ما قلناه حتى الآن سينفد صبره أخيرا وسيقول اننا نتسلى بذكر بيانات تافهة وان كل الحقائق المتطابقة لا تجدى فى شىء ولكنه قد يصدر حكمة هذا لانه لا يكون قد تأمل الأمور بما فيه

الكفاية • فنحن مثلا نثبت النتائج المنطقية بناء على المبادىء الذاتيــة (التطابق) وعلماء الهندسة يحتاجون لمبدأ التناقض فى براهينهم التى تدفع الى المستحيل • فلنكتفى هنا بأن نظهر استخدام التطابق (القضايا المتطابقة) فى البرهنة على نتائج البرهان أقول اذن ان مبدأ التناقض وحده يكفى لاثبات الشكلين الثانى والثالث من القياس عن طريق الشكل الأول ، مثلا يمكن استنتاج فى الشكل الأول من Barbara : كل ب هى ج •

كل أ هى ب •

∴ كل أ هى ج •

لنفرض أن النتيجة كاذبة (أو أن القضية بعض أ ليس ج صادقة) اذن احدى المقدمتين ستكون كاذبة ايضا • لنفرض أن الثانية صادقة لابد أن تكون الأولى كاذبة ، التى تقول أن كل ب هى ج اذن ســيكون نقيضها صادق أى بعض ب لن يكون ج ، وأن هذه ستكون نتيجة فى برهان جديد مشتق من كذب النتيجة وصدق احدى مقدمات البرهان السابق وهذا هو البرهان الجديد : بعض أ ليس ج وهذا يقابل النتيجة السابقة المفروض انها كاذبة كل أ هى ب وهى المقدمة السابقة المفروض أنها صادقة ∴ بعض ب ليس ج وهى النتيجة الحاضرة والصادقة فى مقابل المقدمة السابقة الكاذبة) وهذا البرهان من النمط disamis من الشكل الثالث التى نستدلها بوضوح وبلمحة نظر من النمط barbara للشكل الاول • باستعمال مبدأ التناقض فحسب • وقد لاحظت فى شبابى عندما كنت انظر فى هذه الاشياء أن من الممكن استنباط انماط الشكلين الثانى والثالث من الشكل الأول بهذا المنهج وحده ، بافتراض أن النمط الاول جيد وبالتالى بما أن النتيجة كاذبة أو نقيضها صادق ، واحدى المقدمات صادقة ايضا يلزم أن تكون المناقضة للمقدمة الاخرى صادقة • حقا ان المدارس المنطقية تفضل استخدام العكس لنستنتج الاشكال الاقل أهمية من الشكل الاول وهو الاهم لان هذا يبدو مناسبا للتلاميذ • ولكن بالنسبة لاولئك الذين يبحثون عن البراهين الاستدلالية حيث يجب استخدام أقل الافتراضات الممكنة فأننا لا نستدل بافتراض

القضية المعكوسة ما يمكن أن نستدله بالمبدأ الاول فقط • وهو مبدأ التناقض والذى لا يفترض شيئا • لقد أبديت هذه الملاحظة الهامة : يمكن استدلال الاشكال الاقل أهمية والتى نسميها مباشرة ، وأقصد بها الثانى والثالث بواسطة مبدأ التناقض وحده ، أما انسىء الاقل أهمية غير المباشر وهــو الرابع والذى ينسب العرب اكتشـــافه الى جالين مع اننا لا نجد عنه شيئا فى أعماله التى بقيت لنا ، ولا لدى غيره من المؤلفين الاغريق ، أقول ، ان هذا الشكل الرابع لديه هذا العيب وهو اننا لا نستدله من الشكل الأول أو الاساسى بهذا المنهج وحده ، وأنه يجب استخدام افتراض آخر هو القضايا المعكوسة (عكس القضايا) وبهذا يصبح أبعد بدرجة من الثانى والثالث وهما فى مستوى واحد بالنسبة لبعدها عن الاول ، بينما يحتاج الرابع فى استدلاله لكل من الثانى والثالث • لإنه وجد من الانسب تماما أن تستدل القضايا المعكوسة التى يحتاج اليها بواسطة الشكل الثانى أو الثالث والذى يمكن استدلالهما مستقلين عن القضايا المعكوسة على النحو الذى ذكرته أنه بيير دى لا رامى Pierre de la Ramée الذى أبدى هــذه الملاحظة بالنســبة لقابلية استدلال القضية المعكوسة بواسطة هذه الاشكال واذا لم أكن مخطئا فانه قد اعترض على كل المناطقة الذين يستخدمون القضية المعكوسة فى الدور المنطقى والاجدر الا نتهمهم بالدور وأنما نعترض على تقــديم ما هو تالى Hystereren proteron أو العكس (لانهم لم يستخدموا هذه الاشكال بدورها لاثبات العكس) وذلك لان القضايا العكسية تستحق أن تستدل بواسطة هذه الاشكال أكثر من استدلال هذه الاشكال بالقضايا العكسية (ولكن حيث أن هذا الاستدلال للقضايا العكسية يظهر ايضا استخدام القضايا الذاتية (المتطابقة identiques) الموجبة التى يعتبرها كثيرون باطله frivoles تماما وسيكون من الانسب بالاحرى أن نتناولها هنا •

لا أريد التحدث هنا الا عن القضايا العكسية الخاليه من الاستدلال السلبى Sontra position وهى تكفينا هنا لانها بسيطة وعرضية كمـــا

يسموبها • القضايا العكسية البسيطة نوعان هى القضايا الكلية السالبة مثل : لا مربع يكن منفرج الزاوية اذن لا منفرج الزاوية يكون مربعا والجزئية الموجبة مثل : بعض المثلثات يكون منفرج الزاوية ، اذن بعض منفرجى الزاوية يكون مثلثا • أما العكس بالعرض كما يسمونه فتخص القضايا الكلية الموجبة مثل كل مربع يكون مستطيل اذن بعض المستطيل مربع • يقصد هنا باستمرار الشكل القائم الزوايا ، ويقصد بالمربع الشكل ذو الاربع أضلاع متساوية • والآن يلزم استنباط هذه الانواع الثلاثة من القضـــايا العكســـية وهى :

١ — لا أ يكون ب ∴ لا ب هى أ
٢ — بعض أ يكون ب ∴ بعض ب هى أ
٣ — كل أ يكون ب . . بعض ب يكون أ

استنباط القضية العكسية الاولى فى cesare من الشكل الثانى

لا أ يكون ب
كل ب يكون ب
∴ لا ب يكون أ

واستنباط القضية العكسية الثانية فى من الشكل الثالث

كل أ يكون أ
بعض أ يكون ب
∴ بعض ب يكون أ

استنباط القضية العكسية التالية فى من الشكل الثالث

كل أ يكون أ
كل أ يكون ب
∴ بعض ب يكون أ

وهذا يظهر أن القضايا (المتطابقة) الخالصة والتى تبدو غير مقيدة لها استخدامها الجدير بالاعتبار فى التجريد والعام . وهنا يعلمنا أنه لا يجب احتقار رأى حقيقة • بالنسبة للقضية « الثلاثة = اثنين + واحد » التى تذكرها يا سيدى • كمثال للمعارف الحدسية أقول لك انها ليست سوى تعريف للحد ثلاثة لان التعريفات الابسط للاعداد تصاغ بهذه الطريقة اثنين تكون واحد وواحد ، الاربعة ثلاثة وواحد ••• وهكذا •

حقا أنه يوجد فى داخلها ايضاحات خفية قد لاحظتها فعلا وهى أن هذه الافكار ممكنة وأننا نعرف ذلك حدسيا ، بحيث يمكن القول أن المعرفة الحدسية مشمولة فى التعريفات ما دامت امكانياتها تبدو أولا • وبهذه الطريقة كل التعريفات الكاملة تحتوى على حقائق أولية للعقل وبالتالى معارف حدسية • وأخيرا يمكن القول بوجه عام أن كل الحقائق الاولية للعقل تكون مباشرة كمباشرة الافكار •

بالنسبة للحقائق الأوليـــة للواقع فنقصد بهـــا الخبرات المباشرة الداخلية ذات مباشرة عاطفية وهنا نجد الحقيقة الاولى التى قال بهـــا الديكارتيون أو القديس أوغسطين : أنا أفكر اذن أنا موجود أى أنى شىء أفكر ولكن يجب معرفة أنه كما أن القضايا الذاتية تكون كلية أو جزئية وأن كلاهما واضحا (ما دام وضوح قولنا أ هى أ لا يقل عن وضوح القول أن الشىء يكون ما يكون) فان الامر كذلك بالنسبة للحقائق الاولى للواقع • لانه ليس فقط يتضح لى مباشرة انى افكر وانما يتضح لى ايضا أنه لدى أفكار مختلفة ، وأنى أحيانا أفكر فى أ واحيانا أفكر فى ب •••• الخ • وهكذا فان المبدأ الديكارتى جيد ولكنه ليس الوحيد من نوعه • وترى من هذا أن كلا من الحقائق الاولية للعقل أو الوقائع تشترك فى اننا لن نستطيع اثباتها بشىء له يقين أكثر •

٢ ــ **فيلاليت** : أنى مرتاح تماما يا سيدى لأنك تقدمت بعيدا فى أمور تتصل بالمعرفة الحدسية حاولت لن أمسها فحسب • ولكن المعرفة الاستدلالية ليست سوى تسلسل لمعرفة حدسية فى كل الارتباطات

للافكار الوسيطة • لان الذهن لا يستطيع احيانا الربط ، المقارنة أو التطبيق المباشر للافكار بعضها على بعض مما يضطره الى استخدام أفكار أخرى وسيطة (واحدة أو أكثر) للكشف عن الاتفاق أو عدم الاتفاق الذى نبحث عنه ، وهذا ما نسميه بالبرهنة كما فى البرهنة على تساوى الزوايا الثلاثة للمثلث لزاويتين قائمتين نجد بعض الزوايا الاخرى التى أما أن تتساوى مع الزوايا الثلاثة للمثلث أو أنها تساوى زاويتين قـائمتين •

٣ ــ الافكار التى ندخلها نسميها preuves أدلة ونسمى استعداد الذهن لان يجدها بالفطنة •

٤ ــ وحتى عندما نجدها فان اكتساب هذه المعرفة يتم بجهد ويقظة وليس بنظرة عابرة ، لانه يجب الالتزام بتعاقب الافكار الذى يتم تدريجيا وبتؤده •

٥ ــ هناك شك يسبق البرهان أو الاستنباط •

٦ ــ انها أقل وضوحا من الحدسية • ومثل الصورة التى يعكسها العديد من المرايا فأنها تضعف كلما انعكست من مرآة لأخرى وتصبح غير ممكن التعرف عليها بالنسبة لضعيف البصر ، وكذلك الحال بالنسبة للمعرفة التى نصل اليها بتتابع طويل للبراهين •

٧ ــ ومع أن كل خطوة يقوم بها الذهن فى البرهان تكون معرفة حدسية أو رؤية بسيطة الا أنه فى هــذا التتابع الطويل للبراهين لن تحتفظ الذاكرة بهذا الارتباط بين الافكار بدقة فان الناس يأخذون احيانا القضايا الكاذبة على أنها استنباطات •

تيوفيل : علاوة على البصيرة الطبيعية أو المكتسبة بالخبرة هنــاك فن آخر لايجاد الافكار الوسيطة le medium هذا الفن هو التحليل • الا أنه من الافضل تقرير أنه يلزمنا هنا أحيانا الوصول الى صدق أو

كذب قضية معطاه ، وذلك لن يكون سوى الاجابة على السؤال ( )
اى السؤال هل هذا يكون أو لا يكون ؟ واحيانا يلزمنا الاجابة على سؤال آخر أصعب نسأل فيه مثلا بواسطة من ، كيف ؟ ويلزمه الكثير لكى يصبح تماما •

هذه الاسئلة فقط هى التى تترك جزءا من القضية على بياض ويسميها الرياضيون بالمشكلات كما عندما نطلب ايجاد مرآة تجمع كل أشعة الشمس فى نقطة أى أن نسأل عن شكلها أو كيف تصنع • أما بالنسبة للاسئلة الاولى حيث يلزم فقط الجواب بصواب أو خطأ وحيث لا يلزم أى أضافة فى الموضوع او المحمول ، فأن لديها قليل من الابتكار ومع ذلك هناك نماذج منها ولن يكفى فيها مجرد الحصول على الحكم وحده • حقا أن الرجل الذى يحكم أى القادر على الملاحظة والاحتياط ولديه متسع من الوقت والصبر وحرية الذهن اللازمة ، يمكنه فهم أصعب استنباط اذا ما عرض كما يجب • ولكن أعدل رجل على وجه الارض لن يستطيع دائما ، بدون عون آخر أن يجد هذا الاستنباط • وعلى هذا يوجد ابتكار هنا ايضا : وقد كان لدى علماء الهندسة قديما أكثر مما لديهم الآن • لانه عندما كانت العناية بالتحليل أقل كان يلزمه الكثير من البصيرة للوصول اليه ، ولهذا اعتقد بعض العلماء فى العصر القديم وغيرهم من الذين لم ينفتحوا بما فيه الكفاية على المناهج الجديدة ، أنهم حققوا العجائب عندما توصلوا الى برهان لنظريات ابتكرها الآخرون • ولكن أولئك المهتمين بفن الابتكار يعرفون متى يكون ذلك جديرا بالاعتبار ومتى لا يكون ، مثلا عندما ينشر شخص ما تربيع مساحة تشمل خطا منحنيا وخطا مستقيما ، وينجح فى جميع اجزائه والتى اسميها عامة يصبح دائما فى مقدورنا ، تبعا لمناهجنا ، أن نجد البرهان بشرط أن نريد تحمل المشقة • ولكن توجد تربيعات جزئية ذات نسب معينة ، حيث يمكن ان يطوق الشىء بآخر وليس فى مقدورنا حتى الآن أن نطابق سطحا على اخر ويحدث احيانا أن يقدم لنا الاستقراء حقائق فى الاعداد وفى الاشكال لم نكتشف بعد سببها العام • لانه يلزمنا

الكثير حتى نصل الى كمال التحليل في الهندسة وفى الاعداد ، كما يفتخر الكثيرون ممن يتصورون أنفسهم ممتازين ولكنهم متسرعون وطموحون • اذ أن هناك مشقة فى ايجاد حقائق هامة ومشقة أكثر فى ايجاد الوسائل لعمل ما نبحث عنه ، حتى ولو كان حقا أننا نبحث ، وهى مشقة تفوق تلك اللازمة لاستنباط حقائق اكتشفها شخص آخر • نصل أحيانا الى حقائق جميلة عن طريق التركيب ذلك بأن ننتقل من البسيط الى المركب ، ولكن عندما يتطلب الامر أن نجد الوسيلة لعمل ما نقترح فلن يكفى التركيب عادة واحيانا تصبح محاولة عمل كل الارتباطات المطلوبة كمن يريد ان يشرب من البحر ، مع اننا نستطيع احيانا الاستعانة بمنهج الاستبعاد exclusions الذى يستبعد جزءا كبيرا من الارتباطات غير المفيدة وهو منهج لا تسمح الطبيعة أحيانا بقبول أى منهج سواه ولكننا لا نملك دائما الوسائل لتتبعها • التحليل اذن هو الذى يعطينا مخرجا من هذا التيه اذا كان هذا ممكنا ، لان هناك من الحالات ما يتطلب طبيعة السؤال نفسه أن نتحسس فى كل مكان ما دامت المختصرات لن تكون ممكنة باستمرار •

٨ ــ **فيلاليت** : ولكن ، حيث أن الاستنباط يفترض دائما المعارف الحدسية فان ذلك على ما أعتقد ، يتيح الفرصة لهذه البديهية : كل برهان يأتى من أشياء معروفة فعلا ومتفق عليها فعلا ex praecognitis et prae concessis ولكن ستكون لدينا الفرصة للتحدث عن الاخطاء الموجودة فى هذه البديهية عندما سنتحدث عن البديهيات التى تسىء لاسس براهيننا •

تيوفيل : أنى شغوف لمعرفة أى الاخطاء يمكن أن تجدها فى بديهية ما تبدو معقولة تماما اذا لزم دائما أن نخضع كل شىء للمعارف الحدسية ، فان الاستنباطات ستصبح احيانا مطولة بصورة غير محتملة • لهذا تمرس الرياضيون على تقسيم الصعوبات وأن يستدلوا القضايا المتداخلة على حدة وفى هذا أيضا فن • لأنه حيث أن الحقائق الوسيطة

أى القضايا الأولية التى نفرضها لتسهيل اثبات النظرية والتى نسميها lemmes والتى تبدو انها خارج العمل ، يمكننا أن تخصص بطرق متعددة وستكون مفيدة لمساعدة الفهم والذاكرة واختيار ما يساعد على الاختصار أو ما يبدو جديرا بالتذكر وجدير بذاته لأن نستدله • ولكن هناك عائق آخر وهى أنه ليس من اليسير أن نستنبط كل المسلمات وأن نخضع ، تماما ، الاستنباطات للمعارف الحدسية • ولو أردنا انتظار ذلك لما أمكننا الوصول حتى الآن الى علم الهندسة هذا وربما لم نكن قد حصلنا بعد على علم الهندسة • ولكن هذا ما تحدثنا عنه فعلا فى محادثتنا الأولى وستتاح الفرصة لان نقول عنه أكثر فيما بعد •

٩ ــ **فيلاليت** : سنعود اليها عن قريب : الآن سألاحظ مرة أخرى ما سبق أن تناولته أكثر من مرة وهو أن هناك فكرة شائعة أنه لا توجد سوى العلوم الرياضية التى تقدر على اليقين الاستنباطى ولكن حيث أن الاتفاق وعدم الاتفاق الذى يمكن معرفته حدسيا لا يخص الافكار الخاصة بالاعداد والاشكال فحسب فأنه ربما لخطأ تطبيقى من جانبنا ، اعتقدنا أن الرياضيات وحدها هى التى تصل الى الاستنباطات •

١٠ ــ لقد عرض العديد من الاسباب لهذا • العلوم الرياضية ذات فائدة عامة ، وأقل اختلاف فيها يسهل تماما التعرف عليه •

١١ ــ هذه الافكار الاخرى البسيطة التى تكون مظاهر أو مواقف ناتجة فينا ليس لها مقياس دقيق لدرجاتها المختلفة •

١٢ ــ ولكن عندما يصبح الاختلاف بين هذه الصفات المرئية كبيرا بقدر يكفى لان يثير فى الذهن أفكارا واضحة التمييز مثل تلك الخاصة بالازرق والاحمر فانها تصبح قادرة ايضا على استنباط مثل تلك الخاصة بالعــدد والامتداد •

تيوفيل : توجد أمثلة كثيرة للاستنباط خارج الرياضيات ويمكن

القول أن أرسطو قد ذكرها فى تحليلاته الاولى[1] الواقع أن المنطق ايضا قابل للاستدلالات كالهندسة ويمكن القول أن منطق علماء الهندسة أو طريقة المناقشة التى شرحها أقليدس وقررها عند الحديث عن القضايا تعتبر امتدادا أو أعلاء خاصا للمنطق العـــام • أرشميدس وهو أول من توصلنا الى أعماله : مارس فن البرهنة فى مناسبة تدخل فى علم الفيزيقا كما فعل فى كتابة عن التوازن •

وعلاوة على ذلك يمكن القول أن لدى الفقهاء العديد من الاستدلالات الجيدة • خاصة قدماء المشرعين الرومان الذى نحفظ بمقتطفات منها فى مجموعة القوانين اليونانية •

أنى متفق تمـــاما مع لورانت فال Laurent Valle الذى لا يعجب بهولاء المؤلفين ، ولا بغيرهم لانهم يتكلمون بطريقة دقيقة وواضحة تماما فحسب بل لانهم أيضا يفكرون بطريقة تقترب جدا من الاستدلال واحيانا تكون استدلالية تماما • وكذلك لا أعرف أى علم ، باستثناء علم القانون وعلم الاسلحة قد أضاف الرومان اليه شيئا جديرا بالاعتبار عما تسلموه من اليونان •

tu regere imperio popules Romane momento :
Haetibi erumt artes pacique impnero morem, parcere subjectis et debellare superbes.

هذه الطريقة الدقيقة للشرح جعلت كل مشرعى مجموعة القوانين اليونانية مهما ابتعد بعضهم عن البعض فترات زمنية ، كأنهم مؤلف واحد واننا نبذل جهدا كبيرا للتمييز بينهم عندما لا تكون أسماء المؤلفين مذكورة على رأس المقتطفات ، تماما كما حدث عندما بذلنا جهدا كبيرا

---

(١) التحليلات الاولى : من المعروف أن أورجانون ارسطو يشمل ستة كتب : ١ ــ تفسير الكلمات • ٢ ــ المقولات • ٣ ــ التحليلات الأولى تبحث القياس • ٤ ــ التحليلات الثانية التى تبحث الاستدلال • ٥ ــ الطوبيقاحيث يبحث الاماكن • ٦ــ دحوض سوفسطائية والتى تبحث فى السفسطة •

للتمييز بين ما قاله كل من أقليدس وأرشميدس وبولون عندما قرأنا استدلالاتهم فى مواد تناولها كل واحد منهم • يجب الاعتراف ان الاغريق قد فكروا بدقة فى الرياضيات وتركوا للجنس البشرى نمــاذج لفن الاستدلال : لانه اذا كان لدى البابليون والمصريون هندسة اقل تجريبيا فانه على الاقل لم يبق منها شىء ولكن من المدهش أن هولاء الاغريق أنفسهم قد فشلوا تماما بمجرد أن ابتعدوا ولو قليلا عن الاعداد والاشكال ليصلوا الى الفلسفة • لانه من الغريب الا نرى أى أثر للاستدلال عند افلاطون وأرسطو (باستثناء تحليلاته الاولى) وعند كل الفلاســفة القدماء ، لقد كان بوكلس proclus عالم هندسة ولكنه يبدو شخصا آخر عندما يتحدث عن الفلسفة مما سهل عليه أن يفكر تفكيرا استدلاليا فى الرياضيات أن من المستحيل أن تؤيد التجربة هذا التفكير فى كل لحظة وهذا ما يحدث ايضا فى اشكال القياس • ولكن لا نجد فيما بعد الطبيعة والاخلاق مثل هذا التوازى بين التجارب والبراهين • وفى الفيزياء تتطلب التجارب جهدا وتكاليفا • لقد تراخى الناس فى بداية الامر وبالتالى تعرضوا للضلال عندما تجردوا من التجربة هذا المرشد المخلص الذى يساندهم فى خلواتهم كما تفعل هذه الالة الصغيرة التى تتدحرج وتحمى الأطفال من السقوط أثناء المشى • هناك بدائل succedneum وهذا ما لم يتجه اليه وما زال غير متجه اليه وسأتحدث عنه فى مكانه فالاحمــر والازرق غير قادرين على أن يمدانا بالمادة اللازمة للاستدلالات عن طريق الأفكار التى لدينا عنها لأن هــذه الأفكار غامضــة وهــذه الألوان لا تمدنا بالمــادة اللازمة للبرهنــة عــن طريق التجــربة حيث نراها مصاحبة لبعض الافكار المتميزة ولكن دون أن نظهر ارتباطها بافكارها الخاصــــة •

١٤ ــ فيلاليت :علاوة على الحدس والاســتدلال اللذان يمثلان درجتى معرفتنا يظل الباقى فى أيمانا أو اعتقادا وليس معرفة • على الاقل بالنسبة لكل الحقائق العامية • ولكن للذهن ادراك آخر يتصــل بالوجود الخاص للكائنات النهائية خارجنا وهى المعرفة الحدسية •

تيوفيل :الاعتقاد القائم على القريب من الحق le Vraisemblable (المحتمل) ربما يســتحق اسم المعرفة والا ســقطت معظم المعارف التاريخية وكثير غيرها ولكن دون مناقشة الاسماء ارى أن البحث عن درجات الاحتمال سيكون هاما ومازال ينقصنا حتى الآن وذا عيب كبير لدى مناطقنا لانه عندما لا نستطيع التقرير المطلق للسؤال يمكننا دائما تحديد درجة الاحتمال exdatis وبالتالى يمكن الحكم حكما معقولا أى الأجزاء أكثر ظهورا • وعندما يربط أخلاقيونا (أقصد بهم الأكثر حكمة أمثال المحدثين من الجزويت) الأكثر يقينا بالأكثر احتمالا ويفضلون الأكثر يقينا على المحتمل فأنهم فى الواقع يبعدون عن الأكثر احتمالا ، لان السؤال هنا عن اليقين هو السؤال عن الشر الاقل احتمالا الذى علينا أن نتحاشاه • وعيب الاخلاقيين المتراخين بالنسبة لهذا الموضوع هو أنهم الى حد ماالديهم فكرة محدودة جدا وغير كافية تماما عن المحتمل الذى خلطوا بينه وبين الشائع eudoxe أو opinable الذى قال به أرسطو ، لأن أرسطو أراد فى الطوبيقا ان يتفق مع اعتقادات الآخرين كما يفعل الخطباء ، والسوفسطائيون الشائع eudoxe يعنى عند أرسطو ما يقبله أكبر عدد ممكن أو الاكثر سلطة لقد أخطأ بأن حصر الطوبيقا فى هذا فقط ، وأضطرته هذه الفكرة الى أن يرتبط بالمسلمات المقبولة فحسب ، وأغلبها غامض كأننا لا نفكر الا بناء على النزوات أو الامثال • ولكن المحتمل اكثر اتساعا : يجب أن نستخرجه من طبيعة الاشياء ورأى الاشخاص ذوى السلطة له وزن وهو أحد الاشياء التى يمكن أن تساهم فى جعل الاعتقاد اكثر احتمالا ولكنه ليس هو الذى يحسم كل احتمالية • وعندما كان « كوبرنيق » الوحيد تقريبا فى اعتقاده الذى كان دائما الاكثر احتمالا من اعتقاد باقى البشر • الا انى لا أعرف هل تقرير فن اعتبار الاحتمال لن يكون مجديا الا كجزء هام من معرفتنا الاستدلالية وقد فكرت فى هذا أكثر من مــرة •

فيلاليت :المعرفة الحدسية أو التى تقرر وجود الكائنات الجزئية خارج أنفسنا ، تذهب أبعد من الاحتمال البسيط ، ولكنها لا تملك كل

يقين درجتي المعرفة الذى تحدثنا عنهما ، لا شيء أكثر يقينا من أن الفكرة التى نتلقاها عن موضوع خارجي تكون فى ذهننا ، أنها معرفة حدسية : ولكن يعتقد البعض أنه يمكن أن نناقش القول ، أن معرفة كهذه يمكنها ان تستدل بيقين وجود أى شيء خارج أنفسنا يتصل بهذه الفكرة ، لأنه من الممكن أن يحصل الناس على هذه الافكار فى الذهن عندما لا يوجد شيء منه فعلا • بالنسبة لي اعتقد أنه يوجد اختلاف كبير بين الادراكات التي نحصل عليها عندما ننظر الى الشمس فى الصباح وعندما نفكر ليلا فى هذا الكوكب ، الفكرة المتجددة بمساعدة الذاكرة تختلف تماما عن الفكرة التى تأتينا حاليا بواسطة الحواس وقد يقول البعض أن الحلم يمكنه أن يعطينا نفس الاثر وارد عليهم أولا أنه لا يهم كثيرا ان أزيل هذا الشك لانه اذا لم يكن الكل الا حلما فلن تجدى البراهين ، ولن تكون الحقيقة والمعرفة شيئا على الاطلاق • وثانيا فى نظرى أنهم يعرفون تماما الفرق بين كوننا نحلم اننا فى النار وبين أننا فيها فعلا • واذا أصروا على شكهم سأقول لهم أنه يكفى أننا نجد بالتأكيد أن اللذة أو الألم تتبع تأثير موضوعات معينة فينا ، صادقة كانت أم حلما وان هــذا اليقين يساوى ما لدينا من سعادة أو بؤس وهما أمران لم نهتم بهما • وعلى هــذا أعتقد أننا نستطيع القول بالأنواع الثلاثة من المعــرفة الحدسية ، الاستدلالية والحسية •

تيوفيل : اعتقد انك على حق يا سيدى وأظن أن من الممكن أن تضيف معرفة احتمالية الى هذه الانواع من اليقين أو المعرفة اليقينية ، على هذا يوجد نوعان من المعرفة كما يوجد نوعان من البراهين ، احدهما ينتج عن اليقين والآخر لن يؤدى الا الى الاحتمال لنصل الى المعركة التى يثيرها الشكاك أمام الاعتقاديين بالنسبة لوجود الاشياء خارج أنفسنا لقد عرضنا لها فعلا ولكن يجب أن نرجع لها هنا • لقد ناقشتها فيما مضى بالكلمة وبالكتابة مع المرحوم الأب فوشيه ، كاهن ديجون وهو رجل عالم وبارع وان كان متمسكا بالاكادميين الذين ساهم فى احياء مذهبهم كما فعل جاسندى عندما بعث فلسفة بيقور • لقد ساعده نقــده

للبحث عن الحقيقة ، والابحاث الاخرى الصغيرة التى طبعها بعد ذلك على التعرف على مؤلفها بصورة أفضل : وقد نشر ايضا فى جريدة العلماء اعتراضاته على مذهبى الانسجام الازلى ، عندما نشرته للجمهور بعد أن حاولت تفهمه لعدة سنوات ولكن حال موته دون أن يرد على اجابتى ، لقد بشر دائما بضرورة تجنب الاحكام المتسرعة والحصول على أكبر يقين ولكن علاوة على أنه هو نفسه لم يلتزم بتنفيذ ما نصح به ، وله عذره فى ذلك ، ويبدو لى أنه لم يتنبه الى امكان أن يفعلها غيره ، بل ويميل بدون شك الى الاعتقاد أن أحد لم يفعلها غيره • ولكنى عرفته أن حقيقة الاشياء الحسية لا تقوم الا فى ربط الظواهر بأسبابها وأن هذا هو ما يميزها عن الاحلام : ان حقيقة وجودنا وعلة الظواهر من طبيعة مختلفة ، لانها تقرر الجواهر وقد أفسد الشكاك ما فى قولهم من صواب بأن أبعدوه بعيدا جدا بل وأرادوا أن يمتد شكهم ليصل الى الخبرات المباشرة والحقائق الهندسية (وهذا طبعا ما لم يفعله الاب فوشيه) وباقى حقائق الذهن وفى هذا مبالغة كثيرة • ولكن اذا عدنا اليك يا سيدى فانك محق فى قولك ان هناك اختلاف بين الاحساسات والخيالات ولكن الشكاك يقولون ان الاكثر والاقل لن يغير اطلاقا فى الجنس • على أى حال بالرغم من أن الاحساسات عادة تكون أكثر حيوية من الخيالات فأننا نعرف طبعا أن هناك حالات يتأثر فيها الأشخاص الخياليين بخيالاتهم أكثر مما يتأثر غيرهم بحقيقة الاشياء • بحيث اعتقد أن المحك الحقيقى بالنسبة لموضوعات الحواس ، هو ارتباط الظواهر ، أى الارتباط بين ما يحدث فى الاماكن والازمنة المختلفة وفى خبرة اشخاص مختلفين ، يكونوا هم أنفسهم بالنسبة لبعضهم البعض ظواهر هامة لهذا الموضوع (ويتحقق ارتباط الظواهر ، الذى يضمن حقائق الواقع بالنسبة للاشياء المحسوسة خارج أنفسنا بواسطة حقائق الذهن كما توضح الهندسة مظاهر البصريات ومع ذلك يجب الاعتراف أن كل هذا اليقين ليس بالدرجة العليا التى تعرفت عليها لانه ليس مستحيلا ، من وجهة نظر ما بعد الطبيعة ، أن يوجد حلم متتابع ويدوم بدوام حياة

الانسان ، ولكن من التناقض بالنسبة للعقل أن نشكل كتاب بالصدفة من بعثرة حروف الطباعة بصورة عشوائية • وبالنسبة للباقى حقا أنه لا يهم أن نسميه حلما أولا ، بشرط أن تكون الظواهر مرتبطة ، مادامت التجربة تظهر لنا أننا لا نخطىء فى المقاييس التى نقيس بها الظواهر عندما تؤخذ وفق حقائق الذهن •

١٥ ــ فيلاليت : فضلا عن ذلك فان المعرفة لا تكون دائما واضحة . حتى ولو كانت الافكار واضحة ، الرجل الذى لديه أفكارا واضحة عن زوايا المثلث ومساواتها لقائمتين ، كأى رياضى فى العالم يمكنه أن يحصل على أدراك غامض تماما بالنسبة لتلاؤمها •

تيوفيل : عادة يظهر اتفاق أو عدم اتفاق فى الافكار عندما نفهمها بعمق • ومع ذلك أعترف أنه يوجد احيانا أفكارا مركبة بحيث يلزم كثيرا من العناية لكى نعلن ما تخفيه ، ويمكن لهذا الاعتبار أن تظل اتفاقات أو عدم اتفاقات معينة غامضة • أما بالنسبة للمثال الذى ذكرت فأنى الاحظ أنه لكى نحصل فى الخيال على زوايا مثلث فلن نحصل بهذا على أفكار واضـــحة • الخيال لا يســـتطيع أن يمدنا بصورة مشـــتركة عن المثلثات الحادة الزاوية والمنفرجة الزاوية ومع ذلك فكرة المثلث تكون مشتركة بينها : وعلى هذا لا تتكون هذه الفكرة فى الصور ، وليس من السهل أن نظن أننا نفهم بعمل زوايا المثلث •

٢ ــ أرشميدس : أعظم عالم هندسة فى العصر القديم ولد فى سراقوس عام ٢٨٧ وتوفى فى حصار هذه المدينة عام ٢١٢ ونعرف مبدأه المشهور الذى أصبح أساسا للهدروستاتكا hydrostatique الطبعة الكاملة لارشميدس هى طبعة أكسفورد نشرها ســـتانهوب عام ١٧٩٣ وترجمها الى الفرنسية بيراريد Peyrard عام ١٨٠٧ فى مجلد واحـــد وعام ١٨٠٠ فى مجلدين •

٣ ــ فال (لورانت) Valla (Lauent) عالم لغوى مشهور •

فى القرن ١٥ ولد فى روان عام ١٤٠٦ وتوفى فى نابلى عام ١٤٥٧ اعماله الرئيسية التى تتصل بالفلسفة هى : حوار ضد ارسطو عام ١٤٩٩ dialectica contra Aristotelios عام ١٥١٨٠
de libertate arbitrii عام ١٥١٩ عن حرية الاختيار •
de voluptate et vero bono.

٤ — بروكلس : فيلسوف من الافلاطونية الجديدة ولد فى بيزانس عام ٤١٢ وتوفى فى اثينا عام ٤٨٥ أعماله الرئيسية هى : اصول اللاهوت، اللاهوت عند أفلاطون ، تفسير طيماوس وقد نشر دكتور كوزان أعماله غير المطبوعة بباريس ١٨٦٤ ، التى تضم تفسير بارميندس commentare de providencea.; libertate وبحثه sur lepremier alcibiade et malo, النص غير موجود ولم نعرفه الا من الترجمة اللاتينية التى قام بها guillaumede mobika.

٥ — نميز فى اللاهوت الأخلاقى عـدة اعتقادات الاحتمـاليون probabilisme الذين يسمحون بالعمل وفق اعتقاد محتمل حتى ولو كان أقل من غـيره probabliorisme الذين ينصحون بالا نعمل الا وفق الاعتقاد الأكثر احتمالا tutiorisme الذين ينصحون بالا نختار الا الاكثر يقينا ، اى نضحى بالاقل مثلا : من المؤكد اننا نأخذ الجانب الأكثر جدية • انظر بحث لنيقولا nicole المرفق بالترجمة اللاتينية للرسائل الريفية •

---

(١) جالينوس Gaien , galenius طبيب مشـهور فى القديم ولد فى عام ١٣١ فى برجام Pergam لا تعرف فترة ولادته ولا موته • من بين أعماله العديدة تلك التى تهم الفلسفة أكثر كتابه المشهور (استخدام الأجزاء) de usa partium وهو مقدمة وتطبيق مستمر لمبدأ العلل النهائية أجمل واكمل طبعة له هى ترجمة كوهن اليونانية اللاتينية • ليبزج ٢٠ مجلداً ١٨٢١ — ١٨٣٣ daremberg دار يمبرج ترجمة فرنسـية ظهر منهـا مجلدان .. باريس (٨٥٤ — ١٨٥٦)

٦ — يقصد بهم بسكال الـ Casuistes (أى دارسي أحوال الضمير) قد رفضهم بسكال .

٧ — الأب فوشيه (Foucher : L'abbé) ولد فى ديجون عام ١٦٤٤ وتوفى فى باريس عام ١٦٩٦ ساند الفلسفة الاكاديمية ، أى الشك ، على طريقة شيشرون ، أهم مؤلفاته : مقالة فى البحث عن الحقيقة ، أو عن فلسفة الاكاديميين ، باريس ، نقد البحث عن الحقيقة (لمالبرانش) باريس عام ١٦٧٥ . عن حكماء القدماء باريس عام ١٦٨٢ .

الفصـــــل الثـــالث

امتداد المعرفة البشرية

١ ــ فيلاليت : معرفتنا لا تتعدى أفكارنا •

٢ ــ ولا تتعدى أدراك اتفاقها أو عدم اتفاقها •

٣ ــ لا يمكن أن تكون دائمة حدسية-لاننا لا نستطيع دائما مقارنة الاشياء مباشرة مثلا تساوى مقدار المثلثين القائمين على نفس القاعدة ولكنهما مختلفان •

٤ ــ وكذلك لن نستطيع دائما استدلال معارفنا لاننا لا نستطيع دائما ايجاد الافكار الوســيطة •

٥ ــ وأخيرا معرفتنا الحسية لا تخص سوى وجود الاشياء التى تؤثر حاليا على حواسنا •

٦ ــ على هذا ليس فقط أفكارنا محدودة تماما وانما ايضا معرفتنا محدودة أكثر من أفكارنا لا شك مطلقا فى أن معرفتنا البشرية لا تستطيع أن تمتد بعيدا ، واذا أراد البشر الاهتمام باخلاص بايجاد وسائل اكمال الحقيقة بحرية ذهنية كاملة وبكل التطبيق والصفة التى يستخدمها لزخرفة أو مساندة الخطأ والدفاع عن مذهب الذى يطلنونه أو حتى جزءا معينا واهتمامات معينة بما يشغلهم • فانه رغم كل هذا لن تستطيع معرفتنا أبدا الالمام بكل ما نرغب معرفته مما يتصل بما لدينا من أفكار • مثلا ربما لن نستطيع أبدا ايجاد دائرة تساوى مربعا ومعرفة بيقين هل توجد مثل هذه الدائرة ؟

تيوفيـــــل :

هناك أفكار مختلطة حيث لا تستطيع مطلقا التنبؤ بمعرفة كاملة لها،

مثل الافكار الخاصة ببعض الصفات الحسية • ولكن عندما تكون متميزة •
فقد تأمل ذلك بالنسبة للمربع المساوى لدائرة ، أثبت أرشميدس فعلا
وجوده • لأنه سيكون ذلك الذى يصبح ضلعه le coté
المتوسط النسبى بين نصف قطر الدائرة ونصف محيطها • وأثبت أيضا
مستقيما ... مساويا لمحيط الدائرة بواسطة متوسط مستقيم
للمحورى كما أثبت غيرها بواسطة مماس المربع ... وهى طريقة
لتربيع الدائرة الذى أعجب بها كالافيس Clavius ولن نتحدث عن
الخيط المطبق على المحيط ثم نمده أو المحيط الذى ندحرجه لنرسم خطبا
منحنيا من نقطة الدائرة ثم نحوله الى خط مستقيم • يطالب البعض بالا
يتم هذا التركيب الابواسطة المسطرة والفرجار ولكن لن نستطيع تبكل
معظم مشكلات الهندسة بهذه الطريقة • يلزمنا اذن ايجاد النسبة بين
المربع والدائرة • ولكن هذه النسبة لن تستطيع التعبير عنها بالارقام
العقلية المحدودة rationnels finis ويلزمنا لكى لا نستخدم الا الارقام
العقلية أن نعبر عن هذه النسبة نفسها بمجموعة لا نهائية من هذه الارقام
التى حددتها بطريقة بسيطة جدا • الآن يلزمنا البحث : هل لا توجد بعض
الكميات المحدودة عندما لاتكون سوى صماء ... أو أكثر من
صماء يمكنها أن تعبر عن هذه المجموعة اللانهائية ، أى هى يمكن ايجاد
بالدقة مختصرا لهذا لكن. التعبيرات المحدودة وخاصة غير العقلية
irrationnelles اذا ذهبنا الى الاكثر من الصماء يمكنها أن تتغير
بطرق عديدة حتى يمكن أن نحصيها • وأن نحدد بسهولة كل ما يمكن •
وربما توجد وسيلة لعملها،اذا أمكن التعبير عن هذه الصمم بمعادلة
عادية أو حتى غير عادية أيضا ، التى تدخل غير العقلى وحتى مجهول
الاسس ومع أنه يلزمنا حسابا كبيرا لنتم ذلك وحيث لن نحلها بسهولة
ما لم نجد ذات يوم مختصرا يخرجنا منها • ولكننا لن نستطيع استبعاد
كل التعبيرات النهائية ، وهذا ما أعرفه وأنه لعمل كبير أن نحدد أفضلها •
كل هذا يبين ان الذهن البشرى يقترح اسئلة عجيبة ، وخاصة عندما نضيف
اليها اللامتناهى • ولا يجب أن نندهش اذا اجتهد ذهننا ليصل الى غايته ،

ومثلما يعتمد الكل فى هذه الأمور الهندسية على موجز مختصر ، وهذا ما لا يمكن أن نعد به فاننا لا نستطيع دائما أن نخدع الكسور لاقل الحدود أو أن نجد قواسم diviseurs عدد ما . حقا اننا نستطيع دائما الحصول على هذه القواسم لأن احصاؤها نهائى . ولكن عندما يكون ما يجب فحصه متغيرا الى ما لا نهاية ويرتقى من درجة الى درجة فلن نسيطر عليه اذا اردنا من الشاق جدا أن نستخدم المنهج لنحاول الوصول الى مختصر أو قاعدة المتوالية التى تعفينا من ضرورة التقدم أكثر ، ونظرا لان الفائدة التى تعود علينا لن تساوى الجهد الذى نبذله ، فأننا نترك النجاح فيها لمن يجىء بعدنا ، الذين قد يسعدهم أن يجدو الوسيلة التى تقلل من الاطناب اذا ما اعتمدوا على الاستعدادات والاكتشافات الجديدة التى سيقدمها لهم عصرهم هذا لا يعنى أن الاشخاص الذين قد اهتموا بهذه الدراسات من وقت لآخر قد ارادوا عمل الواجب عليهم ليحققوا تقدما ، فأننا لا نأمل أن نقدم كثيرا فى فترة ما ، ولا يجب أن نتخيل أن الكل قد أنجز ما دام ، حتى فى الهندسة العادية ، مازلنا لا نملك المنهج الذى يحدد أفضل البناءات وعندما تكون المشكلات أقل تركيبا يلزمنا أن نمزج تحليلنا بنوع من المتواليات الهندسية أو العددية التركيبية progression de synthése ليكون نجاحنا أفضل . وأتذكر أنى سمعت أن السيد / دى ويت Witt لديه بعض التأملات فى هذا الموضوع .

فيلالييت :

انها صعوبة أخرى أن تعرف هل يفكر الكائن المادى الخالص أم لا ؟ وربما ما لم يساعدنا الوحى ، ورغم أن لدينا الافكار عن المادة وعن التفكير ، لن نقدر أبدا على معرفة ، بالعقل ، ما يستحيل أن تكتشف بالتأمل فى أفكارنا الخاصة ، اذا لم يمنح الله لبعض الكتل من المادة ، التى يرى أنها مهيأة لذلك ، القدرة على الادراك والتفكير ، أو اذا لم يوجد ويرتبط بالمادة المهيأة بهذه الصورة بجوهر غير مادى يفكر ، لأنه بالنسبة

لأفكارنا لن يكون تصور أن الله يمكن أن يضيف الى فكرتنا عن المـــادة ملكة التفكير ، بأصعب من فهم أنه يربط بها جوهرا آخر من ملكة التفكير ، ما دمنا نجهل مما يتكون التفكير وأى نوع من الجواهر ، يرى هذا الكائن مخلوق الا بفضل رغبة وطيبة الخالق •

تيوفيـــــــل :

لا شك فى أن هذا السؤال أهم بكثير اذا قارناه بالسؤال السابق ، ولكن اسمح لنفسى ياسيدى أن أقول انى أتمنى أن يتيسر لنا تناول النفس ودفعها الى ما فيه خيرها وان تشفى الاجساد من أمراضها ، وأعتقد أن فى مقدرتنا أن نحدد ذلك • أتعشم أن تعترف بذلك على الاقل حتى أتمكن من التقدم دونأن أجرح الاحساس ودون ادعاء العلم بدلا من ذكر المبررات الجيدة ، لأنه علاوة على أنىأتحدثوفق الاحساس العـــــام والمقبـــــول ، أعتقـــد أنى قد أضفت اليها اهتماما غير عام ، أولا : اعترف ياسيدى أنه عندما لا نملك الا الافكار الغامضة عن التفكير والمـــادة ، كالعادة لا يجب أن نندهش اذا لم نر الوسيلة لحل هذه الاســئلة ، وكما لاحظت من قبل ، أن الشخص الذى ليس لديه أفكارا عن زوايا المثلث الا بالطريقة التى لدينا عنه عادة ، لن يفطن الى أنها تســاوى باستمرار زاويتين قائمتين • يجب أن نعتبر المــادة ، مأخوذة على أنهـــا كائن كامل ، (أى المـــادة الثانية فى مقابل المـــادة الاولى التى هى شىء سلبى تماما ، وبالتالىغير كامل) أى على أنها كتلة أو ما ينتج عن الكتلة وأن كل كتلة حقيقية تفترض جواهر بسيطة أو وحدات حقيقية ، وعندما تعتبر مرة أخرى ما هى طبيعة هذه الوحداتأى الادراك ولواحقه فاننا ننتقل بهذا الى عالم آخر ، أى العالم المعقول للجواهر ، بـــــدلا من أن نظل ، كما كنا من قبل بين ظواهر الاحساس ، هذه المعرفة لداخل المـــادة تظهر بمافيهالكفاية ما هى قادرة عليه بصورة طبيعية وأنه حينما يزودها الله بالاعضاء المناسبة للتعبير عن التفكير ، فلن يعيب الجوهر اللامادى الذى يفكر أن يعطيها لها بفضل الانسجام الازلى الذى هـــو

أيضا تتابع طبيعى للجواهر • لن تستطيع المـادة أن توجد بدون الجواهر غير المادية أى بدون الوحدات وتبعا لذلك لا يجب أن نسأل هل الله حر فى أن يعطينا لها أم لا ؟ واذا لم يكن لهذه الجواهر فى ذاتها الترابط أو الانسجام الذى تحدثت عنه ، فلن يكون الله قد تعرف وفق النظـام الطبيعى عندما نتحدث ببساطة عن اعطـاء أو التسليم بوجـود القوى فأننا نعود الى الملكات العارية التى قال بها المدرسون ونتخيل الكائنات الصغيرة الموجودة التى يمكنها أن تدخل وأن تخرج كما يفعل الحمـام فى برجه • أننا نجعل منها جواهر دون أن نفكر فى ذلك • القـدرات الاولية تكون الجواهر نفسها والقدرات المشتقة أو اذا أردت : الملكـات ليست سوى طرق للوجود يجب اشتقاقها من الجواهر ولا نشتقها مـن المـادة الا باعتبارها آله ، أى بقدر ما ننظر اليها بالتجريد على أنها الكائن غير الكامل للمادة الأولى أو ما هو السلبى الخالص تماما • وهذا ما اعتقد انك ما زلت توافق ، ياسيدى على أنه ليس فى مقدور الآلة العارية أن تولد الادراك والاحساس والعقل • يجب اذن أن يولدها شىء آخر جوهرى •

ارادة أن يتصرف الله بطريقة أخرى ، أن يعطى للاشياء أعراضـا ليست حالات من الجود أو تعديلات مشتقة من الجواهر • يعنى الالتجاء الى المعجزات وما يسميه المدرسون la puissance opedietiale أى القدرة الخاصة للسلطة الكنسية العليا بطريقة من التمجيد تفـوق الطبيعة ، مثل ادعاء بعض اللاهوتيين أن نار الجحيم تحرق النفوس المتفرقة ، ففى هذه الحالة يمكن أن نشك هل النار هى التى تعمل ؟ ، هل الله نفسه هو الذى قدم الاثر ، عندما يعمل بدلا من النار ؟

فيـــلاليت :

انك تدهشنى بتوضيحاتك وتواجه العديدمن الاشياء التى سأعرضها بالنسبة لحدود معارفنا • لقد قلت لك أننا لسنا فى حالة البصـيرة Vision كما يقول اللاهوتيون ، وأن الايمان والاحتمال يجب أن

يكفينا فى كثير من الاشياء ، وخاصة بالنسبة لخلود الروح • وأن جميـع غايات الاخلاق والدين تقوم على أسس جيدة بما فيه الكفايـة دون حاجة لادلة على هذا الخلود مستمدة من الفلسفة وأن من الواضـح أن ذلك الذى بدأ فى ايجادنا هنا باعتبارنا كائنات حساسة وعاقلة ، والذى حافظ علينا فى هذه الحالة لعدة سنوات ، يمكنه ويريد أن نتمتع أيضا بحالة من الحساسية مشابهة فى الحياة الاخرى ويجعلنا قادرين على تقبل الثواب الذى حدده للبشر تبعا لسلوكهم فى هذه الحياة ، وأخيرا يمكـن أن نحكم بهذا آن ضرورة تحديد موافقتنا أو معارضتنا لخلود الروح ليس من الاهمية التى أراد المتحمسون لعواطفهم الخاصة أن يقتنعوا بهـا • سأقول لك كل هذا وأكثر من هذا بهذا الصدد ، ولكنى أرى الآن كم هو مختلف أن أقول أننا حساسون ومفكرون وخالدون بصورة طبيعية عن أننا لن نكون كذلك الا بمعجزة • فى الواقع أنها معجزة حقا أن أعرف أنه يجب قبول أن الروح ليست خالدة : ولكن فكرة المعجزة هذه علاوة على أنها لا أساس لها ، لن تؤثر تأثيرا طيبا فى ذهن الكثير من الناس • وأرى أن الطريقة التى نتناول بها الأمر تجعلنا نحدد بشكل معقـول السؤال الحاضر دون الحاجة للتمتع بحالة البصيرة • والتواجد فى صحبة هذه العبقريات السامية التى تنفذ تماما الى التركيب الداخلى للاشـياء وتسمح لنا ، رؤيتنا الحية والثاقبة واتساع مجـال المعرفة • بتخيل السعادة التى يجب أن نتمتع بها • ولقد أعتقـدت أنه يفـوق معرفتنا تماما « أن نخلط الاحساس بمادة ممتدة وأن نخلط الوجود بشىء ليس ممتدا اطلاقا » ولهذا كنت مقتنعا أن أولئك الذين يشتركون هنـا وفق المنهج المخالف للصواب لبعض الاشخاص الذين يرون أن الاشياء التى يعتبرونها من جهة معينة تكون غير مفهومة ، يتوقعون مطأطئى الرأس الى الجانب المقابل حتى وأن كان لا يقل لا معقولية عن الجانب الأول ويرجع هذا ، فى رأيى ، الى أن البعض لأنهم أنغمسوا كثيرا فى المـادة لن يستطيعوا أن يقروا أى وجود لما هو ليس مادى ، وآخرون لا يجدون سوى الفكر وينحصرون فىالملكات الطبيعية للمادة ، ويستنتجون أن

الله نفسه لا يستطيع أن يمنح الحياة والادراك لجوهر صلب دون أن يمنح جوهرا خالدا بينما أرى الآن أنه اذا فعل ذلك سيكون بمعجزة ، ويبدو أن عدم القابلية لفهم وحدة النفس بالجسد أو المزج بين الاحساس والمادة قد زال بفرضك الاتفاق الازلى بين الجواهر المختلفة .

تيوفيل :

الواقع أنه لا يوجد ما هو غير مفهوم فى هذا الغرض الجديد ما دام لا ينسب الى الروح والاجساد سوى تعديلات نختبرها فى ذاتنا وفيها ، وأنه يقررها فقط بصورة أكثر تنظيما وأكثر ارتباطا مما كنا نعتقد حتى الآن . والصعوبة الباقية هى بالنسبة لأولئك الذين لا يريدون تخيل الا ما هو معقول ، كأنهم يريدون رؤية الأصوات أو استماع الالوان، وهم الذين ينكرون وجود كل ما ليس ممتدا ، مما يضطرهم الى انكاره حتى بالنسبة لله نفسه أى التخلى عن كل من الاسباب ومبررات التغيرات من جهة وهذه التغيرات من جهة أخرى : هذه الاسباب لا يمكن أن تصدر عن الامتداد والطبائع السلبية الخالصة عن الطبائع النشطة الجزئية والسفلى بدون الفعل الخالص الكلى للجوهر الاسمى .

فيلاليت :

بقى الاعتراض على الاشياء التى يمكن أن تقبلها المادة بصورة طبيعية . الجسد بقدر ما يمكن تصوره غير قادر الا على أن يطرق ويؤثر على جسد . والحركة لا يمكن أن تنتج شيئا آخر سوى حركة ، بحيث أننا عندما نوافق أن الجسد ينتج اللذة أو الالم أو حتى فكرة اللون أو الموت ، فأنه يبدو أننا مضطرون للتخلى عن عقلنا وأن نذهب أبعد من أفكارنا الخاصة وأن ننسب هذا الانتاج لرغبة خالقنا وحده . ما المبرر اذن لاستنتاج ألا يكون الأمر كذلك بالنسبة للادراك فى المادة ؟ أكاد أرى ما يمكن أن يكون عليه الاجابة ومع أنك قد قلت فعلا بعض الشىء أكثر من مرة ، الا أننى سأستمع لك الآن أكثر مما سبق وأنى

مستعد تماما لأن أسمع مرة أخرى ما ستجيب به فى هذه المناسبة الهـــامة •

تيوفيــــــــل :

انك تحكم ياسيدى بأنى سأقول أن المــادة لن تستطيع انتـــاج اللذة والالم أو الاحساس فى أنفسنا أنها الروح هى التى ستنتجها بنفسها ، اتفاقا مع ما يحدث فى المــادة ، ويبدأ بعض الماهرين من المحدثين فى اعلان أنهم لا يفهمون العلل التوافقية occasionnelles الا مثلى ، ولكن اذا قررنا هذا فلن يحدث شىء غير معقول باستثناء أننا لا نستطيع توضيح كل ما يدخل فى ادراكاتنا الغامضة التى تتصـل باللانهائى ، والتى هى تعبيرات مفصلة لما يحدث فى الاجســام : أمــا بالنسبة للرغبة الطيبة للخالق : يجب القول أنه منظم وفق طبائع الاشياء، بحيث أنها لاتنتج ولا تحفظ سوى ما يناسبها والذى يمكن أن يفسر بواسطة طبائعها ، على الاقل بوجه عام ، لأنه قد يعوزنا التفصيل أحيانا مثل ما تعوزنا العناية والقدرة على تنظيم حبات رمل الجبل وفق نظــام شكلها ، رغم أنه لا يوجد بها شىء يصعب فهمه سوى الكثرة • وبعبارة أخرى اذا أعوزتنا هذه المعرفة فى ذاتهــا ، واذا لم نستطع حتى تصور سبب الارتباط بالجسد بوجه عام ، وأخيرا اذا منح الله الاشـــياء القدرات العرضية معزولة عن طبائعها ، وبالتالى بعيدة عن العقل بوجــه عام ، فأنها تصبح بابا خلفيا تذكرنا بالصفات الحقيقية التى لا يمكن لأحد فهمها ، وبهذه الشياطين الصغيرة للكات غير قادرة للعقل • وهى شياطين مساعدة تبدو كآلهة المسرح أو مثل جنيات أماديس les fées d' Amadis والتى تفعل عند اللزوم كل ما يريد الفيلسوف ببساطة وبدون آلات • ولكن أن ننسب أصلها الى الرغبة الطيبة لله فلن يبــدو مناسبا لذلك الذى يكون العقل الاسمى ، والذى لديه كل شىء منظــم والكل مرتبط • هذه الرغبة الطيبة لن تكون طيبة ولن تكون رغبة اذا لم يوجد توازى مستمر بين القدرة والحكمة عند الله •

فيلاليت :

معرفتنا للذاتية والاختلاف تذهب أبعد بكثير من أفكارنا ، ولكن معرفتنا للرابطة بين أفكارنا (٩ ، ١٠) بالنسبة لتواجدها معا فى نفس الذات تكون غير كاملة تماما معدومة تقريبا (١١) خاصة بالنسبة للصفات الثانوية كالالوان والاصوات والاذواق (١٢) لاننا لا نعرف ارتباطها بالصفات الاولى أى (١٣) كيف تعتمد على الحجم ، والشكل ، أو الحركة • (١٥) اننا نعرف القليل عن عدم توافق هذه الصفات الثانوية ، لان الموضوع لا يستطيع أن يحصل على لونين مثلا فى نفس الوقت ، وعندما نراهما فى حجر بنى متغير الالوان opale أو فى نقيع من Lignum nephriticum فأن هذا يبدو فى الاجزاء المختلفة للموضوع (١٦) نفس الامر بالنسبة للقدرات النشطة والسلبية للاجسام • ابحاثنا فى هذه المناسبة يجب أن تعتمد على التجربة •

تيوفيل :

أفكار الصفات الحسية تكون غامضة ، والقدرات التى يجب أن تنتجها لا تزودنا بالتالى الا بأفكار يدخلها غموض • وعلى هذا لن نستطيع معرفة روابط هذه الافكار الا بواسطة التجربة ، بقدر ما نخضعها لافكار متميزة تصاحبها ، كما نفعل مثلا بالنسبة لالوان قوس قزح وطيف الشمس وهذا المنهج يعطينا نوعا من البداية لتحليل مفيد جدا فى الفيزياء ولاشك فى أن الطب لم يتقدم تقدما معتبرا مع الزمان الا باستخدامه ، وخاصة اذا اهتم به الجمهور أكثر من اهتمامه حتى الآن •

بالنسبة لمعرفة الروابط فهذا هو المجال الاوسع لمعارفنا ، ومن الصعب تحديد الى أين يمكن أن يمتد • يعتمد التقدم على الفطنة فى

ايجاد الافكار المتوسطة • أولئك الذين يجهلون الجبر لا يمكنهم تصور الاشياء المدهشة التى يمكن عملها فى هذا النوع بواسطة هذا العلم •

ارى ان من السهل تحديد أى الوسائل الجديدة لاتمام الاجزاء الاخرى من معارفنا يمكن ان يكتشفها ذهن نافذ • على الاقل الافكار الخاصة بالكمية ليست هى الوحيدة القابلة للاستدلال ، هناك أفكار أخرى ربما تكون الجزء الاهم من تأملاتنا التى يمكن أن نستدل منها معارف يقينية اذا لم تقف النقائض والانفعالات والمصالح حائلا دون تنفيذ مثل هذا المشروع •

تيوفيل :

لا يوجد ما هو أصوب مما تقوله الان يا سيدى • هل هناك أهم ، على فرض انه حق ، مما اعتقد أننا حددناه بالنسبة لكل من طبيعة الجواهر والوحدات ، والمتعددات الذاتية والاختلاف ، ، تكوين الافراد ، استحالة الفراغ والذرات ، أصل تماسك الاجسام ، وقانون الاستمرار وغيرها من القوانين الطبيعية ، تناسق الاشياء ، وخلود الارواح ، وحدة الروح والجسد ، بقاء الارواح وحتى أرواح الحيوان بعد الموت ؟ ليس فى كل هذا شىء اعتقد انى استطيع أن أثبت أو قابل للاستدلال • ؟

فيلاليت :

حقا أن افتراضك يبدو مرتباطا تماما وبسيط جدا : يعترف أحد الرجال البارعين ممن أراد دحضه فى فرنسا ، أنه تأثر به تماما • وهو متميز ببساطته فيما أرى • ويحسن أن نؤكد هذه النظرية أكثر فأكثر ذات يوم • ولكن حديثنا عن الاشياء التى تهمنا أكثر ، أقصد الاخلاق ، التى اعترف أن ما بعد الطبيعة التى تقول بها تمدها بأسس مدهشة : ولكن دون تعمق أكثر ، لديها الكفاية رغم أنها ربما لا تمتد بعيدا ، اتذكر انك لاحظت ذلك ، ما دامت غير قائمة على اللاهوت الطبيعى الذى

تقول به • ومع ذلك الاعتبار الوحيد لخيرات هذه الحياة يساعدنا فى تقرير نتائج هامة تنظم المجتمعات البشرية • يمكن أن يكون حكمنا فيها صائبا ومن المؤكد أن يقيننا فيها لن يقل عما فى الرياضيات ، مثلا هذه القضية « لن يمكن ان يوجد ظلم حيث لا يوجد تملك » وهى قضية لا تقل يقينا عن أى استدلال من استدلالات اقليدس ، باعتبار أن التملك حق فى شىء ما والظلم يعنى اغتصاب الحق • كذلك الامر بالنسبة لهذه القضية : لا توجد أى حكومة توافق على الحرية المطلقة • لان الحكومة تعنى قوانين معينة وتطلب تنفيذها • والحرية المطلقة تعنى أن كل واحد قادر على أن يفعل ما يريد •

تيوفيـــل :

تستخدم كلمة ملكية بطريقة مختلفة قليلا عن الاستخدام العادى لاننا نقصد بها حق شخص ما فى شىء ما واستبعاد حق شخص آخر • وعلى هذا حتى اذا لم توجد ملكية ، حيث يكون كل شىء مشـــتركا وشائعا ، سيوجد ظلم • يجب أيضا أن نفهم من تعريف الملكية أن كلمة شىء تعنى ايضا فعل action والا فانه عندما لا يوجد حق على الاشياء ، سيكون من الظلم دائما أن نمنع البشر من العمل حيث يحتاجون • ولكن وفق هذا التفسير يصبح من المستحيل الا توجد ملكية • أما بالنسبة للقضية الخاصة بعدم اتفاق الحكومة مع الحرية المطلقة ، فانها تدخل ضمن القضـــايا الـــلازمة morollaires وأى القضـــايا التى يكفى ملاحظتها • ونجد منها الكثير فى التشريع وهى قضايا أكثر تركيبا مثل تلك التى تتصل بما نسميه بالشروط أو تلك الخاصة بـ jus accrescende ومواد أخرى كثيرة قد اظهرتها عندما نشرت فى شبابى بحوثا عن الشروط وحيث اثبت بعضها وسأعود اليها مرة أخرى اذا سنحت لى الفرصـــة •

فيلاليت :

أن ذلك ييسر المتطلعين ويساعد على تلبية رغبة من يستطيع طبعها دون تنقيح •

تيوفيــل :

هذا ما حدث بالنسبة لفن الارتباطات الذى اشتكى منه فعلا ؛ فقد كان ثمرة شبابى الاول ومع ذلك اعيد طبعه بعد فترة طويلة دون استشارتى ودون أن يشار الى أنها طبعه ثانية مما جعل البعض يعتقد ، وفى هذا أساءة الى ، أنى كنت قادرا على نشر مثل هذا العمل فى سن متقدمة • لانه رغم ما فيه من افكار لها نتائجها التى مازلت اقرها ؛ فان ايضا بها بعض الافكار لا يمكن تقبلها الا من طالب ناشىء •

فيلاليت :

أرى أن الاشكال تعتبر أكبر علاج لعدم يقين الكلمات وهــذا ما لا يمكن أن نجده فى الافكار الاخلاقية • علاة على أن الافكار الاخلاقية أكثر تركيبا من الاشكال التى نعتبرها عادة فى الرياضيات ، وعلى هذا يتعب الذهن فى حفظ الارتباطات الدقيقة الموجودة بين الافكار الاخلاقية بطريقة كاملة تجعلها ضرورية فى حالة الاستدلالات الطويلة • وبالنسبة للحساب اذا لم نعبر عن المواضيع المختلفة بعلامات نعرف دلالتها الدقيقة والتى تظل وستظل امام بصرنا فسيكون من المستحيل تقريبا أن نقــوم بأعمــال كبيرة •

٢٠ ــ تعطينا التعريفات علاجا ما بشرط أن نستعملها باستمرار فى الاخلاق • وعلاوة على ذلك ليس من السهل التنبؤ باى المناهج يمكن أن يقترحها الجبر أو أى وسيلة أخرى لها نفس الطبيعــة لكى نزيل الصعوبات الاخرى •

تيوفيــل :

اخترع المرحوم أرهارد فيجل Erhard Weigel بعبقرية أشكالا عن الامور الاخلاقية وعندما نشر تلميذه المرحوم Samuel de puffendorff اصــول الفقه الكلى jurisprudence universelle المتفق مع افكار السيد فيجيليوس Weigelius اضيف فى طبعــة اثينــا Iena ابحاث هذا العالم الرياضى فى مجال الاخلاق ، ولكن هذه الاشــكال كانت نوعا من الاستعارات تشبه الى حد ما قائمة سيبس Cubes ، وأن كانت أقل شعبية ، وتستخدم بالاحرى فى الذاكرة لحفظ وتنظيم افكارنا ، اكثر من استخدامها فى الحكم لاكتساب معارف استدلالية . أنها لا تنسى دورها فى ايقاظ الذهن . الاشكال الهندسية تبدو ابسط من الامــور الاخلاقية . ولكنها ليست كذلك ، لان المحتوى يشمل اللانهائى حيث يجب أن نختار منه ، مثلا لكى نقطع المثلث الى أربعة أجزاء متساوية بواسطة زاويتين قائمتين عموديين فيما بينهما . انه سؤال بسيط ولكنه صعب ، ليس الامر كذلك فى الاسئلة الاخلاقية ما دامت قابلة للتحديد بواسطة العقل وحده وعلاوة على ذلك ، المجال لا يسمح هنا بالحديث عن :

de proferendis scientiae demonstrandi pomoeriis.

واقتراح الوسائل الصحيحة لامتداد فن البرهنة الى ما وراء الحدود القديمة التى ما زالت على ما كانت عليه لدى أصحاب الرياضية حتى الآن ، واتعشم ، اذا منحنى الله الفرصة اللازمة لهذا ، أن اقدم ذات يوم بحثا استخدم فيه هذه الوسائل دون أن اتقيد بالسابقين .

فيلاليت :

انك يا سيدى اذا حققت هذا القصد كما يجب فانك ستخدم تماما الفيلاليت امثالى أى أولئك الراغبين بجد فى معرفة الحقيقة . ومن الطبيعى انها مريحة للاذهان ولا يوجد ما هو مشوه ولا هو غير متفق مع

الفهم أكثر من الكذب • ومع ذلك لا يجب أن نتعشم اننا سنعتمد كثيرا على هذه الاكتشافات طالمـــا قد تدفع الرغبة وتقدير الثروة أو القوة البشر الى التعصب للافكار السائدة تمشيا مع الموضة • والبحث بعد ذلك عن الادلة وجعلها مقبولة ، أو تمويه وتغطية تشويهها • وعندما تسعى الاطراف المختلفة الى اقناع كل من يخضع لسلطتهم بهذه الافكار دون فحص هل هى خاطئة أو صواب ، فأى ضوء جديد يمكن أن نتوقعه فى العلوم التى تتصل بالاخلاق ؟ هذا الجزء من الجنس البشرى الواقع تحت السلطة عليه أن ينتظر ، فى أغلب أنحاء العالم بدلا من ذلك ، ظلمات كثيفة كتلك التى فى مصر اذا لم يمثل النور الالهى امام ذهن البشر ، وهو النور المقدس الذى لن تستطيع القدرة البشرية أن تطفئه •

تيوفيـــل :

لن أيأس أبدا من ان يوجد الوقت أو البلد الهادىء الذى يمكن للبشر من البدء فى استخدام العقل بطريقة لم يسبق لهم استخدامها • لانه فى يجب ألا تيأس من شىء واعتقد أن هناك تغيرات نحو الافضل أو الاسوأ سيتعرض لها الجنس البشرى ، وان كان النصر أخيرا للخير • لنفرض اننا سنرى يوما أميرا كبيرا يشبه ملوك سوريا ومصر القدماء ، أو يشبه سليمان ، يتولى الحكم لفترة طويلة فى سلام تام ؛ ولانه يحب الفضيلة والحقيقة ويتمتع بذهن كبير صلب ويضع فى اعتباره أن يجعل الناس سعداء متفقين فيما بينهم وأكثر سيطرة على الطبيعة ؛ فأى العجائب يمكن أن يحققها فى عدد قليل من السنوات لانه من المؤكد أنه يمكن ، فى هذه الحالة ، أن نعمل فى عشرة سنوات مالا يمكن أن نحققه فى مائة وربما ألف سنة ، ذلك اذا تركنا الامور تسير فى مجراها العادى •

ولكن بدون هذا ، اذا ما افسحنا الطريق للعديد من الناس ، كمـــا حدث لعلماء الهندسة فان هذا سيرضيهم ويحقق لهم المجد • ان الجمهور اذا احسن قيادته سيتجه ذات يوم الى تقدم الطب أكثر مما يفعل

اليوم ، وستهتم كل الدول بنشر تاريخها للطبيعى فى صورة القوائم الفلكية أو مجـــلات دورية كمجلة mercures galans [1] وانتترك أى ملاحظة جيدة دون تبجيل ، وستقدم المساعدات لكل من يهتم بها أو يتقن فن عمل امثال هذه الملاحظات ، وكذلك كل من يستخدمها لتقرير الكلمات الجامعة وسيأتى الوقت الذى يتزايد فيه عدد الاطباء الممتازين والذى يتناقص فيه عدد أفراد مهن معينة يقل الاحتياج اليها ، ويصبح الجمهور فى حالة تسمح له بتشجيع البحث فى الطبيعة ، وبوجه خاص العمل على تقدم الطب وعندئذ سيصل هذا العلم الهام الى أبعد مما هو عليه فى حالته الحاضرة ويتزايد أمام بصرنا • فى الواقع اعتقد ، أن هذا الجانب من السياسة يجب أن ينال رعاية أكثر من الحكام • بعد الجانب الخاص بالفضيلة ، وأن من أهم الثمرات التى نجنيها من الأخلاق أو من السياسة القويمة هو أنه سيقودنا الى طب أفضل عندما يبدأ البشر فى أن يصبحوا أكثر حكمة مما هم عليه ، وعندما يتعلم العظماء اتقـــان استخدامهم لثرواتهم وقدرتهم من أجل سعادتهم الخاصة •

٢١ — فيلاليت :

بالنسبة لمعرفة الوجود الحقيقى (وهو النوع الرابع من المعارف) يجب القول أننا لدينا معرفة حدسية لوجـــودنا ، ومعرفة اســـتدلالية لمعرفة الله ، وحسية للاشياء الاخرى • وسنتحدث بتفصيل فيما يلى •

تيوفيـــل :

لن نجد ما هو أدق من ذلك •

---

(١) mercures galants عنوان لمجلات مخلفة تهتم بالسياســـة والادب واعلانات واخبار متنوعة وقد اختار de visé سنة ١٦٧٢ هذا العنوان للجريدة التى انشأها واستمرت حتى سنة ١٨٥٣ تحت عدد من المديرين واتخذت عدة اسماء وتعرضت للتوقف لفترات • وقد حاول ليبنتز الحصول على نسخة كاملة من اعدادها •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢٢ ــ فيلاليت :

الآن بد أن تحدثنا عن المعرفة ، يبدو من المناسب لكى نحسن اكتشاف الحالة الحاضرة لذهننا ، أن نعتبر قليلا الجانب الغامض وأن نتعرف على جهلنا لانه يفوق معرفتنا وهاهى أسباب هذا الجهل •

ينقصنا بعض الافكار ، أننا لن نكتشف الارتباط بين الافكار التى لدينا ، وأننا نهمل تتبعها وفحصها بدقة •

٢٣ ــ بالنسبة لعيوب الافكار ليس لدينا افكارا بسيطة سوى تلك التى تأتينا عن طريق الحواس الداخلية أو الخارجية • أما بالنسبة لمخلوقات العالم التى لا حصر لها وصفاتها فأننا منها بمثابة العميان بالنسبة للالوان ، لا نملك حتى الملكات اللازمة لمعرفتها ، وحسب كل الظواهر يقف الانسان فى الصف الاخير من بين الكائنات العاقلة •

تيوفيــل :

لا أعرف هل هناك من هم بعدنا فى الصف ؟ ولمــاذا نحتقر أنفسنا بدون ضرورة ربما نحتفظ لانفسنا بمكان أفضل من الحيوانات العاقلة ، لان الجنيات العليا يمكنها أن تحصل على أجسام ذات صورة مختلفة بحيث لا يناسبها اسم حيوان • أننا لا نستطيع القول أن لشمســنا ، من بين غيرها من الشموس ، ما يعلوها بقدر ما هو أسفل منها ، وانننا قد أحسن وضعنا فى هذا النظام ، لان الارض تشغل مركز الافلاك وأن بعدها قد أحسن اختياره بحيث تسمح لحيوان متأمل أن يسكن فيها • على أى حال لدينا الكثير من الامور التى نفتخر بها أكثر من تلك التى نشكو منها ، ومعظم شرورنا يجب أن ترجع الى خطئنا • واننا قد نخطىء اذا اشتكينا من عيوب معرفتنا ، ما دمنا نستخدم القليل مما تقدمه لنا الطبيعة الرحيمة •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢٤ — فيلاليت :

ومع ذلك فمن الحق اننا نعجز عن معرفة المسافة القصوى لكل أجزاء العالم تقريبا الواقعة امام بصرنا • ومن الواضح أن العالم المرئى ليس سوى جزءا من هذا الكون الفسيح ، أننا محصورون فى ركن صغير من المكان أى فى فلك شمسنا ومع ذلك لا نعرف حتى ما يحدث فى الكواكب الاخرى التى تدور حولها وحول كرتنا الارضية •

٢٥ — هذه المعارف تنقصنا لحجمها وبعدها ولكن هناك اجسام أخرى خافية علينا لصغرها وهى تلك التى يهمنا معرفتها أكثر لانه اعتمادا على تشابكها يمكننا استدلال استخدامات وعمليات تلك المرئية ، ومعرفة لماذا يؤدى الراوند (rhubarbe) وهو عشب طبى — الى الاسهال ، ولماذا يقتل الشوكران (cigué) — وهو عشب طبى سلم — ولماذا يخدر الافيون ••• الخ •

٢٦ — وعلى هذا مهما استطاعت الصناعة البشرية أن تقيم الفلسفة التجريبية على الاشياء الفيزيقية فانى أميل الى الاعتقاد اننا لن نصل أبدا الى معرفة علمية لهذه الموضوعات •

تيوفيل :

اعتقد أننا لن نصل ابدا ابعد مما نتمنى ومع ذلك يبدو لى أننا نحقق تقدمات معتبرة بالنسبة لتفسير بعض الظواهر ، لان مالدينا من تجارب عديدة يمكن أن تمدنا بالمعطيات التى تفوق الكفاية بحيث لا ينقصنا سوى فن استخدامها ، ولن أيأس أبدا من محاولة دفع البدايات الصغيرة طالما يمدنا التحليل اللامتناهى بالوسيلة التى تربط الهندسة بالفيزيقا وطالما تزودنا الديناميكا بالقوانين العامة للطبيعة •

٢٧ — فيلاليت :

مازالت العقول بعيدة جدا عن معرفتنا ، اننا لا نستطيع تكوين

أى فكرة عن نظمها المختلفة ؛ ومع ذلك فمن المؤكد أن العالم الذهنى اكبر وأجمل من العالم المـادى •

تيوفيـل :

هذه العوالم تكون دائما متوازية تماما ، وبالنسبة للعلل الفعالة وليس بالنسبة للعلل النهائية • لانه ما أن تسيطر العقول على المـادة حتى تنتج تنظيمات مدهشة • يبدو هذا من التغييرات التى حققها البشر لتجميل بسطح الارض كأنهم آلهه صغار يحاكون المهندس البارع للكون وأن كان ذلك باستخدام الاجسام وقوانينها فحسب • ماذا يمكننا أن نخمن عن هذه الكثرة الهائلة من العقول التى تفوقنا ؟ وحيث أن العقول تشكل فيما بينهانوعامن الدولة وخاضعة لله ، حاكمها كامل فاننا بعيدون تماما عن فهم نظام هذا العالم المعقول ، وادراك الآلام والمكافآت التى أعدت لمن يستحقها وفق عقل عادل تماما وأن نتخيل ما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولم يدخل أبدا قلب الانسان • ومع ذلك كل هذا يعرفنا أننا لدينا كل الافكار الواضحة واللازمة لمعرفة الاجسام والعول وليس التفصيل الكافى للوقائع ، ولا الحواس النافذة التى توضح الافكار الغامضـة أو المعتدة بحيث ندركها كلها •

٢٨ ـ أما بالنسبة للارتباط الذى ينقصنا معرفته فى الافكار التى نملكها سأقول لك أن التأثيرات الآلية للاجسام ليس لها أى ارتبـاط بأفكار الالوان ، الاصوات ، الروائح ، الاذواق ، اللذة ، والالم • وأن ارتباطها لا يعتمد الا على الرغبة الطيبة وأرادة الله الحرة •

ولكنى أتذكر أنك تحكم بوجود توافق كامل وأن لم يكن دائمـا تشابها تماما • ومع ذلك فأنت تعرف أن التفاصيل الدقيقة جدا للامور الصغيرة التى تدخل فيها يعوق توضيح ما تخفيه ، رغم أنك مازلت تأمل أن نقترب منه كثيرا ومن ثم لا تريد القول مع مؤلفى الشهير • ٢٩ (أنه لمن الجهد الضائع أن تهتم بمثل هذا البحث ، خشية أن يسىء هذا

الاعتقاد الخاطيء الى تقدم العلم • لقد تحدثت اليك أيضا عن الصعوبة التى اعترضتنا حتى الان عند تفسير الارتباط الموجود بين الروح والجسد ، مادمنا ندرك أن الفكرة تنتج الحركة فى الجسد وليست الحركة هى التى تنتج الفكرة فى الذهن • ولكن منذ أن أدركت فرضك الخاص بالاتساق الازلى زالت هذه الصعوبة تماما وبسهولة • ٣٠) بقى اذن السبب الثالث لجهلنا ، وهو أننا لا نتابع الأفكار التى لدينا أو التى يمكن أن نمتلكها ولا نحاول ممارسة الحصول على الافكار الوسيطة • هكذا نجهل الحقائق الرياضية مع أنه لا يوجد أى نقص فى ملكاتنا ، ولا أى شك فى الاشياء نفسها • وسوء استخدام الكلمات هو الذى ساهم أكثر فى الحيلولة دون تبين التوافق أو عدم التوافق بين الافكـــار ••

وقد استطاع الرياضيون تجنب الجزء الاكبر من الصعوبة بان صاغوا أفكارهم دون الاعتماد على الاسماء وتعودوا على تمثل الافكار وليس أصواتها فى ذهنهم • ولو تصرف البشر فى اكتشافاتهم للعالم المادى ، بنفس الطريقة التى تصرفوا بها بالنسبة للعالم الذهنى واذا كانوا قد خلطوا الجميع فى سديم من الكلمات ذات دلالة غير يقينية ، فانهم سيظلون يتناقشون الى ما لا نهاية حول مناطق الكرة الارضية ، أو المد والجزر ، أو بناء السفن والطرق ، وما كنا قد توصلنا الى الجانب الآخر منها ولظلت الاجزاء الواقعة على الجهة المقابلة من الكرة الارضية مجهولة كما كانت من قبل عندما أعلنا أنها نوع من البدع •

تيوفيـــل :

هذا السبب الثالث لجهلنا هو الوحيد الذى يستحق اللوم • ونرى يا سيدى أنه يتضمن ايضا اليأس من التقدم أكثر • لقد أزعجنا كثيرا هذا الوهن فى العزيمة وقد أعاق بعض الاشخاص الجديرين بالاعتبار والماهرين ، تقدم الطب لاعتقادهم الخاطيء أن أى عمل يقومون به فى

هذا المجال يعتبر جهدا ضائعا • عندما ترى الفلاسفة الارسطيين القدماء يتحدثون عن الظواهر الجوية وعن قوس قزح مثلا ، ستجد أنهم يعتقدون أنه لا يجب فقط التفكير فى تفسير واضح لهذه الظاهرة ومن ثم ظنوا أن محاولات موراليوس Maroiyeus ومارك أنطوان دى دومينيس (Marc Antoine de Dominis) ليست سوى محاولات خيالية تشبه محاولات أيكاروس الاسطورى (الذى تخلص من سجنه بصنع جناحين والطيران بهما) ومع ذلك ترتب على ذلك الكشف عن العالم • من الحق أن سوء استخدام الالفاظ قد سبب جزءا كبيرا من الفوضى الموجودة فى معارفنا ليس فقط فى الاخلاق وما بعد الطبيعة أو فيما تسميه العالم الذهنى ، وأنما ايضا فى الطب حيث تزايد سوء استخدام الحدود أكثر فأكثر • لا تستطيع الاشكال هنا مساعدتنا كما فى الهندسة ولكن الجبر أظهر أن من الممكن تحقيق اكتشافات كبرى دون اللجوء دائما الى افكار الاشياء • بالنسبة للبدعة الخاصة يتعرف الاجزاء الواقعة على الجهة المقابلة من الكرة الارضية ، أقول أن من الحق أن بونيفاس Boniface أرشيدوقماينس قد أتهم فرجيل دى سالزبورج فى خطاب كتبه للبابا ضده فى هذا الموضوع ، وأجابه البابا بطريقة تظهر أنه يؤيد بونيفاس دون أن يؤثر هذا الاتهام على فرجيل وظل الخصمان قديسين ، واحتفظ بذكراه علماء بافيير Baviere الذين اعتبروا فرجيل مبشرا لكارنيتى Carinthie والبلاد المجاورة لها •

---

(١) دى ويت (جان (Jean) witt المشهور باعتباره رجل دولة وعالم هندسة ولد بدور درشت Dordrechten سنة ١٦٢٥ وتوفى مع شقيقه كورنى سنة ١٦٧٢ مقتولا فى الثورة التى اوصلت جيلوم دوانج لقمة المقاطعات المتحدة وقد ترك كتابه Elementa linearum curvarum فى ليد سنة ١٦٥٠ •

(٢) Puffenaorf أحد مؤسسى القانون الطبيعى ولد Dippoldswald سنة ١٦٣٢ وتوفى ببرلين ١٦٩٤ ابحاثه الرئيسية ١٧٤٤ ترجمه للفرنسية Barbeyrac مع ملاحظات فى مجلدين سنة ١٧١٢

1 — de jurenaturae etgentium libro octo

2 — elementa jurisprudentae de officio hominis libri duo.

الفصــــل الرابع

فى حقيقة معرفتنــا

١ — فيلاليت :

يظن أولئك الذين لم يفهموا اهمية الحصول على أفكار جيدة وفهم اتفاقها أو عدم اتفاقها ، أن تفكيرنا فيها بعناية بمثابة بناء قصور فى الهواء • وأن مذهبنا لا يحتوى الا ما هو مثالى وخيالى • قد يتميز الانسان الشاذ الذىيتمتع بخيال خصب، بأنه يتمتع بأفكار أكثر حيوية وأكثر عددا ، ومن ثم سيكون لديه معرفة أكثر ، وكذلك سيكون لدى الشخص المتحمس من اليقين فى رؤياه أكثر مما لدى الرجل ذو الذوق السليم من استدلالات بشرط أن يتحدث هذا المتحمس تبعا لذلك ؛ وسيكون حقا ايضا قولنا ان « هذه المرأة الشريرة التى ذكرتها الاساطير اليونانية ليست هى ذلك الكائن الخرافى الذى نصفه رجل ونصفه فرس » يشبه تماما قولنا أن المربع ليس بدائرة » •

٢ — أجيب أن أفكارنا تتفق مع الاشياء •

٣ — ولكننا قد يطالبنا البعض بمحك •

٤ — أجيب ايضا أولا أن هذا الاتفاق واضح بالنسبة للافكــار البسيطة لذهننا ولمــا كان الذهن غير قادر على تشكيلها بنفسه وجب أن تنتجها الاشياء التى تؤثر على الذهن ، وثانيا •

٥ — ولمــا كانت كل افكارنا المركبة ، ماعدا افكارنا عن الجواهر ، نماذج أصلية يشكلها الذهن نفسه دون أن يقصد منها أن تصبح نسخا لاى شىء كان ، ولا تستمد أصولها من وجود أى شىء • فلن ينقصها أن تتفق تماما مع الاشياء الضرورية للمعرفة الحقيقية •

تيوفيــل :

سيكون يقيننا قليلا وبالاحرى معدوما اذا لم يكن له كأساس لافكاره البسيطة سوى تلك التى يستمدها من الحواس • هل نسيت يا سيدى كيف أظهرت أن الافكار تكون اصلا فى ذهننا وأن أفكارنا نفسها تأتينا من أعماقنا ؛ دون أن يكون للمخلوقات الاخرى أى أثر مباشر على الروح • طبعا أساس يقيننا بالنسبة للحقائق الكلية والخالدة يكون فى الافكار نفسها مستقلة عن الحواس ، كذلك لا تستقل الافكار الخالصة والذهنية عن الحواس ، مثلا أفكارنا عن الكائن ، الواحد ، نفس الشىء ••• الخ فى حين تصدر أفكارنا عن الصفات الحسية كاللون والطعم ••• الخ (والتى لا تكون فى الواقع سوى اوهام) عن الحواس ، أى عن أفكارنا المختلطة • وأساس حقيقة الاشياء العرضية والمفردة يكون فى النجاح الذى يجعل ظواهر الحواس مرتبطة بالصورة التى تتطلبها الحقائق الذهنية بالضبط • هذا هو الفرق الذى يجب أن نقرر ، بدلا من ذلك الذى نقرره أنت بين الافكار البسيطة والمركبة ؛ وبين الافكار المركبة المتصلة بالجواهر وتلك المرتبطة بالاعراض ، وهو فرق لا يبدو لى مؤسسا ما دامت كل الافكار الذهنية لديها نماذجها الاصلية فى الامكانية الخالدة للاشياء •

٦ ـ فيلاليت :

حقا أن أفكارنا المركبة لا تحتاج لنماذج أصلية خارج الذهن الا عندما يخص جوهرا موجودا يجب عليه أن يوجد بصورة فعالة ؛ خارج أنفسنا ، الافكار البسيطة التى تتركب فيها • معرفة الحقائق الرياضية صادقة ، مع أنها لا تدور الا حول أفكارنا ولا نجد فى أى جزء منها دوائر دقيقة • ومع ذلك نحن واثقون من أن الاشياء الموجودة ستتفق مع نماذجنا الاصلية بشرط أن يوجد ما نفترضه •

٧ ــ هذا ما يستخدم ايضا فى تبرير حقيقة الاشياء الاخلاقية •

٨ ــ قوانين ششرون لا يقلل من اتفاقها مع الحقيقة أنه لا يوجد شخص فى العالم ينظم حياته بالضبط وفق نموذج الانسان الخير الذى صـــوره لنا شيشرون •

٩ــ ولكن يمكن القول أنه اذا كانت الافكار الاخلاقية من اختراعنا فأى فكرة غريبة ستحصل عليها عن العدالة والاعتدال ؟

١٠ ــ اجيب أن عدم اليقين لن يكون الا فى اللغة ، لاننا لا نفهم دائما ما يقال وقد لا نفهمه دائما بنفس الصورة •

تيوفيـــل :

يمكن أن تجيب ايضا يا سيدى ، بل والافضل فى نظرى ، ان افكار العدالة والاعتدال ليست من اختراعنا ولا حتى افكارنا عن الدائرة والمربع ، واعتقد أنى اظهرت ذلك •

١١ ــ فيلاليت :

بالنسبة لافكـــار الجواهر التى توجد خارج أنفســـنا ، معرفتنا تكون حقيقية بقدر اتفاقها مع هذه النماذج الاصيلة وبهذا الصدد لا يجب على الذهن أن يربط الافكار تعسفيا طالما هناك القليل من الافكار البسيطة التى يمكن أن نؤكد انها تستطيع أولا تستطيع أن توجد معا فى الطبيعة وراء ما يبدو لنا من خلال الملاحظات الحسية •

تيوفيل :

ذلك حق كما سبق ان قلت أكثر من مرة ، لان هذه الافكار ، عندما لا يستطيع العقل الحكم باتفاقها أو ارتباطها ، تكون غامضة مثل تلك الخاصة بالصفات الخاصة بالحواس •

١٣ ــ فيلاليت :

من الاحسن ايضا بالنسبة للجواهر الموجودة ، الا تنحصر فى الاسماء أو الاجناس التى نفترض تقريرها بالاسماء • هذا يجعلنا نعود الى ما ناقشناه احيانا بالنسبة لتعريف الانسان • فهل حديثنا عن الابله الذى عاش أربعين عاما دون أن يبدو أنه يستخدم ذهنه ، يجعلنا نقول أنه يشغل مكانا وسطا بين الانسان والحيوان ؟ قد يكون هذا تناقضا حادا أو خطأ ذا نتائج خطيرة جدا ومع ذلك بدا لى ، قبل ذلك ، ومازال يبدو للبعض من أصدقائى ، أنى لن استطيع كشفه ، وانه بفضل حاكم سابق يقوم على هذا الافتراض الخاطىء أن هذين الاسمين « الانسان والحيوان » يعنيان جنسين متميزين مختلفين تماما لهما ماهيات حقيقية فى الطبيعة بحيث لا يستطيع أى جنس آخر تدخل فيما بينهما ، كما لو أن كل الاشياء قد صبت فى قوالب حسب العدد الدقيق لهذه الماهيات •

١٤ ــ عندما نسأل هؤلاء الاصدقاء تحت أى جنس من الحيوانات يمكن أن ندخل هؤلاء البلهاء اذا لم يكونو بشرا ولا حيوانات ، أجابوا أنهم بلهاء وهذا يكفى •

وعندما نسألهم ما مصيرهم فى العالم الآخر ؟ أجاب أصدقاؤنا أنه لا يهمهم أن يعرفوا ذلك ولا ان يبحثوا فيه • فليسقطوا أو فليقفوا ، أن هذا من شأن ربهم Rom, xiv,4 وهو طبيب ومخلص ولا يتصرف مع مخلوقاته وفق الحدود الضيقة لافكارنا أو آرائنا الخاصة ، ولا يميزهم وفق الاسماء والاجناس التى يسرنا أن نتخيلها ، ويكفينا أن أولئك القادرين على التعلم سيحاسبون عن سلوكهم وسينالوا أجرهم وفق ما عملوه فى جسدهم il, Corinth . v. IIo

١٥ ــ سأقدم لك باقى استدلالاتهم • يقولون أن المسألة هى ،

اذا وجب حرمان السفهاء من حالة ستحدث فان الامر لا يعد واحد افتراضين خاطئين ، الاول أن كل كائن لديه القوة والمظهر الخارجى للانسان مقدور عليه حالة من الخلود بعد هذه الحياة ، والثانى أن كل من ولد بشرا يجب أن يتمتع بهذه الميزة • استبعد هذه التخيلات وسترى ان هذه الانواع من الاسئلة تافهه ولا أساس لها • واعتقد اننا ننكر الافتراض الاول وأننا لا نملك الذهن المتعمق الذى يعتقد أن الحياة الخالدة واجبة لاى شكل ذا كتلة مادية ، بحيث يجب أن تحصل الكتلة على الاحساس بصورة ابدية لمجرد انه قد وضع بهذا القالب •

١٦ — ولكن الافتراض الثانى يدعمه ، قد يقال أن هذا الابله جاء من أبوين عاقلين وبالتالى يجب ان يحصل على روح عاقلة • لا أعرف بأى قاعدة منطقية يمكن أن نقرر مثل هذه النتيجة وكيف بعد ذلك نجرؤ على تحطيم الانتاجات المشوهة والمزيفة • آه ! قد يقال انها مسوخ ! حسنا ! فليكن • ولكن هل سيظل هذا الابله دائما شرسا ؟ هل عيب الجسد هو الذى يجعلنا منه مسخا وليس العيب الذهنى ؟ اننا نعود الى الافتراض الاول والسابق رفضه وهو أن الخارج يكفى • الابله سليم التكوين انسانا ، فيما نعتقد • لديه روح عاقلة ، رغم أنه لا يبدو هكذا • ولكن اذا ما أصبحت أذنيه أطول قليلا ، ومدببه أكثر ، أصبح الانف أكثر انبساطا عن العادة فأننا قد نتردد فى الحكم عليه • أما اذا أصبح الوجه أضيق ، وأطول ومسطح أكثر ، فأننا عندئذ سنحدد موقفنا • وأما اذا ما كانت الرأس رأس حيوان ما فلا شك أنه سيكون مسخا ويصبح هذا فى نظرك استدلالا على أنه لا يملك روحا عاقلة ويجب أن يتحطم • أنى أسألك الآن أين تجد المقياس المضبوط ، والحدود الاخيرة التى تجعل منها روحا عاقلة هناك أجنة بشرية ، نصف حيوان ، ونصف انسان ، وأجنه أخرى ثلاثة أجزاء منها تشارك فى احدهما والجزء الاخير يشارك فى الآخر كيف نحدد بالضبط الملامح التى تدل على العقل ؟ أكثر من

هذا ، هل يكون هذا المسخ جنسا وسطا بين الانسان والحيوان ؟ هاهو الابله الذى نحن بصـــدده •

تيوفيل :

أنى مندهش لعودتك الى هذا السؤال الذى فحصناه بما فيه الكفاية وأكثر من مرة وانك لم تعلمه لأصدقائك • اذا ميزنا الانسان عن الحيوان بملكة التفكير ، فلن يوجد وسطا : يجب أن يحصل عليه الحيوان الذى نحن بصـــدده أو لا يحصل عليه • ونظرا لان هذه الملكة لا تظهر احيانا ، فأننا نحكم عليها من خلال الدلائل التى لا تكون استدلالية فى الحقيقة ، الى أن يظهر هذا العقل ؟ لاننا نعرف بالتجربة ان أولئك الذين فقـــدوه أو أولئك الذين لديهم قدرة الممارسة ، قد تتوقف وظيفته • الولادة والشكل يعطيا دلالات على ما هو مستتر • ولكن علاقة الولادة قد يمحوها الشكل المختلف تماما عن البشرية كما فى حالة الحيوان الذى ولدته أمرأة فى زيلاند عند ليفينوس Levinus Lemnius (الكتـــاب ١ فصل ٨) وله منقار مدبب وعنق طويلة مستديرة وعينان لامعتان ، وذيل مدبب ، خفة كبيرة فى الجرى • وقد قيل أن هناك مســـوخا أو(أخوة لومبارد Lombards كما يسمونهم الاطباء قديما ، بسبب ما قيل من أن نساء لومبارد كن عرضة لهذه الانواع من الولادة التى تقترب كثيرا من الشكل البشرى • حسنا • ليكن هذا • كيف اذن يمكن تحديد الحدود المضبوطة للشكل الذى يجب اعتباره بشريا ؟ وأجيب بطريقة تخمينية ليس لدينا شيئا دقيقا • وبهذا تنتهى المشكلة • قد يعترض البعض بأن الابله لا يبدى تعقلا ومع ذلك نعتبره انسانا ولكن اذا كان لديه شـــكلا ممسوخا فلن يكون انسانا • هل هكذا نهتم بالشكل أكثر من العقل ؟ لا بدون شك • نرى اذن انه ينقصه أكثر مما ينقص الابله ؟ عيب عدم ممارسة العقـــل قد يكون مؤقتا ولكنهلن يزول لدى أولئك الذين لهم رأس كلب • وعلاوة على ذلك اذا لم يكن هذا الحيوان الذى له شكل انسان انسانا فليس

هناك ضرر كبير في اعتباره اثناء شكنا في مصيره • وسواء أكان لـــديه روحا عاقلة أو لديه روح غير عاقلة ، فلم يخلقه الله عبثا ، وهذا ما سنقوله كذلك بالنسبة للرجال الذين يظلون في حالة مشابهة دائما لحالة الطفولة الاولى أن مصيرهم سيكون نفس مصير أرواح هؤلاء الاطفال الذين يموتون في مهـــدهم •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصـــل الخامس

فى الحقيقة بوجه عام

فيلاليت :

١ ـ لقد تساءل البعض منذ عدة قرون ما هى الحقيقة ؟

٢ ـ يعتقد أصدقاؤنا أنها ارتباط أو انفصال العلامات حسب اتفاق الاشياء فيما بينها أو عدم اتفاقها . ويقصد بارتباط أو انفصـــال العلامات ما يسمى بالقضية .

تيوفيل :

لكن الصفة لا تكون قضية : مثلا : الانسان عاقل . ومع ذلك هناك ارتباط بين حدين . وكذلك النفى فهو شىء آخر خلاف الانفصال ، لان نطقنا كلمة انسان وبعد فترة ننطق كلمة عاقل لا يعنى نفيها كذلك الاتفاق أو عدم الاتفاق ليس هو ما نقصده تماما بالقضية ، هناك اتفاق بين البيضتين بينهما هناك عدم اتفاق بين الخصمين . تلزمنا هنا طريقة من الاتفاق أو عدم الاتفاق خاصة تماما . وهكذا اعتقد أن هذا التعريف لا يفسر مطلقا النقطة التى نحن بصددها أما الذى لا أقره كثيرا فى تعريفك للحقيقة ، هو القول بأننا نبحث عن الحقيقة فى الكلمات . ومن ثم فلن تكون الحقيقة هى نفسها اذا تحدثنا عنها بالفرنسية أو اللاتينية أو الالمانية أو الانجليزية ، ويلزمنا أن نقول مع هوبز أن الحقيقة تعتمد على رغبات البشر وبهذا يصبح حديثنا غريبا . أننا ننسب الحقيقة لله أيضا وقد اعترفت لى ، على ما اعتقد انها ليست فى حاجة الى علامات . واخيرا انى مندهش أكثر من مزاج أصدقائك الذين يرضون بجعل المـــاهيات حقائق أسمية .

فيلاليت :

لا نذهب بعيدا بسرعة ، انهم يفهمون الافكار من خلال العلاقات ، هكذا ستكون الحقائق أما ذهنية أو اسمية حسب انواع العلامات ،

تيوفيل :

سيكون لدينا أذن حقائق لفظية يمكن أن نميزها عن الحقائق المكتوبة التى حررت بالحبر العادى أو بحبر المطبعة ما دمنا سنميز بينها بالعلامات، يجب اذن أن نضع الحقائق فى ضوء علاقة موضوعات الافكار والتى تجعل احداها متضمنة أو غير متضمنة فى الاخرى ، هذا لا يعتمد مطلقا على اللغات ، ويجعلنا نشترك مع الله والملائكة : وعندما يعلن الله حقيقة فأننا نكتسب تلك التى لديه فى فهمه لانه مهما كان الاختلاف لامتناهيا بين أفكاره وافكارنا سواء فى الكمال أو الامتداد ، فمن الحق دائما اننا نتفق فى نفس الارتباط ومن الواجب اذن ان نسم الحقيقة فى هذا الارتباط ويمكننا ان نميز بين الحقائق المستقلة عن لغتنا وبين التعبيرات التى نكتشف انها تناسبا ،

فيلاليت :

٣ — ليس حقا تماما أن البشر يصنعون الكلمات مكان الاشياء ، ولو فى ذهنهم ، خصوصا عندما تكون الافكار مركبة وغير محددة ، ولكن من الحق ايضا ، كما لاحظت انت ان الذهن يكتفى فقط بملاحظة الحقيقة دون فهمها فى الوقت الحاضر ، مقتنعا بانه يستطيع فهمها عندما يريد ، علاوة على ان من السهل ان ندرك الفعل الذى نمارسه فى الاثبات أو النفى عندما نفكر فيما يحدث فينا وانه ليس بين الاشياء (٨) نتفق ايضا انه على الاقل يمكن ان نسمى القضايا لفظية وانها عندما تكون صادقة تكون قد جمعت بين كونها لفظية وصادقة فى نفس الوقت ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٩ ــ لان الخطأ يكمن فى ربط الاسماء بطريقة غير تلك التى تجعل افكارها تتفق أو تختلف ٠

١٠ ــ وعلى الاقل الكلمات ستكون ادوات للحقيقة ٠

١ ــ هناك ايضا حقيقة اخلاقية تتكون من الحديث عن الاشياء حسب اقتناع ذهننا وهناك أخيرا الحقيقة الميتافيزيقية وهى الوجود الحقيقى للاشياء وفق الافكار التى لدينا عنها ٠

تيوفيل :

يسمى البعض الحقيقـــة الاخلاقية صـــدقا ، ونعتبر الحقيقة الميتافيزيقية لدى عامة الميتافيزيقين على أنها صفة للوجود ولكنها صفة غير مفيدة وتكاد تكون خالية من المعنى ولنكتفى اذن بالبحث عن الحقيقة فى تراسل القضايا التى فى الذهن مع الاشياء التى تخصها ٠ حقا انى نسبت ايضا الحقيقة الى الافكار بقولى ان الافكار تكون صـــادقة أو كاذبة ، ولكن أقصد بها فى الواقع حقيقة القضايا التى تثبت امكانية موضوع الفكرة ٠ وبهذا المعنى يمكن القول ايضا ان الكائن يكون حقا أى القضية التى تثبت وجوده الفعلى أو على الاقل الممكن ٠

الفصــل الســادس

القضايا الكلية ، حقيقتها ويقينها

٢ ـ فيلاليت :

كل معرفتنا تكون عن الحقائق عامة أو جزئية • فنحن لا نستطيع ابدا أن نجل الاولى وهى الاكثر اعتبارا مفهومة ولا أن نفهمها نحن انفسنا الا فى النادر ، وبقدر ما هى مدركه ومعبر عنها بالكلمات •

تيوفيل :

اعتقد أن هناك ملاحظات أخرى يمكن أن نذكرها ، نراها من خلال خصائص اللغــة ويمكن أن نتقدم خاصيــة كلية أكثر شعبية وتفوق خصائصهم ، اذا استخدمنا اشكالا صغيرة بذلا من الكلمات والتى ستمثل الاشياء المرئية بملامحها ، والاشياء الغير مرئية بواسطة تلك المرئية التى تصاحبها وتضيف اليها ملاحظات معينة اضافية ، ملائمة لتجعلنا نفهم اعرابها وجزئياتها • هذا يساعدنا أولا فى الاتصال بسهولة بالامم البعيدة ، ولكن اذا ادخلناها ايضا بيننا دون ان نتخلى طبعا عن الكتابة العادية فان استخدام هذه الطريقة فى الكتابة ستكون مفيدة جــدا فستثرى الخيال وتمدنا بأفكار أقل خفاء وأقل حرفية مما لدينا الآن • حقا أن فن الرسم لم يكن معروفا تماما ، وترتب على ذلك انه باستثناء الكتب المطبوعة بهذه الطريقة ، لم يستطع احد استخدام طريقة اخرى سوى طريقة الطباعة ، اى وجود اشكال محفورة جاهزة للطباعة على الورق وأن يضاف اليها بعد ذلك بالريشة الاعراب والأدوات النحوية ، ولكن بمرور الزمان تعلم الناس الرسم منذ الشباب حتى لا يحرموا من سهولة هذا الشكل المرسوم الذى ينطق امام اعينهم ويرضى الناس تماما • كما أن للفلاحين تقاويم دعينة تقول لهم دون كلام جزءا كبيرا مما يطلبون :

واتذكر أنى رأيت مطبوعات هجائية فى حجم خفيف يشوبها قليل من الالغاز وبها اشكال ذات دلالة بنفسها ممزوجة بالكلمات ، فى حين أن حروفنا والاشكال الصينية ان يكون لها اى دلالة الا بارادة البشر •

٣ ـ فيلاليت :

اعتقد أن فكرتك ستحقق المطلوب طالما ستزيد من كمال ذهننا وتجعل تصوراتنا أكثر حقيقة • ولكن نعود الى المعارف العامة ويقينها ، سيكون من المناسب ملاحظة أن هناك يقين الحقيقة وأنه هناك ايضا يقين المعرفة • عندما ترتبط الكلمات بطريقة معينة فى القضايا التى تعبر عن الاتفاق أو الاختلاف كما هو من حقنا فانه يكون يقين الحقيقة • ويتكون يقين المعرفة من ادراك الاتفاق أو الاختلاف فى الافكار بقدر ما نعبر عنها فى القضايا • وهذا ما نقصد به عادة من كوننا متأكدين من القضية •

تيوفيل :

الواقع أن هذا النوع الاخير من اليقين يكفى دون استخدام الكلمات وليس سوى المعرفة التامة للحقيقة ، بينما لن يكون النوع الاول من اليقين سوى الحقيقة نفسها •

٤ ـ فيلاليت :

ولكن نظرا لاننا لن نكون متأكدين من حقيقة أى قضية عامة الا اذا عرفنا الحدود الدقيقة لدلالة الالفاظ المركبة منها فمن الضرورى أن نعرف ماهية كل جنس وهو ليس بالصعب بالنسبة للافكار البسيطة والانماط • ولكن فى الجواهر حيث من المفروض أن نحدد الاجناس بماهية حقيقية متميزة عن الاسمية ، فان امتداد ، اللفظ العام يصبح غير اكيد تماما ، لاننا لا نعرف هذه الماهية الحقيقية وبالتالى فى هذا المعنى لن نكون متأكدين من أى قضية عامة نصدرها على موضوع الجواهر

ولكن عندما نفترض أن اجناس الجواهر ليست سوى اختصار للافراد الجوهرية (individus substantiels) • فى انواع معينة مرتبة تحت اسماء عامة تتفق مع الافكار المجردة المختلفة التى نقصدها بهذه الاسماء ؛ فلن نشك فى كون القضية المعروفة جيدا كما يجب حقيقة أم لا •

تيوفيل :

لا أعرف يا سيدى لماذا تعود مرة أخرى لنقطة هى موضوع خلاف بيننا والتى اعتقد أننا قد فرغنا منها • ولكن أخيرا أنى راض لذلك لانك تتيح لى الفرصة لأوضح لك الحقيقة مرة أخرى • أقول لك اذن اننا نستطيع التأكد مثلا من الف حقيقة تتصل بالذهب أو هذا الجسم الذى نعرف ماهيته الداخلية بواسطة الثقل النوعى من المعروف هنا ، أو بواسطة قابليته للسحب أو غيرها من العلامات الاخرى • لاننا نستطيع القول أن من المعروف أن الجسم ذا القابلية الكبرى للسحب يكون ايضا اكثر الاجسام المعروفة ثقلا نوعيا • من الحق أنه لن يستحيل أن نجد ذات يوم ما لا حظناه حتى الآن على الذهب فى جسمين يميز بينهما صفات أخرى جديدة وهكذا لن يكون أخس الانواع كما نعتبره حتى الان مؤقتا • يمكن ايضا لاى نوع ظل نادرا لآخر ظل منتشرا ، قد نحكم بصددهما محتفظين باسم الذهب الحقيقى للنوع النادر وحده لنستخدمه فى العملة اعتمادا على الابحاث الجديدة التى تخصه • وبالتالى لن نشك مطلقا ايضا فى ان الماهية الداخلية لهذين النوعين لن تختلف وانه عندما يتحدد تعريف الجوهر الموجود حاليا فى كل الاعتبارات • (كما بالنسبة للانسان لن يكون بناء على الشكل الخارجى) فلن نكف عن الحصول على عدد لا حصر له من القضايا العامة تخص موضوعه يصدرها العقل ، وصفات أخرى سنعرفها فيه • كل ما يمكن قوله عن هذه القضايا العامة هو أنه فى حالة اعتبار الانسان الجنس الادنى[1] ونحصره فى سلالة

(١) الجنس الادنى Species infime هو الجنس الذى لا يمكن ان يليه جنس آخر ولا يمكن اعتباره نوعا .

آدم فلن نحصل ابدا على خصائص للانسان تتصل بذلك الذى نسميه (in quarto moao .) • أو ما يمكن أن نعبر عنه بالقضية المعكوسة (reciproque) أو القابلة للتحويل ببساطة ، أن لم يكن ذلك بصفة مؤقتة كما فى قولنا آن الانسان هو الحيوان العاقل الوحيد • اذا اخذنا الانسان على انه المعبر عن جنسنا فان الامر يظل مؤقتا باعتباره الحيوان العاقل الوحيد من بين الحيوانات المعروفة لنا ، لان من الممكن أن يوجد ذات يوم حيوانات اخرى تشارك البشر الحاليين فى كل ما يميزهم حتى الآن ، لكنها ستكون من أصل آخر • تماما كما كان من الممكن تصور ان الاستراليين الوهميين قد ملأوا اقطارنا ، فان من المحتمل ايضا أن نجد الوسيلة التى تميزهم عنا ولكن فى حالة عدم تمييزهم ، ولنفرض أن الله قد منع امتزاج هذه الاجناس وأن المسيح لم يكفر عن احد سوانا ، فانه يلزمنا الحصول على علامات صناعية تميزهم •

سيوجد بالطبع اختلاف داخلى ولكن نظرا لانه لن يمكن التعرف عليه فاننا سنخضع للمفاهيم الخارجية للخلق والتى سنحاول أن نرفقها بعلامة صناعية ثابتة نعطيها مفهوما داخليا ووسيلة ثابتة تميز جنسنا عن غيره من الاجناس • ان هذا مجرد تحايل لاننا لا نحتاج الى اللجوء الى هذه التمييزات ما دمنا الحيوانات العاقلة الوحيدة على هـذه الارض • ومع ذلك تساعدنا هذه التحايلات فى التعرف على طبيعة افكار الجواهر والحقائق العامة الخاصة بها • ولكن اذا لم نعتبر الانسان الجنس الادنى والجنس الدال على سلالة آدم وانما اعتبرناه بدلا من ذلك النوع العام الذى يشترك فيه عدة اجناس تخص الآن سلالة وحيدة معروفة ، وانما يمكن أن تخص سلالات اخرى يمكن تمييزها أما بالخلق أو بعلامات أخرى طبيعية كما فى حالة هؤلاء الاستراليين المزعومين فانى اقول حينئذ أن هذا النوع سيكون لديه قضايا معكوسة ولن يكون التعريف الحالى للانسان مؤقتا • نفس الامر بالنسبة للذهب ، لانه على فرض اننا حصلنا ذات يوم على نوعين متميزين أحدهما نادر حتى الآن والاخر منتشر وربما صناعيا ، ولنفرض أن اسم ذهب يجب أن يطلق على هذا

النوع الحاضر أو الذهب الطبيعى والنادر ، لنحفظ بواسطته سيولة العملة الذهبية ، القائمة على ندرة هذه المـادة فان التعريف المعروف حتى الآن ، بناء على المفاهيم الداخلية ، لن تكون ســوى مؤقتــة ويجب أن نضيف اليها العلامات الجديدة التى سنكتشفها لنميز الذهب النادر أو الصنف القديم عن الذهب الجديد الصناعى • ولكن اذا لزم أن يظل اسم الذهب شائعا للجنسين ، أى ، اذا قصدنا الذهب نوعــا لا نعرف حتى الآن الفروع المندرجة تحته والتى نعتبرها الآن اجناســا أدنى (ولكن مؤقتا لحين معرفة التفريع) واذا وجدنا ذات يوم جنســا جديدا أى ذهبا صناعيا يسهل صنعه ويمكن أن يصبح منتشرا ، اقول انه بهذا المعنى لا يجب أن نحكم على هذا النوع بأنه مؤقت ، وانما على أنه دائم • وكذلك دون أن أجهد نفسى فى اطلاق اسماء للانســان أو الذهب فأيا كان الاسم الذى للنوع أو الجنس الادنى المعروف ، وحتى عندما لا نعطيه أى اسم فان ما سنقوله سيصدق دائما على افكار الانواع والاجناس ولن نعرف الاجناس الا بصورة مؤقتة احيانا بتعريفات الانواع • ومع ذلك سيكون مسموحا دائما ومن المعقول أن نفهم ان هناك ماهية حقيقة داخلية نحصل عليها بقضية عكسية ، سواء للنوع أو الاجناس التى تجعلنا نعرفها عادة بالعلامات الخارجية • لقد اقترحت حتى الآن أن السلالة (race) تتحول ولا تتغير اطلاقا ولكن اذا انتقلت السلالة الى جنس آخر فاننا بالاحرى سنضطر الى الالتجاء الى علامات أخرى ومفاهيم داخلية أو خارجية دون أن نرتبط بالسلالة •

٧ — فيلاليت :

الافكار المعقدة ، والتى تبررها الاسماء التى نطلقها على اجناس الجواهر ، تكون مجموعات من افكار عن صفات معينة لاحظنا تواجدها معا فى سند غير معروف نسميه جوهرا ولكننا لا نعرف بيقين أن الصفات الاخرى تتواجد معا ضرورة مع مثل هذه الارتباطات وعلى الاقل بالنسبة لصفاتها الاولى لا نستطيع اكتشاف اعتمادها •

تيوفيــل :

سبق ان لاحظت أن نفس الأمر يوجد فى افكــار الاعراض التى طبيعتها أصعب الى حد ما كما فى أشكال الهندسة مثلا ، لانه عندما يخص الامر مثلا شكل مرآة تجمع كل الاشعة المتوازية فى نقطــة باعتبارها بؤرة ، فمن الممكن أن نجد العديد من الصفات لهذه المرآة ، قبل أن نعرف تركيبها ، ولكننا سنظل غير متأكدين بالنسبة لكثير من الارتباطات التى يمكن أن نحصل عليها ، الى أن نجد فيها ما يدل على التكوين الداخلى للجواهر ، أى تركيب هذا الشكل من المرآة • الذى سيكون مفتاحا للمعرفة التالية • •

فيلاليت

لكن عندما نعرف التكوين الداخلى لهذا الجسم ، لن نجد منه سوى الاعتماد الذى يمكن أن تحصل عليه الصــفات الاولى أو ما نســميها الواضحة ، أى نعرف ما يعتمد عليه حجمه ، أو شكله أو قواه المحركة ولكن لا نعرف ابدا الارتباط الذى يمكن أن يكون بينها وبين الصفات الثانوية أو الغامضة ، أى الصفات الحسية مثل الالوان الاذواق •• الخ •

تيوفيــل :

انك مازلت تفترض ان هذه الصفات الحسية أو بالاحرى الافكار التى نحصل عليها لاتعتمد مطلقا على الاشكال والحركات الطبيعية وانما فقط على رغبة الله وحده الذى يمنحنا هذه الافكار • يبدو اذن انك نسيت يا سيدى ما أوضحته لك أكثر من مرة ضد هذا الرأى مادمت تحكم أن هذه الافكار الحسية تعتمد على بيان الاشكال والحركات وتعبر عنها بدقة مع اننا لا نستطيع أن نوضح هذا البيان فى خليط من كثرة كبيرة جدا وصغائر من الافعال الآلية التى تؤثر على حواسنا • ومع ذلك اذا وصلنا الى التكوين الداخلى لبعض الاجسام سنرى ايضا متى يجب

أن تحصل على هذه الصفات التى ستخضع هى نفسـها لاسـبابها المعقولة : حتى عندما لا يكون فى مقدورونا معرفتها حسيا فى هذه الافكار الحسية التى تكون نتيجة غامضة لافعال الاجسام علينا ، كما هو الامر الآن بالنسبة للتحليل الحاصل للاخضر الى أزرق وأصفر • وليس لدينا ما نطلبه تقريبا بالنسبة اليه الا ما يخص العناصر الداخلة فى تركيبه ، نحن طبعا غير قادرين على توضيح فكرتى الازرق والاصفر بناء على فكرتنا الحسية من الاخضر ولهذا بالذات تكون فكرة غامضة • ان هذا يشبه تقريبا عدم قدرتنا على توضيح فكرة أسنان العجلة ، اى السبب من خلال ادراك الشفافية الصناعية التى نلاحظها لدى السـاعاتى ، والناتجة عن سرعة دوران العجلة ذات الاسنان بحيث تختفى الاسنان ويبدو مكانها شيئا شفافا مستمرا وهميا يتكون من مظاهـر متتابعة للاسنان وللحلقات التى تتوسطها والتى تتابع بسرعة بحيث لا يستطيع خيالنا تمييزها • نجد اذن هذه الاسنان فى الفكرة الواضحة لهـذه الشفافية وليس فى هذا الادراك الحسى الغامض الذى من طبيعته أن يكون وأن يظل غامضا ، وبصورة اخرى اذا كف الغموض (كما عندما تكون الحركة بطيئة بحيث يمكن ملاحظة الاجزاء وتتبعها) فلن تكون هى نفسها ، أى لن يكون هذا التوهم للشفافية • ونظرا لاننا لا نحتاج لتخيل أن الله هو الذى رغب فى أن يعطينا هذا الوهم وأنه مستقل عن حركة الاسنان والحلقات المتوسطة ، حيث اننا على العكس ندرك أنه ليس سوى تعبير غامض عما يحدث فى الاشياء المتتابعة الحركة التى تختلط فى تشابه ظاهرى : وعلى هذا من السهل أن نحكم بنفس الشىء كذلك بالنسبة للاوهام الحسية الاخرى التى مازلنا لا نملك تحليلا كاملا لها كالالوان والاذواق ••• الخ والحقيقة أنها تستحق اسم أوهام اكثر من لفظة صفات أو حتى افكار • ويكفينا فى كل الاحوال أن نفهمها كما نفهم هذه الاشفافية الصناعية دون أن تكون معقولة ، ولا يمكن الادعاء اننا نعرف عنها أكثر من ذلك ، لان من المتناقض أن نريد أن تظل هذه الاوهام الغامضة وأن نحاول مع ذلك توضيح العناصر المكونة لمركباتها عن طريق

التخيل : انك بذلك تريد أن تجد لذة فى أن يخدعك منظور مريح وأن ترى العين هذه الخديعة فى نفس الوقت ؛ وفى هذا افساد لها • انها اخـيرا حـالة يكون فيهـا

Nihil plus agas
quam si des operam, ut cum ratione insanias.

ولكـن احيانا يحـدث للبشر أن يبحثوا عن **nodum in scripo.** وأن يخلقوا صعوبات حيث لا توجد صعوبات بأن يطلبوا مالا ستطاع وأن يشتكو بعد ذلك بعدم قدرتهم وبمعرفتهم المحدودة •

٨ ـ فيلاليت :

« كل ذهب ثابت » أنها قضية لا نستطيع معرفة صدقها بيقين • لانه اذا كان الذهب يعنى جنسا من الاشياء متميزا بماهية حقيقية اعطته له الطبيعة فأننا نجهل أى الجواهر الجزئية تكون من هذا الجنس ، وبهذا لا نستطيع اثبات بيقين أن كان من الذهب أم لا واذا اعتبرنا الذهب يتمتع بلون اصفر معين ، قابل للطرق ، قابل للانصهار ؛ اثقل من أى جسم آخر معروف ، فلن يصعب علينا أن نعرف ما يكون ذهبا وما لايكون ، ولكن مع ذلك لن يمكن أن نثبت أو ننكر أى صفة أخرى بيقين سوى ماله بهذه الفكرة ارتباط وعدم اتفاق يمكن اكتشافه ولكن الثبات ليس له أى ارتباط معروف باللون ؛ الوزن ، والافكار البسيطة الاخرى التى افترضت انها تكون الفكرة المركبة التى لدينا عن الذهب ، من المستحيل أن نستطيع معرفة ، بيقين ، صدق هذه القضية « كل ذهب يكون ثابتا » •

تيوفيـل :

اننا نعرف بيقين أن الاثقل من الاجسام المعروفة هنا يكون ثابـا تماما كما نعرف بيقين أن النهار سيطلع غدا • وذلك لاننا اختبرنا ذلك آلاف المرات ؛ أنه يقين تجريبى يتصل بالواقع ؛ حتى عندما لا نعرف صلة الثبات بالصفات الاخرى لهذا الجسم • كما أنه لا يجب، أن تقابل بين شيئين متفقين وينسبان الى نفس الشىء • عندما أفكر فى جسم

يكون أصفر ، قابل للانصهار ومقاوم فى البوتقة فى نفس الوقت ، فأنى افكر فى جسم ماهيته النوعية ، حتى وأن كانت غير معروفة فى داخلها ، تظهر هذه الصفات من أعماقنا وتجعلنا نعرفه بواسطتهما ولو بصورة غامضة على الاقل لا أرى أى سوء فى ذلك ولا يستحق أن نعود من وقت لآخر لنهاجمه •

١٠ ـ فيلاليت :

يكفينى الآن معرفة أن ثبات اثقل الاجسام لا تكون معروفة أبدا عن طريق اتفاق أو عدم اتفاق الافكار • واعتقد بالنسبة لى أن من بين الصفات الثابتة للاجسام وما يتصل بها من قدرات لن تستطيع ذكر صفتين يمكن معرفة بيقين ضرورة تواجدهما معا أو عدم قابلية الاتفاق بينهما ، ماعدا الصفات التى تخص نفس الحاسة الواحدة وتستبعد احداهما الاخرى بصورة ضرورية مثل عندما نقول أن ما هو ابيض ليس بأسود •

تيوفيل :

اعتقد اننا قد نجد أمثلة منها قولنا أن كل جسم له مرئى • كل جسم صلب يحدث صوتا عندما نطرقه فى الهواء • نغمات الاحبال والخيوط تتضاعف بتضاعف الاوزان التى تسبب توترها حقا أن ما نسائل عنه يصدق فقط عندما تدرك اتحاد الافكار المتميزة مع الافكار الحسية الغامضة •

١١ ـ فيلاليت :

ليس من الضرورى دائما أن نعتقد أن الاجسام تحصل على صفاتها بنفسها مستقلة عن أى شىء آخر ، قطعة الذهب ، اذا ما انفصلت عن ضغط وتأثير أى جسم آخر ، ستفقد فى الحال لونها الاصفر ووزنها ، وربما تصير أيضا سهلة التفتيت وتفقد قابليتها للطرق • انك تعرف كيف تعتمد النباتات والحيوانات على الارض والهواء والشمس ، ولكن هل تعرف أن كان للكواكب المثبتة بعيدا عنها تأثيرا عليها •

تيوفيـل :

هذه ملاحظة ممتازة جدا ، واذا كانت بعض القرائن الخاصة باجسام معينة معروفة لنا فأننا لا نستطيع الحكم علي أثرها بدون معرفة داخل تلك الاجسام التى تلمس أو تنفذ خلالها •

١٣ ــ فيلاليت :

على أى حال ، حكمنا قد يذهب ابعد من معرفتنا • لان الاشخاص المواظبين على عمل الملاحظات تمكنهم التعمق أكثر ويستطيعوا احيانا ، بواسطة احتمالات معينة تفرضها الملاحظة الدقيقة والتلميحات المعينة التى توضع معا ، افتراض تخمينات دقيقة تتصل بذلك الذى لم تكتشفه التجربة بعد ، ولكن الامر سيظل دائما مجرد تمخين •

تيوفيـل :

لكن اذا كانت التجربة تدعم هذه النتائج بطريقة ثابتة ، الا تجد أن فى قدرتك اكتساب قضايا معينة بهذه الوسائل ؟ أقول من المؤكد ذلك ، على الاقل تلك التى تقرر مثلا أن الاجسام ثابتة وأن ذلك الذى يليها سيكون سريع الزوال ، لانه يبدو لى أن يقين[1] (بمعناه الاخلاقى أو الطبيعى) وليس ضرورة (أو يقين ما بعد طبيعى) هذه القضايا التى نتعلمها بالتجربة وحدها وليس بالتحليل والربط بين الافكار تقرر بيننا وبحق •

---

(١) اليقين ما بعد الطبيعى يختلف عن الاخلاقى او الطبيعى اختلاف يقين حقائق العقل عن حقائق الواقع . حقائق العقل تعتمد على ضروريات الفكر ومن ثم يقينها مطلق . اما حقائق الواقع ، فى نظر ليبنتز ، فتعتمد على الاختيار للاحسن ولديها وضوحا نسبيا تقرره التجربة ، ومن ثم ضرورتها افتراضية فقط .

والمبدأ الذى نعتمد عليه هو التمييز المدرسى المشهور بين فهم الارادة الله وهو مبدأ غالبا ما يشير اليه ليبنتز ، خصوصا عندما يقرر عرضيه العالم ويتحاشى الحتمية الكلية التى قال بها اسبينوزا ، وتبعا لهذا المبدا يصبح فهم الله مصدر الحقائق الضرورية وارادة الله مصدر الحقائق العرضية . (على اى حال هـذا التمييز لا تحل مشكلة عرضـية العالم الطبيعى ولا حرية الانسان الاخلاقية) . الترجمة الانجليزية ص ٤٦٢ .

الفصـــل الســـابع

القضايا المسماة بديهيات أو مسلمات

١ ــ فيلاليت :

يوجد نوع واحد من القضايا التى تحت اسم بديهيات أو مسلمات تصبح مبدىء العالم ، ولانها واضحة بذاتها اقتنعنا بتسميتها فطرية ، مع أنه لا يوجد شخص واحد ممن أعرف حاول اظهار سبب وأساس وضوحها النهائى الذى يضطرنا الى أن نقتنع بها • على أى حال لا بأس من أن نتناول هذا الموضوع ونرى هل هذا الوضوح الكبير يخص هذه القضايا • وحدها ؟ وأن نبحث كذلك الى أى حد تساهم فى معرفتنا •

تيوفيـــل :

هذه الدراسة مفيدة وهامة جدا • كذلك يجب الا نفترض يا سيدى أنها كانت مهملة تماما • ستجد فى مئات الاماكن أن المدرسين قالوا أن فهم حدود هذه القضايا يجعلها واضحة ex terminis ، بل أنهم اعتقدوا أن قوة الاعتقاد تكمن فى معرفة الحدود ، أى فى ارتباط الافكار • ولكن علماء الهندسة فعلوا أكثر من ذلك ، أنهم حاولوا أثباتها • لقد ذكر بروكلس فعلا أن طاليس الميلاطى Thales of Miletus أحد أقدم علماء الهندسة المعروفين ، رغب فى اثبات القضايا التى قرر أقليدس وضوحها ، كما أن أبولونيوس اثبت مسلمات أخرى • وكذلك بروكلس • المرحوم روبـــيرفال Roberval الذى جـــاوز الثمانين من عمـــره حاول نشر « العناصر الجديدة » للهندسة الذى اعتقد أنى حدثتك عنه فعلا ، ربما ساهم فى ذلك أيضا أرنولد بكتابه « العناصر الجديده » الذى اثار ضجة حوله • لقد عرض جزءا منه فى الاكاديمية الملكية للعلوم وقـــد وجـــد البعض ما يقولونه بالنسبة لاثبات البديهية « اذا اضـــفنا الى

المتساويات أحجاما متساوية فانها تصبح متساوية » اثبات البديهية الاخرى التى لها نفس الوضوح وهى « اذا طرحنا من المتساويات احجاما متساوية فان الباقى سيكون متساويا » وقيل كان من الواجب عليه افتراضها أو اثباتهما معا • ولكنى لم أكن من هذا الرأى واعتقد أن من الافضل دائما أن نقلل عدد البديهيات ، ولاشك أن الجمع أسبق من الطرح وابسط ، لاننا نستخدم الحدين فى الجمع على حد سواء وليس الامر كذلك فى الطرح • لقد فعل أرنولد « عكس ما فعله السيد » روبرفال (Roberval) بل أنه افترض اكثر من أقليدس • أن ما نعتبره احيانا مبادىء أساسية سواء كانت واضحة أو غير واضحة • قد يكون افضل بالنسبة للمبتدئين الذين توقفهم الحيرة • ولكن بالنسبة لتشييد العلم ، الامر مختلف وهذا ما نأخذه احيانا فى الاخلاق وفى نمـــاذج المناطقة ذات الرصيد الطيب وأن كان جزءا منها مازال غامضا ومختلطا لقد اعلنت منذ زمن طويل ان من المهم أن نثبت كل بديهياتنا الثانوية التى نستعملها عادة وذلك بأن نخضعها لبديهيات أولية أو مباشرة أو غير قابلة للاثبات والتى اسميها اخيرا بالمتطابقات •

٢ ـ فيلاليت :

تكون المعرفة واضحة بذاتها عندما ندرك مباشرة اتفاق الافكار أو عدم اتفاقهـــا •

٣ ـ ولكن توجد حقائق لا نعتبرها بديهيات مع أنها لا تقل وضوحا بذاتها • ولنبحث هل يمكن أن تزودنا بالانواع الاربعة للاتفاق الذى تحدثنا عنها من قبل (الفصل الاول الفقرة ٣) والفصل الثالث (٧) وأقصد بها التطابق ، الارتباط ، العلاقة ، والوجود الحقيقى •

٤ ـ بالنسبة للتطابق لدينا العديد من القضايا الواضـــحة عن الافكار المتميزة لاننا نستطيع نفى احداها عن الأخرى كما عندما نقول

أن الانسان ليس بحصان وأن الاحمر ليس بأزرق كما أن قولنا ما يكون يكون أوضح من قولنا الانسان هو الانسان •

تيوفيـل :

هذا حق وقد لاحظت فعلا أن من الاوضح أيضا القول فى صورة التطابق بوجه خاص أ هى أ ، أكثر من قولنا بصورة عامة يكون المرء ما يكونه • ولكن ليس مؤكدا دائما كما سبق أن لاحظت كذلك أن ننفى موضوعات الافكار المختلفة بعضها البعض كما عندما يريد أن يقول أحدنا : الشكل الثلاثى (أو ماله ثلاث جوانب) ليس مثلثا ، لان فى الواقع الثلاثية ليست المثلثية • وبالمثل ، عندما يقول احدنا : أن لؤلؤات السيد (سلوسيس Slusius) الذى حدثتك عنه منذ زمن غير طويل ليست خطوطا من القطع المكعبة المتكافئة ••• parabole ، فأنه سيخطىء ، مع أن هذا قد يبدو واضحا لدى الكثير من الناس لقد اعترض المرحـوم (هاردى • Hardy) مستشار قصر باريس وعالم هندسـة ممتـازة ومستشرق ومهتم بالهندسات القديمة وهو الذى نشر شروح (مارينوس Marinus) على معطيات (data) أقليدس على اعتبار المقطع المائل للمخروط الذى نسميه بالاهليلجى مختلفا عن المقطع المائل الاسطوانى • وذلك لان استدلال Serenus بدا له زائفا ولم استطع التغلب عليـه بتحذيراتى خاصة وأنه عندما قابلته كان فى عمـر السـيد روبرفال (Roberval) وكنت مازلت شابا والفارق بيننا لا يسمح بأن أكون مقنعا له رغم ما حاولته معه هذا المثال يوضح ، بشكل عابر ، ما يمكن أن يفعله الحكم السابق على الآخرين وخاصة المتازين منهم وهو احدهم فقد ذكره (هاردى) باحترام فى خطابات ديكارت ولكنى ذكرته فقط لاظهر كيف يمكن أن نخطىء عندما ننفى فكرة شخص آخر عندما لا نكون قد تعمقناها بالقدر الذى تحتاجه •

٥ ــ فيلاليت :

بالنسبة للارتباط أو التواجد معا لدينا القليل من القضايا الواضحة

بذاتها ومع ذلك يمكن مثلا اعتبار القضية التى تقرر أن الجسمين لا يكونا فى نفس المحل قضية واضحة بذاتها •

تيوفيـــل :

يعارضك الكثير من المسيحيين ، كما سبق أن أوضحت . وحتى ارسطو ومن بعده أولئك الذين يقبلون التركيز الحقيقى والدقيق والذين يخضعون الجسم بأكمله لحيز أصغر بكثير من الحيز الذى يشغله من قبل ، أولئك الذين مثل المرحوم (كومينوس Comenius) (٣) الذى أدعى فى كتابه الصغير والدقيق أنه سيقلب الفلسفة الحديثة بناء على تجربته الخاصة بالبندقية القديمة كل هؤلاء لن يوافقوك ايضا ، أما اذا اعتبرت الجسم مجرد كتلة صماء فان ايضاحك سيكون صـــادقا لانه سيكون متطابقا أو قريبا من المتطابق ، ولكن سينكرون عليك اعتبار الجسم الحقيقى بهذه الصورة وقد يقولون على الاقل أن الله أقدر على أن يجعله على شكل آخر بحيث تتفق هذه الصلابة مع النظام الطبيعى للاشياء التى قررها الله ، التى تؤكدها خبرتنا ومع ذلك فأنه يتطلب منا أن نعترف انها ايضا تتفق مع العقل •

فيلاليت :

بالنسبة لعلاقات الانماط (modes) اقام الرياضيون عدة بديهيات على علاقة المساواة ، مثل البديهية التى ذكرتها وهى « اذا طرحنا اشياء متساوية من اشياء متساوية كان الباقى متساويا » • ولكنى اعتقد انها لا تقل وضوحا عن قولنا ان واحد + واحد يساوى اثنين • واذا استبعدنا اصبعان من اصابع اليد الخمسة واستبعدنا اصبعان من الخمسة باليد الاخرى سيكون عدد الاصابع الباقية متساوية •

تيوفيـــل :

أن واحد + واحد يساوى اثنين ليس بحقيقة بالمعنى الدقيق ،

انما هو تعريف للاثنين مهما كان فى هذا من صدق ووضوح أى هو تعريف لشيء ممكن • بالنسبة لبديهية أقليدس التى نطبقها على اصابع اليد أوافق أنه من السهل ايضا تصور ما نقوله عن الاصابع عما نقوله بالنسبة لـ أ ، ب واننا نلاحظه بوجه عام حتى لا تكرر احيانا نفس الشيء أن ذلك يشبه ذلك الذى يفضل الحساب مستخدما الارقام الجزئية بدلا من استخدام القواعد الكلية ، وهذا يجعلنا نحصل على أقل مما نستطيع • لان من الافضل أن نحل هذه المشكلة العامة (الحصول على رقمين مجموعهما يعطينا رقما معينا ، والفارق بينهما يعطينا رقما معينا) • أكثر من البحث فقط عن رقمين مجموعهما (١٠) والفرق بينهما (٦) لانه اذا تقدمت فى المشكلة الثانية على نمط الجبر العددى سيكون الحساب هكذا : أ + ب = ١٠ ، أ ـ ب = ٦ اذن اذا اضفنا الطرف الايمن على الايمن والطرف الايسر على الايسر سيكون أ + ب + أ ـ ب = ١٠ + ٦ أى (مادمنا سنطرح + ب ، ـ ب) ٢ أ = ١٦ أ و أ = ٨ واذا طرحنا الجانب الايمن من الايمن والايسر من الايسر (نطرح أ ـ ب هو أن نضيف ـ أ + ب) يصبح أ + ب ـ أ + ب = ١٠ ـ ٦ • أى ٢ ب = ٤ أو ب = ٢ وهكذا اصل الى حقيقة أن أ ، ب التى ابحث عنهما هما ٨ ، ٢ وهما المطلوبان اذ أن مجموعهما ١٠ والفارق بينهما ٦ ولكنى لم أحصل على المنهج العام لاى اعداد أخرى نريد أو يمكن أن نضعها بدلا من (١٠ ، ٦) وهو منهج استطيع أن أحصل به بنفس السهولة التى حصلت بها على هذين الرقمين (٨ ، ٢) بأن أضع س ، ص بدلا من الرقمين ١٠ ، ٦ لاننا لو تقدمنا بنفس الطريقة السابقة سيكون لدينا أ + ب + أ ـ ب = س + ص أى ٢ أ = س + ص أ و أ = س + ص وسيكون ايضا أ + ب ـ أ + ب س ـ ص أى ٢ ب = س ـ ص أو ب = س ـ ص هذا الحساب يعطينا النظرية أو القاعدة العامة وهى أنه عندما نطلب عددين ، لدينا مجموعهما والفارق بينهما ، ما علينا سوى أن نأخذ بالنسبة لاكبر الاعداد المطلوبة نصف المجموع الحاصل من المجموع والفارق

المذكورين . وبالنسبة لاقل الارقام المرقومة نصف الفارق بين المجموع والفارق المذكورين ، نرى ايضا انى استطيع الاستغناء عن الحروف . اذا استخدمت الارقام كأنها حروف أى بدلا من ذكر ٢ أ = ١٦ ، ٢ ب = ٤ اكتب ٢ أ = ١٠ + ٦ ، ٢ ب = ١٠ ـ ٦ . مما يعطينـي أ = ١٠ + ٦ ، ب = ١٠ ـ ٦ وهـكذا في الحساب الجزئى كما فى الحساب العام أخذنا العلامتين ١٠ ، ٦ على أنهما أرقام عامة كما لو أنهما الحرفان س ، ص لكى أحصل على حقيقة أو منهج أكثر عموما ، ونأخذ هاتين الخاصيتين ١٠ ، ٦ على انهما الرقمان الدالان عليهما ، فعلا سأحصل على مثال حسى ويمكن أن يستخدم كبرهان . وكما استبدل (Viéte) الحروف بالارقام ليصل الى عمومية أكثر : أردت أن أعيد استخدام خصائص الارقام ما دامت قد تكون افضل من الحروف حتى فى الحساب الجبرى نفسه . لقد وجدت ذلك ذا فائدة كبرى فى الحسابات الكبرى ، لانها تجنب الاخطاء بل ونطبق عليها البراهين . مثل تلك الخاصة بـ objection du novénaire فى وسط الحساب ، دون أن تصل الى النتيجة عندما يستخدم بمهارة فى المواضع positions بحيث تصدق الافتراضات فى الجزئى ، بالاضافة الى الاستخدام الذى يظهـر العلاقات والترتيبات التى لا تستطيع الحروف وحدها أن تحسن توضيحها بالذهن ، كما أظهرت فى موضوع آخر ، عندما وجدت أن الاعداد البيانية الجيدة تصبح مساعدا جيدا للذهن البشرى .

٧ ـ فيلاليت :

بالنسبة للوجود الحقيقى ، الذى اعتبره النوع الرابع للاتفاق يمكن أن نلاحظه فى الافكار . أنها لن تستطيع أن تمدنا بأى بـديهية ، لاننا لا نملك حتى المعرفة الاستدلالية للكائنات خـارج انفسـنا ، باستثناء الله وحده .

تيوفيـل :

يمكن القول دائما أن هذه القضية ، أنا موجود ، قضية ، قضية

لها هذا الوضوح الاخير لكونها قضية لا يمكن اثباتها بقضية أخرى ، أو بحقيقة مباشرة • والقول : أنا أفكر أذن أنا موجود ، لا يثبت بالدقة الوجود بالفكر ، ما دام التفكير وكونه مفكرا هما نفس الشىء ، والقول أنى أفكر يعنى فعلا القول أنى أكون • ومع ذلك لديك المبرر الذى يجعلك لا تعتبر هذه البديهيات لانها قضية واقع مؤسسة على تجربة مباشرة وليست قضية ضرورية • ترى ضرورتها فى الاتفاق المباشر للافكار • على العكس ، لا يوجد سوى الله الذى يرى كيف يرتبط هذين الحدين أنا والوجود ، أى لماذا أوجد ، ولكن واذا نظرنا للبديهية بصورة أعم على أنها حقيقة مباشرة أو غير قابلة للبرهنة ، يمكن القول أن هذه القضية : أنا موجود ، بديهية ، وعلى أى حال يمكن تأكيد أنها حقيقة أولية • أى أنها أحدى الايضاحات الاولية المعروفة التى تنتشر فى النظام الطبيعى لمعارفنا ، لانه من الممكن الا يكون المرء قدتمد تشكيل هذه القضية مع أنها طبعا فطرية بالنسبة الينا •

٨ — فيلاليت :

لقد اعتقدت دائما أن للبديهيات تأثير قليل على الاجزاء الاخرى لمعرفتنا • ولكنك أنرت بصيرتى بأن أظهرت لى استخداما هاما للمتطابقات ومعذرة ، أرجو أن تسمح لى بأن اعبر لك عما فى خاطرى بالنسبة لهذا الموضوع ، لان ايضاحاتك ستساعد الاخرين على أن يعودوا الى صوابهم •

٨ — انها قاعدة مشهورة فى المدارس أن كل تفكير صادر من الاشياء المعروفة فعلا المسلم بها (expraecognitis et praeconcessis) يبدو أن هذه القاعدة تعتبر هذه البديهيات حقائق معروفة النفس قبل غيرها ، وأن الاجزاء الاخرى لمعرفتنا مجرد حقائق تعتمد على البديهيات •

٩ — اعتقد أنى أظهرت (الكتاب الاول الفصل الاول) أن هذه البديهيات ليست بأول ما نعرف ، فالطفل يعرف جيدا أن قطعة الخشب

التى أشير اليها ليست قطعة من السكر الذى تذوقها أكثر من أى بديهية تعجبك • لكنك ميزت بين المعارف المفردة أو خبرات الواقع وبين مبادىء المعرفة الكلية والضرورية (والتى أعرف أن من الضرورى أن تعتمد على البديهيات) كما ميزت ايضا بين النظام العرضى والطبيعى •

تيوفيـــل :

لقد أضفت ايضا أنه فى النظام الطبيعى القول : أن الشىء يكون ما يكون يسبق القول : أنه ليس شيئا آخر ، لان الامر هنا لا يخص تاريخ اكتشافاتنا ، المختلف باختلاف الاشخاص ، وانما يخص الرابطة والنظام الطبيعى للحقائق ، الذى يكون هو نفسه دائما • أما ملاحظتك ، أن ما يراه الطفل ليس سوى واقع ، فأنها تستحق تأمل أكثر ، لان خبرات الحواس لا تعطى أبدا حقائق يقينية تماما ، كمـــا لاحظت أنت بنفسك منذ قليل) ولا خالية من خطر الوهم لانه اذا كان من المسموح عمل تخيلات ميتافيزيقية ممكنة فان من الممكن أن يتغير السكر الى قطعة خشب بطريقة غير قابلة للادراك ، لكى نعاقب الطفل اذا كان خبيثا ، كما يتغير الماء الى نبيذ ليلة نويل اذا كان الطفل قد احسنت تربيته • لكنك قد تقول أن الالم الذى تطبعه قطعة الخشب لن يصبح ابدا اللذة التى يعطيها السكر • واجيب أن الطفل سيحرص فيما بعد على صياغة قضية خاصة حرصه على ملاحظة هذه البديهية « اننا لن نســـتطيع ، بحق ، القول أن ما يكون لن يكون فى نفس الوقت » مع انه يستطيع جيدا أدراك الفرق بين اللذة والالم كذلك الفرق بين يدرك ولا يدرك •

١٠ ــ فيلاليت :

ومع ذلك اليك كمية من الحقائق الاخرى التى تكون واضحة بنفسها مثل هذه البديهيات « اثنين زائد واحد يساوى ثلاثة » قضية واضحة وضوح البديهية التى تقول أن الكل يساوى جميع أجزائه معا •

تيوفيـــل :

يبدو انك نسيت يا سيدى كيف اوضحت لك آنثر من مــرة أن القول « ١ + ٢ = ٣ » ليس الا تعريفا للحد ثلاثة ، بحيث يصبح قولنا أن واحد زائد اثنين يساوى ثلاثة يساوى قولنا ان الشىء يســاوى نفسه ٠ بالنســبة للبديهية « الكل يســاوى جميع اجــزائه معا » لم يستخدمها أقليدس بصراحة كما أنها تحتاج لتحديد ، لانه يجب اضافة أن هذه الاجزاء لا يجب أن يكون لها هى نفسها جزءا عاما : لان ٧ ، ٨ أجزاء من ١٢ ٠ النصف الاعلى والجزع معا يصبحان أكثر من الانسان ما دام التجويف الصدرى مشترك بينهما : ولكن أقليدس يقول أن الكل أكبر من الجزء وهذا أمر لا يمكن الاعتماد عليه ٠ والقول أن الجسم أكبر من الجزع لا يختلف عن بديهية أقليدس الا فى أن هذه البديهية تنحصر فيما يجب بالضبط ولكن بالتمثيل وباتخاذ الجسم شكل الانسان يصبح المعقول محسوسا ، لان القول : هذا الكل يكون أكبر من جزئه هذا فى الواقع القضية القائلة أن أى كل يــكون أكبر من جــزئه ، وأن اختلفت ملامحه من التنميق أو الاضافة تماما مثل قولنا أن آب تعنى أ ــ وعلى هذا لا يجب أن نقابل هنا بين البديهية والمثال باعتبارهما حقائق مختلفة وانما نعتبر البديهية كأنها المحقت بالمثال وجعلت المثال حقيقيا ٠ الامر يختلف عندما لا نلاحظ البداهة فى المثال نفسه وعندما يكون اثبات المثال مجرد نتيجة وليس فقط تفرعا للقضية الكلية كما يمكن أن يحدث بالنســبة للبديهيات ٠

فيلاليت :

يقول مؤلفنا الماهر هنا : أريد أن اسأل هؤلاء السادة ، الذين يزعمون أن كل معرفة أخرى (التى ليست بواقع) تعتمد على المبادىء العامة الفطرية والواضــحة بذاتها ، أى مبدأ يحتاجون لاثبــات أن اثنين واثنين تكون اربعة ؟ أننا نعرف (فى نظرة) حقيقة هذه الانواع من القضايا دون مساعدة أى برهان ، فما رأيك يا سيدى ؟

تيوفيــل :

اقول انى انتظرك مستعدا تماما • القول بان اثنين واثنين يساوى اربعة ليس بحقيقة مباشرة لنفرض أن اربعة تعنى ثلاثة وواحد • يمكن اذن اثباتها واليك كيف •

تعريفات : (١) اثنين = واحد وواحد •

(٢) ثلاثة = اثنين وواحد •

(٣) اربعــة = ثلاثة وواحد •

بديهية : بضع الاشياء المتساوية مكان بعضها تظل المساواة •

الاثبات : ٢ + ٢ = ٢ + ١ + ١ (تعريف رقم (١)) ٢ + ٢

٢ + ١ + ١ = ٣ + ١ (تعريف رقم (٢)) ٢ + ١ + ١

٣ + ١ = ٤ (تعريف رقم (٣)) ٣ + ١

اذن بناء على البديهية = ٤

٢ + ٢ = ٤ ما يلزم اثباته يمكن بدلا من القول ان ٢ + ٢ = ٢ + ١ + ١ أى أضع ٢ + ٢ تساوى ٢ + ١ + ١ • وهكذا بالنسبة للباقى • ولكن يمكن أن نفهمه ضمنا لاننا عملنا بناء على بديهية أخرى تقول أن الشىء يساوى نفسه ، أو أن ما هو بنفسه يكون متساويا •

فيلاليت :

هذا الاستدلال ، وأن كان ضروريا بالنسبة للنتيجة المعروفة ، يستخدم فى اثبات كيف تعتمد الحقائق على التعريفات والبديهيات • وهكذا اتنبأ بما ستجيب به على العديد من الاعتراضات التى يمكن أن تعترض بها على استخدام البديهيات • يعترض بأنه ســتوجد كثرة لا تحصى من المبادىء • ولكن ذلك عندما نحسب ضمن المبادىء النتائج

الطبيعية التى تتبع التعريفات بمساعدة بديهية ما ، وما دامت التعريفات أو الافكار لا يمكن حصرها فان المبادىء ستكون كذلك ايضا بنفس المعنى ولنفرض معك أن المبادىء غير القابلة للبرهنة تكون بديهيات ذاتية لها اعتبارها ولن يمكن ايضا حصرها بواسطة التمثيل ولكن فى الاساس يمكن اعتبار أ هى أ ، ب هى ب على أنها نفس المبدأ أن اختلفت الصياغة .

تيوفيل :

علاوة على ذلك هذا الاختلاف فى الدرجات الموجود فى الوضوح يجعلنى لا اتفق مطلقا مع مؤلفك المشهور فى أن كل هذه الحقائق التى نسميها مبادىء والتى تعتبر واضحة بذاتها لانها قريبة جدا للبديهيات الاولية التى يمكن اثباتها ، تكون مستقلة تماما ولا يمكنها أن تستمد من غيرها أى ضوء أو أى دليل . اننا نستطيع دائما اخضاعها للبديهيات نفسها أو لحقائق اخرى اقرب الى البديهيات مثل حقيقة اثنين واثنين = اربعة وقد حكيت لك كيف انقص السيد (روبرفال Roberval) عدد بديهيات أقليدس بأن اخضع بعضها لبعض .

١١ ـ فيلاليت :

هذا الكاتب الذكى judicieux الذى اتاح الفرصة لمناقشاتنا ، يرى أن للبديهيات وظيفة ولكنه يعتقد بالاحرى أن وظيفتها أن تسد افواه المعاندين أكثر من أن تدعم العلوم . ويقول : وسأكون مسرورا لو استطاع أى شخص أن يذكر لى احدى هذه العلوم المبنية على البديهيات العامة والتى لا يمكنها أن تصمد بدون البديهيات .

تيوفيل :

لاشك أن الهندسة احدى هذه العلوم . استخدام أقليدس بوضوح البديهيات فى الاستدلالات وهذه البديهية (الحجمان المتجانسان يكونان

متساويين عندما لا يكون احدهما أكبر ولا أصغر من الآخر) تصبح أساسا لاستدلالات أقليدس وأرشميدس لحجم منحنى (curvilignes) استخدم ارشميدس بديهيات لم يكن أقليدس فى حاجة اليها ، مثلا ، الخطين الذى لكل منهما تجويفه فى نفس الاتجاه دائما سيكون اطولهما ذلك الذى يحتوى الاخر ، لا يمكن ايضا تجاهل البديهيات المتطابقة فى الهندسة مثل مبدأ التناقض أو الاستدلالات التى تقد الى المستحيل • أما عن البديهيات الاخرى التى يمكن استدلالها فمن الممكن تخطيها تماما واستخراج النتائج مباشرة من الذاتيات والتعريفات ، ولكن أطناب الاستدلالات وما نقع فيه من تكرار لا نهاية له يسببان غموضا مزعجا ، اذا كنا نريد أن نتقدم بسهولة علينا البدء باستمرار بدلا من فرض القضايا الوسيطة المبرهن عليها فعلا ، ان افتراض الحقائق المعروفة يفيد خصوصا بالنسبة للبديهيات فقد يضطر احيانا علماء الهندسة الى استخدامها فى كل لحظة دون ذكرها ، لدرجة أن ننخدع فنعتقد أنها غير موجودة لاننا نذكرها فى الهامش •

فيلاليت :

انه يعترض على مثال اللاهوت ويقول مؤلفنا أنه بالوحى نعرف هذا الدين المقدس وبدون مساعدته لن تستطيع ابدا البديهيات تعريفه لنا ، فالنور يأتينا اذن من الاشياء نفسها أو مباشرة من الصدق الالهى الذى لا يخدع •

تيوفيل :

ان هذا يشبه القول أن الطب مؤسس على التجربة اذن لن يفيدنا العقل بشىء اللاهوت المسيحى وهو الطب الحقيقى للنفوس مؤسس على الوحى الذى يجيب على التجربة ، ولكى يصبح متكاملا يلزمنا أن نضيف اليه اللاهوت الطبيعى المستمد من بديهيات العقل الخالد ، هذا المبدأ نفسه الذى يقرر أن الصدق صفة الله والذى به تعرف أن يقين الوحى قائم أليس بديهية مأخوذة من اللاهوت الطبيعى ؟ •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيلاليت :

مؤلفنا يريد أن نميز بين وسيلة اكتساب المعرفة ووسيلة تعليمها أى نميز بين التعلم والايصال • بعد أن شيدت المدارس وعين المدرسون لتعليم العلوم التى اخترعها آخرون ، استخدم المدرسون هذه البديهيات ليغرسوا هذه العلوم فى ذهن تلاميذهم واقناعهم ببعض الحقائق الجزئية فى حين استخدم المخترعون الاوائل الحقائق الجزئية للوصول الى الحقيقة بدون اللجوء الى البديهيات العامة •

تيوفيل :

أتمنى أن يبرر لى أحد هذه العملية المزعومة بأمثلة من بعض الحقائق الجزئية ولكن اذا دققنا فى الأمر فلن نجدها ممارسة فى تثبيت العلوم • واذا لم يجد المخترع سوى حقيقة واحدة جزئية فلن يكون سوى نصف مخترع • اذا كان فيثاغورث قد لاحظ أن المثلث الذى أضلاعه ٣ ، ٤ ، ٥ يمتاز بمساواة مربع الوتر لجانبيه (أى أن ٩ + ١٦ = ٢٥) هل يمكن أن يكون لهذا مخترعا لهذه الحقيقة الكبرى التى تشمل كل المثلثات قائمة الزاوية التى أصبحت بديهية لدى علماء الهندسة ؟ حقا قد يتصادف أحيانا أن يواجه العبقرى مثالا لدفعه الى البحث عن الحقيقة العامة ، ولكن هذا أمر نادر يصعب أن نصل اليها ، علاوة على أن هذا الطريق للكشف ليس الاحسن ولا الاكثر استعمالا لدى أولئك الذين يتقدمون بنظام وبمنهج ، ولا يستخدمونه الا فى الحالات التى تصبح فيه أقصر المناهج هى أفضلها ، انه كما اعتقد البعض أن أرشميدس قد توصل الى تربيع القطع المتكافئة بأن وزن قطعة من الخشب مقطوعة قطعا متكافئة، ان هذه التجربة الجزئية جعلته يصل الى الحقيقة العامة ، لكن أولئك الذين يعرفون عمق هذا الرجل العظيم يرون جيدا أنه لم يكن فى حاجة الى مثل هذه المساعدة • وحتى عندما يتيح هذا الطريق التجريبى للحقائق الجزئية الفرصة لكل الاكتشافات فلن يكون كاذبا لتقديمها • والمكتشفون أنفسهم قد اسعدهم ملاحظة البديهيات والحقائق العامة عندما استطاعوا الحصول

عليها والتى بدونها تظل اكتشافاتهم ناقصة تماما . كل ما يمكن أن ننسبه اذن للمدارس والمدرسين هو أنهم جمعوا ورتبوا البديهيات والحقائق العامة الأخرى : وشكرا لله أن تم ذلك بعناية وباختيار والا أصبحت العلوم مشتتة ومشوشة أعرف أن هناك أحيانا فارق بين المنهج المستخدم لتعليم العلوم والمنهج الذى يستخدم للحصول عليها ولكن ليس هذا هو الذى يهمنا الآن لقد اتاحت أحيانا ، كما أوضحت فعلا ، الصدفـــة الفرصة للاكتشافات . اذا لاحظنا هذه المناسبات واحتفظنا بها للخلف ، (فى ذلك فائدة كبرى) فان هذا التفصيل سيكون مفيدا جدا فى تاريـــخ الفنون : ولكنه لن يفيد فى تشييد المذاهب . أحيانا يتقدم المكتشفون تقدما معقولا نحو الحقيقة ، ولكن بعد أن يسيروا مسافات طويلة . وأرى أن المؤلفين قد يؤدون خدمة جليلة للجمهور اذا سجلوا باخـــلاص فى كتاباتهم خطوط محاولاتهم ، ولكن اذا طالبنا أن يشيد بناء العلم بهـــذه الطريقة فاننا سنكن كمن يريد أن يحتفظ بكل الاجهزة التى استخدمها المهندس فى بناء المنزل . المناهج الجيدة للتعليم هى تلك التى تمكننا من الحصول على العلم واذا لم يكن العلم تجريبيا أى اذا استخدمنا الادلة والبراهين المستمدة من الأفكار فى تعليم الحقاق فسيكون ذلك دائمـــا بواسطة البديهيات والنظريات والقواعد وغيرها من القضايا العامة . أمر آخر هو عندما تكون الحقائق جامعة مثل الكلمات الجامعة التى قالهـــا هيموقراط aphorismes d' Hippocrati منها حقائق الواقع أو الحقائـــق العامة أو على الأقل تلك التى غالبا ما تكون صادقة ومأخوذه بالملاحظة أو قائمة على التجربة ، وليست فى حاجة الى أدلة مقنعة تماما . وليس هذا بالأمر الذى يخصنا هنا لأن هذه الحقائق لا تعرف ابدا بارتبـــاط الأفكـــار .

فيـــــــــــلاليت :

هذه هى الطريقة التى يدرك بها مؤلفنا العبقرى كيف جاءت حاجتنا للبديهيات لقد قررت المدارس النقاش محكا لمهارة الناس وحكمت بانتصار

ذلك الذى يظل بميدان المعركة وذاك الذى يصمد حتى النهاية ولكـن لا بد من تقرير البديهيات كوسيلة لاقناع المعاندين •

تيوفيــــــــل :

لا شك فى أن مدارس الفلسفة قد احسنت ربط العمل بالنظـر كما فعلت المدارس الحديثة فى الطب والكيمياء والرياضيات وتمنح الجائزة لمن يحسن العمل بتفوق فى الاخلاق أكثر من ذلك الذى يحسن الحديث • ومع ذلك نظرا لوجود مواديكون الحديث فيها هو المؤثر وأحيانا المؤثر الوحيد ، والعمل الرئيسى الذى لا يظهر مهارة الانسان بمـدى نجاحه فى المحاضرات ومن المعروف أنه فى بداية الاصلاح دعا البروتستانت خصومهم الى الحوار والمناقشة وأحيانا كان نجاحهم فى هذه المناقشات سببا لتأييد الجمهور للاصلاح وتعرف أيضا أهمية فن الحديث والقـاء الضوء والقوة على الأدلة ، او ما يمكن أن نسميه فى النقاش وخاصـة فى مجلس الدولة والحرب والعدالة ، وفى مجالس الاستشارة الطبية ، بل وفى المحادثات • نضطر الى اللجوء لهذه الوسيلة وأن نقنع بالكلمات بدلا من الوقائع فى هذه المقابلات بحجة أن الأمر يتصل بحـادث أو واقع مستقبل حيث يصعب معرفة حقيقته عن طريق أثره • وهكـذا فان فن المناقشة أو الصراع بالحجج الذى أوضحت هنا سلطته وأمثلة عليه فن كبير وهام جدا ولكن لسوء الحظ أسىء تنظيمه ، ولهذا السبب ففى بعض الأحيان لا تصل الى نتائج قد نستنتج استنتاجا خاطئـا • ومن أجل هذا قصدت أكثرمنمرةذكر ملاحظات على محاورات اللاهوتيين الذين اتصلت بهم لاظهر العيوب التى يمكن بملاحظتها والحلول الممكن استخدامها ، بالنسبة للاستشارات الخاصة بالمشروعات • غالبا ما يخضع أصحاب السلطة ، اذا لم يكن لديهم الذهن القوى للسلطة أو البلاغـة التى تتغلب عليهم وتتجمع ضد الحقيقة •وباختصارفنالمحاضرة والمناقشة فى حاجة الى أن يعاد تأسيسه •

بالنسبة لمزايا ذلك الذى يكون آخر المتكلمين فلا مجال له تقريبـا

الا فى المحادثات الحرة : لأنه فى المجالس التى يتخذ فيها بنظام الاقتراع فالنتيجة واحدة سواء بدأالفرد الحديث أو كان الأخير ، وذلك لأن العرف قد جرى أن يفتتح الرئيس الجلسة ويختمها أى أن يطرح الموضـوع ويحسمه الا أنه يتخذ القرار وفق أغلبية الأصوات • وفى المناقشـات العلميـة آخـر من يتكلم هـو المسـؤول أو المـدافع عن الاطروحة ويظل فى ميدان المعركة باستمرار • وقد جرت العـادة على أن يناقشه الاعضاء لا أن يربكوه والا تحول الامر الى عداء ، ولنقول الحق ، الأمر لا يتصل بالحقيقة فى هذه اللقاءات وكثيرا ما يناقش نفس المجلس الفروض المتعارضة فى أوقات مختلفة•لقد أشاروا لكاسولون Casaubon الى قاعة السوربون وقالوا له : هذا هو المكان الذى ناقشوا فيه طـوال عدة قرون فكان جوابهماذا أنجزوا ؟

فيـــــــلاليت :

ومع ذلك حاول البعض الا يستمر النقاش الـى ما لا نهـاية • والوصول الى وسيلة للفصل بين المتخاصمين حتى لا يتورطوا فى سلسلة لا نهائية من الأقيسة • هذه الوسيلة هى أن نقدم قضايا عامة معينة ، واضحة بذاتها فى أغلب الأحيان ، ومن طبيعتها أن يقبلها الجميع برضاء تام يجب أن تعتبر مقاييس عامة للحقيقة ، وتصبح بمثابة مبـادىء (ما دام المتناقشان لم يفترضا غيرها) لا يمكن أن يتخطاها أحد وعلى الطرفين أن يلتزما بهـا وهكذا اذا ما أطلقنا على هذه البديهيات اسـم مبادىء فلن يمكن انكارها فى النقاش وسينتهى الموضوع ولهذا يرى مؤلفنا أن البعض قد أخطأ حين اعتبرها مصدر المعارف وأسس العلـوم•

تيوفيـــــــل :

نشكر الله اذا التزموا بهذا فى المناقشات ، ولن يكون لدينا ما نقوله مادمنا بذلك نقرر شيئا •وماذا يمكن أن نفعل أفضل من أن نخضع التناقش أى الحقائق المتنازع حولها الحقائق واضحة ولا تقبل النزاع ؟

أليس فى ذلك تقريرها بطريقة استدلالية ؟ ومن يستطيع أن يشك فى أن تصبح هذه المبادىء التى تحسم المناقشات ، تقريرا لحقائق وفى نفس الوقت مصادر للمعارف ؟ لأنه ما دام الاستدلال جيدا فلا يهم أن نعمله ضمنيا فى مكتبنا أن نقرره على منبر الخطابة • حتى عندما تصبح هذه المبادىء مطالب أكثر من أن تكون بديهيات ، ونقصد بالمطالب ما يقصده ارسطو ، وليس مايقصدهأقليدس أى باعتبارها فروض نريد تأكيدها ، ما أن تتاح الفرصة لاثباتها ، ستكون هذه المبادىء وسيلة لاخضاع الاسئلة الأخرى الى عدد قليل من القضايا • هكذا أنى مندهش اذ أرى من يلوم أمرا مشروعا اعتمادا على حكم مسبق • فصاحبك مثلا قد وقع فى نفس الخطأ الذى يقعفيه الناس نتيجة عدم الانتباه • لسوء الحظ يحدث شىء آخر تماما فى المناقشات العلمية • بدلا من تقرير البديهيات العامة يعملون كل ما فى وسعهم لاضعافها بتعريفات لا جدوى منها ، وقد يقنع البعض باستخدام قواعد فلسفية معينة مما ملئت بها الكتب الكبرى رغم قلة حظها من اليقين والتحديد ومن ثم يجدوا لذة فى التخلص منها عن طريق اظهارها •

انها ليست وسيلة لتحديد المنازعات وانما هى وسيلة لجعلها لا نهائية ولارهاق الخصم أن الأمر هنا يشبه من يقودنا الى مكان معتم حيث نتخبط هنا وهناك وحيث لا يتمكن أحد من التحكم من ضرباته • هذا الاختراع مدهش بالنسبة للمدافعين عن فروضهم • أنه درع (فولكان Vulcain) الذى يعصمهم أنه (orci galea) أو خوذة (بلوتون• Haume de pluton) التى تجعلهم غير مرئيين• أنهم سيكونون غير مهرة أو سيىءالحظ اذا أمكن الامساك بهم رغم كل هذا • حقا هناك قواعد لها استثناءات ، خصوصا فى الموضوعات التى يدخل فيها كثير من الملحقات كما فى الفقه ولكن لكى يصبح الاستخدام أكيدا يجب أن تكون هذه الاستثناءات محددة عددا ومعنى بقدر الامكان: وعندئذ قد يحدث أن يكون للاستثناء استثناءاته الفرعية ، أى انعطافات وأن يكون لهذان الانعطافات مضاعفات ••• الخ • ولكن فى النهاية

يجب ارتباط هذه الاستثناءات وتفريعاتها فى المناقشات العلمية فلا بـــد دائما أن تتم المناقشة والقلم باليد لنسجل كل ما يقوله الدارفان • وسيكون ذلك ضروريا أيضا فى المناقشة التى تتخذ صورة الأقسية المتعددة التى تمتزج من وقت لآخر بالتمييزات التى تعرض أقوى ذاكرة فى العـــالم لأن تخلط بينها ،ولكن لا أحد يحرص على أن يجهد نفسه ليدفع ضرورة الأقسية ويسجلها لاكتشاف الحقيقة ، خاصة عندما لا تكون ذات عائـــد والتى لن نصل الى نهايتها عندما نريد ما لم تستبعد هذه التمييزات أو تحسن تنظيمها •

فيــــــــلاليت :

حقا ، كما لاحظ صاحبنا أن منهج المدرسة ، لأنه تدخل فى النزاعات خارج المدرسة ليسكت المنازعين ، أصبح له أثره السىء • لأنه ما أن نحصل على الافكار المتوسطة حتى يمكن رؤية الارتباط بدون الالتجـــاء الى البديهيات وقبل أن تكون قد انتجب وهذا يكفى للاشخاص المعلمين وسلسى القيادة ، ولكن منهج المدارس ، لأنه شجع وأعطى للنـــاس حق المعارضة ومقاومة الحقائق الواضحة لدرجة أنهم تناقضوا أو عارضـــوا المبادىء المقررة ، لا نندهش أبدا حينما نجدهم فى الحديث العـــادى لا يخجلون من عمل ما يعتبر مفخرة وفضيلة فى المدارس ، ويضيف المؤلف أن أناسا معقولين منتشرين فى العالم ولم يفسدهم التعليم ، يجدون مشقة فى تصديق أن منهجا كهذا أقره أشخاص جعلوا مهنتهم حسب الحقيقة وفنوا حياتهم فى دراسة الدين والطبيعة ، ويقول أنه لن يفرض هنا الى حد تؤدى هذهالطريقة فى التعليم الى أبعاد أذهـــان الشبان عن حب البحث المخلص للحقيقة أو بالاحرى جعلهم يشكون هل توجد حقيقة فى العالم ، أو على الاقل جديرة بأن ترتبط بهـــا • ونضيف أن ما يعتقده تماما هو أنه باستثناء المناطق التى اعتنقت الفلسفة المشائية فى مدارسهم التى انتشرت عدة قرون والتى لا تعلم أى شىء آخر للعالم سوى فن المناقشة ، لا يوجد من يعتبر هذه البديهيات أسسا للعلوم وسندا هاما للتقدم فى معرفة الاشياء •

تيوفيـــــــــــل :

يرى مؤلفك الماهر أن المدارس وحدها هى القادرة على صياغـــة البديهيات بينما هى ترجع الى الغريزة العامة والعاقلة جـــدا للجنس البشرى ؛ ويمكن الحكم على ذلك بالامثال التى تستخدمها كل الأمم ، والتى ليست عادة سوى بديهيات يقتنع بها الجمهور • ومع ذلك عندمـــا ينطق الاشخاص ذوى حكمة بشىء يبدو معارضا للحقيقة فمن الواجب أن نعطيهم الحق بأن نشك فى وجود العيب فى تعبيراتهم ونرجح أنـــه يوجد فى مشاعرهم : وهذا ما ينطبق على مؤلفنا الذى سابدأ باظهـــار الدافع الذى يدفعه ضد البديهيات وهذا ما يبدو بوضوح فى الأحاديث العادية حيث لا يلزمنا أن نتدرب كما نتدرب فى المدارس • أن من الأمور المنتقدة أن تريد أن نكون مقتنعا لتستسلم •

ومن ثم فى أغلب الاحيان نميل الى حذف القضية الكبرى التى نفهمها وأن نقنع بالقياس المضمر (قياس بمقدمة واحدة) • أحيانا بدون صياغة المقدمات حيث يكفى أن نذكر الفكرة المتوسطة أو الحد الأوسط ، فان الذهن يفهم الرابطة دون أن نعبر عنها • والامر مقبول عندما تكـــون الرابطة مما لا نزاع حولها ، ولكنك تعترف أيضا ياسيدى أنه قد نتسرع أحيانا فى افتراضها وقد تولد عنها استدلالات زائفة بحيث يحســـن أحيانا عندما نضـــع فى اعتبارنا جانب اليقين أكثر من جانب الاختصار أو البلاغة ، ومع ذلك تسرع مؤلفك فى الحكم ضد البديهيات جعله يرفض تماما فائدتها فى تقرير الحقيقة ، ووصل الى اعتبارها شريكة فى فوضى المحادثة • حقا أن الشبان الذين تعودوا على التمرينات العلمية يهتمون قليلا بالتمرين ولا يهتمون بأن يستخرجوا من التمرين أكبر ثمـــرة يمكن أن يحصلوا عليها ، وهى المعرفة ، أنهم يجهدون أنفسهم ليتخلصوا منها فى العالم • ومن احدى المشاغبات أنهم لا يرغبون الخضوع للحقيقة الا أنا جعلوها واضحة حسيا ، مع أن الجدية وحتى الكياسة ترغمهم على الا يصـــلوا الى هذه النهايات التى تجعلها غير مناســـبة وتعطى عنهـا

فكرة سيئة • ويجب أن نعترف أن هذا عيب يصاب بعدواه رجال الآداب• ومع ذلك ليس الخطأ فى الرغبة فى اخضاع الحقائق للبديهيات وانما فى جعلها فى غير محلها ولا حاجة لها ، لأن الذهن البشرى يواجه الكثير فى لحظة واحدة مما يضايقه أن ترغب فى اجباره على التوقف فى كل خطـوة يعملها ، وأن يعبر عن كل ما يفكر فيه • أن هذا يشبه تماما ما يحدث عندما نحاسب تاجرا أو نزيلا فى فندق بأن نرغمه على أن يحسب كل شىء بأصابعه لكى يكون متأكدا ، وطلبنا هذا يجعلنا سفهاء أو أغبياء • الواقع، أن بيترون Petrone على صواب فى قوله أن الشبان أصبحوا أغبياء وطائشين فى أحيانا حيث يجب أن توجد مدارس للحكمة ، ولكنهم أحيانا أيضا يصبحون مزهوين ومشوشين ومتخاصمين ومتقلبى الاحوال وغير متفقين وهذا كله يعتمد أحيانا على مزاج اساتذتهم • وعلاوة على ذلك أجد أخطاء أكبر بكثير فى المحادثة من تلك الخاصة بطلب وضوح أكثر • لأننا عادة نقع فى الخطيئة المقابلة ولا نطلب منها ولا نعطيها ما يكفيها ، واذا كان احدهما غير مناسب فان الآخر مفسد وخطير •

١٢ ــ فيــــلاليت :

نفس الأمر أيضا بالنسبة لاستخدام البديهيات عندما نربطهـا بأفكار خاطئة ، غامضة ، وغير يقينية ، لأنه عندئذ تستخدم البديهيـات فى تأييد أخطائنا ، بل وفى اثبات التناقض مثلا ذلك الذى يتصور مـع ديكارت الجسم ليس شيئا آخر غير الامتداد ويمكنه اثبات بســهولة بهذه البديهية (ما يكون يكون) أنه لا يوجد فراغ أى مكان لا يشــغله الجسم لأنه يعرف فكرته الخاصة ، يعرف أنه يكون ما يكونه وليس فكرة أخرى ، وعلى هذا كانت الكلمات الثلاثة امتداد ، جسم ، ومكـان تدل على نفس الشىء • ومن الحق بالنسبة له أيضا أن يقول أن المكـان جسم تماما كما يقول أن الجسم جسم •

١٣ ــ ولكن بالنسبة لشخص آخر الذى يقصد بالجسم الامتــداد الصلب فأنه يستنتج بنفس الطريقة أن القول : أن المكان ليس جسـما

قول أكيد تماما مثل أى قضية يمكن اثباتها بهذا : من المستحيل أن يكـــون الشىء ولا يكون فى نفس الوقت •

تيــوفيـــــــــــل :

ان اساءة استخدام البديهيات لا يستدعى لوم استخدامهـــــا بوجه عام . كل الحقائق عرضة لهذا العائق عندما نربطها بأخطـــاء . يمكن أن نستنتج ما هو خاطىء ، بل ما هو متناقض وفى هذا المثـــــال لســـنا فى حاجة مطلقا لهذه البديهيات الذاتية التى ينسب اليها سبب الخطـــأ والتناقض • ويمكن أن نرى هذا اذا أمكن صياغة دليل أولئك الذيـــن يستنتجون من تعريفاتهم أن المكان جسم أو أن المكان ليس بجسم ، صياغة صورة • هناك أيضا شىء من المبالغة فى هذه النتيجة : الجســـم ممتد وصلب ، اذن المضاف ، أى الممتد ، ليس جسما ، والممتد ليس شيئا جسميا على الاطلاق ، لأنى لاحظت فعلا وجود تعبيرات سطحية عن الافكار ، أو تلك التى لا تضاعف الأشياء كما عندما يقـــول أحدنـــا : أقصد بالتلاثية (triquetrum) المثلث ذو ثلاثة أضـــلاع وأستنتج من ذلك أن كل ما هو ثلاثى الاضلاع ليس مثلثا • وهكذا يمكن للديكارتى أن يقول أن فكرة الممتد الصلب له هذه الطبيعة اى أنها تعطى ما يزيد عن حاجتنا ، اذا ما أخذنا الممتد على أنه شىء جوهرى فكل ممد سيكون صلبا ، أو كل ممتد سيكون جسميا وبالنسبة للخلاء سيكون من حـــق الديكارتى أن يستنتج من فكرته أو صورة الفكرة (facon d' idée) عدم وجود الخلاء مطلقا : على فرض أن فكرته جيدة • ولكن لن يكـــون من حق أى شخص آخر ، أولا أن يستنتج امكان وجود الخــــلاء بناء على فكرته ، ومع أنى لست مؤيدا للرأى الديكارتى ، الا أنى أعتقــد أنه لا يوجد خـــلاء واحد فى هذا المثال اساءة أكثر لاستخدام كل من الافكار والبديهيات •

١٥ ــ فيــــــلاليت :

على الأقل ، يبدو أن هذا الاستخدام للبديهيات فى القضايا اللفظية لن يعطينا أدنى معرفة عن الجواهر الموجودة خارج أنفسنا .

تيوفيـــــــــل :

ان لى رأى آخر . مثلا هذه البديهية ؛ أن الطبيعة تعمل بأقصر الطرق ، أو على الاقل بأكثرها تحديدا ، تكفى وحدها لتبرير كل علـــم البصريات وعلم انعكاس الضوء . ومبحث انكسار الضوء أى كل ما يحـــدث خارجنا فى أفعال الضوء كما سبق أن أوضحت ذلك وقد أثبت ذلك السيد (مولينيه Molineux) فى بحثه عن انكسار الضـــوء وهـــو كتاب جيد جدا .

فيـــــــلاليت :

طبعا قد يدعى البعض أنه عندما نستخدم المبادىء الذاتية لاثبات قضايا بها **كلمات تعبر عن أفكار مركبة ، مثل** كلمتى انسان وفضيلة فان استخدامها يصبح خطيرا جدا ويجعل الناس يعتبرون أو يقولون الخطـــأ على أنه حقيقة واضحة . لأن الناس يعتقدون أن تمسكنا بنفس الحدود يعنى أن القضايا تدور حول نفس الاشياء ، رغم اختلاف الافكـــار التى تعنيها هذه الحدود ، بحيث أن الناس ؛ لأنهم اعتادوا على أن ينظروا الى الكلمات على أنها اشياء فأنهم قد استخدموا هذه البديهيات فى اثبـــات القضايا المتناقضة .

تيوفيـــــــــل :

ما أظلم أن نلوم هذه البديهيات المسكنة على ما يجب أن ينسب الى سوء استخدام الحدود وغموضها لنفس السبب سنلوم الاقيسة ، لأننا نسىء الاستنتاج عندما تكون الحدود غامضة . ولكن القيـــاس

برىء ، لأنه فى الواقع يوجد أربعة حدود وهذا ضد قواعــد القياس لنفس السبب • نلوم حساب علماء الحساب أو الجبر لأننا بوضــع س بدلا من ص أو أخذ أ على أنه ب سهوا فأننا نستنتج نتائج خاطئــة ومتناقضة •

١٩ ــ فيـــــــلاليت :

كنت أعتقد على الاقل أن البديهيات قليلة الفائدة عندما يــكون لدينا أفكارا واضحة ومتميزة ، رأى الآخرون أنها ليست ذات فائدة بل أدعوا أن ذلك الذى لن يميز الصواب عن الخطأ بدون هذه الأنــواع من البديهيات لن يستطيع ذلك أيضا معتمدا عليهــا •

ومؤلفنــا يظهر (الفقرتين ١٦ ، ١٧) أنها لا تستخدم ابدا فى تقرير هل هذا انسان أم لا ؟

تيوفيـــــــل :

اذا كانت الحقائق بسيطة جدا وواضحة وقريبة جدا من الذاتيات والتعريفات فأننا لن نستخدم البديهيات لنستخرج منها هذه الحقائق ، لأن الذهن يستخدمها ضــمنيا ويصل الى النتائج مرة واحدة دون تخزين • ولكن بدون البديهيات المعروفة فعلا سيجد علماء الرياضة مشقة فى التقدم ، لأنه فى النتائج الطويلة من الاحسن أن نتوقف من وقت لآخــر وأن نعمل نوعا من الاعمدة التى تدل على المسافات فى وسط الطريق والتى يلاحظها الآخرين بدون هذا ، هذه الطرق الطويلة ستكون غير ملائمة تماما ، وقد تبدو مختلطة وغامضة لا تساعد على التمييز وتحديد مكاننا بالضبط ويصبــح شأننا شــأن من يذهب الى البحر بــدون بوصــلة فى ليلة حالكة الظلام لا يرى فيها شطا ولا عمقا أو شأن من يسير فى هذه الارض الفسيحة حيث لا يوجد أشجار ولا تلال ولا جداول وهــى أيضا تشبه السلسلة ذات الحلقات ، التى تستخدم فى القيــاس ومهــا

عدة مئات من الحلقات المتشابهة المتتابعة ولا تفصل بينها أى فواصــل أو خرزات السبحة،أو غيرها من التقسيمات التى تعبر عن أبعاد الاقدام، الست أقدام ، الخمس ياردات .... الخ .

ان الذهن الذى يحب الوحدة فى الكثرة يربط اذن بين بعض النتائج ليشكل منها نتائج متوسطة وهذا هو دور البديهيات والنظريات .. بهذه الطريقة نجد لذة أكثر ونورا أكثر وتذكر أكثر وتطبيق أكثر وقليل من التكرار ، واذا أراد بعض التحليليين الا يفترضوا هاتين البديهيتـــين الهندسيتين ــ أن مربع وتر المثلث قائم الزاوية يساوى ضعف مربــع جــانبى الزاويــة القــائمة وأن الجــوانب المتصـــلة بالمثلثـــات المتشـــابهات تكون متناســبة وبالتالى تخيلــوا أنـــه مــادمنــا نستطيع اثبات هاتين النظريتين بربط الافكار التى نتضمنها ، فمن الممكن تخطيها بسهولة وذلك ياسيدى بأن نضع مكانها الافكار نفسها : فأنهم سيجدون أنفسهم قد ابتعدوا تماما عن حسابهم ، وحتى لا تظن أن دور هذه البديهيات محصور فى حدود العلوم الرياضية فقط يمكنك أن تلاحظ أنه لن يقل ذلك فى القانون فمن المبادىء الوسيطة التى تجعله ســهل والتى تساعده فى مواجهة هذا المجال الفسيح على خريطة جغرافية ، هى أن تخضع عددا من القرارات الجزئية لمبادىء أعم . مثلا ستجد أن عددا من قوانين جوستنيان الخاصة بالدعاوى والدفوع تلك التى نســـميها (in factum) تعتمد على هذه البديهية

ne quisalterius damno fiat locupletior

أى لا يجب أن يستفيد المرء من الضرر الذى يلحقه بآخر ، أنه يلزمنا أن نعبر عنها بدقة أكثر . حقا أنه علينا أن نميز بين قواعد القانون .. انى أتحدث عن الأفضل وليس عن قواعد قانونية معينة ادخلها الاساتذة وتكون غامضة مع أنها يمكن أن تصبح جيدة ومفيدة ، اذا أعدنا صياغتها ، بينما هى بتفريعاتها اللانهائية لن تصلح الا فى التشويش ، ولكن القواعد الجيدة أما أن تكون أقوالا مأثورة أو بديهيات واقصد بالبديهيات كلا من المسلمات والنظريات . واذا تشكلت الأقوال المأثورة بالاستقراء والملاحظة وليس

بالعقل قبليا ، وصاغها رجال مهرة بعد الاطلاع على هذا النص التشريعي الموجود ضمن جوستانيان التى تحدثت عن قواعد القانون حيث جـاء بهـا قـوله :

non ex regula jus sumi , sed ex jure quad est regulam fieri.

أى أننا نستخرج القواعد من قانون معروف لكى نحسن تذكره ، ولكننا لا نقرر القانون بناء على هذه القواعد • ولكن هناك بديهيـات أساسية تشكل القانون نفسه لا تستمدها من سلطة الدولة التعسفية فأنها تشكل القانون الطبيعى • وهذه هى القاعدة التى تحدثت عنها والتـى تمنع الكسب الذى يضر • توجد أيضا قواعد استثناءها نادر ، وبالتالى تعتبر كلية ، مثل التى جاءت فى (الفقرة ٢ من دستور الامبراطـور جوستيان) تحت عنوان الدعاوى والتى تقرر أنه عندما يتصل الأمـر بالشئون الجسدية فلن يملكها الفاعل ، سوى فى حالة واحدة أشـار اليها الامبراطور فى مجموعة قوانينه وما زلنا نهتم ببحثها • حقا فان البعض بدلا من (sane uno casu) يقرأون (sane non uno) يستدلون من الحالة الواحدة عدة حالات بالنسبة للاطباء لقد أوضـح المرحـوم (Barner) الذى كنا نتوقع منه أن يكون فى بحثـه nouveau sennertus تحدينا لنسق فى الطب معدلا وفق الاكتشافات أو الأفكار الجديدة ، أن الطريقة التى يلاحظها عادة الأطباء فى انساقهم العملية هى أن يفسروا فن الشفاء بأن يتناولوا مرضا بعد آخر ، تبعـا لاجزاء جسم الانسـان ، أو بعبارة أخرى أن يقدموا قواعد كليـة مشتركة فى عدة أمراض ، أو أعراض ، وهذا يوقعهم فى تكرارات لا حصر لهـا ، بحيث يمكن أن نستبعد ، فى نظره ثلاثة أرباع ما فى (sennertus) واختصار العلم تماما بقضايا عامة وخاصة تلك التى ينطبق عليهـا قول ارسطو أنها تكون مشتركة أو تقترب منها • أعتقد أنه محق فى أن ينصح بهذا المنهج خاصة بالنسبة للطب من وصايا تماحكية (ratiocinative) والتى بقدر ما هى تجريبية ، فانه ليس من السهولة ومن المؤكد أن تشكل قضايا كلية • وعلاوة على ذلك هنـاك عـادة تعقيـدات فى الامراض

الخاصة التى يمكن مقارنتها بالجواهر بحيث يصبح المرض مثل النبات أو الحيوان يتطلب ناريخا خاصا ، أى آنها تصبح أنماطا أو طرفا من الوجود ، ينطبق عليها ما قلناه عن الاجسام او الاشياء الجوهرية : وبالتالى يصعب تدقيق النظر فى (الحمى الرباعية (fiévre quarte) كما يصعب تدقيق النظر فى الذهب أو الزئبق ، وعلى هذا فمن الافضل : على الرغم من الوصايةالكلية ، أن نبحث فى أجناس الأمراض عن طرق للشفاء وللعلاج ترضى عدة دلالات وأسباب مجتمعة ، وأن تحصل على ما تؤديه التجربة بصفة خاصة وهذا ما لم يفعله (sennertus) بالقدر الكافى ، لأنبعض السادة المهرة قد لاحظوا أن تركيبات الوصفات التى اقترحها كانت أحيانا فى صورة (ex ingenio) تعتمد على التقريب أكثر من أن تدعمها التجربة ؛ كما يجب حتى تتأكد أكثر من أثرها . اعتقد اذن أن الافضل أن نجمع بين الطريقتين ولا نشتكى من التكرارات . فمادة بهذه الدقة والاهمية كالطب ما زال ينقصها الكثير مما لدينا فى القانون ، أى الكتب ، الحالات الجزئية ، وقوائم بما قد تم ملاحظته فعلا ، لانى اعتقد أن واحد من الالف من كتب القانون تكفينا فى حين لا نملك الكثير فى مادة الطب حتى اذا اتيح لنا من الملاحظات المناسبة ما نريد ألف مرة عما لدينا . ما دام القانون يعتمد على العقل فى الحالات التى لا تعبر عنها ، بوضوح ، القوانين أو العادات . لان من الممكن دائما أن نستخرجه بواسطة العقل أما من القانون أو القانون الطبيعى فى غيبة القانون . قوانين كل اقليم تكون محددة ونهائية ، أو يمكن أن تصبح كذلك ، أما فى الطب فأن مبادىء التجربة ، أى الملاحظات ، يلزمها أن تتضاعف لتعطى فرص أكثر للعقل لان يحل الرموز التى لم تسمح الطبيعة الا بمعرفة نصفها . لا أعرف شخصا يستخدم البديهيات بنفس الطريقة التى استخدمها مؤلفك الماهر الذى نتحدث عنه (الفقرتان ١٦ ، ١٧) كما لو ان شخصا لكى يثبت لطفل أن الزنجى انسان ، يستخدم المبدأ القائل أن ما يكون يكون ، فيقول : العبد لديه روح عاقل ، ولكن الروح العاقلة والانسان شىء واحد ، وبالتالى

اذا كان مع حصوله الروح العاقلة لن يكون انسانا فسيكون من الخطأ قولنا أن ما يكون يكون ، أو قولنا أن نفس الشيء سيكون ولا يكـــون فى نفس الوقت ، لان بدون استخدام هذه البديهيات التى لا تكون مناسبة هنا ولا تدخل مباشرة فى الاستدلال ، كما أنها لن تقدم شيئا يقنع الجميع بأن يفكروا هكذا : العبد الاسود له روح عاقلة ، كل من له روح عاقلة يكون انسان ، اذن العبد الأسود انسان ، واذا استنتج شخص ما أنه لا توجد روح عاقلة عندما لاتبدو لنا فان الاطفال حديثة الولادة ، والبلهاء لن ينتموا الى الجنس البشرى (كما يقرر المؤلف أنه أفاض الحديث مع اشخاص عاقلين ينكرون ذلك) لا اعتقد مطلقا ان الاستخدام السيء للبديهيات والذى يظهر أنه من المستحيل أن يكون الشيء ، ولا يكون ، قد يقربهم ، ولا أن يفكروا فيها عندما يقومون بهذا الاستدلال ، مصدر خطأهم سيكون امتدادا لمبدأ مؤلفنا ، الذى ينكر أنه يوجد شيء ما فى الروح لا ندركه ، فى حين يذهب هؤلاء السادة الى انكار الروح نفسها عندما لا يدركها الآخرون ،

الشخصـــــيات

(١) (Antoine) Arnauld يسمى أيضـــا ارنولد الكبـــير ، فى للجانسيست ولد فى باريس سنة ١٦١٢ وتوفى فى Liége سنة ١٦٩٤ بعد حياه صاخبة ، أهم أعماله الفلسفية : ــ المنطق (المسمى منطق بورت رويال) وشاركه فيه نيقولا) ، بحثه فى الافكار الصـــواب والخطـــأ ، موجه ضـــد مالبرانش ، ملاحظات فلسفية حول المذهب الجديد للطبيعة والعناية ، واخيرا اعتراضات ضد ديكارت . ظهرت الطبعـــة الكاملة لأعمـــاله فى لوزان سنة ١٧٨٠ وتوجد الأعمال الفلسفية فى الاجزاء ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠) وقدمت طبعة خاصة لمكتبة (Charpentier) باريس سنة ١٨١٣ .

(٢) Hardy مستشرق ورياضى وقانونى . توفى فى باريس سنة ١٦٧٨ فى عمر متقدم فى السن جداً ؛ وقدم ترجمة لاتينية لمعطيات data اقليدس مع تفسير Marinus

(٣) Marinus فيلسوف اغريقى فى القرن الخامس تلميذ بروكلس الذى ترك لنا تاريخ حياته .

(٤) Comenius عالم مشهور فى القرن ١٧ ولد فى Comna قرب Brunmen مورافيا) سنة ١٥٩٢ وتوفى فى امستردام سنة ١٦٧١ نشر مؤلفـــات تربوية جمعها تحت عنـــوان opera didactica اهمهـــا spicilegium didactium اهتم ايضـــا بعلم الطبيعة وقدم بحثـــا بعنوان : disquisisitionos de caloris et frigoris natura.

(٥) فيثاغورث : فيلسوف يونانى مشهور ، حياته غير معروفة سوى من خلال قصص اسطورية فى قليل أو كثير ، ولد فى الفترة من ٥٥٠ الى ٥٨٠ ق . م ووفاته حولى عام ٥٠٠ . يبدو انه ولد فى ا ساموى ورحـــل كثيرا وان كانت عددا من هذه الرحلات مشكوك فيها . أسس فى كروتون باليونان الكبرى المدرسة المشهورة المهتمة بالرياضيات والموسيقى . ينسب اليه اكتشاف نظريات مشهورة لمربع الوتر المثلث قائم الزاوية ونظـــرية العلاقات الرياضية للمسافات الموسيقية يبدو انه لم يكتب شيئا وكل ما لدينا باسمه مزور .

(٦) (Casaubon ,) عالم مشهور فى القرن ١٦ ولد فى وردوا بدوفين عام ١٥٥٩ وتوفى فى لندن عام ١٦١٤ ؛

(٧) Jaques Barner) طبيب أزدهر فى النصف الثانى من القرن ١٢ قـــدم prodrmus Sennerti novi وعرف بوجه خاص بكيميائية الفلسـفة (chimia philosophica)

(٨) (Sennert) (daniel) طبيب مشهور ولد فى (عام ١٥٧٢ وتوفى فى (Wittemberg) عام ١٦٣٧ ونشر عدة أعمال ، أهمها من الناحية الفلسفية هى :

Hypommemeta physica de rerum principiis deorigine animarum in brutis.

نشر أعماله الكاملة فى عدة طبعات احســنها طبعـــة ليون عام ١٦٥٠ أو عام ١٦٦٦ .

الفصـــل الثامن

عن القضايا التافهة Frivoles

فيلاليت :

١ ـ اعتقد تماما أن العقلاء لا يهمهم اســتخدام المســلمات المتطابقة بالطريقة التى تحدثنا عنها •

٢ ـ كما يبدو أن هذه البديهيات المتطابقة تماما ليست ســوى قضــايا تافهة كما تســميها المدارس (nugatorise) • لم أكن لاقنع بالقول أن هذا يبدو لى كذلك لولا المثال المدهش الذى ذكرته والخاص باستدلال العكس عن طريق القضايا المتطابقة والذى جعلنى ، من الان فصاعدا ، أعدل عن وجهة نظرى وخاصة عندما يتصل الامر باحتقــار شىء ما • ومع ذلك سأخبرك بما يبرر أعلاننا أنها تافهة تماما •

٣ ـ من الوهلة الاولى نعرف أنها لا تتضمن أى معرفة ، اللهم ألا انها تظهر احيانا للمرء ما يمكن ان تكون قد تورط فيه من اللامعقولية •

تيوفيــل :

هل تعتبر هذا الامر تافها يا سيدى ؟ اعتقد جيدا أن المرء لا يتعلم بأن نقول له يجب الا ننكر ونثبت نفس الشىء فى نفس الوقت ، ولكنه يتعلم ذلك بأن نثبت له ، من خلال المناسبات ، أنه يفعل ذلك دون أن يفكر فيه •أنه من الصعب فى نظرى ، أن نتخلص دائما من أدلة الخلف أى التى تؤدى الى اللامعقول وأن نثبتها كلها بالادلة الواضحــة كما يسمونها • وقد مارسه علماء الهندسة المهتمون جدا بهذا • وقد لاحظ ذلك بروكلس من وقت لآخر ، عندما ذكر أن بعض علماء الهندســة القدماء الذين جاءوا بعد أقليدس قد توصلوا الى استدلال مباشر أكثر

من استدلاله • ولكن سكوت هذا المفسر القديم يظهر بوضوح أنه لم يســتخدم •

فيلاليت : على الاقل الا تعترف يا سيدى أن من الممكن صياغة مليون من القضايا بأقل جهد ولكنها ايضا قايلة الجدوى . اليس من التفاهة أن نلاحظ مثلا ، أن المحار هو محــار • وأن من الخطأ أن ننكره أو أن نقول أن المحار ليس محارا ؟ • يسر المؤلف أن يقارن بين الشخص الذى يجعل من المحار فاعلا تارة وصفة أو محمولا تارة أخرى ، وبين القرد الذى يتسلى بأن يلقى المحارة من يد الى أخرى ، فاذا كان ذلك مما يمكن أن يشبع جوع القرد ، فأن هذه القضيا ستكون قادرة على ارضاء فهم الانسان •

تيوفيــل :

أرى أن هذا المؤلف حاضر الذهن وصائب الحكم ، لديه كل المبررات التى فى العالم التى تجعله يعارض أولئك الذين سيستخدمونها بهذه الصورة • ولكنك ترى جيدا كيف يجب استخدام المتطابقات لتصبح مفيدة ، وذلك بأن نثبت بها ، بناء على النتائج والتعريفات ، خضوع الحقائق الاخرى التى نريد تقريرها •

٤ ـ فيلاليت :

اعرف ذلك ، وأرى جيدا أن من الممكن ، بحق ، تطبيقه على القضايا التى تبدو تافهة وغالبا ما يكون ذلك فى عديد من المناسبات التى نثبت فيها جزءا من الفكرة المركبة لموضوعها كقولنا : الرصاص معدن وخاصة عندما نقول لشخص يعرف معنى هذه الحدود • ويعرف أننا نقصــد بالرصاص جسما صلبا له ثقل وقابل للصهر وقابل للطرق ، فهذه هى الوسيلة الوحيدة للقول أنه معدن بدلا من أن نشير الى عدد من الافكار البسيطة وتعدها له واحدة بعد الاخرى •

٥ ــ نفس الامر عندما نثبت جــزءا من التعريف للحــد الذى نحدده فنقول : كل ذهب قابل للانصهار ، على فرض اننا حددنا الذهب بأنه جسم أصفر له ثقل ، فأنه قابل للانصهار وقابل للطرق • وكذلك القول أن المثلث له ثلاث جوانب ؛ وأن الانسان حيوان ، وأن حصان الامراء حيوان يصهل ، كل هذا يستخدم فى تعريف الكلمات وليس فى معرفة أى شىء آخر خلاف التعريف • ولكننا يمكن أن نعرف شيئا آخر عندما نقول أن لدى الانسان فكرة عن الله ، وأن الافيون يغرق الانسان فى النوم •

تيوفيــل :

علاوة على ما ذكرته عن المتطابقات التى يكون تطابقها تاما ، نجد أن للمتطابقات الناقصة فائدة أخرى خاصة • مثلا قولنا أن الانسان العاقل يكون دائما انســانا ؛ يجعلنا نعرف أنه ليس معصــوما وأنه ميت ••• الخ • قد يحتاج شخص ما ؛ وهو فى خطر ، الى قذيفــة مسدس وينقصه الرصاص ليصهره بالصورة التى يريدها ، فيقول له صديقه : تذكر أن النقود الفضية التى فى محفظتك قابلة للصهر ، هذا الصديق لا يجعله يعرف مطلقا صفة للفضة وانما يدفعه الى التفكير فى استخدام يمكن أن يلجأ اليه ليحصل على قذائف للمسدس ترضى هذه الحاجة الملحة • جزء كبير من الحقائق الاخلاقية والعديد من عبارات المؤلفين لها هذه الطبيعة • أنها لا تعرفنا شيئا احيانا ولكنها تجعلنا نفكر فى ضــوء ما نعــرف • هذه القصيدة الهجائية من التراجيديا اللاتينية
Cuivis potest acciderd, quad cuiquam potest

(التى يمكن أن نعبر عنها هكذا ، وأن كانت بصورة أقل جمالا : ما يمكن أن يحدث لفرد يمكن أن يحدث لكل فرد) لا يسعها الا أن تــذكرنا بالمصير الانسانى •

quod nihil humani ànobis alienum putare debemus

وهذه القاعدة القانونية :

que jure suo utitur, nemini facit injuriam

ذلك الذى يستخدم حقه لا يضر أحد • تبدو تافهة • ومع ذلك لها
استخدام جيد فى اعتبارات معينة وتجعلنا نفكر بعدل فيما يجب •
مثلا عندما يرتفع شخص ما بمنزله الى القدر المسموح . قانونا وعرفا
ولكنه مع ذلك يحرم جاره من منظر ما فاذا اراد الجار أن يشتكى جاره
ذكرنا له هذه القاعدة وكذلك قضايا الواقع ، أو الخبرات مثل تلك التى
تقول أن الافيون مخدر ، تقودنا ابعد من حقائق العقل الخالص التى
تجعلنا نذهب أبعد مما فى أفكارنا المتميزة بالنسبة لهذه القضية أن لكل
انسان فكرة عن الله ، فهى قضية من قضايا العقل عندما تقصد بكلمة
فكرة تصورا ذهنيا • لان تصور الله فى نظرى فطريا لدى كل الناس
ولكن اذا كانت هذه الفكرة تعنى تصورا نفكر فيه حاليا فأنها تصبح
قضية واقع تعتمد على تاريخ الجنس البشرى •

٧ ــ أخيرا القول أن المثلث له ثلاث جوانب فهذا ليس متطابقا
كما يبدو لانه يلزمنا قليل من الانتباه لنرى أن الضلع لابد وأن يكون له
من الزوايا بقدر ماله من الجوانب ، وسيكون له ايضا جانبا زائدا اذا
ما افترضنا أن هذا الضلع غير مغلق •

فيلاليت :

يبدو أن القضايا العامة التى نشكلها عن الجواهر تكون فى الغالب
تافهه ، اذا ، ما كانت يقينية • ومن يعرف دلالات الكلمات : جواهر ،
انسان ، حيوان ، صورة ، روح نباتية ، حسة ، عاقلة ، سيشكل منها
عدة قضايا لا يمكن الشك فيها ولكنها غير مفيدة ، وخاصة بالنسبة
للروح ، التى تتكلم عنها احيانا دون أن نعرف ما هى حقيقة • كل واحد
منا يمكن أن يرى قضايا لاحصر لها • ولااستدلالات ونتائج لها هذه
الطبيعة فى كتب ما بعد الطبيعة واللاهوت المدرسى ، ونوع معين من
الفيزيقا الذى قراءته لن تعلمنا عن الله ، الاذهان ، الاجسام ، شيئا
أكثر مما نعرف قبل أن نتصفح هذه الكتب • ــ

تيوفيـــل :

حقا أن مختصرات ما بعد الطبيعة وغيرها من الكتب التى من هذا النوع والتى نراها منتشرة لا تعلمنا سوى الكلمات . مثلا قولنا أن ما بعد الطبيعة هو العلم بالكائن الاسمى بوجه عام ، الذى يفسر مبادئه وما يصدر عنه من ارتباطات ، وأن مبادىء الكائن هى المــاهية والوجود وأن تكون أما أولية مثل : الواحد الحق الخير ، أو مشتقة مثل : نفس الشىء والمغاير البسيط والمركب .... الخ . والحديث عن كل حد من هذه الحدود لا يعطينا سوى أفكار غامضة وتمييزا للكلمة وفى هذا أساءة للعلم . ومع ذلك يجب أن نعترف ان لدى المدرســيين المتعمقين أمثال سوريز (Suarez) الذى يقدره تماما (جروتياس . Grotius) مناقشات جديرة بالاعتبار ، تتصل بالمستمر ، اللامتناهى ، العرضى ، حقيقة المجردات ، مبدأ التفرد ، أصل وفراغ الصور ، النفس وملكاتها . العون الالهى لمخلوقاته ... الخ وحتى فى الاخلاق بالنســبة لطبيعة الارادة ومبادىء العدالة . وباختصار يجب الاعتراف بأن هذه المعادن غير النقية لا تخلو من الذهب خالص . ولكن على الاشخاص المستنيرين أن يستفيدوا منها ، أما شحن الشباب بمثل هذا الحشو من الكلام غير المفيد لمجرد أن هناك شىء جيد هنا أو هناك فهو أسوأ تبديد لاعــز الاشياء وهو الوقت . كذلك لا ينقصنا تماما القضايا العامة الخاصة بالجواهر والتى تكون أكيدة وتستحق ان نعرفها . هناك حقائق كبرى وجميلة عن الله التى علمنا مؤلفنا الماهر أياها أما فى ذاتها أو فى جزء منها بغيرها وقد يضيف البعض على تلك التى تركها ارسطو . ويجب القول أن الفيزيقا حتى العامة أصبحت أكثر حقيقة عما كانت من قبل أما ما بعد الطبيعة الحقيقية فقد بدأنا تقريبا فى تكوينها ونجد حقــائق هامة مؤسسة على العقل وتؤيدها التجربة تتصل بالجواهر بوجه عام . واتعشم ايضا أن أعمل على تقدم أكثر فى مجال المعرفة العامة للنفس والاذهان . مثل هذه ما بعد الطبيعة هى التى طالب بها ارسطو وهى العلم الذى يسميه المرغوب أو الذى يبحث عنه ، والذى يجب أن يكون

بالنسبة للعلوم الاخرى ما يكونه علم السعادة بالنسبة للفنـــون التى تحتاجه وما يكونه المهندس بالنسبة للعامل • ولهذا يقول ارسطو أن العلوم الاخرى تعتمد على ما بعد الطبيعة باعتبارها الاعموالتى يجب أن تعيرها مبادئها التى تكون قد برهنتها • كذلك يجب معرفة أن علاقة الاخلاق الحقيقية بالنسبة لمـــا بعد الطبيعة تشبه علاقة الممارسة بالنسبة للنظرية اعتمادا على نظرية الجواهر ، وبوجه عام يجب أن تعـــرف العقول وأن نعرف بوجه خاص الله والنفس ممـــا يضفى على العدالة والفضيلة اتساعا أكثر • لانه كما سبق أن لاحظت ، اذا لم توجد العناية ولا الحياة المقبلة سيظل المرء محدودا فى ممارسة الفضيلة ، لانه لا يهتم الا بالرضـــاء الحاضر وهو الرضـــاء الذى ظهر فعلا عند ســـقراط ، والامبراطور مارك انطون ، وابيقور ، وغيرهم من القدماء ولن يكون مدعما باستمرار بدون هذه النظرات الجميلة والعظيمة التى يتيحها أمامنا النظام والانسجام فى الكون لنرى مستقبلا بدون حدود ، بغير ذلك لن يصبح هدوء النفس سوى ما نسميه الصبر بالقوة ، ومن ثم يمكن القول أن اللاهوت الطبيعى يحتوى جزءان النظرية والعمل وبالتالى يحتوى على ما بعد الطبيعة الحقيقية والاخلاق الاكمل •

١٢ ـــ فيلاليت :

هذه المعارف لا شك فى أنها بعيدة تماما من أن تكون تافهه أو مجرد لفظية ، لكن يبدو أن هذه الاخيرة هى تلك التى يثبت فيها أحد المجردين الآخر ، مثلا الادخار اعتدال ، أو عرفان الجميل عدالة ، قد يبدو هـــذه القضايا وغيرها خادعة فى أولة وهلة ولكن اذا ما ركزنا عليها أكثر ستجد أنها لا تعطينا سوى دلالة الحدود •

تيوفيـــل :

ولكن دلالة الحدود أى التعريفات بارتباطها بالبديهيات المتطابقة تعبر عن مبادىء كل البراهين ، ونظرا لان هذه التعريفات يمكنها أن

تعرفنا فى نفس الوقت الافكار وامكانيتها ؛ فمن الواضح أن ما يعتمد عليها لن يكون دائما لفظيا خالصا •••• بالنسبة للمثال عرفان الجميل عداله أو بالاحرى لا يمكننا احتقار جزء من العدالة ؛ لانه يعرفنــا ما تسميه ((actio ingrati) أو الشكوى التى يمكن أن نشكوها من ناكرى الجميل يجب أهمالها على الأقل فى المحاكم • لقد أقر الرومان هذه الدعوى ضمن الأحرار أو المتحررين ، ويجب أن توجد اليوم بالنسبة لفسخ الهبات ، وقد قلت أن الافكار المجردة يمكن أن تنسب بعضها الى بعض كما ينسب النوع الى الجنس كما فى قولنا الديمومة استمرار ؛ الفضيلة عادة ، ولكن العدالة الكلية ليست فضيلة فحسب بل هى أيضا الفضيلة الأخلاقية بأكملها •



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشـــخصيات

(١) (Saurez) جيزويت لاهوتى مشهور ، ولد فى عرناطة عام ١٥١٨ وتوفى ١٦١٧ يمكن القول أنه آخر المدرسيين ، لدينا من مؤلفاته سنة ١٦١٩ — باريس ، .Metaphysicarum disputationum libro duo لندن سنة ١٤٧٩ .- .Tractatus de legibus et deo legislatore

(٢) (Gratiuc) مشرع مشهور ولد فى دفلت بهولندا فى ١٠ ابريل عام ١٥٨٣ وتوفى فى راكتوك عام ١٦١٥ .- مؤلفه الرئيسى هو de jure pacis et belli

ترجمة الى الفرنسية (Barberyrae)

(٣) (Antonin , Epicéte) : رواقيـــان رومـــانيان مـــن عصر الامبراطورية ، ولد امبكت فى هيوروبولياس فع فرجيا فى القرن الاول ومات حوالى منتصف القرن الثانى كان عبدا ثم حرر . العملان الذين يلحصـــان نظريته هما les entretiens وقد كتبهما أريان تلميذه واجمل طبعة لكتبه نشرها (Schweighauser) او مارك أوريل امبراطور روما عام ٣٢١ م توفى عام ١٨٠ وعمله الوحيد هو كتابه الافكار (pensée) طبعة Schule عام ١٨٠٢ وله ترجمة فرنسية فى مجلدين (dacier) بباريس عام ١٦٩١ وترجمه (de joly) عام ١٧٧٠ و (de pierron) عام ١٨٤٣ بباريس .

الفصل التاسع

عن المعرفة التى لدينا عن وجودنا

١ ـ فيلاليت :

لم نعتبر حتى الآن سوى ماهيات الاشياء ، ونظرا لان ذهننا لا يعرفها سوى بالتجريد ، بأن ننزع عنها كل وجود جزئى ، خلاف ذلك الذى يكون فى فهمنا ، فهى لاتعطينا اطلاقا أى معرفة لأى وجود حقيقى، والقضايا الكلية التى يمكن أن نعرفها بيقين لن يكون لها أى صلة بالوجود . علاوة على ذلك فى كل مرة ننسب شيئا الى فرد من نوع أو جنس اعتمادا على قضية لا تكون يقينية اذا كان هذا الشىء نفسه قد نسب الى نوع أو جنس بوجه عام ، لن تتصل القضية بالوجود ولن تجعلنا نعرف سوى ارتباط عرضى بين هذه الاشياء الموجودة بوجه خاص ، كما عندما نقول أن هذا الرجل عالم .

تيوفيل :

حسن جدا . بهذا المعنى ينسب هؤلاء الفلاسفة ، الذين يميزون احيانا بين ما يتصل بالماهية وما يتصل بالوجود ، الى الوجود كل ما هو عرضى أو بالصدفة اننا لا نعرف أحيانا هل القضايا الكلية التى لا نعرفها الا بالتجربة يمكن أن تكون هى أيضا عرضية ، لان تجربتنا محدودة ففى البلاد التى لا يستجمد فيها الماء دائما فى حالة سيالة ، قضية ليست أساسية ما دمنا سنعرف ذلك عندما نصل الى البلاد الاكثر برودة ومع ذلك يمكن أن نأخذ العرض بطريقة أضيق كما او أنه يوجد وسط بينه وبين الاساسى ، هذا الوسط هو الطبيعى ، أى ذلك الذى لا يرتبط بالشىء بصورة ضرورية ، ولكنه مع ذلك ، يناسبه اذا لم يمنعه شىء . على هذا يمكن لاحدنا أن يتمسك بتقرير أنه ليس أساسيا بالنسبة للماء أن يكون

سائلا وأن كان طبيعيا أن يكون كذلك • اقول أن من الممكن أن يتمسك بذلك ولكنه ليس بالامر المبرهن عليه • وربما قد يندفع سكان القمر . اذا كان مسكونا الى الاعتقاد بالقول أنه من الطبيعي لن يكون الماء مثلجا • ومع ذلك هناك حالات أخرى يكون فيها الطبيعي أقل شكا • مثلا : شعاع الضوء يندفع دائما مستقيما فى نفس الوسط . ما لم يتصادف أن يلتقى بسطح يعكسه • علاوة على أن أرسطو قد اعتاد أن ينظر الى المادة كمصدر للاشياء العرضية ، ولكن يجب أن نقصد هنا المادة الثانية أى ركام أو كتلة الاجسام •

فيلاليت :

٢ — لقد لاحظت فعلا ، وفق المؤلف الممتاز الانجليزى الذى بحثه الخاص بالفهم ، أننا نعرف وجودنا بالحدس ومعرفة الله بالاستدلال ، والاشياء الاخرى بالاحساس •

٣ — لكن هذا الحدس الذى يجعلنا نعرف وجودنا يجعلنا نعرفها بوضوح تام لا يمكن اطلاقا اثباته ولا يحتاج ابدا لذلك : وبحيث عندما أشرع فى الشك فى كل الاشياء ، فأن الشك نفسه لا يسمح لى بالشك فى وجودى • أخيرا لدينا هنا أعلى درجة من اليقين يمكن أن نتخيلها •

تيوفيل :

انى متفق تماما مع ذلك . وأضيف أن الادراك المباشر لوجودنا ولافكارنا يمدنا بالحقائق الاولية البعدية أو الخاصة بالواقع ، أى التجارب الاولى وكذلك القضايا المتطابقة التى تشمل الحقائق الاولية القبلية أو المعتمدة على العدل أى الادوار الاولى • هذه وتلك لا يمكن أن تكون مثبتة ويمكن أن نسميها مباشرة ، تلك لانه يوجد تباشر بين الفهم وموضوعه وهذه لانه يوجد تباشر بين الموضوع والمحمول •

الفصـــــل العاشر

عن المعرفة التى لدينا عن وجود الله

١ ــ فيلاليت :

لقد منح الله أرواحنا الملكات التى تتزين بها ، وهو لم يترك نفسه بدون شهادة ، لان الحواس والذكاء والذهن تمدنا بأدلة واضحة عن وجـــــوده •

تيـــوفيل :

لم يعط الله الروح الملكات القادرة على المعرفة فقط ، وانما طبع فيها أيضا خصائص تميزها ؛ وأن احتاجت لملكات تدرك بها هذه الخصائص • ولكنى لا أريد تكرار ما سبق ان ناقشناه بالنسبة للافكار والحقائق الفطرية التى من بينها فكرة الله وحقيقة وجوده • والاجدر بنا أن ننتقل الى الواقع •

فيـــــــلاليت :

ولكن مع أن وجود الله يعتبر أسهل حقيقة يبينها العقل وأن وضوحها يساوى ، اذا لم أكن مخطئا ، وضوح الاستدلالات الرياضية الا أنهـــا تتطلب الاهتمام بها • أنها لا تحتاج أولا الا التفكير فى أنفسنا وفى وجودنا الذى لا شك فيه • وعلى هذا أفترض أن كل واحد منا يعرف أن شيئا يوجد حاليا ، وعلى هذا هناك كائن حقيقى • اذا وجد شخص يمكنه أن يشك فى وجوده الخاص ، فأنى أعلن أنى لا أخاطبه •

٣ ــ نعلم أيضا بمعرفة تقوم على رؤية بسيطة أن العدم الخالص لا يمكنه أبدا أن ينتج كائنا حقيقيا • ومن هنا ينتج بوضوح رياضى أن

شيئا وجد منذ الأبد ، ما دام كل ماله بداية يجب أن يكون قد أوجده شيء آخر •

٤ ـ ولكن كل كائن يستمد وجوده من آخر ، ويستمد أيضـا منه كل ما يخصه وكل ملكاته • اذن المصدر الخالد لكل هذه الموجودات يكون أيضـا مبدأ لكل قدراتها بحيث يجب أن يكون هذا الكائن الخالد قادرا تماما •

٥ ـ أكثر من ذلك ، يجد الانسان في نفسه المعرفة اذن يوجد كائن عاقل ولكن من المستحيل على الشيء المجرد تماما من المعرفة والادراك أن ينتج كائنا عاقلا ؛ ومن المناقض لفكر المـادة ، المحرومة من الاحساس، أن تنتجه لنفسها • اذن مصدر الأشياء يكون عاقلا ، وقد وجد كائن عاقل منـذ الأزل •

٦ ـ الكائن الخالد ، القادر ، والعاقل جدا ، هو ما نسميه الله • وأنه اذا وجد شخص غير عاقل بحيث يفترض أن الانسان هو الكائن الوحيد الذى لديه المعرفة والحكمة ولكنه مع ذلك قد شكل بالصدفة الخالصة وأن هذا المبدأ الأعمى الخالى من المعرفة هو الذى فسر كـل ما عداه فى الكون ، فأنى أنصحه بأن يفحص فى وقت فراغه تحذير شيشرون القوى والملىء بالبلاغة de legibus, lib II. والذى يقول أنه لمن المؤكد الا يجب لأحد أن يكون من البلاهة والزهو بحيث يتخيـل أنه ، مع أنه يوجد فى داخله فهم وعقل ، لا يوجد أى عقل يحكم كل هـذا الكون الفسيح • مما قلته ينتج بوضوح أن لدينا معرفة يقينية بالله بأى شيء آخر أيا كان خارجنا •

تيـــوفيل :

أؤكد لك ياسيدى باخلاص كامل أنى آسف تماما لأنى مضطر الى أن أعارض هذا الاستدلال ، ولكنى أفعل ذلك فقط لاعطيك فرصة لتملأ

الفراغ . اعتراضي أساسا على النقطة التى نستنتجها (٣) أن شيئا وجد منذ الأزل . أجد فى هذا غموضا : اذا كان هذا يعنى أنه لم يوجد أبدا أى زمان لا يوجد فيه أى شيء ، فانى أوافق على ذلك لأن هذا يترتب حقا على القضايا السابقة اعتمادا على نتيجة رياضية تماما . لأنه اذا لم يوجد شيء منذ الأزل فانه لن يوجد شيء باستمرار ، فالعدم لا يمكن أن ينتج كائنا ، أذن لن تكون نحن أيضا ، وهذا يناقض الحقيقةالاولى للتجربة ، ولكن الخطوات التالية ستظهر أولا أن شيئا ما قد وجد منذ الازل ، يعنى أنه شيء خالد . ومع ذلك لا ينتج ابدا بناء على ما سبق أن ذكرت حتى الآن أنه اذا ما وجد دائما شيء ما ضمن المؤكد أن يوجد دائما شيء معين ، أى أن يوجد كائن خالد . لأن بعض المعارضين سيقولون قد أوجدتنى أشياء أخرى ، وهذه الاشياء أيضا توجدها أشياء أخرى : علاوة على ذلك ، اذا قبل البعض وجود الكائنات الخالدة (مثل ذرات الابيقوريين) فأنهم لا يعتقدون أنهم مضطرون لهذا الى قبول وجود كائن خالد يكون وحده مصدر كل ما عداه . لأنه عندما يعرفون أن ما يعطى الوجود للشيء يعطى له أيضا الصفات والقدرات الأخرى سينكرون أن يعطى شيء وحيد الوجود للاخرين ويقولون أيضا أنه يجب أن يؤازر عدة أشياء كل شيء . على هذا لن نصل بهذا وحده الى مصدر واحد لكل القدرات . ومع ذلك من المعقول أن تحكم أن هناك مصدرا بل وأن الكون تحكمه الحكمة . ولكن عندما نعتقد أن المادة قابلة للاحساس فمن الممكن أن نكون مهيئين للاعتقاد فى أنه ليس من المستحيل أن تنتجه ، أو على الأقل سيكون من الصعب أن نذكر دليلا لا يظهر فى نفس الوقت أنها غير قادرة على ذلك تماما ، وعلى فرض أن تفكيرنا يصدر عن كائن مفكر هل يمكننا أن نوافق من غير مساس للاستدلال ، أنه يجب أن يكون الله ؟

٧ ــ فيلاليت :

لا أشك مطلقا فى أن الرجل الممتاز الذى استعرت منه هذا الاستدلال قد تعجز عن أكماله ، وسأحاول أن أحمله اليه فقد يقدم

خدمة كبيرة للجمهور • أنت نفسك تتمنى ذلك . هذا يجعلنى أظن أنك لا تعتقد مطلقا أنه لكى نسكت الملحدين يجب أن ندير كل شىء حول وجود فكرة الله فينا ، كما يفعل البعض ، الذين يرتبطون كثيرا بهذا الاكتشاف المتميز ، لدرجة أنهم يرفضون كل الاستدلالات الأخرى على وجود الله ، أو على الاقل يحاولون أضعافها ومنع استخدامها كما لـو أنها ضعيفة أو خاطئة حتى وان كانت فى أساسها أدلة تجعلنا نـرى بوضوح وبطريقة مقنعة وجود الكائن الأعلى بناء على اعتبار وجودنـا الخاص والاجزاء الحسية للكون ، والتى لا أعتقد أن من واجب أى شخص عاقل أن يقاومها •

تيـــــوفيل :

مع انى أقبل القول بالأفكار الفطرية وخاصة فكرة الله ، الا أننى لا أعتقد أن الاستدلالات الديكارتية المشتقة من فكرة الله تكون كاملة • لقد أثبت بوضوح (فى أعمال ليبرنج actes de Leipsik وفى مذكرات تريفو Trevoux)أن استدلالات ديكارت مستعارة من القديس أنسلم أرشيدون كانتوربيرى ، وهى جميلة جدا وعظيمة حقا • ولكن هنـاك أيضا فراغ يجب أن يملأ هذا الارشيدوق المشهور الذى كان ، ولا شك ، من أقدر الرجال فى عصره والجدير بحق بالتهنئة لحصـوله على وسيلة لاثبات وجود الله قبليا • عن طريق فكرته الخاصة ، دون أن يلجأ الى آثاره •وهذاهو مصدر قوة دليله : الله هو الاكبر (أو كما يقول ديكارت)وأكمل الكائنات ، أو هو كائن له عظمته وكماله الاعلى الـذى يشمل كل الدرجات ، هذه هى فكرة الله • وهذا هو الآن كيف ينتج الوجود عن هذه الفكرة أن يوجد شىء أكثر من الا يوجـد أو الوجود يضيف درجة على العظمة أو الكمال وكما يعلن ديكارت الوجود هو نفسه الكمال• اذن هذه الدرجة من العظمة والكمال أو هذا الكمال الذى يتكون فـى الوجود يكون فى هذا الكائن ساميا وكبيرا وكاملا • وأى درجة نقص فى كماله يتعارض مع تعريفه وبالتالى هذا الكائن السامى موجود • المدرسيون •

بما فيهم أستاذهم القديس توما احتقروا هذا الدليل واعتبروه استدلالا زائفا ؛ وهم فى ذلك مخطئين تماما • وديكارت الذى درس مدة طويلة الفلسفة المدرسية فى كلية الجيزوميت فى لافليش ، كان محقا تماما فى اعادة تقريره • أنه ليس بالاستدلال الزائف ولكنه استدلال غير تام يفترض شيئا يجب أن نثبته ليصبح ذا وضوح رياضى ، من المفروض ضمنيا أن هذه الفكرة عن الكائن العظيم والكامل مسكنه ولا تتضمن تناقضا • لقد أضاف شيئا فعلا اذ أثبت أن افتراض أن الله ممكن تؤدى الى اثبات أنه موجودوهذه هى مميزات خاصة بالالوهية وحدها • فمن حقنا أن نفترض امكانية كل كائن وخاصة امكانية الله الى أن يثبت أحدنا العكس • أن هذا الدليل الميتافيزيقى يعطينا نتيجة اخلاقية مقنعة تقرر أنه وفق الحالة الحاضرة لمعارفنا يجب الحكم بأن الله يوجد ونتصرف بما يتفق مع ذلك • ولكن مازلنا نتمنى أن يكمل أناس ماهرون الاستدلال بقدر من الوضوح الرياضى وأعتقد أنى قلت فى هذا الصدد شيئا يمكن أن يكون مفيدا • دليل ديكارت الآخر والذى يسعى الى اثبات وجود الله لأن فكرته تكون فى أنفسنا ، ويجب أن تكون صادرة عن الاصل دليل أقل اقناعا • لأن أولا هذا الدليل يعيبه كما يعيب الدليل السابق أنه يفترض أنه يوجد فينا مثل هذه الفكرة ، أى الله ممكن • لأن ما يزعمه من أنه عندما نتحدث عن الله فأننا نعرف ما نقول وبالتالى لدينا عنه فكرة ، يعتبر علامة خادعة ، لأننا مثلا ، عندما نتحدث عن الحركة الآلية المستمرة فأننا نعرف ما نقول فى حين أن هذه الحركة مستحيلة ، ومن ثم لن نحصل على فكرة عنها الا فى الظاهر • ثانيا • هذا الدليل نفسه لا يثبت كفاية أن فكرة الله ، اذا حصلنا عليها ، يجب أن تصدر عن الاصل • ولكنى لا أريد أن أتوقف عندها حاليا • أنك تقول لى ياسيدى • أن معرفتنا للفكرة الفطرية عن الله لا تجيز لنا أن نشك فى امكان وجودها ؟ ولكنى لا أجيز هذا الشك الا بالنسبة لاستدلال قوى مؤسس على الفكرة وحدها ، ولأن من جهة أخرى ثقتنا قليلة فى الفكرة وفى وجود الله وأنت تذكر أنى أثبت كيف أن الافكار تكون فينا ، لا دائما بحيث ندركها ، وأنما دائما

بحيث يمكن أن نستدلها من أعماقها الخاصة وأن نجعلها قابلة للادراك •
وهذا أيضا ما أعتقده بالنسبة لفكرة الله • التى أتمسك بامكانها وللوجود الذى أثبت بأكثر من طريقة ان الانسجام الازلى أيضا يمدنا بوسـيلة جديدة صريحة • ومن جهة أخرى أعتقد أن كل الوسائل تقريبا التى استخدمت لاثبات وجود الله تكون جيدة ويمكن أن تخدمنا اذا اكملناهـا ولست من الرأى الذى يقول بوجوب اهمال الدليل الذى نستمده من نظـام الاشياء •

٩ ــ فيــلاليت :

ربما سيكون من المناسب أن تلح قليلا على هذا السـؤال هـل يمكن لكائن مفكر أن يأتى من كائن غير مفكر ومحروم من كل احساس ومعرفة كالمـادة •

١٠ ــ من الواضح أيضا أن جزءا من المـادة غير قادر على انتـاج شىء بنفسه وأن يمنح الحركة ، يجب اذن أما أن تكون حركته خالدة أو أن تكون قد طبعت فيه بواسطة كائن أقوى • عندما تكون هذه الحركة خالدة ستكون دائما غيرقادرة على التولد عن المعرفة • قسمها الى أكبر قدر تشاء من الاجزاء الصغيرة ولكى تجعلها روحية اعطيها كل الاشكال وكل الحركات التى تريدها ؛ أجعل منها كرة أو مكعبا أو مخروطا أو منشـورا • • • الـخ أبعـاده سـتكون ألف جـزء من الـ gry وهو ١٠/١ من الخط الذى يكون ١٠/١ من البوصة والتى تكون ١٠/١ من القدم الفلسفى الذى يكون ⅓ من بندول كل ذبذبة فيه فى مسافة ٤٥ درجة تساوى لحظة زمنية • هذه الذرة من المـادة مهما كانت صغيرة لن تؤثر بوجه آخر على الأجسـام الأخرى ذات الاحجام التى تناسبها الا كما تؤثر الاجسام التى طولها بوصة أو قدم بعضها على بعض • ويمكن أن نتعشم ، ولناعذرنا أنها تولد الاحساس ، الافكار ، المعرفة وذلك عندما نربط معا أجزاء ضخمة من المـادة ذات أشكال معينة وحركات معينة أكثر مما ينتج من ربطها بأجزاء أصغر من المـادة الموجودة فى

العالم • هذه الأخيرة تتصادم ، تتدافع ، وتتقاوم أحدهما الأخرى تمـاما كالاجزاء الضخمة هذا كل ما يمكنها فعله • ولكن اذا استطاعت المـادة أن تستمد من داخلها الاحساس ، الادراك والمعرفة مباشرة وبدون آلة أو بدون مساعدة الاشكال والحركات ، فى هذه الحالة يجب أن نحصـل على خاصية غير قابلة للانفصال للمادة ولكل أجزائها • يمكن أن نضيف الى ذلك أن الفكرة العامة والنوعية التى لدينا عن المـادة تدفعنا الى الكلام عنها كما لو أنها شىء وحيد فى العدد ، مع ذلك ليست المـادة أساسا شيئا فرديا يوجد كأنه كائن مادى أو جسم مفرد نعرفه أو يمكن أن ندركه • بحيث اذا كانت المـادة أول كائن خالد مفكر ، فلن يوجد كائن وحيد خالد ، لا نهائى ، ومفكر ولكن عددا لا نهائيا من الكائنات الخـالدة، وأفكارها متميزة وبالتالى لن تستطيع أبدا انتاج هذا النظام ، هـذا التناسق وهذا الجمال الذى نلاحظه فى الطبيعة • من هذا ينتج ضرورة أن المـادة لن تكون أول كائن خالد • أتعشم أن تكون راضيا ، ياسيدى، من هذا البرهان المأخوذ من المؤلف المشهور للاستدلال السابق الذى لم يظهر الوجود من استدلاله •

تيوفيـــــــل :

أجد أن هذا البرهان هو الاقوى فى العالم ، وليس فقط دقيق ولكن أيضا عميق وجدير بمؤلفه أيضا أنى متفق تماما معه فى أنه لا يوجد مطلقا ارتباط أو تعديل لاجزاء المـادة ، مهما كانت صغيرة ، يمكنهـا أن تنتج ادراك بقدر ما تعجز الاجزاء الضخمة (وذلك نعرفه بوضوح) وأن كل شىء يحدث فى الاجزاء الصغيرة يكون متناسبا اذا قورن بما يمكن أن يحدث فى الاجزاء الكبرى ، أنها كذلك ملاحظة هامة تخص المـادة ، تلك التى يذكرها مؤلفك هنا ، وهو أنه يجب الا نعتبرها شيئا وحيدا فى العدد أو (كما هى عادتى فى الحديث) على أنها وحـدة عنصرية حقيقية أو وحدة ما دامت ليست سوى تكتل من عدد لا نهائى من الكائنات • أن هذا المؤلف الممتاز يلزمه خطوة واحدة فقط ليصـل

الى مذهبى أنى ، فى الواقع ، أعطى الادراك لكل هذه الكائنات اللانهائية التى يشبه كل واحدة منها حيوانا مزودا بالروح (أو بمبدأ نشط مشابه يجعل منها وحدة حقيقية) بالاضافة الى ما يحتاجه هذا الكائن ليكون منفعلا ومزودا وموهوبا بجسد عضوى • الآن هذه الكائنات تستمد طبيعتها الايجابية والسلبية على السواء (أى ما يجعلها لا مادية ومادية) من سبب عام وأعلى ، لأنه اذا لم يكن الأمر ، كذلك ، كما يلاحظ مؤلفك جيدا ،ولكونها مستقلة بعضها عن البعض فلن يمكنها أبدا انتاج هذا النظام ، هذا الانسجام ، هذا الجمال الذى نلاحظه فى الطبيعة • ولكن هذا الدليل الذى يبدو يقينا اخلاقيا قد اندفع الى ضرورة ما وراء طبيعية تماما بفضل النوع الجديد من الانسجام الذى قدمته • وهو الانسجام الأزلى • لأن كل روح من هذه الأرواح تعبر بطريقتها عما يحدث خارجها ولا يمكنها أن تؤثر على الكائنات الجزئية الأخرى ، أو بالأحرى ؛ يلزمها أن تستمد هذا التعبير من أعماق طبيعتها ؛ يجب بالضرورة أن تستمد كل واحدة منها هذه الطبيعة (أو هذا السبب الداخلى للتعبيرات عما يكون فى الخارج) من سبب كلى تعتمد عليه كل هذه الكائنات ، ويجعل كل واحدة منها تتفق تماما وتتصل بالاخرى ، مما لا يحدث بدون معرفة وقدرة لا نهائية ، وبراعة عظمى تفوق القبول الآلى التلقائى لافعال الروح العاقلة ، مما دفع مؤلف مشهور الى ذكر اعتراضات ضدها فى معجمه « المدهش » حيث كاد أن نشك فى أن حالة هذه الأشياء تجاوز كل حكمة ممكنة ، فقال أن حكمة الله لا تبدو له مطلقا عظيمة جدا بحيث ينتج مثل هذا الأثر ، واعترف على الاقل بأنه لم يحدث لأحد مطلقا أن قدم مثل هذا الوضوح الذى يمكن أن نمتلكه عن الكمال الالهى •

فيلاليت :

١٢ — يعجبنى اتفاق آرائك مع آراء مؤلفى وأتمنى الا يغضبك يا سيدى ، أن انقل اليك ما تبقى من مناقشة لهذا الموضوع أولا ، فحص •

هل يكون الكائن المفكر الذى تعتمد علية الكائنات الأخرى العاقلة (ومن باب أولى كل الكائنات الأخرى) ماديا أم لا ؟

١٣ ــ أنه يعترض على امكان أن يكون الكائن المفكر ماديا ولكنه يجيب أنه عندما يكون ذلك فأنه يكون كائنا خالدا له علم وقــدرة لا نهائية . علاوة على ذلك ، اذا أمكن فصل الفكر عن المــادة ، فلن يكون الوجود الابدى للمــادة نتيجة للوجود الأبدى لكائن مفكر .

١٤ ــ أننا سنسأل أولئك الذين يجعلون الله ماديا هل يعتقدون أن كل جزء من المــادة مفكر ؟ فى هذه الحالة سننتج أنه ستوجد من الآلهة بقدر أجزاء المــادة . ولكن اذا لم يفكر أى جزء من المــادة ، فاننا حينئذ سنكون بصدد كائن مفكر مركب من أجزاء ليســت مفكــرة ، وقد رفضنا هذا فعلا .

١٥ ــ أنه اذا كانت بعض الذرات من المــادة تفكر فقط والاجزاء الاخرى حتى وان كانت خالدة أيضا ، لا تفكر أبدا ، فان هذا يعنــى القول أن جزءا من المــادة يعلو الى ما لا نهاية الجزء الآخر وينتــج الكائنات المفكرة غير الخالــدة .

١٦ ــ انه اذا أردنا أن يكون الكائن المفكر الخالد والمــادى تكتلا معينا من المــادة أجزاءهــا ليست مفكرة ، فأننا نقع فيما رفضناه : لأن أجزاء المــادة وقد أحسن ربطها فلن تعطى سوى علاقة محلية جديدة لا يمكن أن نزودها بالمعرفة .

١٧ ــ لا يهم أن يكون هذا التكتل متحركا أو ساكنا . اذا كــان ساكنا فلن يكون سوى كتلة بدون فعل ، لا تمتاز عن الذرة ، واذا كــان متحركا فان الحركة التى تميزه عن الاجزاء الأخرى يجب أن تنتج الفكر وستكون أفكارا عرضية ومحدوده ، كل جزء على حدة ، لكونه بدون أفكار ولا يملك ما ينظم حركته وهكذا ، لا يملك من الحرية ولا الاختيار ولا الحكمة أكثر مما ينبغى أن يكون فى المــادة البسيطة الخام .

١٨ ــ يعتقد البعض أن المــادة تكون على الاقل خالدة مع الله ولكنهم لا يفسرون لماذا يكون انتاج الكائن المفكر ، الذى يقبلونه ، أصعب من انتاج المــادة التى تكون أقل كمالا • وربما (يقول المؤلف) اذا أردنا أن نبتعدقليلا عن الافكار العامة ، فأن ما يمكن أن نصل اليه هو تصور ، أى ادراك ولو بطريقة غير كاملة ، كيف يمكن أن تصنع المــادة وكيف بدأت الوجود بواسطة قدرة هذا الكائن الأول الخالد • ولكن ستري فى نفس الوقت أن من الصعب أن نفهم أن اعطاء الوجود لذهن سيكون نتيجة لهذه القدرة الخالدة اللانهائية • يضيف أن ذلك قد يبعده كثيرا عن الافكار التى تقوم عليها الفلسفة حاليا فى العالم • فلن يكون لدى العذر اذا ابتعدت كثيرا : وبحثت بقدر ما تسمح به القواعد اللغوية ، هل الرأى المقرر يتعارض فى أعماقه مع هذا الاحساس الخاص ؟ أقول أنى سأكون مخطئا أن اشتركت فى هذه المناقشة خاصة فى هذا المكان من الارض حيث تتفق النظرية السائدة مع قصدى ، ما دامت تفترض كشىء لا مجــال للشك فيه ، أنه اذا ماقبلنا أن الخلق أو البدء لجوهر أيا كان ، يشتق من العدم ، فمن الممكن افتراض بنفس السهولة خلق أى جوهر آخر ما عدا الخالق نفسه •

تيوفيــــــل :

لقد أسعدتنى ياسيدى بأن نقلت الى جانبا من فكر مؤلفك الماهــر الذى حالت فطنته المترددة دون أن يتمه • وستكون خسارتنا كبيرة اذا حذفها وتركنا هكذا بعد أن أوصل المــاء الى فمنا • وأوكد لك ياسيدى أنى أعتقد أن هناك شيئا جميلا وهاما يكمنوراءهذه الطريقة الغامضة[1] أن كلمة الجوهر بالحروف الكبيرة تجعلنا نظن أنه يتصور انتاج المــادة بنفس طريقة انتاج الأغراض والتى لا نجد صعوبة فى اشتقاقها من العــدم ، وقد ميزه فكره الفريد عن الفلسفة السائدة حاليا فى العالم ، أو فى هذا المكان من الأرض،ولا أعرف هل وضع فى اعتبارهالافلاطونيين الذين يعتبرون المــادة كشىء هارب وعابر يشبه الاعراض ، والذين لديهم فكرة مختلفة تماما عن العقول والأرواح •

فيـــــــــلاليت :

أخيرا اذا أنكر البعض الخلق ، الذى بفضله تكون الاشياء من لا شئ وذلك لأنهم لم يستطيعو ادراكه ، فان مؤلفنا ، قد كتب ، قبـــل أن يعرف اكتشافك الخاص بوحدة الروح بالجسد ، معترضا عليهم لانهم لم يفهموا كيف نتجت الحركات الارادية فى الاجسام بارادة الروح ، لأنهم رفضوا تصديقه مقتنعين بالتجربة ، كما يرد على الذين بجيبون أن الروح لا تستطيع انتاج حركة جديدة وأنها تنتج فقط تحديدا جديدا للارواح الحيوانية ، أقول أنه يرد عليهم بأن كلاهما مما لا يمكن ادراكه ، وليس هناك أفضل من القول الذى يضيفه بهذه المناسبة : بأن ارادة حصر ما يمكن أن يفعله الله، فى ذلك الذى نستطيع فهمه ، يعنى أننا نعطى امتدادا لا نهائيا لفهمنا أو نجعل الله نفسه نهائيا •

تيوفيـــــــــل :

بالرغم من القضاء على مشكلة اتحاد الروح بالجسد فى نظرى ، ما زال هناك بقية ، لقد أظهرتبعديا بالانسجام الأزلى أن كل الوحدات الحقيقية قد استمدت أصلها من الله وتعتمد عليه ومع ذلك لا أحد يستطيع فهم الكيفية التفصيلية ، وفى الاصل الاحتفاظ بها ليس سوى خلقـــا مستمرا كما عرف المدرسيون بوضوح تام •

---

(١) القديس أنسلم : فيلسوف مشهور ولاهوتى فى العصر الوســيط ولد عام ١٠٣٣ فى أوستن وتوفى عام ١١٠٩ مشهور بوجه خاص باختراع دليلة المشهور على وجود الله كتابيه الفلسفيين هما :
le proslogium le monologium
وتوجد عدة طبعات كاملة لاعماله . . . عـــام ١٤٩١ nurenberg
باريس ١٥٧٥ (نشرة D. Gerberon) اعيد طبعها عام ١٧٢١، عام ١٧٤١ فى (Vénise) مجلد واحد .

(٢) بايل فى مقـــاله (Rorarius

(٣) لقد شرحها م . كوست (Coste) اعتمادا على ما ذكـــره المواطن نيوتن فى الملاحظة الثانية من الفقرة ١٨ من هذا الفصل طبعة لوك بامستردام عام ١٧٥٥ ص ٥٢٣ .

الفصـــل الحـــادى عشر

المعرفة التى لدينا من وجود الاشياء الاخرى

فيـــــــــلاليت :

١ ـ. نظرا لما لوجود الله من ارتباط ضرورى بوجودنا فأن أفكارنا التى يمكن أن نحصل عليها عنشىء ما لن نثبت وجود هذا الشىء ، بأكثر مما يمكن أن يثبت رسم الانسان وجوده فى العالم •

٢ ــ ومع ذلك يقينى من وجود الأبيض والاسود على هذه الورقة عن طريق الاحساس يساوى يقينى من حركة يدى التى لا تخضع الا لمعرفة وجودنا ولوجود الله •

٣ ــ هذا اليقين يستحق اسم المعرفة ، لأنى لا أعتقد أن يكـــون الشخص أرتيابيا لدرجة أن يصبح غير متأكد من وجود الأشياء التـــى يراها والتى يحسها ، على الاقل ، ذلك الذى يستطيع أن يتمادى فى شكه بعيدا ، لن يختلف معى مادام لن يستطيع أبدا أن يتأكد أنى أقول ما يمكن أن يكون ضد شعوره •

٤ ــ أدراك الأشياء الحسية ينتجها أسباب خارجية تؤثر فـــى حواسنا ، لأننا لن نكتسب أبدا هذه الادراكات بدون الأعضاء ، واذا كانت الأعضاء كافية فانها ستنتجها باستمرار •

٥ ــ بالاضافة الىذلك ، أثبت أحيانا أنى لن أتمكن من أن أعـــوق ظهورها فى ذهنى ، كالضوء مثلا عندما أفتح عينى فى مكان ينفذ اليـــه ضوء النهار ، بدلا منقدرتى التخلى عن الافكار الموجودة فى ذاكرتى يجب اذن أن يوجد سبب خارجى لهذا الانطباع الحى ، الذى لا أستطيع تخطى أثره •

٦ ــ بعض من الادراكات يصاحب ظهورها ألم ، حتى وأن تذكرناها بعد ذلك دون أن نشعر بأقل ضيق ، وكما أن الاستدلالات الرياضية لا تعتمد أبدا على الحواس ومع ذلك كثيرا ما نستخدمها فى اثبات وضوح رؤيتنا ، ويبدو أنها تعطينا يقينا يقترب من يقين الاستدلال نفسه •

٧ ــ أيضا ، حواسنا فى كثير من الحالات يشهد بعضها على بعض من يرى النار يستطيع أن يحس بها ، اذا شك فيها • وعندما أكتب هذا، أرى أنى استطيع تغيير مظاهر الورق ، وأقول مقدما ، أى فكرة جديدة ستعرض لذهنى ، ولكن عندما أخط هذه الحروف ، لن أستطيع مطلقا تجنب رؤيتها على ما هى عليه ، علاوة على أن رؤية هذه الحروف ستجعل أى شخص آخر ينطق بنفس الأصوات •

٨ ــ اذا اعتقد شخص ما أن كل هذا ليس سوى حلم طويل ، وأنه يستطيع أن يحلم اذا كان هذا يعجبه ، أنى أقدم له هذه الاجابة ، أن يقيننا المؤسس علىشهادة الحواس يكون كاملا بقدر ما تسمح به طبيعتنا ، وبقدر ما تتطلبه حالتنا •

ذلك الذى يرى اشتعال الشمعة ويتحقق من حرارة اللهب الذى سيؤذيه اذا لم يسحب أصبعه ، لن يطلب يقينا أكثر من ذلك ، لكى ينظم فعله ، واذا لم يفعل ذلك ، استيقظ • مثل هذا اليقين يكفينا اذن، وهو يشبه اللذة والالام وهما أمران لا يوجد أى اهتمام آخر يتجاوزهما فى معرفة أو وجود الأشياء •

٩ ــ ولكن اذا تجاوزنا احساساتنا الحالية فلن توجد معرفة ، وكل ماهنالك أمور محتمة تشبه اعتقادى فى وجود البشر فى العالم معأنى لا أرى أى واحد منهم الآن أثناء جلوسى وحدى فى مكتبى •

١٠ ــ كذلك ، أليس من الجنون أن أتوقع اثبات كل شىء والا

أعمل وفق الحقائق الواضحة المتميزة عندما لاتكون قابلة للاثبات • ذلك الذى يريد أن يستخدمها هكذا ، لن يستطيع التأكد من أى شئ آخر سوى أنه يهلك فى أقل وقت ممكن •

تيوفيـــــــل :

لقد لاحظت فعلا فى حوارنا السابق أن حقيقة الأشياء الحية يبررها ارتباطها الذى يعتمد على حقائق ذهنية قائمة فى الذهن ، وملاحظـات مستقرة فى الاشياء الحية نفسها ، حتى ولو لم تظهر الأسباب • وحيـث أن هذه الاسباب والملاحظات تمدنا بوسيلة للتنبؤ فى المستقبل فى ضوء هدفنا • وإذا نجح حكمنا المعقول ، فأننا لا نستطيع المطالبة : بل ولن نحصل على يقين أكبر بالنسبة لهذه الاشياء • وكذلك يمكن تبرير الاحلام وارتباطها القليل بالظواهر الأخرى • ومع ذلك اعتقد أن من الممكن أن نتجاوز ما نسميه معرفة أو يقين الاحساسات الحالية ، ما دام الوضوح والتميز يذهبان أبعد ، وهذا اعتبره نوعا من اليقين • وسيكون بدون شك من العبث أن نشك فى وجود بشر فى العالم ما دمنا لا نراهم • الشك الجاد هو ذلك الذى يتصل بالممارسة ، ومن الممكن اعتبار اليقين معرفة للحقيقة ، يكون شكنا فى ممارستنا نوعا من العبث ، وأحيانا نعتبرهـا بصورة أعم ونطبقها على الحالات التى شكنا فيها يعرضنا للوم الشديد : ولكن الوضوح سيكون يقينـا مضيئا ، أن الذى لا نشك فيه مطلقا بسبب الرابطة التى نراها بين الافكار وفق هذا التعريف لليقين نصبح واثقـين من أن القسطنطينية موجودة فى العالم ، وأن كلا من قسطنطين والاسكندر الاكبر ويوليوس قيصر قد عاشوا • حقا قد يجوز لبعض فلاحى أردنز Ardennes أن يشكوا فيها لنقص معلوماتهم ، ولكن لا يمكن للرجل المثقف أو الرجل المجتمع أن يفعل ذلك دون أن يتعرض لاضطراب فى الذهن •

فيـــــــلاليت :

١١ ــ حقا أننا واثقون تماما من تذكر كثيرا من الاشياء الماضية ولكن لن نستطيع الحكم هل ما زالت باقية ؟ بالأمس رأيت ماء وعددا من الألوان الجميلة على الزجاجات والتى انعكست على هذا المـــاء أما الآن فأنى متأكد من وجود هذه الزجاجات وهذا المـــاء ولكنى لم أعد أعرف بيقين الوجود الحاضر لكل من المـــاء والزجاجات وأن كان ما زالا من المحتمل تماما لأننا لاحظنا أن المـــاء باقية فى حين اختفت الزجاجات •

١٢ ــ أخيرا ، باستثناء أنفسنا والله لن نعرف الأرواح الأخـــرى الا بالوحى ولا نملك بصددها سوى يقين الايمان •

تيوفيـــــــل :

من الملاحظ فعلا أن ذاكرتنا تخدعنا أحيانا ، وقد تضيف اليهـــا الايمـــان أو لا تضـــيفه ، حسب قـــوة أو ضعف حيويتها ؛ وحسب ارتباطها أكثر أو أقل بالاشياء التى نعرفها ، وحتى عندما نثق فى المبدأ ، قد نشك أحيانا فى الملابسات • أتذكر أنى عرفت شخصا معينا ، لأنى أحس أن صورته ليست جديدة بالنسبة لى ، وكذلك صوته ، ومع أن هذه العلاقة المزدوجة تعتبر ضمانا أكثر من أحداهما فقط ، الا انى لا أستطيع تذكر أين رأيته ومع ذلك ، قد يحدث ، وأن كان نادرا ، أن نرى شخصا فى حلم قبل أن نراه بلحمه وعظمه وقد أكد لى البعض أن آنسة فى بلاط معروف رأت فى الحلم ، ووصفت لأصدقائها ، الشخص الذى ستتزوجه والصالة التى ستقام بها الحفلات ، وكل ذلك قبل أن تكون قد عرفت أو رأت الشخص أو المكان • وقد يرجع الناس هذا الامر الى احساس خفى سابق ، ولكن الصدفة أيضا قد تنتج مثل هذا الاثر وأن كان من النـــادر أن يحدث هذا • علاوة على أن صور الاحلام من الغموض بحيث لا نملك الحرية فى ردها الى غيرها فيما بعد •

فيـــــــلاليت :

١٣ ـ لنستنتج اذن وجود نوعين من القضايا : قضايا جزئيـــة تتصل بالوجود مثل « الفيل موجود » والاخرى عامة تخص اعتمـــاد الافكار مثل « طاعة الله واجبة على البشر » •

١٤ ـ معظم هذه القضايا العامة واليقينية تسمى حقـــائق خالدة هى كذلك فى الواقع ، أن الامر لا يتطلب أن تكون قضايا مشـــكلة حاليا فى مكان ما منذ زمان بعيد ، أو أن تكون محفورة فى الذهن وفق نموذج يوجد باستمرار ، ولكن لأننا متأكدين من أن أى مخلوق مزود بالملكات والوسائل اللازمة سيطبق هذه التصورات عند اعتباره لافكاره وســـيجد حقيقة هذه القضايا •

تيوفيـــــــل :

تقسيمك يبدو أنه يرجع الى تقسيمى القضايا الى : قضايا الواقع وقضايا العقل ، قضايا الواقع ، يمكن أن تصبح عامة ، بطريقة ما ولكن بواسطة الاستقرار أو الملاحظة بحيث لا تكون سوى كثرة من وقائـــع متشابهه ، مثلما عندما نلاحظ أن كل زئبق يتبخر بقـــوة النار ، وهـــذا ليس بعمومية كاملة لأننا لا نرى مطلقا الضرورة • القضايا العامـــة للعقل تكون ضرورية ، مع أن العقل يزودنا أيضا بقضايا لا تكون عامـــة تماماولا تكون سوى محتملة مثل عندما نقرر أن فكرة ما ممكنة الى أن نكشف عكسها ببحث أكثر دقة • هناك أخيرا قضايا مختلطة مشتقة من مقدمات بعضها يأتى من الوقائع والملاحظات والأخرى تكون قضايا ضرورية • وهى تعبر عن عدد من النتائج الجغرافية والفلكية الخاصـــة بالكرة الأرضية ومسار النجوم ، التى تتولد بالربط بين ملاحظـــات المسافرين وعلماء الفلك والنظريات الهندسية والحساب • ولكن حســـب ما يرى المنطق ، ونظرا لأن النتيجة تتبع أضعف المقدمات ، لن يكون لهـــا من اليقين أكثر مما لهذه المقدمات هذه القضايا المختلطة لن يكون لها من

اليقين والعمومية الا ما لهذه الملاحظات • بالنسبة للحقائق الخالـــدة يجب ملاحظة أنها فى أساسها تكون كلها شرطيه وتقول فى الواقع : اذا افترضنا هذا الشىء الآخر مثلا ، عندما أقول : كل شكل له ثلاثة جوانب فان هذا الشكل نفسه سيكون له ثلاثة زوايا أقول هذا ، مع أن القضايا الحملية التى يمكن اعلانها بدون شروط ، وأن كانت شرطية فى أساسها ، تختلف عن القضايا التى نسميها شرطية مثل هذه القضية « اذا كان لشكل ثلاثة جوانب فأن مجموع زواياه يساوى قائمتان فى هذه القضيـــة نرى أن المقدم (الشكل ذو الثلاث جوانب) والتالى (زواياه قائمتان) ليس لهما نفس الموضوع، كما كان فى الحالة السابقة التى كان المقـــــدم (الشكل ذو الثلاث جوانب) والتالى (الشكل ذو الثلاث زوايا) • ومع أن من الممكن أيضا تحويل القضية الشرطية الى قضية حملية وذلك بتغير قليل فى الحدود ، مثلا بدلا من القضية الشرطية السابقة أقول : زوايا كل شكل له ثلاث جوانب تكون مساوية لقائمتين « لقد ناقش المدرسون ما يسمونه constantia subjecti أى كيف يمكن أن يكون صدق القضية القائمة على موضـــوع ماخقيقيا ، اذا كان هذا الموضوع غير موجود • أن الحقيقة لا تكون سوى شرطية • بحيث عندما يوجد الموضوع سنحده كذلك • وقد يسأل البعض أيضا على أى أساس يقوم هذا الارتباط ، ما دامت الحقيقة التى فى داخله لا تخدع ؟

ستكون الاجابة : أنها تكون فى علاقة الافكار • ولكن قد يســـأل البعض محتجا أين ستكون هذه الافكار ، اذا لم يوجد أى ذهن ؟ وماذا سيصبح الأساس الحقيقى ليقين الحقائق الخالدة ؟

هذا يؤدى بنا الى الاساس الأخير للحقائق ، أى الى هذا الذهـــن السامى الكلى الذى لا يمكن أن ينقصه الوجود ، والذى يضم مملكـــة الحقائق الخالدة ، كما عرف ذلك القديس أوغسطين وعبر عنه بطريقـــة كلها حيوية وحتى لا يظن أحد أنه ليس من الضرورى أن نلجأ اليه ، يجب أن نعتبر هذه الحقائق الضرورية العلة التى تحدد المبدأ المنظم للموجودات

نفسها • وبالاجمال هى قوانين الكون ومع هذا . هذه الحقائق الضرورية لانها سابقة على وجودات الكائنات العرضية . يجب أن تكون مؤسسة فى جوهر ضرورى فيه أجد أصل الأفكار والحقائق المحفورة فى نفوسنا، ليس فى صورة قضايا وانما كمصادر تطبيقها وموضوعاتها ستولد الاعراض الحالية •



الفصــل الثانى عشر

وســائل زيــادة معارفنــا

فيـــــــلاليت :

١ ـ لقد تحدثنا عن أنواع المعرفة التى لدينا • نصل الآن الــى وسائل زيادة المعرفة أو الحصول على الحقيقة • هناك اعتقاد ســائد بين العلماء أن البديهيات هى أسس كل معرفة • وأن كل علم جزئى يقــوم على أشياء معينة معروفة فعلا •

٢ ـ اعترف أن الرياضيات تبدو أنها تفضل هذا المنهج لنجاحه • وقد سبق لك أن اعتمدت عليه ، ولكن مازلنا نشك أيهما يساعد الطفــل الصغير فى معرفة أن جسمه أكبر من أصبعه :

هل هى الأفكار وارتباطاتها ؟ أم بديهية أو أكثر من البديهيات التى نفترضها منذ البداية ، مثل تلك التى تقرر أن الكل أكبر من الجزء ؟ لقــد بدأت المعرفة بالقضايا الجزئية ، ولكننا أردنا تخليص الذاكرة ، اعتمادا على الافكار العامة ، من كمية مزعجة من الافكار الجزئية • هل يمكن ، اذا كانت اللغة ناقصة وخالية من اللفظين : كل وجزء • أن نعرف الجســـم أكبر من الاصبع ؟ أعتقد أن ما ستقوله يتفق مع ما سبق أن ذكره مؤلفى من مبررات •

تيوفيـــــل :

لا أعرف لماذا يحاول البعض التعرض كثيرا للبديهيات ويهاجموها ؟ أنها مفيدة جدا طالما تستخدم فى تفريغ الذاكرة من عدد من الافكار الجزئية ، وكما هو معروف ، حتى اذا لم يكن لها أى استخدام آخر • وأضيف الآن أنها لن تتولد عنها مطلقا ، لأننا لا نحصل عليها بالاستقراء:

ذلك الذى يعرف أن العشرة أكثر من التسعة ، وأن الجسم أكبر من الاصبع ، وأن المنزل كبير بحيث نستطيع الهروب من الباب ، يعرف كل قضية من هذه القضايا الجزئية بناء على نفس السبب العام الذى أدمج فيه ، تماما كما نرى الخطوط مشبعة بالألوان ، بحيث تتشكل القضية أو المظهر أساسا من الخطوط أيا كان • اللون • هذا السبب العام هو البديهية نفسها المعروفة ضمنيا ، كما يقول ، وقد لا يكون كذلك فى بداية الأمر بطريقة مجردة ومنفصلة • الأمثلة تستمد حقيقتها من ابديهية المدمجة بها • البديهية ليس لها أساس فى الأمثلة ونظرا لأن هذا السبب العام لهذه الحقائق الجزئية يكون فى ذهن كل الناس ، يتضح جيدا أنها لاتحتاج لأن يكون لكلمتى كل وجزء وجود فى لغة ذلك الذى يتعمقها •

فيلاليت :

٤ ـ أليس من الخطر أن نسمح بالافتراضات بحجة أنها البديهيات ؟ قد يفترض أحدنا مع بعض القدماء ، أن كل شىء مادى ، ويفترض آخر مع بوليمون polémon أن العالم هو الله • ويؤكد ثالث أن الشمس هى المعبود الرئيسى ولك أن تحكم أى دينا ذلك الذى سنؤمن به اذا سلمنا بهذا الرأى • من الخطر حقا أن نقبل المبادىء دون أن نفحصها ، خاصة ، اذا كانت تهم الأخلاق ، لأن البعض يتوقع حياة أخرى تشبه تلك التى قال بها ارستيب Aristippe (الذى يرجع الجمال الى ملذات الجسد ، أكثر من تلك التى قال بها أنتيسيب) Antisthéne الذى يرجع سعادتنا الى الفضيلة وأرشيلوس Archélaus الذى قرر أن العدل والظلم ، الشرف أو الخيانة ، يحددها القانون وليست الطبيعة • سيكون لنا بدون شك مقاييس أخرى للخير والشر الاخلاقى ، خلاف أولئك الذين عرفوا الالتزامات السابقة على أى دستور بشرى •

٥ ـ يجب اذن أن تكون المبادىء يقينية •

٦ ـ ولكن ، هذا اليقين لا يأتى الا من المقارنة بين الافكار ، ومن

ثم نحن لانحتاج لمبادىء أخرى . تبعا لهده القاعدة وحدها سنذهب الى أبعد من اخضاع ذهننا لتقدير الآخرين •

تيوفيـــــــل :

أنى مندهش ياسيدى ، أنك تعارض البديهيات ، وترفض المبادىء الواضحة ، بما يمكن أن تعارض أو ترفض ما يمكن أن نسميه المبـــادىء الاعتباطية التى لا مبرز لها • عندما نطالب باستخدام المبادىء المعروفة مقدما ' praecognita ' فى العلوم أو المعارف التى تستخدم فى تأسيس العلم ، فاننا نطالب بمبادىء معروفة وليس بمواقف تعسفية لا نعـــرف حقيقتها مطلقا ، حتى أرسطو قد قصد ذلك ، أى أن تستمد العلوم الدنيا والفرعية مبادئها من علوم أخرى هى ما نسميها ما بعد الطبيعة والتى هى فى نظره لا تحتاج لشىء من العلوم الاخرى ، بل هى التى تمدهم بالمبادىء التى يحتاجونها • وعندما نقول « على الصبى أن يعتقد فى معلمه » فان ما نقصده هو أنه لا يجب أن يفعل ذلك الا مؤقتــا وما دام غير مزود بالعلوم العليا ، أى لا يكون ذلك الا احتياطيا • ومع هذا كثيرا ما يتحاشى المرء تقبل المبادىء الاعتباطية التى لا مبرز لها • ومن ثــم يجب أن نضيف أنه ، حتى المبادىء التى يقينها ليس كاملا ، يمكن أن يكون لها استخدامها ، اذا كنا لا نقيم بناءنا الا على الاستدلال ، لأنــه مهما كانت النتائج فهى فى هذه الحالة ليست سوى شرطية وان تكــون ذات قيمة ما لم نفترض صدق هذا المبدأ ، غير أن هذا الارتباط نفســه وايضاحاته الشرطية ستكون على الاقل مثبتة ، بحيث نتمنى تماما أن يكون لدينا العديد من الكتب المؤلفة بهذه الطريقة ، والتى لن يقع الطالب أو القارىء فى الخطأ ما دمنا أخبرناه بالشرط ، ولن تنظم الممارسة بنـــاء على هذه النتائج الا بقدر ما يتحقق الافتراض فى موضع آخر • هــذا المنهج نفسه يستخدم أيضا فى تحقيق الفروض أو الافتراضات عندما يتولد عنه العديد من النتائج التى صدقها معروف فى مواضع أخرى ، وأحيانا يزودنا بالسبب الكافى لاثبات حقيقة الفرض • السيد كوترنج

Conring الطبيب المحترف،والمؤلف الممتاز فى جميع الموضوعات باستثناء الرياضيات ، كتب خطابا لصديق فى هلمسناد كان مهتما باعادة طبع كتاب فيوتوس Viottus الفيلسوف المشائى ، حاول فيه تفسير التحليلات لأرسطو • وقد أرفق الكتاب بالخطاب الذى تعرض فيه كونرنج لقول بابوس Pappus « ان التحليل يفترض اكتشاف المجهول بأن يفترضه ويصل بذلك الى حقائق معروفة ، وهذا لا يتفق مع المنطق (على حد قوله) الذى يعلمنا أنه لا يمكن أن نستنتج الحقائق من المغالطات ولكنى عرفته بعد ذلك أن التحليل يستخدم التعريفات والقضايا العكسية ، التى تزودنا بالوسيلة للرد والحصول على الاستدلالات التركيبية ، وحتى عندما لا يكون هذا الرد استدلاليا ، كما فى الفيزياء ، فلا يفوته أحيانا احتمال الصدق ، عندما يفسر الفرض بسهوله العديد من الظواهر التى تصعب بدونه ، وتكون مستقلة تماما بعضها عن بعض أنى أؤيد ، ياسيدى ، الحقيقة التى تقرر أن مبدأ المبادىء هو حسن الاستخدام للافكار والتجارب • ولكن عندما نتعمقها سنجد أنه بالنسبة للافكار هذا لن يكون سوى ربط التعريفات بواسطة البديهيات الذاتية ، ومع ذلك ليس بالامر السهل دائما أن نصل الى هذا التحليل الأخير • ومهما كانت رغبة علماء الهندسة والقدماء التى على الأقل ، قد تشهد بأنهم سعوا الى أن يصلوا الى النهاية ، فأنهم لم يستطيعوا ذلك ويسعدهم أن يتمكن المؤلف المشهور للبحث الخاص بالفهم الانسانى من اتمام هذا البحث الاصعب بكثير مما نظن • لقد وضع أقليدس مثلا البديهية التى تقول : « ان الخطين المستقيمين لا يستطيعا أن يتقابلا الا مرة واحدة فقط » • الخيال ، معتمدا على خبرة الحواس ، لا يسمح لنا بأن نتخيل أكثر من لقاء واحد للخطين المستقيمين • العلم لا يمكن أن يؤسس هكذا ، واذا اعتقد شخص ما أن الخيال هذا يعطى ارتباطات للافكار المميزة فلن يكون على علم كافى بمصدر الحقائق ، وكمية القضايا التى يمكن اثباتها بأخرى تسبقها وبالتالى تصبح فى نقطة مباشرة • وهذا ما لم يلاحظه كثير من الذين يرددون أقوال أقليدس هذه الأنواع عن الصور

ليست سوى أفكارا غامضة • ومن لا يعرف الخط المستقيم الا بهـــذه الطريقة لن يستطيع أبدا أن يستدل منه شيئا • لهذا اضطر اقليدس ، لأنه ينقصه الفكرة المعبرة عنها بوضوح ، الى تعريف الخط المستقيم (لأن ما يقدمه مؤقتا كان غامضا • ولا يساعده فى الاستدلالات) بـأن يرجعه الى بديهيتين أعتبرهما تعريفا واستخدمهما فى استدلالاته،احدهما أن الخطين المستقيمين ليس لهما أى جزء مشترك،الأخرى أنهما لا يشغلان فراغا • قدم ارشميدس طريقة لتعريف الخط المستقيم بقوله أنـه الخط الاقصر بين نقطتين ، ولكنه يفترض ضمنيا (باستخدامه فـى الاستدلالات عنـاصر مثل تلك التى استخدمها أقليدس المؤسسة على البديهيتين اللتين ذكرتهما) أن التأثيرات التى تتحدث عنها هـذه البديهيات تناسب الخط الذى يحدده • وعلى هذا اذا أعتقدت مع أصدقائك ، بحجة ملاءمة أو عدم ملاءمة الافكار ، أنه كان من المسموح به وما زال أن نقبل فى الهندسة ما يمكن أن يقوله لنا الخيال دون أن نبحث عن دقة الاستدلال بواسطة التعريف والبديهيات التى قـررها القدماء فى هذا العلم (هذا على ما أعتقد ، ما يعتبره العديد من النـاس نقصا فى المعلومات) فأنى أعترف لك يا سيدى أن من الممكن ان يرضى ذلك أولئك الذين يهتمون بالهندسة العملية كما هى ، وليس أولئـك الذين يريدون الحصول على العلم الذى يكمل الممارسة • واذا كان القدماء من هذا الرأى وتساهلوا فى هذه النقطة فانى أعتقد أنه لم يكن من الممكن لهم أن يتقدموا ولم يتركوا لنا سوى هندسة عملية تشبه هندسـة المصريين أو تلك التى ما زالت عليها هندسة الصينيين : هذا ما سيحرمنـا من كثير من المعارف الفيزيقية والميكانيكية التى ساعدت الهندسة علـى اكتشافها والتى ما زالت مجهولة لدى كل من يجعل هندستنا • هنـاك كذلك ما يظهر أن اتباع الحواس والصور الخيالية ،يوقعنا فى الاخطـاء تقريبا كما نرى أن كل من لم يتثقف بالهندسة الدقيقة ، معتمدة على الايمان الخيالى ، لن يشك مطلقا فى أن الخطين الذين يقتربان باستمرار بعضهما من بعض يجب أن يتلاقيا فى النهاية ، فى حين يقـدم علماء

الهندسة أمثلة معارضة فى خطوط معينة يسموها الخطوط المتقاربة Asymptotes ولكن علاوة على ذلك سنحرم مما أعتبره الاجدر بالتأمل فى الهندسة ، أى ذلك الذى يجعلنا نلمح المصدر الحقيقى للحقائق الخالدة والوسيلة التى تجعلنا نفهم ضرورتها ، وهذا ما لا يمكن للافكار الغامضة أن تجعلنا نراه بوضوح • قد تقول لى أن أقليدس اضطر طبعا لأن ينحصر فى بديهيات معينة لا نرى وضوحها الا عن طريق الصور الخيالية ، واعترف لشأنه انحصر فى هذه البديهيات ، ولكن من الافضل أن ينحصر فى عدد قليل من الحقائق لها هذه الطبيعة التى تبدو الابسط وأن نستدل منها غيرها ، مما هو أقل منها أهمية ، يقينا أن نترك للناس حرية بسط تكاسلهم حسب مزاجهم • انك ترى اذن يا سيدى أن ماقلته أنت وأصدقائك بالنسبة لعلاقة الافكار باعتبارها المصدر الحقيقى للحقائق فى حاجة الى تفسير • اذا أردت الاكتفاء بأن ترى بغموض هذا الارتباط فانك تضعف دقة الاستدلالات ، وقد أحسن أقليدس عندما أخضع كل شىء للتعريفات ولعدد قليل من البديهيات ، وأنه اذا أردت أن تظهر هذا الارتباط بين الافكار وان تعبر عنه بوضوح ستضطر الى اللجوء الى التعريفات والبديهيات الذاتية ، كما أطالب ، وستضطر أحيانا الى أن تكتفى ببعض البديهيات أقل أولية كما فعل أقليدس وأرشميدس عندما تجد صعوبة فى الوصول الى تحليل كامل ، وسيكون ذلك أفضل من أن تهمل أو تعدل عن بعض الاكتشافات الجميلة التى يمكن أن توصلنا اليها وكما قلت لك من قبل ياسيدى أنى أعتقد أننا ماكنا نحصل على هندسة (أقصد العلم الاستدلالى) اذا لم يكن قد رغب القدماء فى التقدم ولم يتوقفوا الى أن يثبتوا البديهات التى اضطروا الى استخدامها •

فيلاليت :

بدأت أفهم ما هو ارتباط الافكار المعروفة معرفة متميزة • وأرى جيدا أن هذه الطريقة تجعل البديهيات ضرورية وأرى أيضا بالنسبة للمنهج الذى نستخدمه فى أبحاثنا عندما نفحص الأفكار ، كيف يجب أن

يكون على نمط الرياضيات الذى يصعد بخطوات صغيرة وبتسلسل مستمر ابتداء من بدايات قطعية واضحة جدا وسهلة جدا (هى ليست سوى البديهيات والتعريفات) ليصل الى الاكتشاف والبرهنة على الحقائق التى تبدو ، من أول وهله أنها تفوق طاقة الانسان • فن الحصول على الادلة والمناهج المدهشة التى اخترعها لتوضيح وتنظيم الافكار المتوسطة هو الذى أدى الى الاكتشافات المذهشة وغير المتوقعة — ولكن معرفة أنه وخاصة تلك التى تتصل بالاحجام ، وهذا ما أريد تحديده ، فان فحص بمرور الزمن لن نستطيع اختراع منهج مشابه يخدم الافكار الأخرى ، هذه الافكار الاخرى وفق مناهج الرياضيين العادية سيدفع أفكارنا الى أبعد بكثير مما يمكن أن نتصور •

٨ — وهذا يمكن أن يحدث مثلا فى الأخلاق ، كما سبق أن قلت أكثر من مــرة •

تيوفيـــــــل :

أعتقد أنك على حق ياسيدى وأنى على استعداد منذ زمن لأن أبدأ فى تحقيق تنبؤاتك •

فيــــــلاليت :

٩ — بالنســبة لمعرفة الأجسام يجب أن تتخذ طريقا عكسيا تماما لأننا لا نملك أى أفكار عن ماهيتها الحقيقية ، ومن ثم نضطر الى اللجوء الى التجربة •

١٠ — ومع ذلك لا أنكر أن الشخص الذى تعود على عمل التجارب المعقولة والمنظمة ، لن يكون قادرا على تشكيل التخمينات الدقيقة أكثــر من غيره نظرا لخصائصها المجهولة • ولكن هذا سيكون حكما ورأيا وليس بمعرفة ويقين • هذا يجعلنى أعتقد أن علم الطبيعة غير قادر على أن يصبح علما فى متناول أيدينا • ومع ذلك من الممكن أن تخدمنا التجــارب والملاحظات التاريخية بالنسبة لصحة أجسادنا ورفاهية الحياة •

تيوفيـــــــل :

مازالت متفقا معك فى أن علم الطبيعة لن يكون علما كاملا وفى متناول أيدينا ولكن هذا لا يمنع من امكان الحصول على علم طبيعة ، بـــل قـــد حصلنا فعلا ، على نماذج منه ، مثلا دراسة المغناطيسية يمكن أن تصبـــح هذا العلم ، لأنتابقليل من الافتراضات المدعمة بالتجارب أمكننا أن نثبت قدرا معينا من الظواهر التىتحدث متفقة تماما مع ما يقرره العقل ، لا يجب أن نأمل تبرير كل الخبرات ، حتى الهندسيات لم تثبت بعد كل بديهياتها، ولكنها أيضا تقنع باستدلال عدد كبير من النظريات بناء على عدد قليل من مبادىء العقل ، كذلك الأمر بالنسبة لعلماء الطبيعة ، يكفى أن يبرروا بواسطة بعض مبادىء التجربة قدرا من الظواهر وأن يعتمدوا عليها فى التنبؤ فى مجال الممارسة .

فيــــــلاليت :

اذن ، ما دامت ملكاتنا غير مهيأة لادراك البناء الداخلى للأجسام فلا بد من الحكم بأنه يكفى أن تكشف لنا وجود قدر من معارفنا عن أنفسنا وتعلمنا وآجبنا واهتمامنا الأكبر بالخلود . أعتقد أن من حقى أن استدل من ذلك أن «الاخلاق هو العلم الخالص والعمل الكبير للبشر بوجه عام ، كما استدل من جهة أخرى أن الفنون المختلفة التى تتصل بأجزاء مختلفة من الطبيعة تهتم بالجزئيات » ويمكن القول أن جهل أمريكـــا بكيفية استخدام الحديد قد أدى الى حرمانها من التمتع بالعديد من الخيرات التى تزودها بها الطبيعة . وعلى هذا فانى بعيد تماما عن احتقار علم الطبيعة .

١٢ — أنى أتمسك بأنه اذا أمكن توجيه هذه الدراسة كما يجب ، ففى امكانها أن تكون ذات نفع أكبر للجنس البشرى مما تم حتى الآن ، أن ذلك الذى اخترع المطبعة والذى اكتشف البوصلة والذى عرف فائدة الكينا ، قد ساهم أكثر فى انتشار المعرفة وتقدم الكماليات المفيدة

للحياة • وأنقذ الكثير من البشر مما فعل مؤسسى المدارس والمستشفيات وغـــيرها من المؤسسات ذات الرحمـــة الملحوظة والتى تكلفت الكثير فى تشـــييدها •

تيوفيـــــــل :

لا يمكن القل ، ياسيدى ، أكثر من هذا لكى ترضينى • أن الاخلاق الحقيقية والعناية تدفعنا الى تنمية الفنـــون ، بعيدا عن أى تشـــجيع كل أصحاب المذهب الطمأنينى quiétistes الخامل • وكما سبق أن قلت منذ قليل : السياسة الجيدة قادرة على أن توصلنا ذات يوم الى طـــب أفضـــل بكثير مما هو عليه الآن • هذا ما يمكن أن نوصى به بعد العنايـــة بالفضيلة •

فيـــــلاليت :

مع أنى أوصى بالتجربة فانى لا أحتقر الفروض المحتملة التـــى يمكنها أن توصلنا الى اكتشافات جديدة وهى على الاقل ذات سند كبير للذاكرة • ولكن قد يتسرع الذهن ويسلم ببعض المظاهر الخفيفة تجنبـــا للجهد والوقت اللازم لتطبيقهـــا على عدد من الظواهر •

تيوفيـــــــل :

فن اكتشاف أسباب الظواهر أو الفروض الحقيقية ، شأنه شـــأن فن حل الرموز ، غالبا ما يختصر أحد التخمينات العميقـــة ، لقـــد بدأ بيكون هذا الطريق بصياغة فن التجريب فى قواعد ، واستطاع الفارس « بويل » Boyle بمهارته أن يمارسه • ولكن اذا لم نربطه بفـــن استخدام التجربة فلن نصل ، ولو تكلفنا الكثير . الى مايمكن أن يصـــل اليه ، من أول وهله ، الرجل القادر على العمق • ذكر « ديكارت » ، الذى كان بالتأكيد هذا الرجل ، ملاحظة مشابهة فى احدى رسائله الخاصـــة بالمنهج الى كل من مستشار انجلترا وأسبينوزا (الذى لا أجد صعوبـــة فى ذكر ما يقوله من أشـــياء طيبة فى احدى رسائله الى المرحـــوم

أولدنبرج Oldenbourg سكرتير الجمعية الملكية فى انجلترا ــ والمنشورة ضمن أعمال هذا اليهودى الماهر التى نشرت بعد وفاته ، لقــد تعرض لفكرة قريبة وتتصل بعمل السيد بويل والتى ــ أقول الحق ــ تجعلنــا نكتفى بذكر ، من بين عدد لا حصر له من التجارب الجميلة ، المبدأ الذى يقرر « أن كل شىء يتم آليا فى الطبيعة » وهو مبدأ يمكن أن نتأكد منــه بالعقل وحده ، وليس بالتجارب مطلقا ، أيا كان عددها •

فيـــــــلاليت :

١٤ ــ بعد أن قررنا الأفكار الواضحة والمتميزة بأسماء ثابتة يصبح فن الحصول على الافكار المتوسطة ، هو الوسيلة الكبرى لنشر معارفنــا ورؤية الارتبــاط أو عــدم الاتفاق بين الأفكار النهائية • المســلمات لا يمكنها على الاقل أن تمدنا بها • لنفرض أن شـخصا ليس لديــه فكرة دقيقة عن الزاوية القائمة فانه سيضطرب عندما يحاول دون جــدوى اثبات أى شىء عن المثلث القائم الزاوية • وأيا كانت المسلمات التــى نستخدمها سنجد صعوبة فى الوصول بمساعدتها الى اثبات أن مربعات هذه الاضلاع التى تحتوى الزاوية القائمة تساوى مربع الوتر • يستطيع الانسان أن يقلب طويلا هــذه المسلمات على وجوهها دون أن يصل الى الوضوح فى مجال الرياضيات •

تيوفيـــــــل :

لن يفيد تقليب المسلمات على وجوهها ما لم نحصل على تطبيقاتهــا تستخدم المسلمات أحيانا فى ربط الافكار ، مثلا هذه المسلمة التى تقــول أن الامتدادات المتشابهة للبعدين الثانى والثالث تكون ضعف وثلاثة أمثال الامتدادات المتصلة بالبعد الأول • وهى ذات استخدام كبير فى تربيــع الدائرة الهلالية Lunule التى قام بهــا هيبوقراط ، أولا فى حالة الدوائر بأن نربط بها تطبيق أحدهذين الشكلين على الآخرحيث وضعهما المعطى يقرر الاتفاق فى حين تلقى عليها مقارنتهما المعروفة الأضواء •

الشـــــخصيات

(١) Aristippe : ولد فى Cyréne وازدهر حوالى سـنة ٣٨٠ق . م . تلميذ سقراط .

(٢) Antisthene : مؤسس مدرسة الكلبين ، ولد فى أثينـا حوالى سنة ٤٢٢ ق . م وتوفى حوالي سنة ٣٦٥ ، كتب عددا كبيرا من الكتـب ذكر « لاكرات » Lacrate عناوينها ولم يبق منها سوى شذرات .

(٣) Archelaus : فيلسوف أيونى وأستاذ سقراط .

(٤) Conring : طبيب وصاحب مصنفات فى مواد مختلفـة مشهور فى القرن ١٧ ولد فى Norden سنة ١٦٠٦ وتوفى فى خلمستاد بالسويد سنة ١٦٨١ ونشر عددا كبيرا من الاعمال فى الطـب والسياسة .

(٥) Pappus : فيلسوف ورياضى من الاسكندرية . عاش فى حكم نيودرس الكبير حوالى سنة ٣٨٠ لدينا من أعماله « مجموعاة رياضية » فى ثمانية كتب (ما عدا الاولين) نشرت فى Pesaro سنة ١٥٠٨ وفى بولونيا سنة ١٦٦٠ وعديد من الاعمال الرياضية الأخرى .

(٦) بيكون : فيلسوف انجليزى مشهور ولد فى لندن سنة ١٥٥٠ وتوفى فى نفس المدينة سنة ١٦٢٦ كان مستشارا لانجلترا . اهم أعماله Instrauratio Magna : الجزء الاول منه de Dignitate Scientiarem سنة ١٦٢٣ والجزء الثانى الاورجانون الجديد سنة ١٦٢٠ ، أبحاث فـى الاخلاق والسياسة (بالانجليزية) نشرت أعماله الكاملة عدة مرات لنـدن سنة ١٧٣٠ فى ٤ مجلدات ، ١٧٦٥ فى ٣ مجلدات ، سنة ١٨٣٦ — ١٨٢٥ فى ١٢ مجلد وهى الاكمل . وفى فرنسا نشر Bouillet الاعمال الفلسـفية فى ٣ مجلدات ونشر A. Lassalle سنة ٨٠٣/٨٠٠ أعماله مترجمة الى الفرنسية فى ١٥ مجلد .

(٧) ديكارت : أهملنا حتى الآن تلخيص حياة وأعمال هذا الفيلسوف المشهور الذى ولد فى لاهاى بالتورين سنة ١٥٩٦ وتوفى فى ستوكهلم سنة ١٦٥٠ . قضى فى هولندا معظم حياته . اهم أعماله : مقال فى المنهج سـنة ١٦٣٧ ، تأملات فى الفلسفة الأولى سنة ١٦٤٤ ترجمها الى الفرنسية الدوق ليونز Luynes سنة ١٦٤٧ فى باريس . انفعالات النفس سـنة ١٦٤٩ ، مبادىء الفلسفة سنة ١٦٤٤ ترجمها الى الفرنسية Pacot سنة ١٦٤٧ . توجد عدة طبعات لاعماله الكاملة أقدمها طبعة أمستردام سـنة ١٦٨٣ — ١٦٧٠ فى ٨ مجلدات . وأحدثها طبعة كوزان سنة ٢٦ — ١٨٢٤ فى ١١ مجلد باريس .

(٨) اسبينوزا : فيلسوف مشهور ولد في امستردام سنة ١٦٣٢ من سرة يهودية برتغالية وتوفى سنة ١٦٧٧ : اهم اعماله مبادىء الفلسفة لديكارت سنة ١٦٦٣ ، ورسالة لاهوتية سياسية واعماله التى نشرت بعد وفاته : الاخلاق ، رسالة سياسية ، اصلاح الذهن توجد طبعتان كاملتان لاعمال اسبينوزا ، طبعة Paulus : سنة ١٨٠٣ في Iena وطبعة Gfroerer سنة ١٨٣٠ وظهر سنة ١٨٦٢ فى امستردام مجلد يضم اعمال غير منشورة . ترجم اعماله الى الفرنسية E. Saisset في مجلدين سنة ١٨٤٢ .

(٩) اولدنبرج : Oldenbourg: سكرتير الجمعية الملكية فى لندن نشر الاعمال الفلسفية للفترة من ١٦٦٤ الى ١٦٧٧ وترجم الى الانجليزية كتاب نيقولا شيتسون » ، Prodromus de Solidis.

الفصـــل الثالث عشر

اعتبـــارات أخرى تخص معرفتنـــــا

فيـــــــلاليت :

١ ـ قد يكون من المناسب أيضا أن نضيف أن معرفتنا تتصـــل (بالنظر) بالرؤية la vue ، وهى فى هذا المجال كما في أشـيـاء أخرى ، لا هى ضرورية كلية ولا هى ارادية تماما لا يستطيع الانســـان أن يكف عن الرؤية عندما يفتح عينيه أمام الضوء ولكنه يستطيع أن يحول بصره عن موضوعات معينة •

٢ ـ اعتبارها بكثير أو بقليل من التطبيق • وهكذا عندما تطبــق الملكة فلن يعتمد الامر على ارادة تحديد المعرفة . تماما كما أن الانســـان لن يستطيع أن يمنع نفسه من رؤية ما يرى وانما يلزمه اســـتخدام الملكات كما يجب حتى يتعلم •

تيوفيـــــــل :

لقد تكلمنا فيما مضى عن هـــذه النقطة وقررنا أنها لا تتطلب من الانسان أن يمتلك هذا الاحساس أو ذاك فى الحالة الحاضرة ، ولكنهـــا تتطلب منه أن يستعد للحصول عليها أو لعدم الحصول عليها ، وكذلك الأمر بالنسبة للإعتقادات التى لن تكون اختيارية الا بطريقة غير مباشرة•

الفصل الرابع عشر
الحكم

فيلاليت :

١ ـ يجد الانسان نفسه غير محدد فى معظم أفعال حياته . اذا لم يكن لديه ما يرشده عندما تنقصه المعرفة اليقينية •

٢ ـ يلزمنا أحيانا أن نقنع باحتمال بسيط معتم •

٣ ـ الحكم هو الملكة التى نستخدمها أحيانا • قد نقنع به بالضرورة ولكن أحيانا لنقص فى الهمة أو الصبر أو المهارة •

٤ ـ نسميه تصديقا أو عدم تصديق عندما يوجد تخمين • أى عندما نسلم بصدقه قبل الحصول على الدليل ، فاذا اتفق مع حقيقة الاشياء أصبح الحكم صوابا •

تيوفيل :

آخرون يطلقون كلمة « حكم » على الفعل الذى نفعله فى كل مرة ننطق بعد معرفة السبب ، وهناك أيضا آخرون يميزون بين الحكم والاعتقاد ، كما لو أنه لا يجب أن يكون يقينا • ولكنى لا أريد محاكمة أحد بالنسبة لاستخدام الكلمات ومن المسموح لك ياسيدى أن ننظر الى الحكم على أنه شعور محتمل • أما بالنسبة للتخمين ، وهو اصطلاح قانونى ، فان الاستخدام الصحيح لديهم يميزه عن الظن ، أنه شىء أكثر ويجب أن نعتبره صوابا بصفة مؤقتة الى أن نثبت العكس ، بينما يجب أن نقارن بين العلامات أو الظنون وأن نقابل بينها أحيانا • وهكذا فان ذلك الذى يعترف بأنه استدان مبلغا من شخص آخر فمن المسلم به ضرورة سداده ما لم يثبت أنه قد سدده فعلا ، أو أن الدين قد سقط بناء على مبدأ آخر • لن يكون التخمين اذن ، فى هذا المعنى ، التسليم قبل الدليل وهو بهذا المعنى غير مسموح به ، وانما يعنى الاخذ مقدما ولكن بناء على أساس انتظارا لدليل مناقض •

الفصل الخامس عشر

الاحتمال

فيلاليت :

١ ــ اذا أظهر الاستدلال الارتباط بين الافكار ، فان الاحتمال لن يكون سوى ظاهر هذا الارتباط ، قائما على أدلة لا تظهر أبدا الارتباط الثابت •

٢ ــ توجد عدة درجات من التصديق ابتداء من اليقين الى التخمين فالشك وعدم الثقة •

٣ ــ عندما نحصل على اليقين يوجد حدس ، فى كل أجزاء الاستدلال يظهر الارتباط ، ولكن ما يجعلنى أعتقد سيكون شيئا آخر تماما •

٤ ــ ولكن الاحتمال يقوم على اتفاقات مع ما نعرف أو على شهادة الذين يعرفونه •

تيوفيل :

أفضل التمسك بأنه يعتمد دائما على ما يبدو صادقا أو على الاتفاق مع الحقيقة ، وشهادة الآخرين أمر آخر اعتاد الصدق أن يحصل عليه بالنسبة للوقائع التى فى متناوله • يمكن اذن القول أن تشابه المحتمل مع الحق يؤخذ أما على الشىء نفسه أو من شىء آخر غريب عنه • يقرر علماء البلاغة نوعين من الحجج : صناعية نستمدها من الأشياء بالاستدلال ، وغير صناعية لا تقوم الا على شهادة خاصة من الانسان أو ربما الشىء نفسه • ولكن هناك أيضا ما هو خليط ؛ لأن الشهادة يمكن أن تزودنا هى نفسها بواقع يمتد ليشكل حجة صناعية •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيلاليت :

٥ ـ أن التشابه بالحق هو الذى يجعلنا لا نصدق بسهولة كل ما هو غير قريب من معارفنا .. وهكذا عندما يقول السفير لملك سيام أن الماء يتجمد فى بلده فى الشتاء بحيث يستطيع الفيل السير عليها دون أن يغوص .. فان الملك يرد : لقد كنت أعتقد أنك رجل سليم العقل والآن أرى أنك تكذب .

٦ ـ ولكن اذا استطاعت شهادة الآخرين أن تجعل الواقع محتملا ، فمن الواجب اتخاذ رأى الآخرين أساسا حقيقيا للاحتمال . لأنه يوجد لدى الناس من الأخطاء أكثر مما لديهم من معرفة ، واذا اعتبرنا الثقة فى أولئك الذين نعرفهم ونقدرهم أساسا مشروعا للشعور فسيكون من حق الناس أن يكونوا ملحدين فى اليابان ومن أتباع محمد فى تركيا ، وبابويين papistes فى أسبانيا وكالفانيين فى هولندا ولوثاريين فى السويد .

تيوفيل :

شهادة الناس لها وزنها بدون شك أكثر من رأيهم وهذا ما يلاحظه أكثر فى العدالة حيث تتطلب تفكيرا أكثر ومع ذلك نعرف أن القاضى يطلب أحيانا حلف اليمين على صدق ما يقال أو كما يسمونه Oath de Credulitaté ، ولأنه فى التحقيقات غالبا ما يطلب من الشهود ليس فقط ذكر ما رأوا وانما أيضا حكمهم عليه والمبررات التى دفعتهم الى هذا الحكم . يختلف القضاه أيضا عن مشاعر وآراء الخبراء فى كل مهنة ، الأفراد ليسوا مضطرين الى ذلك ، ماداموا غير ملزمين بالوصول الى الفحص الدقيق . وهكذا فالطفل والرجل الذى لا يهمه كثيرا الأمر ، مضطر عندما يجد نفسه فى موقف معين ، أن يتبع دين بلده طالما لا يمسه بسوء وطالما ليس فى حالة تحثه على البحث عن دين أفضل وكذلك مربى الأمراء ، أيا كان الحزب الذى ينتمى اليه ، سيجبرهم على

الذهاب الى الكنيسة التى يذهب اليها الذين يقتنعون بمذهبه • يمكن أن تحسم النزاع القائم بين السيد نيقولا Nicole والآخرين حول حجج التجديد من أمور الايمان والتى قد يختلف البعض معه فى جزء منها فى حين لا يهتم بها البعض الآخر الاهتمام الكافى هنـاك أحكام سابقة أخرى يمكن أن نعفى الناس من مناقشتها وهى ما يسميها Tertullien فى بحثه الخاص Prescriptions (الأنظمة القانونية) • بالتعليمات مستخدما لفظا كان يقصد به الفقهاء القدماء عدة أنواع من الاستثناءات والادعاءات الغريبة والمبادرات ، ولا يقصد بها اليوم سوى الأنظمة القانونية المؤقتة عندما نرفض دعوى الآخرين لأنهم لم يتقدموا بهـا فى الموعد المحدد قانونا • وهكذا نجد ما يمكن أن يكون حكما مسبقا مشروعا ، سواء يؤيد الكنيسة الرومانية أو الكنيسة البروتستنتية • لقد وجدت وسـيلة لمقابلة التجديد لدى هؤلاء أو أولئك فى اعتبارات معينة مثل ترك البروتستنت التنظيمات القدمية للكنسيين ، وعندما غير الرومانيون مجموعة الشرائع المذكورة فى الكتاب المقدس للعهد القديم ، كما ظهرت بوضوح فى النقاش الذى سـجله الاشيدوق دى مو والذى صاغ منذ عـدة أيام حسب ما وصلنى من أخبار • وهكذا كانت الاتهامات متبادلة ، أن التجديد لأنه يثير بعض الخطأ لن يكون دليلا أكيدا فى هذه الأمور •

الشـــخصيات

١ — Jacgue - Boussuet أسـقف دى مو de Meaux ولد فى ديجون سـنة ١٦٢٧ وتوفى سـنة ١٧٠٤ فى باريس • أهم أعمـاله الفلسفية : معرفة الله والذات ، مقال عن التاريخ العالمى ، المنطق • حرية الاختيـار •

٢ — Tertullien أحد آباء الكنيسة اللاتينية ولد فى قرطاجة سـنة ١٦٠ وتوفى سـنة ٢٤٥ • وانتهى بالسقوط فى بدعة مونتان • أهم أعماله : الدفاع apologie عن عبادة الأوثان ، عن حياة العذارى •

٣ — نيقولا (بنير) :

فيلسوف ولاهوتى من أتباع البورت رويال • ولد سـنة ١٦٢٥ وتوفى سـنة ١٦٩٥ عمله الرئسى هو : أبحاث فى الأخلاق والتعاليم اللاهوتيـة •

Essais de morale et instructions theologiques.

منها ستة مجلدات عن الأخلاق • وكتاب المنطق أو فن التفكير الذى شارك أرنولد فى كتابته •

الفصـــل السادس عشر
درجات التصـــديق
Degrées dàssenti ment

فيـــلاليت :

١ ـ فيما يتعلق بدرجات التصديق يجب ملاحظة أن أسس الاحتمال التي لدينا لا يتجاوز الظاهر الذي نجدها فيه أو التي وجدناها فيهـا عندما فحصناها . لأنه يجب الاعتراف أن التصديق لن يستطيع أن يكون دائمـا مؤسسا على رؤية فعلية كما يحدث للعقول التي لها ذاكرة مدهشة والقادرة على الاحتفاظ دائمـا بكل الأدلة التي امتلكتها في شـعور معين . والتي أحيانا تملأ مجلدا عن سؤال واحد يكفي أن يدققوا في المـادة بعناية وجد ، وأن يكونوا قد أوقفوا العد ، على حد قولهم .

٢ ـ بدون هـذا يلزمنا أن يصبح الناس شكاكا أو أن يغيروا رأيهم في كل لحظـة لكي يرغبوا على كل انسـان ، يكون قد فحص الموضوع منـذ قليل ، يقترح عليهم حججا لن ترضيهم تماما في هـذه اللحظة ، أما لعجز الذاكرة أو التطبيق على مهل .

٣ ـ يجب الاعتراف ان هـذا يجعل الناس أحيانا يعاندون في الخطأ ، ولكن العيب ليس في أنهم يعتمدون على ذاكرتهم ، وانما في انهم أساءوا الحكم من قبل ، لأنه قد يتاح أحيانا للناس فرصة من الفحص والتعقل تجعلهم يلاحظون أنهم لم يفكروا بعكس ذلك مطلقا . وقد اعتاد أولئك الذين يفحصون اعتقاداتهم أقل فحص أن يرتبطوا بها أكثر ، ومع ذلك فان الارتباط بما قد نرى يصبح مشروعا ، وان كان غير مشروع دائمـا فيما يتصل بما نعتقد ، لأن من الممكن أن نهمل اعتبارا ما كفيل بان يهدم كل شيء . وربما قد لا يوجد شخص في العالم لديه المهلة والصبر والوسائل ليجمع كل الأدلة المؤيدة لهذا الطرف أو ذاك

فى كل الأسئلة ، أو أن يملك من الآراء ما يجعله يقارن بين هـذه الأدلة ويستنتج بيقين أنه لا ينقصه شىء لم يعرفه ليصل الى معرفة شاملة . ومع ذلك العناية بحياتنا لا يمكنها أن تنتظر ، ومن الضرورى تماما أن يتحدد حكمنا على أمور ليس فى مقدورنا أن نصل فيها الى معرفة يقينية .

تيوفيــــل :

كل ما ذكرته حتى الآن يا سيدي - طيب وقوى . ومع ذلك مازلنا نتمنى أن يكون لدى الناس : فى لقاءاتهم ، مختصرات مخنوبة توضح الأسباب التى حملتهم على الاحساس بنتيجة ما . والتى يرون أنهم مضطرون لأن يبرروها لأنفسهم أو لغيرهم فيما بعد . وعلى أى حال لم نتعود ، فى مجال العدالة . على أن نتراجع عن الأحكام التى صدرت أو أن نراجع حساباتنا النهائية (والا ستظل دائمـا فى قلق وسيصبح من غير المحتمل عدم الاحتفاظ دائمـا بملاحظات عن الأشـياء الماضية) ومع ذلك فقد نضطر بناء على أيضاحات جديدة الى الالتجاء الى المحكمة وتقـديم ما يسـمى بدعوى الاسترداد restitution in integrum ضد ما كان مقررا ، وحتى فى أمورنا الخاصة : وبالذات تلك التى يمكن أن نتراجع فيها أو التى لن يؤذينا أن نتوقف أو نتقدم حسب هوانا . ان قرارات ذهننا المؤسسة على الاحتمالات لا يجب أبدا أن تكون ثابتة ، وأن نكون مستعدين لمراجعة تفكيرنا عندما تواجهنا اعتراضات جديدة . ولكن عندما لا نجد الوقت للتروى فمن الواجب اتباع الحكم الذى صدر ، بكل صراحة كما لو كان معصوما ولكن بدون تعنت[1] .

فيـــلاليت :

٤ — من جهة أخرى لا يستطيع الناس أذن تفادى الخطأ عندما يحكمون أو يحصلون على مشاعر متنوعة ، طالمـا لم يستطيعوا النظر

---

(١) ديكارت : يقول فى المنهج ج ٢ « مسلمتى الثانية أن اكون الأكثر صرامة وحزما فى الأفعال التى استطيعها والا اتبع باستمرار الاعتقادات المشكوك فيها مادمت قد قررت ذات مرة انها اكيدة تماما » .

الى الأشـــياء من نفس الزوايا ، عليهم أن يوائموا بينهم وبين واجبات الانســـانية المتصلة بهذا التنوع من الاعتقادات ، والا يلزموا أى فرد بتغيير موضوعات اعتقاده بناء على اعتراضهم ، خاصـــة اذا كان لديه الفرصة لتصور أن الشخص الذى يعارضه يتصرف بناء على مصلحة أو حماس أو أى دافع شخصى آخر وفى أغلب الأحيان أولئك الذين يعرضون على الآخرين ضرورة الخضوع لمشاعرهم لا يحسنوا فحص الأمور ، لأن أولئك الذين يتقدمون فى المناقشة بما فيه الكفاية ليخرجوا من الشك ، وهم قلة قليلة ، سيجدون أن الأمور التى يلومون غيرهم من أجلها من القلة بحيث لا تستحق أستخدام العنف من جانبهم •

تيوفيـــــل :

حقا أن الجدير باللوم ليس اعتقادات البشر وانما حكمهم المتهور فى لوم الآخرين ، كأنما من الضرورى أن يكون غبيا أو شريرا ذلك الذى يحكم بخلاف ما نحكم به • هـــذه الأمور التى ينشرها أصحاب الانفعالات والكراهيات وسط الجمهـــور نتيجة ذهنهم المتغطرس والظالم والمحب للسيطرة ولا يقبل أى معارضة • حقا أن هـــذا لا يعنى عدم وجود أى مبرر للوم معتقدات الآخرين ، وانما يجب أن يتم ذلك فى جو يتفق ويتلاءم مع الضعف البشرى كما أن من الصواب الاحتياط ضد النظريات السيئة التى تؤثر على السلوك والمعتقدات العملية ، ولكن يجب الا ننسبها الى الناس والى أحكامهم المسبقة دون أن يكون لدينا المبررات القوية لذلك • واذا كانت العدالة تطلب منا أن نصفح عن البشر فان التقوى تتطلب الاحتجاج على الآثار السيئة لمعتقداتهم عندما تكون ضارة ، كتلك المعتقدات التى تعارض عناية الله العادل والحكيم والخير ، أو التى تعارض خلود الأرواح أو التى تجعلهم يتأثرون بعدالته ، ناهيك عن المعتقدات الخطيرة الأخرى التى تتصل بالأخلاق والسياسة والتى لن نتحدث عنها • أعرف رجالا ممتازين وحسنى النية يقررون أن تأثير هذه المعتقدات النظرية على الممارسة أقل من تأثيرها على الفكر • وأعرف أيضا

أشخاصا لن تسمح لهم مواقفهم بأن يتأثروا بهذه المعتقدات ؛ كما أن أولئك الذين توصلوا الى هـذه الأخطاء بالـأمل ، قد اعتادوا بطبيعتهم على الابتعاد عن الخطايا التى يتعرض لها البشر بوجه عام ، الى جانب حرصهم على مكانة الطائفـة التى يتزعموها • يمكن القول أن ابيقور وأسبينوزا مثلا كانا نموذجا لذلك . لكن هـذه الأسباب غالبا ما تزول لدى تلاميذهم وأتباعهم الذين يظنون أنهم قد تحرروا من الخوف الفظيع من العناية التى تراقبهم والتى تهدد مستقبلهم فيطلقون العنان لانفعالاتهم البهيمية ويوجهوا ذهنهم الى اغراء وافســاد الآخرين ، واذا كانوا متحمسين وفى مواقف قاسية ففى مقدورهم : أرضاء لسرورهم أو تقدمهم ان يشعلو النار فى أركان الأرض الأربعة ، وهـذا ما علمته عن سلوك بعضهم ممن أختطفهم الموت • لاحظت كذلك ان أمثال هـذه المعتقدات تتسلل تدريجيا فى أذهان رجال ذوى مستوى عالى ويحكمون غيرهم ويعتمد عليهم فى تصريف أمور الآخرين ، مما يجعلهم ينزلقون الى الاطلاع على الكتب الشـائعة ويهيئوا كل شىء للثورة العـامة التى تهدد أوروبا وتكمل هدم كل مازال باقيا فى العالم من مشاعر كريمة كانت سائدة لدى الأغريق القدماء والرومان الذين فضلوا حب الوطن والخير العام واهتموا بمستقبل الأجيال القادمة بل وبالحياة ، هـذه الشخصيات العامة كما يسميها الانجليز ، قد تضاءلت جـدا ولم تعد سائدة وسوف تتضاءل أسرع عندما لن تساندهم الأخلاق المقابلة والتى بدأت تسود •

لا يملك أى مبدأ سوى ذلك الذى يسمونه بتشرف ، ولكن علامة الرجل الشريف أو الطاهر فى نظرهم هى ألا يفعل الدنايا كما يفهمونها ؛ أما اذا سفك أحدهم طوفانا من الدم أو قلب كل شىء رأسا على عقب ، فى سبيل تحقيق ثروة أو تدعيم سلطته فلن يكون بذلك مسيئا ، بل قد يعتبر بطلا كما كان الحال بالنسبة لهيرومستراتس[1] Herostratus قديما ودون جوان فى وليمة ببير لوليير فى الحاضر • أنهم يسخرون

(1) Herostratus : بن افسوس أشعل النار فى معبد Artemis فى افسوس ليلة ولادة الاسكندر الأكبر سنة ٣٥٦ من أجل ان يصبح مشهورا .

بوقاحة من حب الوطن ويحقرون أولئك الذين يهتدون بالجمهور ، واذا تحدث رجل حسن النية عما يحدث للاجيال المقبلة رذوا عليــه : سوف نرى ذلك عندما يحين الوقت من الممكن أن يمارس هؤلاء الأشخاص نفس الشرور التى ظنوا أنها تخص غيرهم وعلى أى حال اذا أمكن علاج الذهن من هــذا المرض المنتشر والذى بدأت تظهر أثاره الســيئة ، ربما أمكن منع الشرور ، أما اذا استمر فى التزايد فسوف يعالج الله البشر بالثورة التى يجب أن تنبع هى أيضا من ذلك لأنه أيا ما حدث فكل شىء سوف ينتهى الى الأحسن بوجه عام فى نهاية الأمر مع أنه قد لا يحدث ولا يجب أن يحدث بدون عقاب حتى أولئك الذين ساهمو فى الخير بأفعالهم السيئة أعود الآن من استطرادى الذى تعرضت فيه للمعتقدات الصادقة والذى دفعنى اليه حديثنا عن حق لومهم • لكن فى اللاهوت ذهب اللوم الى أبعد من هــذا . فأولئك الذين يظهرون مزايا اعتقادهم الأورثوتكس يتهمون خصــومهم بما يتهم بـــه التوفيقيون syncrétistes خصومهم ، وقد ولد هــذا الاعتقاد حروبا أهليــة بين المتشددين والمتسامحين فى داخل نفس الحزب الواحد • ومع ذلك ، فانه شأنه شأن تحريم الخلاص الأبدى على الذين يعتقدون اعتقادا آخر ؛ يتم بناء على حقوق الله ومن ثم فلن يتوقع أحكم هؤلاء الذين يصدرون هــذه الأحكام سوى الهلاك للأرواح الهائمة ويتركون لرحمة الله الفريدة الحكم على أولئك الذين يعجزهم خبثهم عن الاستفادة منها ، أما هم فيعتقدون أنهم مضطرون الى بذل كل جهد يمكن تصوره ليخرجوهم من هــذه الحالة الخطيرة • اذا توصل هؤلاء الأشخاص الذين يحكمون هكذا بهلاك الآخرين ، الى هــذا الاعتقاد بعد فحص دقيق واذا لم توجد وســيلة لتحريرهم من وهمهم ، فلن نستطيع لوم سلوكهم طالمــا لم يستخدموا سوى وسائل الرأفة • ولكن ان ذهبوا الى أبعد من ذلك فقد اعتدوا على قوانين العدالة • لأنه يجب أن يفكروا فى أن الآخرين لهم اعتقاداتهم أيضا ولديهم الحق فى التمسك بمشاعرهم بل ونشرها اذا آمنوا بأهميتها • يجب استثناء الاعتقادات التى تحث على

الجريمة التى يجب أن نقضى عليها ولو بالعنف : اذا لم يستطع تنفيذ ذلك القادرين عليها ، كما أن من حقنا أن نقضى على الحيوان السام ولو كان بريئا • ولكنى أقصد القضاء على الطائفية وليس على البشر ، طالما يمكن منعهم من أن يصبحوا مزعجين أو متعصبين •

فيـــــلاليت :

٥ — لكى نعود الى أساس ودرجات التصديق ، من المناسب أن نلاحظ ان القضايا نوعان أحداهما عن الواقع : تعتمد على الملاحظة ويمكنها أن نعتمد على شـــهادة البشر ، والأخرى تأملية تعبر عن الأشـــياء التى لا تستطيع حواسنا اكتشافها ، ولا نقبل مثل هـــذه الشهادة •

٦ — عندما يتفق واقع جزئى مع ملاحظاتنا المســـتمرة والعلاقات الموحدة للآخرين فاننا نعتمد عليها كما لو أنها معرفة يقينية ، وعندما نتفق مع شـــهادة جميع الناس فى كل العصور بقدر ما يمكن معرفتها ، فأنها ستكون أول وأعلى درجة من الاحتمال ، مثلا النار تحرق ، الحديد يغوص فى أعماق المـــاء • اعتقادنا القـــائم على مثل هـــذه الأسس يرتفع الى درجـــة اليقين •

٧ — فى الدرجة الثانية . عندما يقرر جميع المؤرخين أن شخصا قد فضل المصلحة الخاصة على المصلحة العامة ، حيث نلاحظ دائمـــا أن هـــذه هى عادة معظم البشر ، فان الشعور الذى أعطيه لهذه القصص يصبح ثقة confiance •

٨ — فى الدرجة الثالثة عندما لا تؤيد طبيعة الأشياء أو لا تعارض واقع ما تقرره شـــهادة أناس غير مشكوك فيهم ، مثلا أن يوليوس قيصر عاش فاننا نقبل ذلك باعتقاد ثابت ferme créance •

٩ — عندما يعارض الشـــهود التيار العادى للطبيعة أو يتعارضوا فيما بينهم فان درجة الاحتمال تتنوع الى ما لا نهاية ، من حيث تأتى هذه

الدرجات التى نسميها ظن croyance ، تخمين conjecture أوشك doute أو عدم يقين incertitude أو عدم ثقة defiance وهنا يلزمنا الدقة لنصدر حكما صحيحا ولكى تتناسب مشاعرنا مع درجات الاحتمال .

تيوفيـــــــل :

المفقهاء فى تناولهم الأدلة والقرائن والتخمينات علامات ، قد قالوا الكثير من الأمور الجيدة ، وبتفصيل . لقد بدأوا بالتواتر حيث لا نحتاج لأى دليل ومن بعده وصلوا الى أدلة كاملة . أو تلك التى نعتبرها هكذا ، وخاصة تلك التى تتصل بالأمور المدنية على الأقل . ولكننا قد نتحفظ فى بعض الاحالات وخاصة الأمور الجنائية وان نخطىء اذا طالبنا بأدلة أكثر من تامة ، أو ما نسميها corpus delicti حسب طبيعة الواقعة توجد اذن أدلة أكثر من تامة ، وأدلة تامة عادية ، والقرائن التى نعتبرها أدلة تامة بصفة مؤقتة ، الى أن يثبت العكس ، توجد أيضا أكثر من نصف تامة demi plein التى تسمح فيها للذى يقدمها أن يحلف اليمين . وليدعمها أنها juramentium suppletorium هنـــاك أخرى أقل من نصف تامة حيث على العكس تطلب اليمين من ذلك الذى ينكر الواقع لكى يسقط الدعوى juramentium purgationis خلاف ذلك يوجد قدر من درجات التخمين ومن علامات وخصوصا فى الأمور الجنائية حيث يوجد علامات ad torturam تتصل بالسؤال (الذى هو نفسه له درجاته المذكورة فى صيغ الحكم) . هناك أيضا علامات يكفى لاظهار الضرر وتعد الأشياء كما لو أن المرء قد أراد استحضارها . وهناك ما يصلح للتأكد من انسان مشكوك فيه d capturam وللاستعلام ad inquirendum هـــذه الاختلافات يمكن أيضا أن تستخدم فى حالات أخرى متناسبة . ان صورة صياغة الدعاوى فى العدالة ليست فى الواقع سوى نوعا من المنطق مطبقا فى أمور القانون . لدى الأطباء أيضا قدر من الدرجات والاختلافات فى العلامات والاشارات التى يمكن أن نراها لديهم . بدأ علماء الرياضة فى عصرنا فى الاهتمام بالصدفة وخاصة فى الألعاب . الفارس دى ميرى[1] de meré الذى نشر كتابه les agrements

وغيره من المؤلفات ، وهو رجل ذو ذهن نافذ ولاعب وفيلسوف أتاح الفرصة لتأليف عـدة وسائل تتصل بالرهان لمعرفة كم تساوى اللعبة اذا توقفت فى هـذه الحالة أو تلك • ودفع صديقه بسكال[٢] الى فحص هـذه الأمور كما أتاح الفرصة للسـيد هيجمنز[٣] لعمل بحثه alea كما سـاهم فى هـذا المجال علماء آخرون وتقررت عـدة مبادىء اسـتخدمها السـيد de wit فى بحث صـغير طبع فى هوالندا عن les rentes àvie . معتمدا على أساس يرجع الى prostapherese أى أخذ المتوسط الحسابى لعدد من الافتراضات المتسـاوية القبول • وقد استخدمها فلاحونا منـذ زمان عند بيع قطعة أرض أو توزيع ميراث حسب رياضتهم الطبيعية وذلك بأن يشـكلوا ثلاثة مجموعات يسميها الساكسون بالـ scharzen كل مجموعة منها تعبر عن مقدار • لنفرض اذن أن أحداها يسـاوى ١٠٠٠ ـــ والثانى ١٤٠٠ والثالث ١٥٠٠ فان مجموعها سـيكون ٣٩٠٠ ومتوسطها ١٣٠٠ وبصورة أخرى يمكن أخـذ مجموع الجزء الثالث فى كل وحدة • أنها مسلمة aequilibus aequqlia بالنسبة للفروض المتسـاوية يجب أن نحصل على اعتبارات متساوية • ولكن عندما لا تتساوى الفروض علينا أن نقارن بينها • لنفرض مثلا أن زهرين أحدهما يكسب عندما يحصل على ٧ نقط والآخر عندما يحصل على ٩ ونسأل أى نسبة يمكن أن توجد بين ظواهر كسبهما ؟ أقول أن ظواهر الأخير تساوى ٢/٣ من ظواهر الأول ، لأن الأول يعمل ٧ بثلاثة طرق بواسطة الزهرين : ١ ، ٦ أو ٢ ، ٥ أو ٣ ، ٤ • الآخر لا يمكن أن يعمل ٩ سوى بطريقتين ٣ ، ٦ أو ٤ ، ٥ كل هـذه الطرق ممكنة تماما اذن الظواهر التى تشبه اعداد الامكانيات المتسـاوية ستكون ٣ : ٢ أو ١ : ٢/٣ لقد قلت أكثر من مرة أنه يلزمنا نوع جديد من المنطق يتناول درجات الاحتمال مادام أرسطو فى التحليلات لم يفعل سوى ذلك ، واكتفى بأن نظم قواعد شـعبية معينة موزعة حسب الأماكن العامة ، ويمكن أن تستخدم فى بعض المناسبات التى تهتم بتوضيح الحديث أو تظهره ، دون أن يكلف نفسه جهدا لتقديم معيار ضرورى نقيم به

الظواهر لنصدر حكما متينا • سيكون من الأحسن لمن يريد أن يتناول هـذا الموضوع أن يتابع دراسة ألعاب الحظ • وبوجه عام أتمنى أن يتمكن عالم رياضى ماهر من تأليف كتاب مفصل وواضح ومعقول يتناول هذه الأنواع من الألعاب وسيكون ذا فائدة كبرى لاتقان فن الاختراع فذهن الانسان يبدو فى الألعاب أفضل منه فى الأمور الأكثر جدية •

فيـلاليت :

١٠ ـ يلاحظ قانون انجلترا القاعدة التى ترى أن النسخة التى يشهد على أصالتها الشهود تكون دليلا جيدا ، ولكن نسخة النسخة مهما كانت مدعمة بالشهود العدول فلن نقبل أبدا كدليل فى الحكم • ام أسمع مطلقا من يلوم هـذا الاحتياط الحكيم • يمكن على الأقل أن نستخرج منه هـذه الملاحظة ، وهى أن الشـاهد تقل قوته بقدر ما يبتعد عن الحقيقة الأصلية التى تكون فى الشىء نفسه ، فى حين يستخدمها بعض الناس بطريقة معكوسة تماما • تكتسب الاعتقادات قوتها كلما مضى عليها الزمن وذلك الذى كان مجرد احتمال منـذ ألف سنة بالنسبة لرجل عاقل معاصر لذلك الذى قرره لأول مرة ، يصبح حاليا مؤكدا لأن كثيرين قد دعموه بشهادتهم •

تيوفيـل :

انتقادات أمور التاريخ لها أهميتها فى نظر الشـهود المعاصرين للأشـياء ، ومع ذلك حتى الشخص المعاصر نفسه لا يجب أن نعتقد فيه الا بالنسبة للأحداث العـامة أصلا ، ولكن عندما يتحدث عن الدوافع والأسرار والأشـياء موضع النقاش كحوادث التسمم أو القتل ، فعلينا أن نسلم على الأقل بما يعتقده العديد منهم • اننا نثق تماما فيما يقوله Procope عندما يتحدث عن حرب البيليزير Bélisaire ضد الفاندال والجوث ولكننا نتردد عندما يروى فى أقاصيصه عيوب الامبراطورة تيودور • وعلى العموم يجب أن نتحفظ فى تصديق ما تذكره الاهاجى ، اننا نرى الكثير مما ينشر فى أيامنا ويعارض كل ظاهر وأن انخدع به الجهلاء • ربما يقال ذات يوم هل من الممكن أن يجرؤ أحد على نشر

هـذه الأمور التى حدثت فى هـذه الأيام ؟ ألم يكن هنـاك أساس ظاهر ؟ ولكن اذا قيل ذلك ذات يوم . فان الحكم سيكون خاطئا تماما .
ورغم ذلك يميل العالم الى الهجاء ونكتفى بذكر ما نشره المرحوم دومريه الابن فى مذكراته المطبوعة منذ عدة سنوات : من أمور معينة لا أساس لها ضد Hugo Grotius وهو شـخص لا نظير له وكان سفيرا للسويد فى فرنسـا وقد صدم صدمة قوية لمـا ذكره عن صديق مشهور كان صديقا لوالده . وقد رأيت عددا من المؤلفين يكررون نفس الشىء مع أن خطابات ومفاوضات هـذا الرجل العظيم تخبرنا بالعكس تماما .
قد نتحرر أحيانا فى كتابة القصص التاريخية مثل ذلك الذى كتب حياة كروموبل الأخيرة فقد اعتقد أنه لكى يضفى على الموضوع روح المرح قد سمح لنفسه عند الحديث عن حياة هـذا الزعيم الماهر أن يجعله يسافر الى فرنسـا حيث يتابعه فى باريس كأنه المربى الخاص ومع ذلك ظهرمن تاريخ حياة كروموبل الذى كتبه كارلنجتن الرجل المثقف والذى أهداه الى ابنه ريتشارد عندما كان تحت رعايته ، أن كروموبل لم يغادر أبدا الجزر البريطانية ، التفاصيل اذن تكون قليلة اليقين ، ليس لدينا أى شىء تقريبا عن العلاقات بين المعارك . فتلك التى تتصـل بمعركة Tetelive مثلا تبدو خيالية وكذلك تلك الخاصة Quinte Curae يلزمنا تقارير من هنا وهناك يكتبها اناس يمتازون بالدقة والقدرة على وضـع الخطط الشـبيهة بخطط الكونت دالبرج Delberg الذى خدم باخلاص فى عصر ملك السـويد شارك جوستاف والذى كان حاكما عاما لمدينة ليفونى ودافع عن ريجا Rige مسجلا أفعال ومعارك هذا الأمير .
ومع ذلك يجب أولا ألا نقلل من قدر أى مؤرخ جيد بناء على كلمة من أمير أو وزير يكون قد كتب ضـده فى احدى المناسبات أو فى أحد الموضوعات التى لا ترضيه أو الذى أخطأ فيها حقا .

يحكى أن شارل الخامس Charles Quint عندما أراد قراءة شىء عن سليدن Sleiden قال « احضروا الى كذابى » وأن Carlowiz الجنتلمان السكسونى المشـهور فى هـذا الوقت قال أن تاريخ سليدن

زعزع كل اعتقاد طيب كان لديه فى التواريخ القديمة . وأقول أن هـذا لن يؤثر فى عقول الأشخاص ذوى الاطلاع ولن يزعزع مكانة تاريخ سليدن الذى أفضل جزء فيه هو هـذا النسيج من أفعال عامة للمجالس التشريعية واجتماعات وكتابات يقرها الأمراء ، واذا بقى أقل شك فى هـذا الصدد فقد أزالته القصة الممتازة التى ذكرها صديقى المشهور المرحوم Seckendorf (التى لا أجد مفرا من اعتراضى على اسم الوثريه الموجود على العنوان ، وهى عادة سيئة سائدة فى ساكس) والتى يؤيد فيها معظم الأشياء بمقتطفات لا حصر لها أخذت من سجلات سكسونية كانت فى متناول يده ، ومع أن مسيو « دى مو » de Meaux الذى أرسلت اليه هـذا الكتاب وقد هوجم فيه ، أجاب بأن هـذا الكتاب يعيبه الاطناب الفظيع ، ولكنى أتمنى أن تتضاعف صفحاته وكلما كان رحبا كلما أتاح فرصة أكثر حيث لن يسعنا سوى اختيار الأماكن . علاوة على ما فيه من أعمال تاريخية جديرة بالاحترام ، وعظيمة حقا ، علينا ألا نحتقر المؤلفين التالين للعصر الذى يكتبون عنه عندما يكتبون بوضوح ، وقد يحدث أحيانا أنهم يحتفظون بمقتطفات قديمة جـدا مثلا . لقد شككنا فى الأسرة التى ينتمى اليهـا Suibert أسقف بامبرج Bamberg فى عصر البابا كلمنت الثانى ، وقد ذكر مؤرخ غير معروف لتاريخ بوينسبيك فى القرن ١٤ ، اسم عائلته كما ذكر علماء آخرين لم يلتفت اليهم تاريخيا ، ولكنى حصلت على مجلة تاريخية أقدم بكثير ولم تطبع بعد . ذكر فيها نفس الشىء بصورة أكثر نظاما ومنها يتضح أن هـذا الأسقف كان من عائـلة من قدامـى الأشراف فى هورنتبرج (وهـى ليست بعيـدة Wolfenbuttel) حصلوا على اقليمهم من المالك الأخير للكنيسـة الكاثوليكية فى Halderstadtt

فيـــــلاليت :

١٨ ــ لا أريد أن يعتقد أحـد أنى أردت التقليل من سلطة واحترام التاريخ بملاحظتى هـذه ، فقد حصلنا بهذا المصدر على وضوح مقنع عن جزء كبير من حقائقنا المفيدة ، ولا أرى ما هو أحق بالتقـدير من

المذكرات التى بقيت لنا من العصر القديم . وكنت أتمنى أن يكون لدينا العدد الأكبر والأقل فسادا . ولكن من الحق دائما أنه لن ترتفع أى نسخة الى مستوى يقين الأصل الأول لها .

تيوفيــــــل :

من المؤكد أنه عندما يؤكد مؤلف واحد من القدماء واقعا ما . فان كل من ينسخه لن يضيف عليــه أى قيمة وبالأحرى يجب ألا يوضع فى الاعتبار وهــذا ما يجب أن يكون طالمــا ما يقوله لن يكون سوى تكرار ، هكذا الأمر بالنسبة للأشياء التى أراد أن يعمل منها السيد ميناج Menag كتابا ، فهى لم تذكر سوى مرة واحدة . اليوم أيضا عندما يكرر مائة ألف مؤلف صغير نقائص بولزك Bolsec مثلا فان الانسان الفطن لن ينظر اليها الا على أنها مجرد أصوات لفرخ الأوز . لقد كتب الفقهــاء de fide historica مادته تستحق بحثا أدق : وبعض هؤلاء السـادة كانوا متسامحين جــدا بالنسبة للعصر القديم مازالت بعض الوقائع الأكثر دويا موضع شك : لقد شك أناس ماهرون بحق فى هل كان روميلوس أول مؤسس لدينــة روما . هنــاك نقاش حول وفاة سيروس وبالتالى الصراع بين هيرودوت وستيسياس قد أثار الشكوك حـول تاريخ السـيريان والبابليين والفرس وكذلك تاريــخ كل من Nabuchodonosor Assuérus d' Esther, de judith. يعانى الكثير من الصـعوبات . عنـدما يتحدث الرومان عـن ذهب تولوز يعارضون ما يحكى عـن هزيمة الجولوا على يــد كامى Camille ، وخاصة التاريخ الخاص والشخصى للشــعوب لا تخلو من نقد ، ، عندما لا يؤخذ من الأصــول القديمة جــدا ، أو الموافقــة تماما التاريخ العــام . لهذا فان ما يحكى لنا عن قدماء الملوك الجرمان والجولوا والبريتانيك والايكوس واليولوفى وغيرهم ، يصبح مجرد أســطورة ولمجرد التسلية ، أن تريبيتا Trebeta ابن نينوس مؤسس تريف Tréves ، بروتس مؤلف البريتون حقيقيان مثل الــ Amadis الحكايات المأخوذة من بعض مؤلفى القصص : Trithemius, Sifuid Petri, Albinis, Aventin

وقد أعطو لأنفسهم الحرية فى أن يصنفوا الأمراء القدماء الى فرانك
Frison, saxon, Boiens, Franc . وما يحكيه لنـا ساكسون العالم
النحوى وادا Edda عن القدماء الذين عاشوا فى الشـمال : سيكون له
نفس قوة ما يقوله Kadlubko المؤرخ البولونى الأول ، عن أحد ملوكهم
من سـلالة يوليوس قيصر ، ولكن عندما تتقابل قصص مختلف الشعوب
فى حالات لا يبدو أن أحدها قد نسخ عن الآخر ، فان ذلك سيكون أكبر
دليل على الحقيقة ، مثلا اتفاق هيرودوت مع تاريخ العهد القديم فى
كثير من الأشـياء ، مثلا عنـدما يتحدث عن معركة مجيدو Mégiddo
بين ملك مصر والسوريين فى فلسطين ، أى اليهود ، وحيث حسب تقرير
التاريخ المقدس الذى لدينا عن العبريين . أصيب الملك جوسياس Josias
بجرح مميت . الاتفاق بين مؤرخى العرب والفرس والترك والأغريق
والرومان وغيرهم من المقربين يسر كل من يبحث عن الوقائع ، كما أن
شهادات الميداليات والمخطوطات الباقية من العصر القديم والتى تضاف
الى كتب القدماء ، تصبح فى الحقيقة نسـخا من النسـخ . علينا أن
ننتظر ما يضيفه الينا تاريخ انصـين عندما يصبح فى حالة تسـمح
بالحكم عليـه عندما يحمل معه مبررات الثقة فيه ، الاهتمام بالتاريخ
يرجع أصلا الى اللذة التى نجدها فى معرفة الأصـول والتقدير الذى
يمنحه لمن يستحق من الرجال وتقرير النقد التاريخى وخاصة التاريخ
المقدس الذى يدعم أسس الوحى (ولنضع جانبنا على السلالات وحقوق
الأمراء والأقوياء) والتعاليم المفيدة التى تقدمها الأمثلة لا أحتقر أبدا
محاولة التنقيب فى الماضى لنصل الى أقل الأمور أهمية ، لأننا أحيانا
نسـتخدم ما يمدنا به النقد من معارف فى أمور أكثر أهمية ، انى أوصى
بأن نكتب تاريخ الملابس وفن الخياطة منذ ملابس الحبر الأعظم ادى
العبريين بل واذا أردنا منـذ الكسوة التى أعطاها الله لأول زوجين عنـد
خروجهما من الجنة حتى أربطة الشـعر والزينة الكريهة فى عصرنا ،
وأن نضيف اليه كل ما يمكن أن نستخرجه من الكتب القديمة والرسوم
والتماثيل المصنوعة منـذ عدة قرون ، وقد أضيف اليها ، اذا رغب فى

ذلك أى شخص ، مذكرات رجل من أوجسبرج فى القرن الماضى أخـذ لنفسـه صـورا بكل الملابس التى ارتداها منـذ طفولته حتى سن الثالثة والستين ، ولا اذكر من قال لى أن المرحوم الدوق « أومنت »(٤) هو مطلع على أخبار القدماء : كان مهتما بأمور مشابهة • وربما يساعدنا هـذا فى تمييز الآثار المشروعة من تلك غير المشروعة ، دون أن نتعرض لاستخدامات أخرى ، ومادام من المسموح للناس أن يلعبوا فسيكون من المسموح لهم أكثر أن يتسلوا بهذه الأنواع من الأعمال . اذا لم ترهقهم واجبـاتهم • ولكنى كنت أتمنى أن يتخصص أشـخاص باختيارهم ، ليستخرجوا من التاريخ كل ما هو أكثر فائدة وليكون لدينا أمثلة غير عادية للفضيلة وملاحظات على متع الحياة وخطط السياسة والحرب • كما كنت أتمنى أن يكون لدينا تاريخا كليا لا يذكر سوى هـذه الأمور وقليل من الأمور ذات النتائج ، لأننا أحيانا نقرأ كتابا كبيرا فى التاريخ ، قد أحسن كتابته ويحقق هدف مؤلفه ، وممتاز فى نوعه ، ولكنه مع ذلك لا يحتوى على معلومات مفيدة ، أنا لا أقصد هنا تلك الاخلاقيات البسيطة المملوء بها مسرح الحيـاة البشرية والدواوين الشـعرية ، وانما أقصد مهارات ومعارف لا يجدها الناس عند الحاجة اليها • أتمنى أيضا أن يستخرج من كتب الرحلات أشياء لا حصر لها ونمتلك هـذه الطبيعة ، يمكن أن نستفيد منها وأن نرتبها حسب موادها • ولكن من المدهش أن الكثير من هـذه الأمور مازال فى حاجة الى التنفيذ ، ان الناس يتسلمون دائمـا بما قد نحقق فعلا ، أو بأشياء لا جدوى منها أو على الأقل بما هو قليل الأهمية . ولا أجد علاجا لهذا سوى أن يندمج الناس بصورة أكثر جدية وفى أوقات أكثر هدوءا •

فيـــلاليت :

١٢ ــ استطراداتك تسر وتفيد ، ولكن بالنسبة لاحتمال الوقائع علينا أن نعرض للاعتقادات التى تمس الأشياء التى لا تقع تحت الحواس • أنهـا غير قابلة لأى شـهادة ، مثل وجود وطبيعـة العقول والملائكة

والشـــياطين ... الخ الجواهر الجســدية التى تكون فى الكواكب ومساكن هذا الكون الفسيح ، وأخيرا طريقة عمل معظم أعمال الطبيعة ، فنحن لا نملك عن كل هذه الأشـــياء اننا لا نستطيع تقريرها فهى لا تبدو محتملة الا بقدر تناسبها كثيرا أو قليلا مع الحقائق المقررة . ان احتكاكا عنيفا بين جسمين يولد الحرارة وقد يشعل نارا ، ان انحراف الأجسام الشفافة يظهر الألوان ، فتحكم بان النار تتولد عن تحرك عنيف للأجزاء غير المحسوسة ، وان الألوان التى لا ترى أصلها تبحث عن انحراف مشابه ، ونظرا لوجود ارتباط متدرج بين كل أجزاء المخلوقات القابلة للملاحظة البشرية والتى لا يوجد بين أى جزئين منها فراغ يحق لنا أن نعتقد أن الأشـــياء ترتفع نحو الكمال تدريجيا وبدرجات غير محسوسة . ومن الخطأ القول أين يبدأ كل من المحسوس والمعقول وما هى أقل درجة للأشـــياء الحية . ان الأمر هنا يشبه تزايد وتناقص الكمية فى المخروط المنتظم . هنـــاك اختلاف متزايد بين أفراد معينة وحيوانات عجماوية معينة ، ولكن اذا أردنا المقارنة بين فهم وقدرة اناس معينين وحيوانات معينة فاننا سنجد الفارق بينهما قليل جـــدا بحيث سيكون من الخطأ تأكيد أن فهم هؤلاء الناس سيكون أدق وأكثر امتدادا من فهم هـــذه الحيوانات . مع اننا لو لاحظنا مثل هـــذا التدرج غير المحسوس بين أجزاء المخلوقات ابتداء من الانسان حتى الأجزاء الأدنى التى تتدرج تحته ، فان قاعدة المقـــارنة تجعلنا نرى احتمال أن يوجد مثل هـــذا التدرج فى الأشـــياء التى تكون فوقنا خارج عالم ملاحظاتنا ، وهـــذا النوع من الاحتمال سيكون الأساس الأكبر للفروض المعقولة .

تيوفيـــــل :

ان هذه المقارنة دفعت بالسيد هوجنز Hugens فى كتابه نظريات الكون Cosmotheores الى أن يرى أن حالة الكواكب الأخـــرى الرئيسية تقترب من حالتنا ، ماعدا ما يسببه اختلاف بعدها عن الشمس من اختلافات وكذلك السيد فونتنيل Fontenelle الذى كان له اهتماماته

العميقة عن تعدد العوالم . قال أشياء جميلة فى هذا الصدد وقد وجد أن فن الأبراج صعب • ويقال أيضا أن هارلكان Harlequin قد ذكر شيئا قريبا من ذلك فى كتابه مملكة القمر • والواقع أن الحكم على هذه الأقمار (وهى مجرد كواكب تابعة) قد تغير • وقد ألف كلبر[٦] Kelper كتابا صغيرا • يصور فيه حالة القمر • كما ذكر شخص انجليزى[٧] نافذ الذهن ، وصفا شيقا لشخصية أسبانية من اختراعه : حملته الطيور العابرة الى القمر ، ولن نتحدث عن سيرانو Cyrano الذى ذهب يبحث عن هذا الاسبانى • لقد أراد بعض ذوى الذهن النافذ تقديم صورة جميلة للحياة الأخرى ، وتخيلوا دعوة الارواح السعيدة الى التنزه من عالم الى عالم ، وقد يجد خيالنا فيها جزءا من الاهتمامات الجميلة بالجن، ومهما كان الجهد الذى بذل ، فانى أشك فى استطاعتنا الاتصال بالجن ؛ بسبب بعد المسافة والاختلاف الكبير بيننا وبينهم ، والى أن نحصل على منظار يشبه ذلك الذى وعدنا به ديكارت لنميز أجزاء سطح القمر التى لا تزيد عن حجم منازلنا ، فلن نستطيع تحديد ما يوجد فى كوكب مختلف عن كوكبنا • تخميناتنا ستكون مفيدة أكثر وحقيقية أكثر بالنسبة للأجزاء الداخلية لاجسامنا • أتعشم أن نذهب الى ما وراء التخمين فى كثير من الحالات وأعتقد فعلا الآن أنه على الاقل لا يجب أن تعتبر التحرك العنيف لأجزاء النار الذى حدثتك عنه ضمن الاشياء التى لا تكون سوى رموزا • خسارة أن يصبح فرض ديكارت الخاص بتلاحم أجزاء الكون المرئى قليل الاتفاق مع الأبحاث والاكتشافات التى تمت منذ ذلك الحين ، أو أن يكون على ديكارت أن يعيش خمسون عاما أكثر لعطينا فرضا يخص المعارف الحاضرة يشبه ذلك الذى أعطاه لنا فى عصره • بالنسبة للارتباط المتدرج للانواع فقد تعرضنا له فى مناقشة سابقة حيث أوضحت أن الفلاسفة فكروا فعلا فى الفراغ وفى الاشكال أو الاخناس • كل شىء فى الطبيعة يسير بتدرج ولا يتم شيئا فجأة هذه القاعدة الخاصة بالتغيرات تعتبر جزءا من قانون الاستمرار الخاص بى ، ولكن جمال الطبيعة يتطلب ادراكات متميزة ويتطلب مظاهر من

القفزات أو على حد القول خاتمات موسيقية ، كما أنها تجد لذة فى خلط الاجناس • وعلى هذا حتى وان كان من الممكن أن يوجد فى أى عـــالم آخر أنواعا متوسطة بين الانسان والحيوان (حسب ما يفهم من هاتـين الكلمتين) وأنه يوجد فى مكان ما من الحيوانات العاقلة ما يفوقنا ، فان الطبيعة قد وجدت من الاحسن أن تبعدها عنا لتمنحنا ، دون منـــازع ، التفوق الذى لدينا فى كوكبنا • أتحدث عن الاجناس المتوسطة ولا أريـد أن أتعرض هنا للافراد البشرية التى تقترب من الخامات ، اذ من الواضح أن هذا ليس عيبا فى الملكة ، ولكنه عقبة فى الممارسة ، بحيث أعتقـد أن أغبى الناس (الذى لا يكون فى حالة تعارض الطبيعة بسبب مرض أو نقص آخر دائم يحل محل المرض) سيكون بلا مقارنة أكثر معقولية وأكثر وداعة من أكثر الحيوانات روحانية . بالرغم من أنه قد يقـــال احيانا عكس ذلك عن طريق المزاح • بقى أن أؤيد بقوة البحث عـن المقارنات : النبـــاتات ، الحشرات ، علم التشريح المقـــارن للحيوانات سيزودنا أكثر فأكثر خصوصا عندما نستمر فى استخدام المجهر أكثر مما نفعل الآن • وبالنسبة للمواد الاعم ستجد أن مشاعرى بالنســبة للوحدات العنصرية المنتشرة فى كل مكان وعن استمرارها الذى لا يتوقف وعن حفظ الحيـــوان بالروح والادراكات الأقل تميزا فى حالة معينــة، مثل موت الحيوانات البسيطة وعن الاجســـام التى من المعقول أن ننسبها الى الجن وعن انسجام الأرواح والاجســـام الذى يجعل كل واحـد منها يتبع قوانينه الخاصة دون أن يضطرب بغيره ودون أن يتميز فيهـــا الارادى أو اللاارادى : أقول سنجد أن كل هذه المشاعر تتفق تماما مـــع مقارنة الاشياء التى نلاحظها وأنى اتجاوزها فقط فيما يتصل بملاحظاتنا دون أن أحصرها فى نسب معينة من المـــادة أو أجناس معينة من الأفعال ، وأنه لا يوجد أى اختلاف بينها سوى اختلاف الاكبر عن الاصغر والمحسوس عن غير المحسوس •

فيـــــلاليت :

١٣ ــ على أي حال هناك حالة قد يقل مراعاتنا لها عند مقارنـــة الاشياء الطبيعية التى نعرفها بالتجربة عن مراعاتنا لما يتصل بالشـــهادة المعارضة لواقع غريب يبتعد عنها ، لأنه عندما تتفق الاحداث التى تفـــوق الطبيعة مع غايات ذلك الذى لديه القدرة على تغيير مجرى الطبيعة فلن يكون لدينا ما يبرر رفضنا الاعتقاد فيها عندما تكون قد تقررت جيداً ، وهذه هي حالة المعجزات التى لا يجب الاعتقاد فيها فحسب بل نقلهـــا أيضا الى حقائق أخرى تحتاج الى مثل هذا التأكيد .

١٤ ــ أخيرا هناك شهادة تجعلها تفوق أى تصديق وهو الوحـــى ، أى شهادة الله الذى لا يخدع ولا يخدع والتصديق الذى ننسبه اليه يسمى ايمانا ويستبعد كل شك تماما كالمعرفة الاكثر يقينا . ولكن الامـــر هنا يتطلب أن نكون متأكدين أن الوحى الهيا وأن نعرف أننا نفهم المعنـــى الحقيقى والا تعرضنا للتعصب والاخطاء الناتجة عن التفسير الخاطىء . وعندما يكون وجود ومعنى الوحى محتملا فحسب فلن يكون التصديـــق من الاحتمال أكثر من ذلك الموجود فى الادلة وهذا ما سنتحدث عنه مرة أخرى بتفصيل أكثر .

تيوفيـــــل :

يمثل اللاهوتيون بين دوافع قابلية التصـــديق (كمـــا يســـمونها) والتصديق الطبيعى الذى يجب أن يتولد عنه ، ولا يمكن أن يحصـــل على احتمال أكبر من هذه الدوافع ، وبين القبول فوق الطبيعى الذى هو فى الواقع من العناية الالهية . لقد حرروا كتبا خاصة بتحليل الايمان والتى لا تتفق فيما بينها ، ولكن مادمنا سنتكلم عنها فيما بعد فانى لا أحـــب التعرض هنا لما سنتناوله فى موضعه .

الشخصيـــــات

(١) Meré مشهور فى القــرن ١٧ صـــديق بســكال وبلزاك : نشرت أعماله فى امستردام سنة ١٦٩٢ فى مجلدين .

(٢) بســكال : كاتب مشهور وفيلســوف فرنسى ولد فى كليمونت ســنة ١٦٢٣ وتوفى فى باريس ســنة ١٦٦٢ عملاه الرئيســيان هما : الريفيات Provinciales والأفكار Pensées أوضح كوزان فى تقريره المشــهور بالأكاديمية الفرنســية أن نص العمل الأخير قد عدله تعديلا خطيرا الناشرون الأوائل من بورت رويال . يوجــد الآن طبعتان مخلصتان طبعــة Faugére فى مجلدين وطبعــة Havet فى مجلد واحد .

(٣) Hugens أو Huyghens عالم فيزيقى ورياضى مشــهور فى القرن ١٧ ولد فى هوج بهولندا ســنة ١٦٢٩ وتوفى بنفس المدينة سنة ١٦٩٥ نشر وجمع أعماله S. Gravesande تحت عنوان Christ hugens in IV tomes distributa فى ليد سنة ١٧٢٤ فى مجلد واحد وفى امستردام سنة ١٧٢٨ فى مجلدين .

(٤) دوقدومنت : duc d' aumont عالم فى القرن ١٧ وعضــو فى اكاديمية المخطوطات والفنــون الجميلة . ولد فى علم ١٦٣٢ وتوفى ســنة ١٧٠٤ .

(٥) فونتنيــل : Fontenelle ولد فى روان سنة ١٦٥٧ توفى فى باريس ســنة ١٧٥٧ وعمره مائة عام لم يكن فيلســوفا بالمعنى الدقيق ويتصل بتاريخ الفلسفة بروحه الفاحصة والنافذة التى تسود أعماله اهمها محاورات الموتى (١٦٨٣) وبحث فى تعدد العالم (١٦٨٦) تاريخ المعجزات (١٦٨٧) شــكوك حــول نظــام العلل العرضــية وأخيرا رثاء eloge وهــو عمله الرئيسى .

(٦) كلـبـر Kelper ولد فى Weill سنة ١٥٧١ وتوفى فى Ratisbonne ســنة ١٦٣٠ عالم هندســة مشــهور وفلكى اكتشف قوانين الحركة الكونية .. اهم أعماله Harmonices mundi libri quinque (الكتب الخمس عن انســجام العالم) . علم الفلك الجــديد أو الفيزياء السماوية مؤسسة على دراســة حركة مارس . والكتاب الذى اشــار اليه ليبنتز وهــو : Sumnium Kelper

(٧) Godwin de Liandoff : رجل دين انجليزى فى كتابه « رجل فى القمر » لندن سنة ١٦٣٨ ترجم للفرنسية ســنة ١٦٤٨ .

الفصـــل الســـابع عشر

العقــــــــــل

فيـــــــلاليت :

١ ــ قبل أن نتحدث بوضوح عن الايمان سنتناول العقل • أنـــه يعنى أحيانا المبادىء الواضحة والحقيقية وأحيانا النتائج المســتدلة من هــذه المبادىء ، وأحيانا العلة وخاصة العلة النهائية • وسنعتبره هنـــا كملكة نفترض أنها تميز الانســـان ويفضلن الحيوان ويفضلها يفوقها كثيرا •

٢ ــ نحتاج اليه أما لنوسع معارفنا أو لننظم معتقداتنا ، وهـــو يتكون ، اذا أحسنا تناوله ، من ملكتين هما الفطنة للحصول على الأفكار المتوسطة وملكة استخراج النتائج أو الاستدلال •

٣ ــ يمكن أن نعتبر فى العقل هذه الدرجات الأربعة :

١ ــ اكتشاف الأدلة •

٢ ــ تنظيمها بشكل يظهر ارتباطهـــا •

٣ ــ ادراك الارتباط فى كل جزء من الاستدلال •

٤ ــ استخراج النتيجة يمكن أن نلاحظ هذه الدرجـــات فى الاستدلالات الرياضية •

تيوفيــــــــــل :

العقل هو الحقيقة المعروفة والتى ارتباطها بأخرى معروفة بصورة أقل تجعلنا نصدق الثانية • ولكن بوجه خاص نسميه عقلا اذا ما كان علة ليس فقط لحكمنا وأنما أيضـــا للحقيقة نفسها ، وما نسميه أيضا عقـــلا قبليا ، العلة بالنسبة للأشياء كالعقل بالنسبة للحقائق ، ولهذا تسمى العلة نفســـها أحيانا عقلا وخاصـــة العلة النهائية ، وأخيرا الملكة التى

تدرك هذه الرابطة بين الحقائق ، وملكة التفكير هى أيضا تسمى عقلا ، وهذا هو المعنى الذى نستخدمه هنا ، لأنى قد أظهرت فعلا فيما قبل أن شبه التفكير الذى نراه فى الحيوانات ليس سوى توقع حادث مشابـه لحالة تبدو مشابهة فى الماضى دون معرفة هل يوجد نفس العلة النـاس أنفسهم لايتصرفون خلاف ذلك فى الحالة التجريبية فقط • ولكنهم يرتفعون عن الحيوانات بقدر ما يرون من ارتباطات بين الافكار ، أقـول ، الارتباطات التى تشكل أيضا فى ذاتها حقائق ضرورية وكلية • هـذه الارتباطات تكون ضررية حتى عندما لا تنتج سوى اعتقاد ، عنـدما يمكن اثباتها بعد أن يتضح احتمالها بالبحث الدقيق وبحيث يوجـد عندئذ ليس استدلالا لحقيقة فحسب وانما الجانب الذى تتطلب الحكمـة أن نأخذ به • واذا قسمنا ملكة التفكير ، فأنى أعتقد أنه لا بأس من أن نتعرف فيها على جزئين وفق شعور سائد إلى حد ما يميز بين الاختـراع والحكم أما بالنسبية للدرجات الاربعة التى ذكرتها بالنسبة للاستدلالات الرياضية فانى أرى أن الأول ، وهو اكتشاف الأداة ، لا يبدو بالصورة التى كنت أتمناها • أننا نجد أحيانا تركيبات دون تحليل وأحيانا يحـذف التحليل ليضع علماء الهندسة فى استدلالاتهم أولا القضية التى يجـب اثباتها ولكى يصلوا الى الاستدلال يعرضون لبعض الاشكال ما هو معطى (ما يسمى بالمعطيات ecthèse) ومن بعدها ينقلون الى الاعداد ويرسمون خطوطا جديدة يحتاجون اليها فى الاستدلال ، وأحيانا يكمن الفن الاكبر فى الحصول على الاعداد • بعد ذلك يعملون الاستدلال نفسه بأن يستخرجوا النتائج مما سبق أن سلموا به فى المعطيات ومما أضيف فى الاعداد مستخدمين الحقائق المعروفة فعلا أو التى سبق اثباتها ليصلوا الى النتيجة • ولكن هناك حالات قد نستغنى فيها عن المعطيات والاعداد •

فيـــــلاليت :

من المعتقد بوجه عام أن القياس هو الاداة الكبرى للعقل وأحسن وسيلة لعمل هذه الملكة • وأشك فى ذلك ، لأنه لا يفيد الا فى رؤيـة

الترابط بين الادلة في مثال واحد وليس فيما عداه ، وقد يراه الذهن بسهولة وربما أفضل بدونه • وأولئك الذين يعرفون استخدام الاشكال والانماط يفترضون في أغلب الاحيان استخدامها بقانون واضح وضعه اساتذتهم دون أن يفهموا علته ، اذا كان القياس ضروريا فلن يعرف العقل الانساني أي شيء قبل اكتشافه ؛ ويجب القول أن الله قد جعل من الانسان مخلوقا ذا ساعتين وترك لارسطو مهمة أن يجعل منه حيوانا عاقلا ، أريد أن أقول أن قليلا من الناس يمكنهم الاهتمام بفحص أسس الاقيسة حيث لا يوجد من بين ٦٠ طريقة لتشكيل القضايا الثلاثة سوى ١٤ تقريبا يقينية • ولكن الله كان أكثر رحمة بالبشر • لقد منحهم ذهنا قادرا على التفكير • لا أقول ذلك لأقلل من شأن ارسطو الذي اعتبره من أكبر رجال العصر القديم والذي من النادر أن يوجد من يضاهيه في الانتشار أو الدقة أو نفاذ الذهن أو قوة الحكم ، والذي اخترع هذا النظام الصغير من أشكال المجادلة وقدم خدمة كبرى للعلماء ضد أولئك الذين لم يخجلوا من انكار كل شيء ، ولكن مع ذلك ، هذه الاشكال ليست هي الوسيلة الوحيدة ولا الافضل للتفكير ؛ وأرسطو نفسه لم يصل اليها بواسطة هذه الاشكال وانما عن الطريق الاصيل للتوافق الواضح بين الافكار : والمعرفة التي نكتسبها بواسطة النظام الطبيعي في الاستدلالات الرياضية تبدو أفضل بدون سند من أي قياس • الاستدلال هو استنتاج صدق قضية من أخرى نعرف من قبل أنها صادقة ، أما افتراض ارتباط معين بين الافكار المتوسطة ، مثلا من قولنا أن الناس ستعاقب في العالم الآخر ، نستدل أنهم يستطيعوا تحديد أنفسهم في هذا العالم • واليك الرابطة « سيعاقب البشر ، الله هو الذي يعاقب ، اذن العقاب عادل ، اذن المعاقب مذنب ، اذن كان الاحرى به أن يعمل خلاف ذلك ، اذن لديه الحرية ، اذن أخيرا لديه القدرة على أن يحدد » تظهر الرابطة هنا أفضل مما لو وجد خمس أو ستة أقيسة معقدة ، حيث تكون الأفكار منقولة مكررة ومنتظمة في أشكال صناعية يلزمنا أن نعرف أي الارتباطات لديه فكرة متوسطة

بين أول القياس وآخره وهذا لا يمكن لأى قياس أن يثبته • أن الذهن هو الذى يستطيع برؤية الخاصة ادراك هذه الافكار الموضوعة هكذا بنوع من التجاور ، ما فائدة القياس اذن ؟ انه يستخدم فى المدارس حيث لا يخجلوا من انكار اتفاق الافكار الواضح اتفاقها • من أين يأتى أن الناس لا يعقلون أبدا الاقيسة لأنفسهم عندما يبحثون عن الحقيقة أو عندما يعلموها للذين يرغبون باخلاص فى معرفتها ؟ من الواضح تماما أن هذا النظام :

انسان — حيوان — حى

أى أن الانسان حيوان والحيوان حى ، اذن الانسان حى •

طبيعى أكثر من هذا القياس :

حيوان — حى ، انسان — حيوان ، انسان — حى

أى أن الحيوان حى والانسان حيوان اذن الانسان حى

حقا أن الأقيسة يمكنها أن تستخدم فى اكتشاف خطأ مستتر وراء بريق الزينة المستعار من البلاغة ، وقد اعتقدت فيما مضى أن القياس ضرورى على الاقل لتجنب السفسطة المقنعة وراء الاحاديث الزاهية ، لكن بعد فحص دقيق وجدت أنه ما علينا الا أن نميز بين الافكار التى تعتمد عليها النتائج وتلك التى تكون سطحية ، أن نرتبها فى نظام طبيعى لتظهر تنافرها • لقد عرفت رجلا يجهل قواعد القياس تماما ومع ذلك أدرك ما فى حديث طويل مصطنع ومقبول من ضعف وبراهين باطلة ، لم يتوصل اليها اناس آخرون تدربوا بكل دقة على المنطق ، واعتقد أن قليلا جدا من قرائى لا يعرفون هؤلاء الاشخاص • واذا لم يكن الامر كذلك ، فان الامراء لن يفوتهم أن يدخلوا الاقيسة فى المناقشات الهامة التى تهم عروشهم ومصالحهم ، والتى يعتقد الجميع أن من العبث استخدامها • لم نسمع أحدا تحدث عن ذلك لا فى آسيا ولا أفريقيا ولا أمريكا ولا

الاحرار الاوروبيين • أخيرا سنجد فى نهاية الحساب أن هذه الاشـــكال المدرسية لا تخلو من خداع ، ومن النادر أن يقنع هذا المنهج المدرسى بل ومن النادر جدا أن ينتصر • أنهم يعرفون أكثر أن خصمهم أكثر مهارة ولن يتركهم يقنعوه بعدالة حجتهم • أما اذا أمكن ادخال استدلالات خاطئة فى القياس فمن الواجب اكتشاف هذا الخطأ بوسيلة أخـرى غير القياس • ومع ذلك فلست من الرأى القائل برفض الأقيسة أو أن نحرم أنفسنا من أى وسيلة قادرة على مساعدة الذهن هناك عيون فى حاجة الى نظارة ، ولكن لا يجب على أولئك الذين يستخدمونها أن يلزموا كل من يقرأ باستخدامها • أن فى ذلك انتقاص من قدرة الطبيعة من أجل من هم مدينون لها به ، خاصة اذا كان تأييدهم قد جـاء على يـد أشخاص يستخدمون النظارات أو أنهم استخدموها عندما ضعف بصرهم ولم يعد فى استطاعتهم الرؤية بدونها •

تيوفيـــــــــل :

استدلالك على قلة فائدة الاقيسة ملىء بالعديد من الملاحظـات القويـة والجميلة ، ويجب الاعتراف أن الشكل المدرسى للاقيســـة قليل الاستخدام فى العالم ؛ وأنه طويل ومعقد اذا أردنا استخدامه بجد ـ ومع ذلك هل تعتقـد ذلك (ج) أنى أتمسك بأن اختراع شـــكل الاقيسة من أجمل ما صنع الذهن البشرى ومن أكثرها استحقاقا للتقدير، أنه نوع من الرياضة الكلية لم تعرف أهميته بما فيه الكفاية ، يمكـن القول أنه يحتوى على فن العصمة من الخطأ ، بشرط أن نعرفه وأن نحسن استخدامه ، وهذا غير متيسر دائما وعلى ذلك يجب معرفـة انى أقصد بالادلة الصورية ، ليس فقط هذه الطريقة المدرسية مـن البرهنة التى تستخدم فى المدارس ، وانما كل استدلال نستدل له بطريقـة صورية ولا نحتاج فيه لاضافة أى موضوع ، بحيث يصبح أى قيـاس مركب مفصول النتائج sorite وأى نسيج آخر من القياس يتجنب التكرار بل حتى الحساب الدقيق ، وحساب الجبر ، والتحليـل اللامتناهى ستكون كلها فى نظرى أدلة صورية ما دامت صورة استدلالها قـد سبق

اثباتها بحيث نتأكد من أننا لم نخدع • ولا يهم كثيرا ألا تكـــون استدلالات أقليدس أدلة صورية فى الغالب • لأنه عندما يحمل القياس المضمر فى الظاهر ، فان القضية المحذوفة والتى تبدو ناقصة ، قد عوضت بذكرها فى الهامش حيث نعطى الوسيلة للحصول عليها مثبتة فعلا ، وهذا يحقق اختصارا كبيرا دون أن ننقص شيئا من قوتها • هذه القضايا العكسية والتركيبات تقسيمات الاسباب divisions des raisons ليست سوى انطباعا من صور التدليل جزئية وخاصة بالرياضيين وبالمادة التى يبحثونها والتى يثبتون صورها بمساعدة الصور الكلية للمنطق • علاوة على ذلك يجب معرفة أنه توجد نتائج غير قياسية جيدة لا نستطيع اثباتها بدقة بواسطة أى قياس بدون أن نغير قليلا من الحدود • هـــذا التغيير نفسه للحدود هو الذى يجعل النتيجة غير قياسية • يوجـــد منهـــا الكثير من بينها a recto ad obliquum مثلا : المسيح اله ، اذن أم المسيح تكون أم الاله • وبالمثل ما يسميه المناطقة المـــاهرون بعكس العلاقة مثل هذه النتيجة : اذا كان دافيد والدسلامون فلا شك فى أن سلامون ابن دافيد • هذه النتائج لا ينقصها أن نثبت بواسطة حقائق تعتمد عليها الاقيسة الشعبية أيضا ليست الأقيسة حملية فقط بـــل شرطية بما فيها الشرطية المنفصلة • ويمكن القول أن الحملية بسيطة ومركبة الحملية البسيطة هى التى نعتبرها عادة حسب أنماط الاشكال وقـــد وجدت أن لكل شكل من الاشكال الاخرى ستة أنماط ، بحيث يوجد ٢٤ نمطا فى الجميع • الاربعة أنماط الشائعة للشكل الاول ليست سوى أثرا لدلالة السور كل ، لا ، بعض والاثنان الذى اضيفهما حتى لا نستبعـــد شيئا ليست سوى توابع للقضايا الكلية ، لأنه من هذين النمطين العاديين كل ب يكون جـ ، كل أ يكون ب ∴ كل أ يكون جـ وكذلك لا ب يكون جـ وكل أ يكون ب ∴ لا أ يكون جـ ، يمكن أن نضيف هذين النمطين : كل ب يكون جـ ، كل أ يكون ب ∴ بعض أ يكون جـ وكذلك لا ب يكون جـ ، كل أ يكون ب ∴ بعض أ ليس جـ • لأنه ليس من الضرورى أن نثبت القضايا التابعة وأن نثبت نتائجها : كل أ يكون جـ اذن بعض أ يكون جـ وكذلك لا أ يكون جـ

∴ بعض أ ليس جـ ؛ مع أننا نستطيع ذلك طبعا بواسطة القضايا الذاتية المرتبطة بالانماطالتي حصلنا عليها فعلا من الشكل الأول بهذه الطريقـة: كل أ يكون جـ ، بعض أ يكون أ ∴ بعض أ يكون جـ وكذلك لا أ يكون جـ، بعض أ يكون أ ∴ بعض أ ليس جـ . بحيث نثبت النمطين الاضافيين للشكل الأول بواسطة النمطين الاولين العاديين للشكل المذكور يتداخـل التوابع الممكن اثباتها هي نفسها بالنمطين الآخرين لنفس الشكل . وبنفس الطريقة الشكل الثاني يقبل أيضا نمطين جديدين ، وهكذا يكون لكل من الشكل الأول والثاني ستة ، وللثالث ستة في كل الاوقات ؛ ونعطي للرابع خمسة ولكن وجد أن لديه ستة كذلك بناء على نفس المبدأ ؛ ولكن يجـب معرفة أن الصورة المنطقية لا ترغمنا على هذا النظام للقضايا التـي نستخدمها بصورة عامة وأنا من رأيك ياسيدي أن الترتيب الآخر أفضل : كل أ يكون ب ؛ كل ب يكون جـ ∴ كل أ يكون ب وهذا سيكون بوجـه خاص بواسطة القياس المركب مفصول النتائج sorites وهو نسيج من هذه الأقيسة لأنه ما زال هناك واحد : كل أ يكون جـ كـل جـ يكون د ∴ كل أ يكون د ؛ يمكن أن نعمل نسيجا من هذين القياسين يتجنب التكرار فنقول : كل أ يكون ب ، كل ب يكون جـ ، كل جـ يكون د ∴ كل أ يكون د حيث نهمل القضية التي لا فائدة منها كل أ يكون جـ ونتجنب التكرار غير المفيد لنفس القضية التي يتطلبها القياسين ؛ لأنهـا قضية غير مفيدة والنسيج سليم وكامل في الصورة بدون هـذه القضية عندما نثبت قوة هذا النسيج بواسطة هذين القياسين . يوجد عدد لا حصر له من الانسجة الأخرى أكثر تعقيدا ليس فقط لأنه يدخل فيها عدد أكبر من الاقيسة البسيطة وانما أيضا لأن الاقيسة التي تدخل في تركيبهـا تختلف فيها بينها ، لأنه يمكن أن ندخل فيها ليس فقط قضايا حملية بسيطة انمـا أيضـا قضـايا عطفيـة ، وليس فقط قضـايا حملية وانمـا أيضـا شرطيـة وليس فقط أقيسة كـاملة وانمـا أيضـا أقيسـة مضمرة حذفت منها القضايا التي نعتقد أنها واضـحة . كـل هـذا يرتبط بنتائج غير قياسية ومع تغيير مكان القضايا وبقدر من التفكير وطرق

التعبير التي تخفي هذه القضايا ، نظرا للميل الطبيعي للذهن الى الاختصار ، ولخصائص اللغة ، التي تظهر في جزء منها ، استخدام الجزئيات ، كل هذا يعطينا نسيجا من الاستدلال يمثل كل برهنة ، حتى لدى الخطيب ، قد تخلص من الزينة وخضع للصورة المنطقية ، ليس بالطريقة المدرسية وانما بالطريقة الكافية لمعرفة قوتها حسب قوانين المنطق وهي ليست سوى تلك الخاصة بالحس السليم بعد أن يتم تنظيمها وتسجيلها كتابة ، ولا تختلف عنها الا اختلاف القوانين العرفية لاقليم ما بعد تسجيلها ، عما كانت عليه قبل تسجيلها . واذا لم يكن قد تحقق سوى هذا التسجيل وقدرتها على المواجهة بصورة أفضل ، فان ذلك يلقي ضوءا أكثر يساعدها على التقدم والممارسة ، لأن الحس السليم الطبيعي ، بدون مساعدة الفن سيجد صعوبة أحيانا في الوصول الى النتائج عندما يحلل بعض الاستدلالات ، فقد يجد مثلا أن بعضها مما يتضمن بعض نماذج من الحقيقة قليلة التداول ولكن المنطقي الذي لا يريدنا أن نستخدم مثل هذه الأقيسة أو لا يرد هو أن يستخدمها بدعوة أن علينا دائما أن نخضع كل الأدلة المركبة للأقيسة البسيطة التي نعتمد عليها ، سيكون ، حسب ما سبق أن ذكرته لك ، بمثابة شخص يريد ارغام التجار الذين يشترى منهم شيئا ما على أن يعدوها له واحدة واحدة كما نعد على أصابعنا ، أو كما تعد الساعات في ساعة المدينة ، مما يظهر غباءه اذا لم يستطع العد بطريقة أخرى والذي لا يستطيع ، بدون العد على الأصابع ، معرفة أن ٥ + ٣ = ٨ ويدل على نزوة اذا كان يعرف هذه المختصرات ولا يريد استخدامها أو السماح باستخدامها . وسيكون أيضا بمثابة الرجل الذي لا يريد مطلقا أن نستخدم البديهيات والمسلمات التي أثبتت فعلا بدعوى ضرورة اخضاع كل استدلال للمبادىء الأولى حيث تظهر العلاقة المباشرة بين الأفكار والتي نعتمد عليها هذه المسلمات المتوسطة . بعد أن شرحت استخدام الصور المنطقية بالطريقة التي أعتقد أن الواجب اتباعها ، أعود الى اعتباراتك ولا أرى مطلقا كيف تريد يا سيدي ألا نستخدم القياس الا لرؤية الارتباط بين الأدلة في مثال

واحد ، اننا لن نوافق على القول بأن الذهن يرى دائما بسهولة النتائج ؛ لأننا نرى أحيانا أن بعضها (على الأقل فى أدلة الآخرين) يفسح المجال للشك طالما لا نرى البرهان • عادة نستخدم الأمثلة لنبرر النتائج ولكن ليس هذا مؤكدا باستمرار رغم وجود فن الاختيار الأمثلة التى لن تكون صادقة أبدا اذا لم تكن النتائج جيدة • ولا أعتقد أنه كان مسموحا فى المدارس المنظمة جيدا أن ينكروا بدون أى خجل الاتفاق الواضح للأفكار ؛ ولا يبدو لى أن القياس قد استخدم لاثباتها • وعلى الأقل لم يكن الاستخدام الوحيد والرئيسى •

وسنجد غالبا أنه لا يظن (عند فحص استدلالات المؤلفين الزائفة) أنهم قد أساءوا لقواعد المنطق ، وقد جربت بنفسى أحيانا ، عندما ناقشت تحريريا بعض الأشخاص ذوى النوايا الطيبة ، أننا لم نبدأ فى التفاهم الا عندما تناقشنا صوريا لنزيل خليط الاستدلالات • لا شك أنه سيكون من العبث أن نبرهن فى المداولات بالطريقة المدرسية بسبب الأطناب المتعب والمزعج لهذه الصورة من الاستدلال ، لأنها بمثابة من يعد على أصابعه • ولكن مع ذلك فى المداولات الأهم التى تخص الحياة والدولة والسلام • وليس حقا تماما أن يترك الناس أنفسهم منبهرين أحيانا بالسلطة أو بريق الفصاحة أو الأمثلة التى أسىء تطبيقها أو الأقيسة الناقصة التى تخطىء فى افتراض وضوح ما تحذف ؛ بل وفى النتائج الخاطئة ، بحيث يلزمهم ، من بين أمور أخرى ، منطقا صارما ولكن فى سياق يختلف عن السياق المدرسى لكى يحددوا أين يكون الأوضح أما عن الرجل العامى الذى يجهل المنطق الصناعى والذى لا يفوته أن يفكر أحيانا أفضل من أولئك المتمرنين على المنطق ، فان ذلك لا يثبت عدم فائدته ، تماما كما أن عدم فائدة الحساب الاصطناعى ان يثبته رؤية بعض الناس يحسنون العد فى المناسبات العادية دون أن يعرفوا القراءة والكتابة ودون أن يعرفوا الامساك بالريشة أو الفيشة ، بل قد يظهرون أخطاء شخص تعلم الحساب ولكنه قد يهمل أو يشوش العلامات أو السمات • حقا أن من الممكن أن تصبح الأقيسة سفسطائية

ولكن قوانينها الخاصــة تساعد فى معرفتها • أن الأقيســة لا تعدل من الرأى ولا تقنع دائمــا ، ولكن لأن سوء استخدام التمييزات والحدود التى يساء فهمها تجعل الاستخدام مطولا لدرجة أن يصبح غير محتمل اذا لزم دفعه حتى النهاية • لم يبق لى هنا ســوى اعتبار اتمام حجتك المقدمة كمثال على استدلال واضح بدون الصورة التى يقول بها المناطقة • يعاقب الله الانســان (هــذا من واقع مفروض) يعاقب الله بعدالة ذلك الذى يعاقبه (هــذه حقيقة عقلية يمكن أن نسلم بأنها قوية) ∴ يعاقب الله الانســان بعدالة (هــذه نتيجة قياسية ممتدة بصورة غير قياســية الى a recto ad obliquum اذن يعاقب الانســان بعدالة (وهى عكس للعلاقة ولكنها حذفت لوضوحها) •

∴ الانســان مذنب (وهو قياس ضمنى حذف منه هــذه القضية التى ليست فى الواقع ســوى تعريف : ذلك الذى عوقب بعــدالة يكون مذنبا) •

∴ يستطيع الانســان أن يفعل ذلك (نحذف هــذه القضية ∴ ذلك الذى يكون مذنبا يمكن أن يفعل خلاف ذلك) •

∴ الانســان كان حرا (تحذف أيضا : من استطاع أن يعقل خلاف ذلك يكون حــرا) •

∴ (من التعريف الحر) لديه القدرة على التحديد وهــذا ما يجب اثباته • وألاحظ كذلك أن « اذن » هــذه تتضمن فى الواقع كلا من القضية المستترة « ذلك الذى يكون حرا لديه القدرة على أن يحدد » وتســتخدم لتجنب التكرار فى الحدود ، وفى هــذا المعنى لا يوجد شىء محذوف ، والحجة فى هذا الصدد يمكن أن تصبح كاملة • ترى أن هــذا الاستدلال نسيج من أقيســة متفقة تماما مع المنطق ، لأنى لا أريد الآن اعتبار مادة هــذا الاستدلال حيث ربما يوجد ملاحظات يجب ذكرها أو ايضاحات تطالب بها • مثلا ، عندما لا يستطيع الانسان أن يفعل خلاف ذلك توجد حالات يمكن أن يكون فيها مذنبا أمام الله

مثلما عندما يكون من السهل ألا يستطيع مساعدة جاره ليحصل على عذر ، وختاما أعترف أن صورة البرهنة المدرسية غير ملائمة عادة وغير كافية وسيئة التنظيم ، ولكن أقول فى نفس الوقت أنه ليس هنـاك ما هو أهم من فن البرهنة صوريا وفق المنطق الصحيح ، أى بتمام المـادة ، ووضوح نظـام وصورة النتائج ، سواء كانت واضحة بذاتها أو سبق اثباتها .

فيـــلاليت :

٥ ـ لقد اعتقدت أن القياس سيكون أقل فائدة أو بالأحرى لا فائدة منه مطلقا فى الاحتمالات ، لأنه لا يدفع سوى دليلا واحد نمطيا ولكن أرى الآن أنه يلزم دائمـا أن نثبت بقوة ما هو أكيد فى هـذا الدليل النمطى نفسه ، أى المظهر الذى يوجد فيه ؛ وأن تتكون قوة النتيجة فى الصـورة .

٦ ـ ومع ذلك اذا استخدمت الأقيسة فى الكم فانى أشك أنهـا تستطيع أن تسـتخدم فى الاختراع ، أى الحصـول على الأدلة وعمل اكتشافات جديدة . مثلا لا أعتقد أن اكتشاف القضية السـابقة والأربعين من الكتاب الأول لأقليدس تكون مطلوبة لقواعد المنطق العادى ، لأننا نعرفها أوليا ، كما أنها قابلة لأن تثبت فى صورة قياسية .

تيوفيـــــل :

اذا ما فهمنا أنسجة الأقيسـة ضمن الأقيسـة هى وكل ما اسميه البرهنة الصورية ، فمن الممكن القول أن المعرفة التى لا تكون واضحة بذاتها تكتسب بالنتائج ، هـذه النتائج لا تكون جيدة الا اذا كان لها صورتها المطلوبة . لاستدلال القضية التى تقول أن مربع وتر المثلث قائم الزاوية يساوى مربعى الجانبين ، فاننا نقسم المربع الكبير الى أجزاء وكذلك المربعين الصغيرين وسنجد أن أجزاء المربعين الصغيرين يمكن أن توجد كلها فى المربع الكبير لا أقل ولا أكثر . أن اثبات المساواة صوريا كذلك مساواة الأجزاء يمكن اثباتها بالحجج الصورية . لقد كان التحليل عند القدماء يعنى مثلا عند بابوس Pappus أن نأخذ ما نطلب

به وأن نستخرج منه نتائج الى أن نصل الى شيء معطى أو معروف •
لقد لاحظت انه لهذا يلزم أن يكون القضايا عكسية لكي يستطيع الاستدلال
في التركيب أن يسير بعكس قضايا التحليل ، المهم دائما استخراج
النتائج • من الأفضل مع ذلك أن نلاحظ هنا أنه لا مجال لهذه العودة
بالنسبة للفروض الفلكية أو الفيزيقية • كما أن النجاح لا يثبت حقيقة
الفرض • حقا أنه يجعله محتملا ، ولكن حيث أن هذه قد تبدو مذنبة
في حق قاعدة المنطق التي تقرر أن من الممكن استخراج الحق من الباطل ؛
فقد يقال أنه لا مكان مطلقا لقواعد المنطق في الموضوعات المحتملة •
وأجيب أن من الممكن استنتاج الحق من الباطل وليس محتملا دائما
وخاصة عندما يبرر فرض بسيط العديد من الحقائق ، وهذا لمن النادر
ويصعب وجوده • يمكن القول مع كاردان Carden أن منطق الاحتمالات
لديه نتائج أخرى غير منطق الحقائق الضرورية ولكن احتمالية النتائج
نفسها لابد وأن تثبتها نتائج منطق الضروريات •

فيـــلاليت :

٧ — يبدو وأنك من مؤيدى الدفاع عن المنطق الشعبى ولكنى أرى
أن ما تقوله يخص منطقا أكثر سموا بالنسبة له يكون المنطق الشعبى
بمثابة الأصول الأبجدية بالنسبة لعلم المعرفة • وهذا يذكرنى بفقرة
قالها رجل القانون « هوكر » Hooker فى كتابه « السياسة الكنسية »
الباب الأول الفقرة السادسة حيث يعتقد أنه اذا أمكن التزود بالمساعدات
الحقيقية للمعرفة وفق التفكير ، وأننا فى هذا القرن الذى يعتبر مستنيرا
لا نعرف كثيرا ولا يحاول أحد منا أن يبذل الجهد ، وأصبح الاختلاف
في قوة الحكم بين أولئك الذين ظلوا فى حالتهم الحاضرة كالاختلاف
بين الناس فى حالتنا الحاضرة والأغبياء • وأتمنى أن يتيح حوارنا
الفرصة لأن يصل البعض الى المساعدات الحقيقية للفن الذى تحدث عنه
هذا الرجل العظيم الذى يتمتع بذهن نافذ • وأن يصبحوا مقلدين
ولن يشبهوا الدواب التى تتبع الطريق الممهد • ومع ذلك أجرؤ على

القول أنه يوجد فى القرن أشخاص يتمتعون بهـذه القوة فى الحكم وبهـذا الذهن الثاقب ويمكنهم الحصـول على طرق جديدة لتقـدم المعرفة اذا أرادوا أن يجهدوا أنفسـهم وأن يوجهوا أنظارهم الى هـذا الجانب •

تيوفيـــــل :

لقد لاحظت جيدا يا سيدى مع المرحوم « هوكر » أن العالم لا يبذل الجهد فى هـذا المجال ، وعلاوة على ذلك أعتقد انه يوجـد وأنه قد وجد أشخاص قادرون على النجاح فى هـذا المضمار • كما يجب الإعتراف ان لدينا الآن مساعدات كبرى سواء في جانب الرياضيات أو الفلسفة ولا يعتبر بحث صديقك الممتاز عن الفهم الانسـانى اقلها وسنحاول أن نرى هل هناك وسيلة للاستفادة منه ؟

فيـــــلاليت :

٨ ـــ يلزمنى القول يا سيدى انى اعتقدت وجود خطأ واضح فى قواعد القياس ولكن مناقشتك لى جعلتنى أتردد • وسأعرض عليك على أى حال الصعوبات التى تعترضنى يقال « لا يمكن لأى استدلال قياسى أن يكون منتجا اذا لم يحتوى على قضية كلية على الأقل • ولكن ويبدو لى أنه لا يوجد سوى الأشياء الجزئية التى تكون الموضوع المباشر للاستدلال ولمعارفنا ، وهى لا تدور سوى على اتفاق الأفكار التى كل منها لا وجود لها الا جزئيا ولا تمثل الا شيئا مفردا •

تيوفيـــــل :

بقدر تصورك تشـابه الأشياء يمكنك أن تتصور شيئا ما أكثر ، والكلية لا تتكون الا من ذلك ، لن تقترح أبدا أى حجة من الحجج دون أن تسـتخدم فيها حقائق كليـة من الأفضل على أى حال أن نلاحظ أن القضايا الشخصية (من الناحية الصورة) تكون كلية • لأنه مهما كان

حقا أنه لا يوجد سوى مبشر واحد هو القديس بطرس فان من الممكن القول أنه أيا كان القديس بطرس فقد أنكر سيده • وهكذا يصبح القياس : القديس بطرس أنكر سيده • (مع أنها ليست سوى قضية شخصية) قائما على قضايا كلية موجبة ويصبح نمطه Darapti من الشكل الثالث •

غيلاليت :

أريد كذلك القول أنه يبدو لى من الأفضل أن نغير مكان الأتية وتقول كل أ يكون ب ، كل ب يكون جـ ∴ كل أ يكون جـ •

بدلا من أن نقول كل ب يكون جـ ، وكل أ يكون ب ∴ كل أ يكون جـ•

ولكن يبدو لى حسب قولك أنهما سيعتبران من نفس النمط • حقا أن التنظيم المختلف عن التنظيم الشعبى سيظل دائما مستعدا أكثر لعمل نسيج من عدة أقيسة •

تيوفيل :

انى متفق معك تماما • ومع ذلك يبدو أنه من الناحية التعليمية سيحسن أن نبدأ بقضايا كلية مثل المقدمات الكبرى فى الشكلين الأول والثانى هناك أيضا خطباء لديهم هذه العادة • ولكن الرابطة تبدو أفضل على النحو الذى نقترحه ، لقد لاحظت من قبل ان أرسطو قد يكون لديه مبررا خاصا للتنظيم الشعبى ، لأنه بدلا من القول أ تكون ب اعتاد القول ب تكون فى أ وبهذه الطريقة من التعبير تأتى الرابطة التى تطالب بها فى التنظيم السائد لأنه بدلا من القول ب تكون جـ ، أ تكون ب •• أ تكون جـ يعلن عنهما هكذا جـ تكون فى ب ز ، ب تكون فى أ •• جـ تكون فى أ ، مثلا بدلا من القول أن المستطيل متساوى الزوايا (أى له زوايا متساوية) والمربع يكون مستطيلا •• المربع يكون متساويا الزوايا • فان أرسطو بدون تغيير فى مكان القضايا يحتفظ

بالمكان الوسط للحد الأوسط عن طريق اعلان القضايا التي يعكس حدودها ويقول « المتساوى الزوايا يكون فى المستطيل والمستطيل يكون فى المربع .. متساوى الزوايا يكون فى المربع . ونحن لا نحتقر هـذه الطريقة من التعبير لأن فى الواقع المحمول يكون فى الموضوع أو بالاحرى فكرة المحمول متضمنة فى فكرة الموضوع ، مثلا فكرة المتساوى الزوايا تكون فى المستطيل ، لأن المستطيل هو الشـكل الذى زواياه تكون قائمة . وبما أن كل الزواية القائمة متساوية فيما بينها فان فكرة المستطيل هى فكرة الشـكل الذى كل زواياه متساوية وهى فكرة المتساوى الزوايا . طريقة التعبير الشـعبية تهتم بالاحرى بالأفراد أما طريقة أرسطو فتختص أكثر بالأفكار أو الكليات . لأن القول « كل انسـان حيوان » تعنى القول أن كل الناس متضمنة فى كل الحيوانات ، ولكنى أفهم فى نفس الوقت أن فكرة الحيوان متضمنة فى فكرة الانسـان . الحيوان يشمل أفرادا أكثر من الانسـان ، ولكن الانسـان يشمل أفكارا أو صورية أكثر ، أحدهما لديه أمثلة أكثر والآخر لديه مفهوم أكثر . كذلك يمكن القول بحق أن النظرية القياسية كلهـا يمكن اثباتها بنظرية الشـامل والمشمول Compris . Comprenat. وهى تختلف عن نظرية الكل والجزء ، لأن الكل يفوق دائمـا ولكن أحيانا يكون الشامل والمشمول متساويين كمـا يحدث فى القضايا العكسية .

فيـــلاليت :

٩ ــ بدأت أسلم بفكرة عن المنطق مختلفة تماما عن تلك التى كانت لدى من قبل . لقد كنت أنظر اليه باعتباره تسلية طلبة ، وأرى الآن أنه نوع من الرياضية الكلية بالمعنى الذى تقصده . شكرا لله أن أمكن دفعه لأكثر مما هو عليـه ، لكى نتمكن من الحصول على مساعداته الحقيقية للعقل التى تحدث عنها هوكر والتى ترفع البشرية الى أعلى من حالتهم الحاضرة . والعقل ملكة فى حاجة كبيرة اليها لأن امتداده محدود ،

ولحاجتنا اليها فى عديد من المقابلات ، وذلك لأنه (١) أحيانا ينقصنا الأفكار •

١٠ ـ أحيانا (٢) تكون غامضة وغير كاملة أما عندما نوجد الأفكار الواضحة والمتميزة ، كما فى الأعداد ، فاننا لن نجد أى صعوبات لا يمكن تخطيها ولن نقع فى أى تناقض •

١١ ـ (٣) أحيانا تأتى الصعوبة من نقص الافكار المتوسطة ، ومن المعروف أنه قبل اكتشاف الجبر ، هـذه الأداة الكبرى والدليل على حكمة الانسان ، كان الناس يتعجبون من استدلالات كثيرة فى الرياضيات القديمة •

١٢ ـ (٤) يحدث أيضا أن تبنى الاستدلالات على مبادىء خاطئة ، مما يوقعنا فى صعوبات حيث تبتعد عن الوضوح وتشوش العقل أكثر •

١٣ ـ (٥) أخيرا الحدود التى دلالاتها غير يقينية تقلق العقل •

تيوفيل :

لا أعرف هل ينقصنا من الأفكار بالقدر الذى تظنه ؟ ، أقصد الأفكار الواضحة ، أما الأفكار الغامضة أو الخيالات أو بالاحرى اذا أردت الانطباعات، كالألوان والأواق ••• الخ التى تكون نتيجة لعديد من الأفكار الصغيرة المتميزة فى ذاتها والتى لا ندركها بتميز ، فانه ينقصنا قدر لا حصر له وهى تناسب مخلوقات أخرى غيرنا ولكن هـذه الانطباعات تستخدم أيضا فى الحصول على الغرائز وتأسيس الملاحظات المستمدة من التجربة أكثر من استخدامها فى تزويد العقل بالمـادة ما لم يصاحبها الادراكات المتميزة الذى يعوقنا لذن هو نقص المعرفة التى لدينا عن هـذه الأفكار المتميزة المتخفية فى تلك الغامضة ، مع أن الكل قد عرض بتميز أمام حواسنا أو ذهننا • ان كثرة الأشـياء التى يجب اعتبارها تربكنا أحيانا • مثلا عندما يوجد كومة من ١٠٠٠٠ كرة من الواضح أنه لكى ندرك جيدا عـدد وخصائص هـذه الكثرة ، يلزمنا الكثير لتنظيمها

فى مجموعات كما تفعل المحلات ؛ لكى تحصل عنها على أفكار متميزة بل ولتضعها بحيث نستطيع أن نتحاشى جهد عدها أكثر من مرة • كثرة الاعتبارات أيضا هى التى تؤدى ، فى علم الأعداد نفسه - الى صعوبات كبرى ، لأننا نبحث فيه عن مختصرات ولا نعرف أحيانا هل فى ثنايا الطبيعة ما يرضى الحالة التى نحن بصددها • مثلا ماذا يوجد أبسط - فى الظاهر ، من فكرة العدد الأولى ، أى العدد الكامل غير القابل للقسمة بأى عـــدد آخر ، باستثناء قسمته بالوحدة أو بنفسه ؟ ومع ذلك مازلنا نبحث عن علامة ايجابية وسهلة لمعرفتنا بيقين بدون محاولة كل القواسم الأولية • اللهم الا الجذر المبع للعدد الأولى المعطى : يوجد العديد من العلامات التى تجعلنا نعرف بدون حساب كثير أن هـــذا العدد ليس أوليا ، ولكننا نطلب علاقة واحدة تكون ســـهلة وتجعلنا نعرف بيقين أنه أولى يكون كذلك • وهـــذا ما يجعل الجبر أيضا غير كامل مع أنه لا يوجد من الأفكار ما هو معروف أكثر من تلك التى يستخدمها ، ما دامت لا تعنى سوى أعدادا بوجه عام ، لأن الجمهور لم يملك بعد الوســـيلة لاســـتخراج الجذور اللاعقلية Irrationnelle لأى معادلة تتجاوز الدرجة الرابعة (ما عدا فى حالة محصورة جدا) والمناهج التى يستخدمها De Fer , Scripion, Diophente , louis de Ferrare. وخاصة بالنسبة للدرجـــات الثانيـــة والثالثة والرابعـــة ؛ لـــكى يخضـــعوها للأولى أو ليخضعوا المعـــادلة المعينة الى معادلة خالصة ، وهى كلهـــا تختلف فيما بينها ، أى أن تلك المستخدمة لدرجة ما تختلف عن تلك المستخدمة لدرجة أخرى ، لأن الدرجة الثانية أو المعادلة المربعة تخضع للأولى ، بحذف الحد الثانى فقط ، الدرجة الثالثة أو المعادلة المكعبة فتحل بأن نقطع غير المعروف الى أجزاء فيحدث لحسن الحظ معادلة من الدرجة الثانية • وفى الدرجة الرابعة أو الـــ biquadrates نضيف شـــيئا الى جانبى المعادلة ليمكن استخراجها من جهة ومن الأخرى ؛ ويحدث أيضا لحسن الحظ أنه لكى نحصل على هـــذا لا نحتاج الا لمعادلة مكعبة فقط ولكن كل هـــذا ليس الا مزيجا من الصدفة والفن والمنهج • وفى الدرجتين

الأخيرتين قد لا نعرف هل سنوفق أم لا • كذلك مازال يلزمنا براعة أكثر حتى نوفق فى الدرجة الخامسة والسادسة التى تكون , bicubes sursolides ، ومع أن ديكارت اعتقد أن المنهج الذى استخدمه فى الرابعة بادراك المعادلة كأنها ناتجة عن معادلتين مربعتين أخرتين (لكنه فى الأساس لم يتمكن من اعطاء أكثر من تلك التى أعطاها لويس فيرارى • يمكن أيضا أن ننجح فى السادسة ، وهـذا ما لم نجده مطلقا • هـذه الصعوبة تظهر أنه ما زالت الأفكار الأكثر وضوحا والأكثر تميزا لا تعطينا دائمـا كل ما نطلب وكل ما يمكن أن نستخرجه منها ، وهـذا يجعلنا أيضا نحكم أنه يلزمنا الكثير لكى يكون الجبر فنا للاختراع مادام هو نفسـه فى حاجة الى فن أعم ، بل ويمكن القول أن الحساب الجبرى بوجـه عام فن الخصائص يصبح سـندا عظيما لأنه يحرر الخيال • لن يشك أحد مطلقا عندما يرى حساب Diophante •كتب Pappus , Apollonius الهندسية فى القدماء كان لديهم شىء ما • لقد أعطى امتدادا أكثر عندما عبر ليس فقط عن المطلوب وانما أيضا عن الأعداد المعطاه بحروف عامة يكون بذلك قد فعل مستخدما الحساب ما فعله أقليدس مستخدما الاستدلال ، وقد نقل ديكارت تطبيق هـذا الحساب الى الهندسـة بأن رمز للخطوط بمعادلات • ومـع ذلك فان السيـد Bouillard ، عالم الهندسة الممتاز الذى عرفته فى باريس مازال مندهشا ، رغم اكتشافى فى الجبر الحديث ، لبراهيم أرشميدس على اللولب spirale ولم يسـتطع فهم كيف أراد هـذا الرجل العظيم اسـتخدام حماس هـذا الخط لقياس محيط الدائرة يبـدو أن الأب جريجور دى فنسنت قد ضمن أنه قد توصل الى ذلك بالتوازى بين اللولبى spirale والقطع المكافىء parabole ولكن هذا الطريق ليس الا جزئيا فى حين أن الحساب الجديد للمتناهيات الذى يتقدم عن طريق المتغايرات differences التى ذكرها ، والتى حـازت نجاحا لدى الجمهور ، تعطينا طريقة عامة يصبح بها هذا الاكتشاف بواسطة اللولبى مجرد لعبة ومحاولة من أسهل المحاولات مثل كل ما سبق أن حصلنا عليـه

من قبل فى مادة أبعاد المنحنيات • ويرجع تفوق هـذا الحساب الجديد الى أنه يحرر الخيال من المشكلات التى استبعدها ديكارت من عند ستة بحجة أنها تؤدى الى الآلية فى الغالب ، والحقيقة أنها فى الأساس لا تتناسب مع حسابه • بالنسبة للأخطاء الناتجة عن الحـدود الغامضة علينا أن نتجنبها •

فيـــــلاليت :

هناك أيضا حالة لا يمكن أن نستعمل فيها العقل ، ولسنا فى حاجة اليه ، بل ونفضل فيها البصيرة على العقل • أنها حالة المعرفة الحدسية حيث يظهر ارتباط الأفكار والحقائق مباشرة • تلك هى معرفة البديهيات التى لا جدال فيها وأميل الى الاعتقاد أنها تشبه درجة الوضوح التى لدى الملائكة حاليا والتى ستحصل عليها الأذهان البشرية المضبوطة اذا ما وصلت الى الكمال وأصبحت فى حالة تسمح لهم بادراك آلاف الأشياء التى لا يدركها حاليا فهمنا •

١٥ ـ ولكن الاستدلال القائم على أفكار متوسطة يعطى معرفة معقولة • ذلك لأن الرابطة بين الفكرة المتوسطة من جهة وأول القياس وآخرة من جهة أخرى تكون ضرورية وتظهر بنوع التجاور الذى يسيئه ذلك الذى يكون بين مقياس معين نقيس به تارة هـذه القطعة من القماش وتارة تلك القطعة الأخرى لنرى أنهما متساويات •

١٦ ـ ولكن اذا كانت الرابطة احتمالية فحسب فان الحكم لا يعطى سـوى اعتقاد •

تيوفيـــــــل :

الله وحـده يتميز بأنه لا يحصل الا على المعـارف الحدسية • أما النفوس السعيدة مهما انفصلت عن هذه الأجسام الغليظة ، وحتى الجن مهما كانت سامية ولديها كمعرفة حدسية أكثر منا ، وترى أحيانا

بلمح البصر ما لا نصل اليه الا بقوة النتائج بعد جهد وزمان لابد أن يعترضها أيضا صعوبات والا فلن تجد لذلك فى الحصول على اكتشافات تكون كبيرة جـدا • ويجب دائما معرفة أن هناك حقائق لا حصر لهـا تخفى عليهم ، أما تماما أو لفترة من الزمن وحيث يجب أن يصلوا اليها بقوة النتائج وبالاستدلال بل وأحيانا بالتخمين •

فيـــــلاليت :

اذن هؤلاء الجن ليسوا الا حيوانات أكمل منا ، كأنك تريد أن نقول مع أمبراطور القمر أن كل شىء يشبه ما لدينا •

تيوفيـــــــل :

انى أقول ذلك ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لأساس الأشـياء لأن طرق ودرجات الكمال تتغير الى ما لا نهاية • ومع ذلك يظل الأساس هو نفسه فى كل مكان ، وهـذه بديهية أساسية عندى ، وتسود فلسفتى كلها • انى لا أتصور الأشـياء غير المعروفة بشكل غامض الا بنفس الطريقة التى أتصور بها تلك التى تكون معروفة لنا بتميز ، وهـذا يجعل الفلسفة أسهل ، بل واعتقد أن من الواجب أن نستخدمها هكذا : ولكن اذا كانت هـذه الفلسفة هى الأبسط فى الأساس فانها أيضا الأغنى فى الطرق لأن الطبيعة يمكنها أن تغيرها الى ما لا نهاية وهـذا ما تفعله بوفرة وبنظام وبأكبر قدر يمكن تصوره • لهذا أعتقد أنه لا يوجد جين ، بقدر ما يمكن تصوره ، ومهما كان ساميا ، الا ويعلوه عـدد لا نهائى ومع ذلك مهما كنا أقل من كثير من الكائنات العاقلة فاننا نتميز بأننا لسنا محكمين بشكل واضح فى هذا الكون الذى نتمتع فيه بالمرتبة الأولى دون منازع ، ومع كل الجهل المنغمس فيه سـعداء دائمـا لأننا لا نرى شـيئا يفوقنا ، مع اننا تافهين فاننا نستطيع أن نحكم ، كما حكم قيصر الذى فضل أن يكون الأول فى ضيعة صغيرة عن أن يكون الثانى فى روما • علاوة على انى لا أتحدث عنا الا عن المعارف الطبيعية لهذه النفوس

وليس عن الرؤية الجمالية ولا الأنوار التى تفوق الطبيعة التى يريد الله أن يمنحها لهم •

فيـــــلاليت :

١٩ ــ حيث أن كل واحد منا يســتخدم العقل أما مع نفســه أو مع الآخرين فليس عبثا أن نذكر بعض الأفكار عن أربعة أنواع من الحجج اعتاد الناس استخدامها ليكسبوا غيرهم الى صفهم أو على الأقل ليحتفظوا باحترامهم ويحولوا دون اعتراضهم ، الحجة الأولى يمكن أن نســميها argumentum ad verecundiem عنــدما نذكر اعتقاد أولئك الذين وصلوا الى السلطة بمعرفتهم أو بمركزهم أو قوتهم أو بأى شكل آخر ، لأنه عندما لا يخضع الآخر نميل بسرعة الى لومه واعتباره مغرورا بل وقد نتهمه بالغطرسة •

٢٠ ــ توجــد حجــة ثانيــة argumentum adignorantium وهى أن نطلب من الخصم أن يقبل الدليل أو أن يذكر دليلا أفضل •

٢١ ــ الحجــة الثالثة : argumentium ad hominem عندما نضغط على المرء بما يقوله هو نفسه •

٢٢ ــ أخيرا الحجة الرابعة argumentium ad judicium التى تقوم على استخدام الأدلة المستمدة من أجدى مصادر المعرفة أو الاحتمال وهى وحدها من بين هــذه كلها التى تجعلنا نتقدم ونتثقف ، لأنه اذا لم أستطع المعارضة احتراما أو اذا لم يكن لدى الأفضل الذى أقوله أو اذا أفحمت فلا ينتج عن ذلك اطلاقا أنك محق ، قد أكون متواضعا جاهلا ، مخدوعا ويمكن أن تخدع أنت كذلك •

تيوفيـــــــل :

لا شك أنه يجب أن نفرق بين ما يحسن قوله وما هو جدير بأن نعتقده، ومع ذلك حيث أن معظم الحقائق يمكن أن نقبلها بحماس ، فهناك حكم

مسبق ضد اعتقاد يجب اخفائه • الحجة ad ignorantum تكون صالحة فى حالات التخمين حيث من المعقول أن نتمسك باعتقادنا الى أن تثبت العكس • الحجة الثالثة ad hominem تتميز بأنها تظهر خطأ هـذا التقرير أو ذاك ، وأن الخصم أخطأ بشكل ما لأنه أخذ به يمكن أيضـا أن نضيف حججا أخرى كتلك التى تسمى ad vertiginem التى تكون على صـورة هـذا الاستدلال : اذا لم يقبل هـذا الدليل فلن يكون لدينا أى وسـيلة للوصول الى اليقين بخصوص هـذه النقطة • وهـذا غير معقول • هـذه الحجة تصلح فى حالات معينة ، عندما يريد شخص ما أنكار الحقائق الأولية والمباشرة ، مثلا لا شىء يمكن أن يكون ولا يكون فى نفس الوقت ، لأنه اذا كان حقا فلن توجد أى وسـيلة لمعرفة أى شىء أيا كان • ولكن اذا جعلنا منها مبادىء معينة وسلمنا بهـا فلن يسقط المذهب الذى تقوم عليـه أى نظرية ولن تكون الحجة حاسمة ، لأنه يجب التمييز بين ما هـو ضرورى لدعم معارفنا وبين ما يسـتخدم كأساس لنظرياتنا المقبولة أو لممارستنا •

أحيانا يسـتخدم بعض الفقهـاء استدلالا قريبا منه لتبرير حكم الادانة أو لتعذيب مدعى بناء على شـهادة المتهمين الآخرين فى نفس الجريمة • لأنه يقال اذا سقطت هذه الحجة كيف تقنعهم ؟ وأحيانا فى الأمور الجنائية يدعى بعض المؤلفين أنه فى حالة الدقائق التى يصعب فيها الاقناع يمكن أن نكتفى بالأدلة الأخف ولكن لن يكون هـذا مبررا • هـذا يثبت فقط اننا فى حاجة الى عناية أكثر ، ولا يعنى أن نعتقد بسـهولة ، ما عدا فى الجرائم الخطيرة جـدا كما فى حالات الخيانة العليـا حيث يكون لهذا الاعتبار وزنه ، ليس لادانه المتهم وانما لنحول دون ايذائه ، وبحيث يمكن أن نجد له مكانا وسطا ، ليس بين أحـكام القوانين والعرف التى تقرر أنه مذنب أو غير مذنب وانما بين تلك الأحكام التى تحكم بالادانة أو رفض الدعوى • لقد استخدمت حجة كهذه فى ألمـانيا منذ فترة ، لتكييف الحكم على مصـانع النقود المزيفـة ، وأنه قيل ، اذا تمسكنا بالقواعد المسجلة فلن نستطيع مطلقا صك النقود

دون خســارة ، يجب اذن أن يسمح بافساد الخليط ، ولكن دون أن نضطر الى انقاص الوزن فقط أو الخليط أو العنوان ، وبذلك نتحاشى الغش • من المفروض أن الممارسة ضرورية وهى غير موجودة ـ لأنه لا يوجد أى نظام ســماوى ولا أى قانون بشرى يرغم أولئك الذين لا يملكون المناجم ولا الفرصة للاستثمار المضمون على صك النقود وأن يصنعوا النقود من الفضة ، انها ممارسة رديئة تلك التى تحمل معها الفساد بصورة طبيعية ، وقد يقال كيف نمارس حقا فى صكها ، والاجابة سهلة أن تقنع بصك قليل من الفضة الجيدة ولو بخسارة قليلة اذا اعتقدت أنه يهمك أن تظل تحت المطرقة دون أن يكون لديك الحاجة أو الحق فى أن تغرق العالم بالنقد البرونزى الردىء •

فيـــــــلاليت :

٢٣ ـــ بعد أن قلنا كلمة عن علاقة عقلنا بالآخرين ، نضيف شــيئا عن علاقته بالله ، الذى يجعلنا نميز بين ما يعارض العقل وما يفوق العقل من النوع الأول كل ما هو غير متفق مع أفكارنا الواضحة والمتميزة ، ومن النوع الثانى كل احساس لا نرى أن نصدقه أو احتماله يمكن أن يخضع للاحساس أو التفكير بمساعدة العقل ، وعلى هــذا وجود أكثر من اله يعارض العقل ، وبعث الموتى يفوق العقل •

تيوفيـــــــل :

ألاحظ شيئا بالنسبة لتعريفك ما يفوق العقل ، على الأقل اذا ربطته بالاستخدام الســائد لهذه العبــارة ، لأنه يبدو لى أن هــذا التعريف بالصورة التى وضع بها يذهب بعيدا جــدا فى جانب وغير بعيد فى جانب آخر ، واذا اتبعناه فكل ما نجهله ولا نستطيع معرفته فى حالتنا الحاضرة سيفوق عقلنا ، مثلا أن هــذا النجم الثابت أكثر أو أقل حجما من الشمس ، وكذلك أن فيزوف سيقذف نارا فى عام معينة، أنها وقائع معرفتها تفوقنا ، ليس لأنها تفوق الحواس لأننا نستطيع أن

نحكم عليها اذا حصلنا على أعضاء أكثر كمالا ومعلومات أكثر من الملابسات هنـــاك أيضا صعوبات تفوق ملكتنا الحالية ولكنها ليست فوق كل عقل مثلا لا يوجـنـد أى علم للفلك فى امكانه أن يحسب خسوف لداربيتر Peter دون أن يمسك القلم ، ومع ذلك ربما يوجد من الجن من يكون هـــذا بالنسبة اليه مجرد تسلية • ومع ذلك يمكن أن نصبح كل هـــذه الأشـــياء معروفة أو عملية بمساعدة العقل بافتراض معلومات أكثر عن الوقائع وأعضاء أكثر كمالا وذهنا أرفع •

فيـــــــلاليت :

اذا كان الأمر كذلك فأنت محق • ولكن ستبقى صعوبة أخرى هى أنه يوجد شىء يفوق العقل حسب تعريفك ، لأن الله يستطيع دائما أن يعطى الوسائل لمعرفة أى حقيقة بالحواس أو بالتفكير . وحيث أنه فى الواقع ستصبح أكبر الأسرار معروفة بشـــهادة الله وبدوافع القابلية للتصديق التى يعتمد عليها ديننا ، هذه الوقائع لا تعتمد بدون شك على الاحساس والتفكير • يبدو اذن أن السؤال ليس : هل يمكن أن نستدل وجود واقع أو حقيقة قضية ما من مبادىء يستخدمها العقل ، أى من الاحساس والتفكير ، أو من الحواس الخارجية والداخلية.؟ وانما هو : هل يستطيع الذهن المخلوق معرفة كيفية هـــذا الواقع أو السبب القبلى لهذه الحقيقة ؟ بحيث يمكن القول أن ما فوق العقل يمكن أن نعلمه ولكن لا يمكن فهمه عن طريق قوى العقل المخلوق • مهما كان كبيرا وساميا أن الله وحده هو القادر على أن يفهمها ، كما يخصه .فقط أن نحققها فى الواقع •

فيـــــــلاليت :

هذا الاعتبار يبدو جيدا ، وهذا ما أحب أن يفهم به تعريفى • هـــذا الاعتبار نفسه يؤكد أيضا فى اعتقادى أن طريقة الحديث التى تقابل بين العقل والايمان مهما كانت مألوفة فانها غير صالحة ، لأنه بالعقل

يجب أن نعتقد • الايمان تصديق قوى ، والتصديق المنظم كما يجب لا يمكن أن يقوم الا بناء على أسباب جيدة وهكذا ذلك الذى يعتقد دون أن يكون لديه مبررا لاعتقاده يمكن أن يكون محبا لنزواته : ولكن ليس حقا أنه يبحث عن الحقيقة ولا أنه يطيع طاعة مشروعة لربه المقبس الذى يريد منه أن يستخدم ملكاته التى زودم بها ليعصمه من الخطأ والا فانه اذا حدث أن سلك الطريق الصواب فسيكون بالصدفة أما إذا سلك الطريق الخطأ فذلك بناء على خطئه الذى سيحاسبه الله عليـه •

تيوفيـــــــل :

أحييك بقوة يا سيدى مادمت تريد أن تؤسس الايمان على العقل وبدون ذلك لمـاذا نفضل الانجيل على القرآن أو الكتب القديمة للبراهمة ؟ هـذا ما عرفه جيدا لاهوتينا وعلماؤنا ، وهـذا ما جعلنا نملك مؤلفات جميلة عن حقيقة الدين المسيحى والعديد من الحجج المؤيدة له ضـد الوثنيين والكفار • القدماء منهم والمحدثين ، كذلك وضع الحكماء دائمـا الى الشك فى أولئك الين يدعون انه لا داعى لبذل الجهد فى تقديم الحجج والمبررات فيما يتصل بالاعتقاد ؛ وهـذا شىء مستحيل فى الواقع - مع الأقل لا يعنى الاعتقاد ان نردد أو نكرر أو نترك الأمور تمر بسهولة ، كما يفعل كثير من الناس وهـذه أيضا خاصية بعض الأمم أكثر من غيرها • لهذا أراد بعض الفلاسفة الأرسطيين فى القرن ١٥ ، ١٦ والذى مازالت آثارهم باقية منذ ذلك الحين (هـذا ما يؤيده خطابات المرحوم نودى Naudé وأتباعه Neadeana) أن يتمسكو بحقيقتين متقابلتين احداهما فلسفية والأخرى لاهوتية ، بالنسبة للأخـيرة متفق مع Letrau فى عهد ليون العاشر • وعلى معارضتها ، كما سبق أن لاحظت من قبل •

وقد أثير فى المـاضى صراع مشـابة فى هلمستاد بين هرغمان Hoffmann اللاهوتى ، وكورنى مارتن الفيلسوف وان اختلف عنه فى ان الفيلسوف يوفق بين الفلسفة والوحى فى حين يريد اللاهوتى أن يستبعد استخدامها • وقد أيد الفيلسوف الدوق جول Jules مؤسس

الجامعة حقا أنه يوجد فى عصرنا شخص له مكانته العالية يقول « يلزمنا فى الايمـان أن نفقـأ أعيننـا لنرى بوضوح » ويقـول Tertullien هـذا حق ، لأنه مستحيل ، يجب أن نعتقد فيه لأنه نوع من اللامعقول » ولكن اذا كان قصد هؤلاء الذين يفسرونه بهذه الطريقة سليما ، فان هـذه التعبيرات تتجاوز الحد ويمكنها أن تؤذى . لقد تحدث القديس بول بمعرفة أكثر عندما قال ان حكمة الله قد تبدو أمام البشر حماقة ، وذلك لأن البشر لا يحكمون على الأشياء الا بناء على تجربتهم وهى محدودة تماما ، وكل ما لا يتفق معها يبدو غير معقول . ولكن هذا الحكم جزء جـدا لأنه يوجد أيضا لا نهاية من الأشـياء الطبيعية التى تبدو لنا غير معقولة كالحال بالنسبة للجليد الذى قيل للملك سيام أنه يغطى أنهارنا ولكن نظام الطبيعة نفسـه لأنه لا يخضع لأى ضرورة ما بعد طبيعية ، لا يؤسس الا بناء على رغبة الله الطيبة ، بحيث يمكن أن يستبعد منها ، لمبررات عليا تتطلبها العناية ، كل ما لا يجب أن يحدث الا بناء على أدلة جيدة لا يمكن أن تأتى الا من شهادة الله نفسه التى يجب أن تمتثل لها كلية عندما تتحقق كما ينبغى .



(١) Hooker لاهوتى انجليزى ولد فى Heavitrée بالقرب من Exeter سنة ١٥٥٤ وتوفى سنة ١٦٠٠ عمله الرئيسى هو قوانين السياسة الكنسية Laws of ecclesiastical Policy .

(٢) Diophante من الاسكندرية عاش فى عصر الامبراطور جوليان حوالى سنة ٣٦٠ مؤلف أقدم بحث فى الجبر حصلنا عليه . له عدة طبعات اهمها طبعة تولوز سنة ١٦٧٠ عليها ملاحظات فيرما Fermat

(٣) Scipion يهودى بوهيميا ولد فى Pilsen سنة ١٥٦٧ واشتغل بالفلسفة والرياضيات واللاهوت .

(٤) Bouillan (وليس Bouilland) رياضى ولد فى لندن سنة ١٦٠٥ وتوفى فى باريس سنة ١٦٩٤ هاجم قوانين كبلر Kelper فى كتابه Astronomica philolaica

(٥) Gregorie de st. Vincent عالم هندسة مشهور ولد فى Bruges سنة ١٥٨٤ وتوفى فى Gand سنة ١٦٦٧ عمله الرئيسى Opus geometricum quadraturae circuli et sectionum coni

(٦) Naudé (جابريل) عالم مشهور فى القرن ١٧ ولد فى باريس سنة ١٦٠٠ وتوفى سنة ١٦٥٣ فى Abbeville كان أمين مكتبة الكاردينال مازاران واهم اعماله :

appologie pour les grands hommes, sous connés de magie, 1625, Consideration politique sur les coups d'état. Rome 1639.

الفصل الثامن عشر

الايمان والعقل وحدودهما الواضحة

تيوفيـــــــل :

علينا أن نقف على طريقة فى الحديث شائعة وأن نحرص لحد ما على التمييز بين الايمان والعقل ، ومن الأفضل أن نشرح بوضوح هـذا المعنى وأن نقرر الحدود التى بين هذين الشيئين ؛ لأن عدم تأكيد هـذه الحدود قد أدى يقينا الى صراعات كبرى فى العالم ، وربما قد أثار اضطرابات كبرى • من الواضح على الأقل الى أن ننتهى من تحديدهما ، أن من العبث التنازع حولهما مادام لابد من استخدام العقل عند مناقشة الايمـان •

٢ ـ ألاحظ أن كل طائفة يسرها أن تستخدم العقل بالقدر الذى يمكنها من الاعتماد عليه • وبمجرد أن يعجز العقل نجدهم يصيحون أن هذا من أمور الإيمان الذى يفوق العقل • ولكن من الممكن أن يستخدم الخصم نفس العيب عندما نهتم بالاحتجاج عليه ما لم نوضح لمـاذا لم تسمح له بهذا فى حالة تبدو مشابهة : انى افترض اننا نقصد العقل هنا اكتشاف يقين أو احتمال القضايا المستمدة من معارف اكتسبناها باستخدام ملكاتنا الطبيعية ؛ أى بالاحساس أو التفكير ، ونقصـد بالايمان التصديق الذى نعطيه لقضية قائمة على الوحى أى على اتصال غير عادى بالله لا يمكنه اطلاقا أن ينقل للآخرين أى فكرة جديدة بسيطة لأنه لا يستخدم سوى كلمات أو علامات أخرى تثير فينا أفكار بسيطة ارتبطت بالعادة بها أو بتركيباتها : مثلا الأفكار الجـديدة التى تلقاها القديس بطرس عندما ارتفع الى السماء الثالثة لم يستطع التعبير عنها سوى بقوله « أنها اشياء لم تراها عين ولم تسمعها اذن ولم تدخل ابدا قلب بشر » ولنفرض مثلا وجود مخلوقات فى كوكب جوبتر مزودة

بستة حواس وأن الله قد زود : بصورة غير طبيعية ، فرد منا بأفكار هذه الحاسة السادسة ، فلن يمكنه اســتخدام الكلمــات لنقلها الى الآخرين • يجب اذن أن نميز بين الوحى الأصيل والتقليدى الأول انطباع يضعه الله مباشرة فى الذهن ولا يمكن تثبيت حدوده • والآخر لا يأتى الا بالطرق العادية للاتصال ولا يمكنه أن يعطى افكارا جديدة بســـيطة •

٤ ـــ حقا أيضا أن الحقائق التى يمكن اكتشافها بالعقل يمكن أن تنقل الينا بالهام تقليدى ، وذلك عندما أراد الله أن ينقل الى البشر النظريات الهندسية ، ولكنها لن تكون ذات يقين ما لم نستدلها عن طريق الربط بين الأفكار • وكما أن لدى نوح معرفة يقينية عن الطوفان تفوق تلك التى نكتسبها من كتاب موسى وذلك لان اليقين الذى رآه موسى وهو يكتبه فعلا وبأنه فعل المعجزات التى تدعم بعثه يفوق يقيننا •

٥ ـــ هذا ما يجعل الوحى لا يتعارض مع بديهية العقل الواضحة ، لانه مع أن الوحى مباشر وأصيل الا أنه من الواجب أن نعرف بوضوح اننا لا نخطىء مطلقا بنسبته الى الله ، واننا نفهم معناه ، ولا يمكن أبدا أن يكون هذا الوضوح أكبر من ذلك الخاص بمعرفتنا الحدسية ، وبالتالى لن نسلم بأى قضية باعتبارها وحيا الهيا اذا ما تناقضت مع هذه المعرفة المباشرة ، والا فلن يبقى أى اختلاف فى العالم بين الحق والباطل ، ولا أى مقياس يميز بين الاعتقاد وعدم الاعتقاد ، وليس من المناسب مطلقا أن يصدر شىء عن الله ، هذا الصانع الخير لوجودنا والذى نسلم بحقيقته ، ليقلب أسس معارفنا ويجعل كل ملكاتنا بدون فائدة •

٦ ـــ أولئك الذين لا يحصلون على الوحى الا بوسيط أو النقل من فم الى فم أو بالكتابة ، فى حاجة أكثر للعقل ليتأكدوا منه •

٧ ـــ ومع ذلك من الحق دائما أن نعتبر الأمور التى تفوق ما يمكن أن تكتشفه ملكاتنا الطبيعية ، من الأمور الخاصة بالايمان مثل سقوط الملائكة العاصية وبعث الموتى •

٨ ــ هنا يجب أن نستمع للوحى وحده ، وحتى بالنسبة للقضايا المحتملة فان الوحى الواضح سيدعمنا ضد الاحتمالية •

تيوفيـــــــــل :

اذا لم ننظر للايمان باعتباره مؤسسا على دوافع قابلية التصديق (كما يسمونها) وفصلتها عن العناية الداخلية التى يتحدد فيها الـذهن مباشرة ، فان كل ما تقوله يا سيدى سيكون اكيدا • يجب الاعتراف أنه يوجد العديد من الاحكام أوضح بكثير من تلك التى تعتمد على هـذه الدوافع ، بعضها يتقدم على بعضها الآخر ، بل ويوجد قدر من الاشخاص لم يعرفوها ايضا ولم يوفوها قدرها ومن ثم ليس لديهم ما يمكن أن نعتبره دافعا للاحتمال • لكن العناية الداخلية للروح القدس تكملها مباشرة بطريقة تفوق الطبيعة ، وهذا ما يسميه اللاهوتيون ايمانا الهيا بالمعنى الخالص • حقا أن الله لا يمنحها ابدا الا عندما يؤسس الدافع للاعتقاد على العقل والا سيحطم وسائل معرفة الحقيقة وسيفتح الطريق للحماس ، ولكن ليس من الضرورى أن يعرف هذه الاسباب كل من يملك هذا الايمان الالهى ، أن يعرفها حينا تمثل امام عينيه • علاوة على أن الحمقى والبسطاء لن يحصلوا عليها ، على الاقل اليوم على الايمان الحقيقى ولن يحصل عليه الاكثر ثقافة عندما يحتاجون اليه ، لانهم لن يستطيعوا دائما تذكر مبررات الاعتقاد • لقد كانت مسألة استخدام العقل فى اللاهوت من أكثر المسـائل اثارة سـواء بين السـوسيين (أصـحاب المـذهب الذى ينكـر الثالوث وألوهية المسـيح ، socians وأولئك الذين يمكن أن نسميهم كاثوليك بوجه عام أو بين المصـلحين والانجيليين • كما يسمونهم فى ألمانيا ، فى حين يسميهم البعض باللوثريين وهذا خطأ • اتذكر أنى قرأت يوما بحثا ما بعد طبيعيا لاحـد مفكرى التثليث هو Stegmannus (وهو غير Jorue Stegmannus) الذى عارضهم ، ولم يكن قد نشر بعد على ماعرف ، من جهة أخرى كتب اللاهوتى ، Keslerus من ساكس ، منطقا وبعض العلوم الفلسفية

الأخرى المعارضة بوجه خاص لمفكرى ألوهية المسيح . يمكن القول بوجه عام أن مفكرى الثالوث وألوهية المسيح قد تسرعوا فى رفض كل ما لا يتفق مع نظام الطبيعة طالما لم يتمكنوا من اثبات استحالته مطلقا ولكن ايضا خصومهم ابتعدوا احيانا ودفعوا السر الى حدود التناقض بحيث اضروا بالحقيقة التى حاولوا الدفاع عنها ، وقد ادهشنى ذات يوم رؤية بحث السيد فابرى Fabry la somme de theologie الذى كان بطبيعة الحال أحد النابهين . والذى بالنسبة للامور الالهية ينكر (كما يفعل بعض اللاهوتين) هذا المبدأ العظيم « أن الاشياء المساوية لثالث تكون متساوية فيما بينها » وبهذا يعطى الفرصة للخصوم دون أن ينتبه لذلك ، ويلغى كل مقيم لأى استدلال . بالاحرى يجب القول أن هذا المبدأ قد أسىء تطبيقه . نفس المؤلف يرفض فى فلسفته التمييزات العرضية التى يصفها الاسكوتيت Scotistes فى الاشياء المخلوقة ، لانها فى نظره تخالف مبدأ عدم التناقض وعندما اعترض عليه بوجوب قبول هذه التمييزات بالنسبة لله ، أجاب أن الايمان يأمرنا بذلك . ولكن كيف يمكن للايمان ، أيا كان ، أن يأمر بالذى يخالف مبدأ ، بدونه يصبح كل خلق واثبات أو نفى عبثا ؟ من الضرورى اذن ألا تكون القضيتان الصادقتان متناقضتين فى نفس الوقت . واذا لم يكن أ ، جـ فى نفس الشىء فمن الواجب أن تكون ب هى التى تكون نفس الشىء مع أ ، قد أخذت بصورة أخرى مختلف عن ب لتكون هى نفس الشىء مع جـ . لقد نشر: C. Nicolaus Vedelius الاستاذ فى جنيف ومنذ ذلك الحين فى de Deventer كتابا عنوانه « اللاهوت العقلى » عارضه Jean Musaeus (استاذ فى اينا Iéna وهى جامعة انجليكية فى Thuringe) فى كتاب عن نفس الموضوع ، أى استخدام العقل فى اللاهوت واتذكر أنى اطلعت عليهما فيما مضى ، ولاحظت أن الخصومة الرئيسية قد شوهتها اسئلة فرعية مثل ماذا نقصد بالنتيجة اللاهوتية ؟ واذا حكمنا عليها بناء على الحدود التى تكونها أو بالوسيلة التى تثبتها . وبالتالى هل كان أو كان محقا أم لا فى قوله أن علم النتيجة هو نفسه العلم والوسيلة التى

نستخدمها لانباتها ؟ ونقف عند عدد من الدقائق الأخرى الأقل اعتبارا والتى لا تخص سوى الألفاظ • ومع ذلك يوافق Musaeus أن المبادىء الضرورية ذات الضرورة المنطقية ، أى التى عكسها يتضمن تناقضا ، يجب ويمكن استخدامها بيقين فى اللاهوت ، ولكنه ينكر أن يكفى ذلك الذى يكون ضروريا ضرورة فيزيقية (أن القائمة على الاستقراء الذى يمارس فى الطبيعة أو فى القوانين الطبيعية التى تكون بمثابة المؤسسة الالهية) ، لرفض الاعتقاد فى سر أو معجزة ، ما دام يتوقف على الله أن يغير المجرى العادى للاشياء وهكذا بناء على نظام الطبيعة يمكن أن نؤكد أن نفس الشخص لن يكون فى نفس الوقت أما وعذراء • وأن الجسد الانسانى قابل لان يخضع للحس ، وحتى وأن كان عكس هذا أو ذاك ممكنا بالنسبة لله • ويبدو كذلك أن Vedelius يوافق على هذا التمييز • ولكن قد تناقش احيانا بعض المبادىء وهل هى ضرورية منطقيا أم هى ليست سوى فيزيقية ؟ هذا هو النزاع مع مفكرى الثالوث والوهية المسيح ، هل يمكن أن يتضاعف الجوهر عندما لا نتضاعف الماهية الفردية ؟ أما النزاع مع Zwinglieus فيدور حول هل يمكن للجسد ألا يكون الا فى محل ؟ ولكن يجب الاعتراف أنه عندما لا نستطيع اثبات الضرورة المنطقية لاى قضية ، فانه لا يسعنا الا أن نثبت الضرورة الفيزيقية لكن يبدو لى أن هناك سؤال لم يفحصه المؤلفون الذين ذكرتهم وهو : لنفرض اننا أمام المعنى الحرفى لنص فى الكتاب المقدس • ومن جهة ، ويوجد طاهر كبيرا لاستحالة منطقية أو على الاقل استحالة فيزيقية معروفة من جهة أخرى ، هل من المعقول أن نؤيد التخلى عن المعنى الحرفى أو أن نؤيد التخلى عن المبدأ الفلسفى ؟ من المؤكد أن هناك حالات لا نجد أى صعوبة فى ترك المعنى الحرفى مثل عندما يتحدث الكتاب عن أيدى الله أو أن ينسب اليه الغضب أو التوبة وغيرها من النقائص البشرية والا لزم أن نقف فى صف التجسيميين أو بعض المتعصبين فى انجلترا الذين اعتقدوا أن هيرود Hérode قد تحول فعلا الى ثعلب ما دام المسيح قد اطلق عليه هذا الاسم • اننا هنا فى

حاجة الى قواعد التأويل الذى يزودنا بما نتجاوز به المعنى الحرفى ونفضل البديهية الفلسفية . أما اذا لم يكن لدى المعنى الحرفى ما يمكن أن ينسب الى الله نقصا أو قد يؤدى الى مخاطر فى ممارسة الايمان فمن المؤكد بل ومن المعقول أن نتبعه . تنازع هذان المؤلفان ايضـا حول مشروع كيكرمان Kekermann الذىأراد اثبات التثليث بالعقل ، كما حاول من قبله ريمون دى ايل ولكن Museus رأى بحق انه اذا كان استدلال هذا المؤلف المصلح جيدا ومضبوطا فليس لديه ما يقوله ، وقد يكون محقا فى التمسك بأنه بالنسبة لهذا الموضوع يمكن للفلسفة أن تضىء أنوار الروح القدس . لقد اثاروا كذلك السؤال المشهور : هل يمكن انقاذ أولئك الذين ماتو قبل أن يعرفوا العهد القديم أو الجـديد ولديهم شعور بايمان طبيعى وهل يمكن أن يحصـلوا على غفـران لخطاياهم ؟ من المعروف أن كليمنت الاسكندرى وجوستان مارتير وسانت تريوستوم يميلون الى ذلك بصورة ما ، بل لقـد سبق أن أوضحت لبلسون Pélisson أن عددا من العلماء الممتازين فى الكنيسة الرومانية بعيدين عن اتهام البروتستانت غير المعتدلين ، أرادوا انقاذ الوثنيين وقرروا أن هؤلاء الاشخاص الذين تحدثت عنهم يمكن انقاذهم عن طريق تأنيب الضمير أى التوبة المؤسسة على حب الخير الذى بفضله نحب الله أكثر من أى شىء ، لان كمالاته تجعله محبوبا حبا لا يعلو عليه . وقد ترتب على ذلك أن يميل الانسان بكل قلبه الى الاتفـاق مع ارادته وأن يحاكى كمالاته لكى يحسن الاتصال به ، ما دام يبدو من العدل الا يرفض الله مطلقا عنايته بأولئك الذين لديهم هذه المشاعر . ودون أن اعـرض لكـل من Erasme Vives واكـتفى بـذكر رأى العالم البرتغالى المشهور فى عصره وأحد Jacque Payva Andradus لاهوتى مجلس الثلاثين والذى قال أن اولئك الذين يعارضونه يجعلون الله قاسـيا بأعلى درجـة

neque enim, inquit, immanitas, deterior ulla ésse potest

بذل Pélisson جهدا للحصول على هذا الكتاب فى باريس ولاحظ بعد ذلك (أن كثيرا ما يهمل العديد من المؤلفين المشهورين فى عصرهم) وهذا ما جعـل بايل يقول ان كثيرين لا يـذكرون اندراديوس Andradius

الا فى ضوء ايمانهم بخصمه Cheminitius ، وقد يكون الامر كذلك ، ولكن بالنسبة لى فقد قرأته قبل ان يشير اليه ، وقد ادى نـــزاعه مع Cheminitius الى شهرته فى المانيا لانه يؤيــد الجيزويت فى نزاعهم مع هذا المؤلف ، وفى كتابه بعض اللمحات التى تمس أصــل هذه الجماعة المشهورة كما لاحظت ان بعض البروتستنت المعــروفين باسم Andra diens قد ايدوه فى هذا الموضوع الذى تحدثت عنه . هناك مؤلفون كتبوا عن خلاص Salut ارسطو القائم على نفس المبادىء واقروا المراقبين Ies censeurs كما كتب كولان Collins باللاتينية la Mothe Levayer بالفرنسية عن خلاص الوثنيين وكتبهم معروفة ، ولكن فرانسكوس بوكيس Franctssus puccis يذهب بعيدا جدا . اندفع القديس اوغســطين المعروف بمهارته ونفاذ ذهنه ، نحو الطــرف الآخر لدرجة انه اتهم الاطفال الذين توفوا دون تعميد يبدو ان المدربين كانوا على حق فى اعمالها : رغم محاولة بعض الشخصيات الممتازة وبعض ذوى الجدارة ممن يغلب عليهم نوع من الشراسة فى هــذا الصدد ، بعث نظرية هذا الاب وربما حرفوها . ومن الممكن ان يكون للعقل اثره فى النزاع بين عدد من العلماء النشطين مما اوحى للجزويت المبعوثين الى الصين بان للصينيين القدماء ومنهم الحق الذى ساد فى عصرهم وان لهم قديسون وان نظرية كونفشيوس ليس لها اى شىء من الوثنية والالحاد . يبدو انه كان اجدر بروما الا تتهم احدى الدول الكبرى قبل ان تفهمها ، من الافضل ان نعتبر الله اكثر محبة للبشر من البشر . اعرف اشخاصا قد عبروا عن حماسهم بمشاعر قاسية اذ ظنوا انه لا يمكن لاحد الاعتقاد فى الخطيئة الأصلية ما دام لا يتفق معهم فى الاعتقاد . ولكنهم مخطئون فى هذا . ولا يترتب مطلقا على ذلك ان ننسب اولئك الذين ينقدون الوثنيين أو غيرهم ممن تعوزهم المساعدات العادية ، الى قوى الطبيعة وحدها (رغم وجود بعض الأباء يرون هذا الرأى) ما دام يمكن التمسك بان الله الذى منحهم عناية استثارة الحماس لفعل التوبة قد منحهم ايضا سواء بصراحة أو ضمنيا ،

ولكن بصورة غير طبيعية ، قبل الموت فى لحظاتهم الاخيرة ، كل نور الايمان وكل قوة العناية اللازمة لخلاصهم • هكذا يفسر بعض المصلحون رأى Vedelius فى موقفه من Zwinglius الذى اهتم بموضــــوع خلاص البشر لدى الصالحين من عبدة الاصنام والذى استطاع علماء الكنيسة الرومانية أن يحصلوا عليه ؛ هذه النظرية تختلف عن نظرية الذين ينكرون الخطيئة الأصيلة ، ومن المعروف أن Zwinglius قد عبر عنهم ما دامو قد عرفوا على عكس ناكرى الخطيئة الأصيلة ، أن لدى كـــل المؤمنين بها عناية تفوق الطبيعة (فى هـــذا تتفق الاديـــان الثلاثة المقبولة ، باستثناء تلاميذ Pajon) بل وقد قبلوا وجود الايمان أو على الأقل حركات قريبة منه ، لدى الأطفال التى تقبلت التعميد وبالاحرى ليس عجيبا أن نقره ، على الاقل فى حالة الموت ، بالنسبة للاشخاص ذوى الارادة الطيبة الذين لم يساعدهم الحظ بأن يتعلموا وفق التعاليم العادية للمسيحية ولكن الفريق الاكثر حكمة هو الذى يحسم برأى فى الامور المعروفة معرفة قليلة وان يقنع بأن يحكم بوجه عام أن الله لا يمكن أن يعمل شيئا لا يكون مليئا بالخير والعدالة •

Melius est dubitare de occultés quum idigare de incertis.
Augustin, lib vIII, genes ad litt C. V.



الشخصيات

(١) Joachin Stegmannus مفكر لالوهية المسيح ولد فى براندبورج وتوفى سنة ١٦٣٢ له مؤلفات رياضية ولاهوتية ، له شقيقان هما ايضا من مفكرى الوهية المسيح اصغرهما كرستوف نشر Dyade philosophique وقد يكون هذا هو البحث الميتافيزيقى الذى قصده ليبنتز .

(٢) Vedelius (نيقولا) Palatinat توفى سنة ١٦٤٢ .

(٣) Muscieus (جان) ولد سنة ١٦١٣ فى شفاروزبورج وتوفى سنة ١٦٧٤ ثنيه عددا كبيرا من الاعمال الجدلية Polémique

(٤) Ockam (وليم) ولد فى أوكام ولاية لارقى . الفرنسسكان . عارض البابا جان ٢٢ والمدافع الكبير عن الاسميين ؛ عاش فى النصف الاول من القرن ١٤ تلميذ دون سكوت اهم كتاباته :
Super libras Sententiarum باريس سنة ١٤٨٧ ، Quod libela Septem
ليدن سنة ١٤٩٥ ، Subtilissima quattionnes Summa Logica.
فينسيا سنة ١٥٩١ .

(٥) Zwingle sectatui de Zwingtius ومصلح سويسرى ولد فى سويسرا سنة ١٤٨٤ وادخل الاصلاح الى سويسرا فى نفس الوقت الذى ادخله لوثر فى المانيا توفى سنة ١٥٣١ فى معركة كابيل Cappel نشرت اعماله الكاملة فى زيورخ سنة ١٥٤٤/٤٥ .

(٦) ، يمون دى ليل Laille ولد فى بالما فى جزيرة مازورك سنة ١٢٣٥ وتوفى فى بوجى سنة ١٣١٥ ضحية المسلمين بعد حياة رومانسية ونشطة عرف بكتابة الفن الكبير وهو مذهب يخضع كل الاستدلالات للآلية ، نشرت اعماله الكاملة فى ١٠ مجلدات سنة ١٧٢١ .

(٧) st. Clement ولد فى الاسكندرية حسب البعض وفى اثينا حسب الاخرين فى منتصف القرن الثانى تقريبا وتوفى سنة ٢٢٠ عمله الرئيسى Sirmares يعتبر مصدرا لتاريخ الفلسفة . له عدة طبعات تضم اعماله الكاملة : اهمها طبعة اكسفورد سنة ١٧١٥ واحدثها طبعة ليبزج فى ٤ مجلدات ١٨٣١/٣٤ .

(٨) st. Justin Sichen ولد فى فى فلسطين سنة ٨٩ وتوفى شهيدا فى روما سنة ١٦٧ اهم اعماله :

le traité de la monarchie, ou l'unité
de Dieu. le discours aux grecs, les deux apologies ; dialogue avec le juif Tryphon.

(٩) Chrysostone (القديس حان) من اشهر آباء الكنيسة ولد فى النمسا سنة ٣٤٤ واصبح قسيسا للقسطنطينية سنة ٣٩٨ . توفى

سنة ٤٠٧ . نشر اعماله الكاملة باليونانية والاتينية p. Mont faucon سنة ١٧١٨ فى ١٣ مجلد . ويوجد ضمنها ثلاثة كتب عن العناية كتبها حوالى سنة ٣٨٠ وخمس مواعظ من الطليمية غير المفهوبة لله وعدد من المواعظ عن الاخلاق .

(١٠) Pélisson من الاكـاديمـيـة الفرنسـيـة ولد فى Béziers سنة ١٦٢٤ وتوفى سنة ١٦٩٢ مشهور بدفاعه عن فوكيه وتاريخه للاكاديمية الفرنسية سنة ١٦٥٣ .

(١١) Erasme انسانى مشهور فى القرن ١٦ ولد سنة ١٤٦٧ ورحل الى ايطاليا وانجلترا وغيرها حتى سنة ١٥٤١ حيث استقر فى بال Bale وتوفى سنة ١٥٧١ ومن أعماله نذكر :
les colloguis; les adages ; léloge de la folie; Encomuim moriae.
نشرت اعماله الكاملة فى بال واعيد طبعها فى ليدن سنة ١٧٠٣ .

(١٢) Vives (louis) كاتب مشـهور في القـرن ١٦ ولـد فى Valenca سنة ١٤٩٢ وتوفى فى Bruges سنة ١٥٤٠ . انحصرت اعماله فى التأليف ومن اهمها de initus sctis et laudibus philosophiae وهو من أول الابحاث فى تاريخ الفلسفة .

(١٣) Payva d' Andrada ولد فى Coimbre سنة ١٥٢٨ وتوفى سنة ١٥٧٥ من اعماله :
Orthodoarum quaestionum libri ; contra chemnitzii petulantem audaciam; defensio trid fidei libri XI, adversus hacreticrum calumias.

(١٤) Byle ناقد مشـهور وفيلسـوف ومعارض للقرن ١٧ ولـد فى Carlat سنة ١٦٤٧ . استاذ لفلسفة فى سيدان Sedan سنة ١٦٧٥ وفى روتردام سنة ١٦٨١ وتوفى سنة ١٧٠٦ أهم أعماله :
Pensées diverses sur le Cométe; Critique generale de Lhistoire du calvinisme de naimbourg; Nouvelle de republique des lettres.

(١٥) Chemiz (مارتن) لاهوتى بروتستنتى ولد سنة ١٥٢٢ وتوفى سنة ١٥٨٦ مشهور بكتابه Examen concili Tridimintii سنة ١٥٨٥ وتوفى سنة ١٧٢٩ من اعماله « بحث عن استخدام العقل » سنة ١٧٠٧

(١٦) Collons (انطوان) فيلسوف انجليزى ولد فى هوتسـون وتوفى سـنة ١٧٢٩ ومن اعمـاله بحث عن اسـتخدام العقـل ١٧٠٧ وبحث فلسفى عن حرية الانسان سنة ١٧١٧ .

(١٧)La Mothe de Vayer عالم وفيلسـوف فى القرن ١٧ ولد فى باريس سنة ١٥٨٨ وتوفى سنة ١٦٧٢ درس الفلسفة الشـكية . عمله الرئيسى : خمس محاورات فى محاكاة المحاورات القديمة لهورتيوس توبيتون . نشرت أعماله الكاملة سنة ١٧١٦ .

(١٨) pucci (فرانسوا) لاهوتى فى القـرن ١٦ يميل الى انكـار الوهية المسيح ولد فى فلورنسا وتوفى سنة ١٦٠٠ . من ابحاثه :

de immortalitate naturali primi hominis ante peccatum et de chisti salcatonis efficacitete .

(١٩) Pajan (كلود) لاهوتي بروتستنتى ولد سنة ١٦٢٦ وتوفى سنة ١٦٨٤ آراءه تقترب من آراء Arminius وعمله الرئيسى هو .

examen des préjugés légitimes contre les calvinistes .

لاهاى فى مجلدين .

الفصـــــل التاسـع عشر

الحمـــــاس

de l'enthousiasme

فيــــــــلاليت :

١ ـ شكرا لله أن مارس جميع اللاهوتين ، بما فيهم القـديس أوغسطين نفسه الحكمة المعبر عنها فى هذه الفترة ! ولكن يعتقد الناس أن الذهن التأكيدى يعتبر علامة على حماسهم للحقيقة ، مع أن الأمر على العكس من ذلك تماما • اننا لا نحبه حقا الا بالنسبة لحبنا فحص الادلة التى تجعلنا نعرف ما تكون • وكلما تقدم حكمنا اندفعنا دائما بدوافع أقل جـدية •

٢ ـ روح السيطرة ليس أقلها عادة ، والى جانب الكياسة التى لدى المرء بالنسبة لاحلامه الخاصة ، هناك دوافع تولد الحماسة •

٣ ـ أنه اسم نطلقه على العيب الذى لدى الذين يتخيلون وحيا مباشرا عندما لا يكون مؤسسا على العقل اطلاقا •

٤ ـ وكما يمكن القول أن العقل يكون وحيا طبيعيا يصبح الله صانعه كما أنه صانع الطبيعة ، يمكن كذلك القول أن الوحى يكون عقلا يفوق الطبيعة أنه عقل قد زود باعتماد جديد للاكتشافات صادر مباشرة من الله • ولكن هذه الاكتشافات تفترض أن لدينا الوسيلة لنميزها ، وهى العقل نفسه • وبأرادة الغائه لنفسح المجال للوحى نكون بمثابة اقتلاع العين لنرى الكواكب التابعة لجوبتر بصورة أفضل من خلال المجهر •

٥ ـ مصدر الحماسة هو أن الوحى المباشر يكون أكثر ملاءمة وأقصر من الاستدلال الطويل والمرهق والذى لا ينتهى دائما بنجاح • لقـد رأينا فى كل القرون رجالا أمتزج حنينهم باخلاصهم المرتبط بالعقيدة

الطيبة التى لديهم عن أنفسهم مما جعلهم ينمون اعتقادهم بأنهم يملكون ألفة بالله تختلف عما لدى الآخرين • أنهم يفترضون أن الله وعدهم بها ويعتقدون أنهم شعبه المفضل عن غيره •

٦ ــ تصبح نزوتهم نورا وسلطة الهية وتصبح اغراضهم اتجاها للسماء لا يخدع ومضطرون لاتباعه •

٧ ــ كان لهذا الرأى آثاره الكبرى وسبب آلاما كثيرة لان الانسان يتصرف بحماس أكثر عندما يتبع دوافعه الخاصة ، أو يعتقد أن سلطة الله تسند ميولنا •

٨ ــ من الصعب أن نبعده لان هذا اليقين المزعوم والذى ليس له أى دليل يرضى غرورنا وحبنا لما هو غير عادى • القارن المتعصبون اعتقادهم بالرؤية والاحساس • انهم يرون النور الالهى كما يرون نور الشمس فى وسط النهار دون حاجة الى أن يظهره غسق العقل •

٩ ــ أنهم تأكدون لانهم متأكدون واعتقادهم صحيح لانه قوى ولانه يخضع للغتهم المجازية •

١٠ ــ ولكن نظرا لوجود تصوران ، تصور القضية وتصور الوحى ، فمن الممكن أن نسألهم أين يوجد الوضوح ، اذا كان فى رؤية القضية فما فائدة الوحى ؟ يجب اذن أن يكون فى الاحساس بالوحى • ولكن كيف يمكن رؤية ان الله هو الذى يوحى وليست نارا متوهجة هى التى تدور حول هذه الدوائر ، أنه وحى لانى اعتقده بقوة واعتقده لانه وحى ؟

١١ هل هناك ما يوقعنا فى الخطأ أكثر من اتخاذ الخيال مرشدا ؟

١٢ ــ لقد كان القديس بطرس ماهرا عندما أرهق المسيحيين ولم يتركهم يخدعون ــ أننا نعرف أن للشيطان شهداء ، اذا اكتفينا بأن نقتنع جيدا فلن نستطيع التمييز بين أوهام الشيطان والهامات الروح القدسى •

١٤ ــ العقل اذن هو الذى يجعلنا نعرف حقيقة الوحى •

١٥ ـــ سيدور حديثنا حول اثبات تصديقنا القديسين الذين يتقبلون الوحى من الله ولديهم علامات خارجية تقنعهم بحقيقة النور الداخلى • رأى موسى شجرة مشتعلة دون أن تفنى وسمع صوتا فى وسط الشجرة • ولكى يدعم الله رسالته عندما أرسله الى مصر ليخلص أخوته منحه معجزة العصا التى تحولت الى حية ، وقد أرسل Gédon جديون ليخلص شعب اسرائيل من رق الميديين médienites ومع ذلك طالبوه بعلامة تثبت أن الله هو الذى منحه هذه الرسالة •

١٦ ـــ مع ذلك لا أنكر أن الله قد لا يضىء روح البشر ليدفعهم الى فهم حقائق معينة هامة أو ليحملهم على القيام بأعمال طيبة بمساعدة مباشرة من روح القدس دون أن يمنحهم أى علامة غير عادية تصاحب هــذا التأثير ولكن أيضا فى هذه الحالة سيكون لدينا العقل والانجيل وهمــا قاعدتان لا يخدعان للحكم على هذه الانوار ، لانها اذا اتفقت مع هاتين القاعدتين فلن نتعرض لاى مخاطرة ، على الاقل اذا اعتبرناه من الهام الله وربما قد لا يكون وحيا مباشرا •

تيوفيـــــــل :

لقد كان الحماس فى البداية اسماجيدا • وكما أظهر السوفسطائيون خبرتهم فى ممارسة الحكمة ، فان الحماسة تعنى أن فينا شىء قدسى ، est Dieus in nobis لقد أدعى سقراط أن الها أو شيطانا كان يمنحه انذارات داخلية بحيث اصبح الحماس غريزة الهية ولكن عندما قدس البشر انفعالاتهم ونزواتهم واحلامهم وحتى خوفهم ، كأنه شىء الهى ، بدأ الحماس يعنى عدم انتظام للروح منسوبا الى قوة قدسية ما كالتى كانت لدى الكهنة والعرافات الذين أظهروا استلابا للروح ، عندمــا يستحوذ عليهم الههم (ربهم) مثل Sybille de Cunnes عند فرجيل • منذ ذلك الحين أصبح ينسب الى أولئك الذين يعتقدون بدون احســاس أن حركتهم تأتى من الله أحسن Nisus عند نفس الشاعر أنه مدفوع

بدافع ما الى عمل خطير يهلك مع صديقه ويقترح ذلك عليه بهذه الكلمات المملوءة بالشك المعقول :

di ne hunc ardorem mentibus addunt euryale , an sua cuique deus sit dira cupido ?

لم يتردد اتباع هذه الغريزة التى لا يعرف أن كانت قد جاءته من الله أو من رغبة خبيثة ولكنه لو كان قد نجح فلن يعوزه أن يستخدمها فى حالة أخرى وأن يعتقد أنه مدفوع بقوة الهية • يعتقد المتحمسون اليوم انهم يتقبلون من الله آراء قضى لهم • حتى الجبناء لديهم هذا الاقتناع •

وقد زعم باركلاى أول مؤلف منهجى لهم ، أن لديهم نورا معينا يعرف بنفسه ولكن لماذا نسمى نورا ذلك الذى لا يجعلنا نرى أى شىء ؟ أعرف أن هناك أشخاص لهم هـذا الاستدلال الروحى ، الذى يجعلهم يرون أنوارا ، بل وبعض الأشياء المضيئة • ولكن هـذه الصورة من النور الجسدى المضطرب الذى يثيره توهج أرواحهم لا يعطى أبدا النور للروح ، بعض الحمقى لديهم الخيال الخصب الذى يجعلهم يتخيلون تصورات لم تكن لديهم من قبل ، ويصبحون فى حالة يقولون فيها أشياء جميلة أو على الأقل ذات حيوية قوية ، ويعجبون ويجعلون الغير يعجب بهذه الخصوبة التى تصل الى الالهام • هـذه الميزة تأتيهم فى أحسن الأحوال نتيجة خيال قوى يحركه الانفعال ، وذاكرة سعيدة تحفظ طرق الحديث التى فى كتب الأنبياء والتى قراءتها لهم أو حديث الآخرين عنها جعلها مألوفة لديهم استخدمت أنطوانيت دى بوحونى **Antoinette Bourignon** ما لديها من سـهولة فى الحديث وفى الكتابة دليلا على رسـالة الهية • وأعرف أصحاب رؤيا يقيمون رؤياهم على قدرتهم على الحديث والصـلاة بصوت مرتفع يوما كاملا دون تعب ودون أن يجف لسانهم • يوجد أشخاص ، بعد ممارسة الزهد أو بعد حالة حزن ، يتذوقون سلاما وسلوى فى الروح القدس حقا كذلك أن الرضا الذى نجده فى اعتبار عظمة وطيبة الله ، واتمام ارادته وممارسة الفضائل أنها عناية من الله ومن العظماء : ولكنها ليست دائمـا عناية تحتاج

لسند يفوق الطبيعة جديد كما يدعى كثير من هؤلاء الناس الطيبين .
لقد رأينا منـــذ فترة غير بعيدة آنسة عاقلة تماما فى كل شىء ، كانت تعتقد منـــذ شبابها أنها تتحدث الى المسيح وأنها زوجته بطريقة خاصة ، ويحكى أنها قد تحمست قليلا ولكن الفتاة وقد بدأت «بكرة قد ذهبت أبعد بحيث لا يمكن وصف رضاها وفرحها وحكمتها التى تبدو فى سلوكها ورؤخها التى ظهر فى حديثها . ولكنها تمادت أكثر الى درجة أنها كانت تتسلم خطابات يعنونها المســـيح وكانت ترسلها مختومة ، كما كانت تتسلمها مع الرد الذى يبدو أحيانا مناسبا ودائمـــا معقولا ولكنها أخيرا امتنعت عن استلام الرسائل خوفا من أن تثير ضجة كبرى . وفى أسبانيا وجدت قديســـة أخرى (القديســـة تريزا) ، ولكن كل الأشخاص ذوى الرؤيا المشابهة ، ليس لهم نفس السلوك . هنـــاك من يحاول تكوين جماعة ، ومنهم من يريد خلق اضطرابات وانجلترا لديها على ذلك عندما يتحرف هؤلاء الأشخاص بايمان طيب يصعب أن نرجعهم وقد يؤدى قلب أغراضهم الى تصحيحهم ولكن أحيانا أخرى يكون الأمر متأخرا . وجد شخص صاحب رؤيا توفى منـــذ قليل ، وكان يعتقد أنه خالد ، لأنه كان مسنا جدا وصحته جيدة ولم يقرأ كتاب رجل انجليزى نشر منـــذ قريب (اراد أن يقنع الناس بأن المسيح جاء ليخلص المؤمنين الحقيقيين من الموت الجسدى) وكان لديه نفس الاحساسات تقريبا منـــذ عدة سنوات ولكن عندما أحس بالموت شك فى الدين كله لأنه لم يستجب لخرافته وكذلك Silisien Quirin Kulman وهو رجل علم وروح تعرض لنوعين من الرؤيا خطيرين ، احدهما من المتحمســـين والأخرى من المشتغلين بالكيمياء القديمة وأثار ضجة فى انجلترا وهولندا بل واسطنبول وأراد أخيرا التوجه الى موسكو وأن يشارك هنـــاك فى مؤامرة معينة ضد وزير فى عهد الأميرة صوفيا وقد حكم عليـــه بالحرق ولم يمت كرجل مقتنع بما اقترف . أن اختلاف هؤلاء الناس فيما بينهم قد يقنعهم ان شهادتهم الداخليـــة المزعومة ليست الهية ، ولابد من علامات أخرى لتدعيمها ، ان أتباع Labade (مصلح مسيحى) مثلا

لا يتفقون مع الآنســـة انطوانيت • ومع أن ولين بن pen قصد برحلته الى ألمــانيا والتى نشر تعليقا عنها أن يقرر نوعا من الذكاء لدى أولئك الذين يعتمدون على هــذه الشهادات ، ويبدو أنه لم ينجح • كنا فى الحقيقة نتمنى أن يكون هؤلاء الطيبين معقولين وأن يتصرفوا تصرفا واقعيا : لا شيء يمكن أن يجعل الجنس البشرى افضل وأسعد ، ولكن يجب أن يشــكلوا هم أنفســهم عددا من الاخيار والمطيعين والمعقولين ، وبدلا من أن نتهم اليوم كثيرا ممن نسميهم نساكا بانهم قساة ومتصلفين وعنيدون • أن اختلافهم يظهر على الأقل أن شهادتهم الداخلية فى حاجة الى تحقيق خارجى لنؤمن بهم ، يلزمهم معجزات ليحق لهم أن يصبحوا أنبياء أو ملهمين • قد توجد حالة تحمل فيها هــذه الالهامات أو أدلتها معها • وستكون كأنها تضيء حقا الذهن باكتشافات هامة ومعرفة غير عادية تفوق قوى الشخص الذى اكتسبها بدون أى مساعدة خارجية اذا كان Jacob Boehme الاسكافى المشــهور الذى ترجمت كتاباته من الألمــانية الى اللغات الأخرى تحت اسم فيلسوف جرمانيا وكانت فى الواقع ذات عظمة وجمال بالنسبة لرجل فى هــذه الحالة ، عرف أن يعمل ذهبا ، كما يعتقد البعض أو كما فعل القديس جان الانجيلى اذا اعتقدنا ما يقوله هذا النشيد الذى ألف تمجيدا له :

in exhaustum fert thesaurum qui de vigis fecit aurum gemmes de lapidibus.

قد نجد مجالا لاعتقاد أكثر فى هــذا الاسكافى غير العادى • واذا كانت الآنسة أنطوانيت بوريجون قد زودت برتراند لاكوست **La Coste** المهندس الفرنسى فى هامبورج بنور العلوم الذى أعتقد أنه تقبلها منها ، كما يذكر فى كتابه عن مربع الدائرة (حيث يسير الى أنطوانيت وبرتراند ويسميه أ فى اللاهوت و ب فى الرياضيات) فاننا لن نعرف ماذا يقول • ولكننا لا نرى لدى هؤلاء الناس المثلة ذات نجاح معتبر لها هـذه الطبيعة ولا تنبؤات مناســبة تمــاما ، تكون قــد نجحت • ان مدعى النبــوة فى **de drabitius , poniatovia** وغيرهم أراد الرجل الطيب **Comenius** . الذى نشر فى **lux in tenebris** والذى ســاهم فى

زعزعة الأراضى الموروثة للامبراطور قد ظهر حظؤها وأصبح من صدقها من التعساء وأمير ترنتسلفانيا ، Rogozky الذى اندفع بناء على نبوة drabitius. الى مهاجمة بولونيا فخسر جيشه وفقد دولته وحياته وأعدم drabitius وهـو فى سن الثمانين بأمر الامبراطور • ومع ذلك لا أشك فى وجود أشخاص يعيشون اليوم هـذه التنبؤات غير المناسبة التى تخمن أسباب عدم النظام السائد فى هنغاريا Hongrie ولا يعتبرون مطلقا هذه التنبؤات المزعومة التى تتحدث عن احداث عصرهم ، كما حدث عندما ضربت بروكسل اذ نشرت ورقة بها فترة من كتاب الأنسـة أنطوانيت التى لم ترغب فى الحضور الى هـذه المدينة لأنها حلمت أنها نزاها تحترق • ولكن هـذا الضرب حدث بعد فترة طويلة من موتها لقد عرفت رجلا ذهب الى فرنسا أثناء الحرب التى انتهت بسلم Nimégne والح على pomponne , montausier بناء على تنبؤات نشرها Comenius وأعتقد أنه ملهم لأنه نطق بقضايا فى زمن مشابه لزماننا • ان هـذا يظهر ليس فقط قلة الأساس وانما أيضا خطر هـذه المكابرات • التاريخ ملىء بنتائج سيئة لتنبؤات خاطئة أو أسىء فهمها كما يظهر البحث العلمى والفقهى للمرحـوم يعقوب فوماسيوس (الأستاذ المشـهور فى ليبنزج) •

officio viri boni circa futura contingentia

ومع ذلك فمن الحق أن هذه المعتقدات قد تعطى أثرا طيبا وتقدم خدمات كبرى : لأن الله يستطيع استخدام الخطأ ليقرر أو يدعم الحقيقة ولكن لا أعتقد مطلقا أن نسمح بسـهولة لأنفسنا بان نستخدم الخداع من أجل غاية طيبة • أما عقائد الدين فلا تحتاج مطلقا لتجليات جـديدة ويكفى أن نقترح قواعد ملائمة نضطر الى اتباعها دون أن يقـدم الذى يقترحها أى معجزة ، ومع أن المسيح قد زود بها فهو لم يتردد أحيانا فى رفض استخدامها ليرضى هـذا الجنس المنحرف الذى يطالب بالأدلة ، مادام لا يبشر الا بالفضيلة وما يدعو اليه فعلا العقل الطبيعى والأنبيـاء •

الشـــخصيات

(١) Baclay كويكر مشـــهور ولد فى ادنبرج ســـنة ١٦٨٤ وتوفى ســـنة ١٦٩٠ من أصحاب مذهب بروتستنتى يدعو الى الحب والســـلام quaker وله مقدمة اللاهوت المسيحى الحقيقى ســـنة ١٦٧٦ وله بحث عن الحب العالمى .

(٢) Antoinette Bourignon صاحبة رؤية مشـهورة فى القرن ١٧ ولدت فى ليل Lille سنة ١٦١٦ وتوفيت ســـنة ١٦٨٠ لها بحث عن عماء البشر ، السماء الجديدة .

(٣) W.penn احد مؤسسى مذهب الكويكر الانجليزى لعب دورا كبيرا فى اصلاح انجلترا .

(٤) Comenius ولد ســـنة ١٥٩٢ فى مورافيا وينتمى لطائفة اخوان مورافيا توفى ســـنة ١٦٧١ من أعماله synopsis physics سنة ١٦٣٣ ، theatrum divinum ســـنة ١٦١٦ ، labyrinthe du mode

(٥) Thomasius (Jacues) استاذ فلسفة فى ليبنزج (لا يجب الخلط بينه وبين القانونى المسيحى توماسيوس المشهور) ولد ســـنة ١٦٥٥ وتوفى سنة ١٧٢٨ واهتم كثيرا بتاريخ الفلسفة .

الفصـــل العشرون

الخطـــأ

فيـــبلاليت :

١ ــ بعد أن تحدثنا عن كل الوسائل التى تجعلنا نعرف أن نخمن الحقيقة بقى أن نذكر شــيئا عن أخطائنا ، وأحكامنا السيئة • من الواجب ان يخطىء البشر أحيانا مادام يوجد الكثير من الاختلاف بينهم • ويمكن أن نرجع ذلك الى أربعة أسباب :

١ ــ نقص الأدلة •

٢ ــ قلة الخبرة فى استخدامها •

٣ ــ نقص فى ارادة استخدامها •

٤ ــ قواعد الاحتمالات الخاطئة •

٢ ــ عندما أتحدث عن نقص الأدلة أقصد كذلك الأدلة التى يمكن أن نحصل عليها اذا ما توفرت لنا الوسائل والســهولة اللازمة • وهذا ما ينقصــنا فى أغاب الأحيان • هــذه حالة البشر الذين يقضــون حياتهم فى البحث عما يضمن لهم استمرارها : أن معرفتهم بما يحدث فى العالم محدودة كحصان الركوب الذى يسير دائمــا فى نفس الطريق فيصبح خبيرا بخريطة البلد • أنهم فى حاجة الى اللغات ، القراءة ، المحادثة ، ملاحظة الطبيعة وخبرات الفن •

٣ ــ لا يتفق كل هــذا مع حالتهم ، هل يدعو هــذا الى القول أن أضخم البشر لن يصل الى السعادة أو الشقاء الا بالصدفة العمياء ؟ هل يلزمهم التخلى على المعتقدات الســائدة والمرشدين المسئولين فى بلدهم ؟ وخاصة بالنسبة للسعادة والشقاء الأزلى ، وهل سيظل شقيا الى الأبد ذلك الذى يولد فى هــذه البلدة وليس فى أخرى ؟ يجب أن

نعترف أننا جميعا تشغلنا حياتنا وما يضمن لنا رزقنا وليس لدى أحد منا الوقت ليفكر فى روحه ليزودها بما يلزمها من ثقافة دينية وان كان قد حاول فى أمور أقل أهمية •

تيوفيـــــــل :

لنفرض أن البشر ليســـوا باستمرار فى حالة تسمح لهم بتثقيف أنفســهم ، ولا يمكنهم التخلى بحكمة عن العناية بمعاش أسرهم ليبحثوا فى الحقائق الصعبة ، فانهم مضطرون الى اتباع المشـــاعر المسموح بها لديهم ، ومن الواجب دائمـــا أن نحكم بان أولئك الذين لديهم الدين الحق دون أن يكون لديهم أدلة على ذلك قد عوضتهم عنايتهم الداخلية عما لديهم من النقص فى الدوافع بنوع من القابلية للتصديق ، ومن الرحمة أيضا ، كما سبق أن لاحظت أن نحكم بان الله قد منح هؤلاء الأشخاص ، ذوى الارادة الطيبة والذين تســاموا عن الأخطاء الكثيفة والخطيرة ، كل ما تتطلبه خيريته وعدله ، حتى وأن كان ذلك بطريقة لا نعرفها • لدينا فى القصص المقبولة فى الكنيسة الرومانية أن أشخاصا شفوا قصدا حتى لا تفوتهم النجدات الملائمة ولكن الله قادر على أن ينجد النفوس بعملية داخلية لروح القدس دون حاجة الى معجزة كبرى • كهذه ومن الخير والعزاء للجنس البشرى ألا يلزمنا لندخل رحاب عناية الله سوى الارادة الطيبة والمخلصة والجادة • أعرف اننا لن نحصل على هــذه الارادة الطيبة بدون عناية الله ، بحيث يصـــدر عنه كل ما هو طبيعى وما يفوق الطبيعة ولكن يكفى باستمرار ألا نحصل الا على الارادة ، وأن من المستحيل أن يطلب الله شرطا ايسر وأكثر معقولية من ذلك •

فيـــــــلاليت :

٤ — يوجد الكثير ممن لديهم الامكانية الكفيلة بازالة شكوكهم ولكنهم انحرفوا بأثارة عقبات كلها براءة ومن السهل ادراكها وليس من الضرورى أن نعرضها هنا بالتفصيل •

٥ ـ أفضل الحديث عن أولئك الذين ينقصهم المهارة لتقيين ما فى متناولهم من أدلة ، والذين لم يستطيعوا الاحتفاظ بتسلسل طويل من النتائج ولا أن يقدروا كل الظروف ٠ هنـاك أشخاص يكتفون بقياس وحيد وآخرون باثنين فقط ٠ ليس هـذا مجال تحديد هل صدر هـذا الانطباع عن اختلاف طبيعى للأرواح أم للأعضاء ؟ أو هل نعتمـد على نقص فى الممارسة التى تهذب الملكات الطبيعية ؟ يكفى هنا أن تكون واضحة وما علينا الا أن ننتقل من القصر أو البورصة الى المستشفيات والمنازل الصغيرة لندركها ٠

تيوفيـــــــل :

ليس الفقراء وحدهم المحتاجون وانما كثير من الأغنياء أيضا محتاج لأن هؤلاء الأغنياء يطلبون المزيد ويضعون أنفســهم مختارين فى نوع من الفاقة التى تمنع تفرغهم للاعتبارات الهامة ، والأمثلة على ذلك كثيرة ٠ يحرص المرء على اتباع رفاقه الذين يرى أن معاشرتهم لن تثير روح المعارضة ٠ وهـذا يجعل من السهل أن يتشابهوا ٠ من الصعب طبعا أن يرضى العقل والتقاليد فى نفس الوقت ٠ أما أولئك الذين ينقصهم القدرة وهم أقل مما نظن ، فأعتقد أن الحس العام والتطبيق كافيان لتحقيق كل ما لا يتطلب الحيوية انى افترض الحس العام لأنى أعتقد أنك لا تطالب بالبحث عن حقيقة سـكان المنازل الصغيرة حقا أن كثيرا منهم قد لايستطيع العودة اذاعلمناه الوسائل ٠

أن ما بين أرواحنا من اختلاف أصيل (وهـذا فى اعتقادى موجود فعلا) يجعلنا نؤكد باستمرار قدرة أحد هـذه الأرواح على الذهاب أبعد من غيرها (ولكن ليس أسرع) وذلك اذا ما أحسن توجيهها كما يجب ٠

فيـــــلاليت :

٦ ـ يوجد نوع آخر من الناس لا ينقصهم الارادة وانما ارتباطهم القوى باللذة والممارسة المتصلة للثروة وكسل أو اهمال عام ونفور خاص

من الدراسة والتأمل ، يعوقهم عن التفكير الجاد فى الحقيقة • هناك أيضا من يخضون الا يتفق البحث الخالى من التحيز مع المعتقدات التى تتناسب أكثر مع أحكامهم المسبقة ومقاصدهم • نعرف أشخاصا لا يريدون قراءة خطاب معترضين أنه يحمل أخبارا سيئة وكثير من الناس يتجنب مراجعة أعمالهم أو التحقق من حالة ترونهم خشية أن يعلموا ما أرادوا أن يجهلوه • هنـــاك أشخاص يملكون ثروات طائلة ويستخدمونها كلها فى أمور تتصل بالجسد دون أن يفكروا فى وســـائل تحسين عقولهم • أنهم يحرصون دائمـــا على أن يظهروا بمظهر نظيف ولامع ولا يتألمون اذا ظلت أرواحهم مغطاة باسمال من الحرمان والخطأ وأن يظهر جهلهم من خلال عريهم • لن نتحدث عن الاهتمامات التى يجب أن يحرصوا عليهـــا للمستقبل ، مادامو يهملون ما يهمهم معرفته فى حياتهم التى يعيشونها وأنه لأمر عجيب أن يحرص هؤلاء الذين يمتلكون السلطة والقوة منـــذ ولادتهم أو حسب ثروتهم على تركها بلا مبالاة لأشخاص أقل منهم لكنهم يفوقونهم فى المعرفة ، لأنه لابد للمبصر من أن يقود الأعمى والا وقع فى الحفرة وليس هناك عبودية أسوأ من عبودية الذهن •

تيوفيـــــــــل :

ليس هناك دليل أوضح على اهمال البشر لمصالحهم الحقيقة من قلة اعتنائهم بالمعرفة وممارسة ما يلائم صحتهم التى هى من أكبر الثروات • ورغم شـــعور الكبار أكثر من غيرهم بالأثر السيء لهذا الاهمال فانهم لا يرجعون عنه • أما ما يتصل بالايمان فكثيرون ينظرون الى الفكر الذى يستطيع دفعهم الى المناقشة كأنه محاولة من شيطان لا يمكن التغلب عليـــه الا بتوجيه الذهن وجهة أخرى • الأشخاص الذين لا يحبون سوى اللذات أو الذين يرتبطون بأمر اعتادوا أن يهملوا باقى الأمور ، اللاعب ، الصياد ، الســـكير ، الفاسق ، محب اللذة الجسدية ، سيفقد ثروته وممتلكاته ولا يحاول أن يبذل أى جهد أو أن يقدم التماسا أو أن يتحدث الى صاحب منصب هناك أمثال الامبراطور هونوريوس Honorius

الذى عندما أخبروه بضياع روما ، اعتقد أنهم يتحدثون عن حصان السباق الخاص به والذى يحمل نفس الاسم • وهذا أغضبه أكثر من الحقيقة • كنا نتمنى أن يكون لدى لاجال السلطة من المعرفة ما يتناسب مع ما لديهم من سلطة • ولكن عندما لا يتوفر الاهتمام التفصيلى بالعلوم والفنون وتاريخ اللغات ، يكفينا حكما قويا ومدربا ومعرفة للأشياء الكبرى والعامة وباختصار الاشياء العظمى summa rerum اننا فى حاجة الى موجز يضم اهتمامات الانسان ويستحق أن نسميه enchiridion sapientiae يشبه ذلك الموجز الذى قدمه القديس أوغسطين ويضم قوى وحاجات الدولة والذى سماه brevıorium imperii وذلك اذا أراد البشر أن يعتنوا بما يهمهم أكثر •

فيلاليت :

٧ ــ أخيرا ، تصدر معظم أخطاؤنا المقاييس الخاطئة للاحتمال سواء عندما توقف الحكم رغم المبررات الواضحة أو أن نصدر الحكم رغم الإحتمالات العارضة • هذه المقاييس تتكون من :

(١) القضايا المشكوك فيها والتى تعتبرها مبادىء •
(٢) الافتراضات المقبولة •   (٣) السلطة •

٨ ــ عادة تحكم على الشىء بالصدق عندما يتفق مع ما نعتبره مبادىء ثابتة ، وهذا يجعلنا نحتقر شهادة الآخرين بل شهادة حواسنا عندما تكون أو تبدو معارضة ، ولكن قبل أن نثق فى حقيقة ما يجب فحصها بدقة تامة •

٩ ــ يتقبل الأطفال قضايا رسخت فى أذهانهم عن طريق آبائهم أو أمهاتهم أو مربياتهم وأساتذتهم وأولئك المحيطين بهم وتثبت هذه القضايا فى ذهنهم وتضبح مقدسة كأنها urim et thumim وضعها الله فى أرواحهم •

١٠ ــ نتألم من معاناة ما يصدم هــذه الالهامات الداخلية عندما يحاول فهم المتناقضات الكبرى المتصلة معها • هذا يبدو فى الاصرار التام الذى نلاحظه لدى أشــخاص مختلفة تؤمن بقوة فى معتقدات متعارضة مباشرة ، على أنها من أمر الايمان رغم أنها قد تكون غير معقولة أحيانا • خذ مثلا شخص على فطرته ولكنه مقتنع بالحكمة التى تجعله يشارك فى معتقدات قوية بالطريقة المعروفة فى السويد أو فى وتسمبرج ، أى استعداد يجعله يتقبل بدون مشقة النظرية التواجدية (عقيدة لوثر تؤكد أن وجود الجوهر الالهى فى القربان لا يمنع وجود الخبز والخمر فيه) وأن يعتقد أن الشىء الواحد يكون لحما وخبزا فى نفس الوقت ؟ •

تيوفيـــــــــل :

يبدو يا ســيدى أنك لست على علم كافى بمشاعر الانجيليكيين الذين يقبلون الحضور الحقيقى لجسد الرب فى سر القربان • لقد أوضحوا ألف مرة أنهم لا يريدون مطلقا تواجدية الخبز والخمر فى لحم ودم المسيح ، وبالاحرى أن يكون نفس الشىء لحما وخبزا معا أنهم يريدون فقط أنه يتقبل الرموز المرئية لجســد الرب بطريقة غير مرئية وتفوق الطبيعة ، دون أن يحتجز فى الخبز أن الحضور الذى يقصدونه ليس محليا مطلقا ، أو مكانيا ، أى محددا بأبعاد الجسد الحاضر : بحيث كل ما يمكن أن تعارضــــه الحواس لن تراه • كذلك لكى يظهــروا أن العقبات التى يمكن استدلالها بالعقل لن تمسه ، يعلنون أن ما يقصدونه بجوهر الجسد لا يتكون مطلقا فى الامتداد أو البعد ، ولا يجدوا أى صعوبة فى قبول أن الجسد المبجل للمسيح يحتفظ بحضور معين عادى محلى ولكنه يتلائم مع حالته فى المحل الأسمى الذى يوجد فيه ، وهو مختلف تماما عن الحضور فى طقس الأسرار الذى نحن بصدده هنــا ، أو الحضور المعجز الذى بواسطته يحكم الكنيسة والذى يجعله ليس فى كل مكان كالله ، وانما هناك حيث يريد أن يكون : هــذا هو شعور المتواضعين بحيث لكى نثبت استحالة نظريتهم علينا اثبات أن كل ماهية

الجسد لا تتكون الا فى الامتداد وما يقاس بهذا فقط . لم يفكر أحد فى هذا حتى الآن حسب معرفتى . هــذه الصعوبة لا تخص المعلمين التابعين للعقيدة الجاليكانية (التى تدعو الى استقلال الكنيسة الادارى galucam) والبلجيكية ، ان اعلان مجمع sendomir المشكل من أتباع العقيدتين الأوغسطينية والهلفتيك Helvetique التى تؤيد عقيدة الساكسون المقــررة فى مؤتمر البلاثين ايمــان المصلحين القادمين من thorn والمدعوين للاجتماع تحت رئاسة ملك بولونيا uladilas والنظرية الثابتة لكالفن وبيز Béze التى تعلن بوضوح أكثر وبقوة أن الرموز تزودنا بفاعلية ما تمثله ، وأننا نصبح مشاركين لجوهر جسد ودم المســيح . ويضيف كالفن ، بعــد أن دحض أولئك الذين يقنعون بمشاركة مجازية للفكر . أو للختم sceau أو لوحدة الايمان ، اننــا لا نستطيع ذكر ما هو أقوى من ذلك لتقرير الحقيقة ، وأنه غير مستعد للتوقيع بشرط أن يتجنبوا كل ما يتصل بدائرة الأماكن أو انتشــار الأبعاد ، بحيث تبدو نظريته فى أعماقها ، شبيهة بنظرية Milanchton ولوثر (وقد افترض كالفن نفسه تفسير هــذا فى احدى رسائله) باستثناء أنه علاوة على شرط تصور الرموز التى يكتفى بهــا لوثر ، يطالب أيضا بشرط الايمان ، ليستبعد مشاركة غير المؤمنين . وفى نظرى أن « كالفن » كان موضوعيا بالنسبة لموضوع تناول القربان الذى ذكره فى مائة موضع من مؤلفاته ، بل وفى خطاباته العائلية التى قد لا نحتاج اليها ولا مجال للشك فيها .

فيــــلاليت :

اعتذر اذ تحدثت عن هؤلاء الســادة بناء على الاعتقاد الشعبى ، وأتذكر الآن أن عددا من اللاهوتيين المهرة فى الكنيسة الانجيليكية أيدوا هذه المشاركة الحقيقية ولكن لننتقل من المبادىء المقررة الى الفروض المقبولة . أولئك الذين يعرفون أنها ليست سوى افتراضات لا يكفوا أحيانا عن التمسك بها بحرارة كأنها مبادىء مؤكدة ويحتقرون الاحتمالات

المعارضة • من غير المحتمل لأستاذ عالم أن يرى نفوذه قد ضاع في لحظة على يد قادم جديد يرفض افتراضاته ، أيملى نفوذه الذي انتشر منذ ثلاثين أو أربعين عاما واكتسبه بعديد من الليالي وسانده بقدر من الأغريق واللاتين يؤيدهم تقليد عام ولحية محترمة • كل ما يمكن أن نستخدمه من أدلة لاقناعه بخطأ افتراضه لن يؤثر على ذهنه ، وكل جهد يبذل معه يشبه الجهود التي بذلها Eorée ليرغم مسافر على خلع معطفه الذى يمسك به فى مهب الريح التى تعصف بعنف •

تيوفيـــــل :

الواقع أن الكوبر نيفيين قد أثبتوا فى نزاعهم أن الافتراضات • كما هى ، لازالت تساندهم بحماس قوى • والديكارتيين لا يقلون ايجابية بالنسبة لفروض particules canelés[1] والكرات الصـغيرة ذات العنصر الثانى كما لو أنها نظريات اقليدية ، ويبدو أن التحمس لافتراضاتنا لا يعدو أن يكون أثرا للانفعالات التى تكون لدينا عندما نحرص على احترام أنفسنا • حقا لقد أعتقد الذين حكموا على جاليليو ، أن ثبات الأرض كان أكثر من افتراض لأنهم رأوا أنه يتفق مع الانجيل ومع العقل• ولكن • منذ أدركوا أن العقل لم يعد يسانده وأن الانجيل فى ضوء ما نشره فى روما الأب فابرى Fabry ، كان القديس بطرس واللاهوتى والفيلسوف الممتاز ، فى بحثه apologie des observations déustachio divin وما أعلنه عالم بصريات مشـهور من أن فهمنـا لحركـة الشمس من خلال النصوص مجرد فهم احتياطى وأنه اذا تحقق افتراض كوبرنيق فلن نجد صـعوبة فى تفسـير كالشأن مع فقـرة فرجيل terraeque urbesque recedunt ومع هـذا لم يكفوا فى ايطاليا وأسبانيا بل والبلاد الموروثة للامبراطور من الاستمرار فى حذف نظرية كوبرنيق مع ما فى هـذه البلاد من عقول قادرة على الارتفاع الى الاكتشافات الجميلة اذا تمتعوا بحرية معقولة وفلسفية •

(١) انظر ديكارت : مبادىء الفلسفة جـ ١ ، ١١١ ، ٩٠ .

فيـــــلاليت :

تبدو الانفعالات السائدة ، كما تقول ، مصدر حبنا للافتراضات ولكنها تمتد أيضا أبعد من ذلك بكثير • لن يفيد أكبر احتمال فى العالم فى اظهار ظلم بخيل أو طموح ، وتستجد المحب أن من السهل أن يخدع عشيقته تخدعه ، طالمــا من الحق أننا نعتقد بسهولة فيما نريد وبناء على ملاحظة فرجيل • qui amant ipsi sibi somnia fingunt

مما سيسمح باستخدام وسيلتين للتخلص من الاحتمالات الأكثر ظهورا . عندما تهاجم انفعالاتنا وأحكامنا المسبقة •

١٣ ـــ الوسيلة الأولى هى أن نظن أن هناك بعض السفسطة المختفية فى الدليل الذى نعترض عليـــه •

١٤ ـــ الثانية أن نفترض أننا نستطيع تقديم أدلة جيدة أو أفضل لنهزم الخصم اذا توفرت لنا الراحة والمهارة والمساعدة اللازمة • ...

١٥ ـــ هــذه الوسائل للاقناع تكون جيدة أحيــانا ولكنها تكون سفسطة أحيــانا أخرى ، عندما تكون المــادة واضحة بما يكفى وعندما يخضع كل شىء لاعتبارنا ، ومن ثم سنجد وسيلة للتعرف فى أى جانب يوجد الاحتمال • وهكذا لن يوجد مجال للشك فى أن الحيوانات قد خلقت بناء على تجمع عفوى للذرات ، تماما كما أنه لا يوجد شــخص يشك فى أن حروف المطبعة التى تشــكل بحثا معقولا ، قد رتبها شــخص واعى وليست مجرد مزيج مختلط • أعتقد اذن أن توقف تصديقنا لهذه اللقاءات لا يعتمد علينا وانما نستطيع عمله عندما يكون الاحتمال أقل وضوحا ونستطيع الاكتفاء بالأدلة الأضعف التى تتفق أكثر مع ميولنا •

١٦ ـــ يبدو لى أنه من غير العملى بالنسبة للحقيقة أن يميل الشخص الى الجانب الذى يرى أنه أقل احتمالا ، فالادراك ، المعرفة ، والتصديق ليسوا تعسفا مطلقا ، أن رؤية أو عدم رؤية اتفاق فكرتين نتيجة اليهما

ذهننا لا تعتمد علينا • باستطاعتنا أن نوقف تقدم أبحاثنا باختيارنا ، والا فلن يكون الجهل أو الخطأ خطيئة فى أى حالة ، وبهذا نمارس حريتنا حقا أنه فى اللقاءات التى لا يكون لنا فيها مصلحة ، فى امكاننا أن ننضم الى الاعتقاد العام أو لأول احساس يصادفنا ؟ ولكن فى الأمور التى تخص سعادتنا أو شقاءنا فان الذهن يسعى بجدية أكثر الى أن يقيم الاحتمالات ، وأظن أنه فى هذه الحالة ، أى عندما نكون واعين ؛ لن يكون لدينا اختيار لتحديد الجانب الذى نريده ، اذا وجد بين الجانبين اختلافات مرئية سيحدد الاحتمال الأكبر تصديقنا •

تيوفيـــــل :

انى متفق معك فى الأساس ، وقد أوضحنا هذا الأمر من مناقشتنا الســابقة عندما تحدثنا عن الحرية • لقد أظهرت عندئذ اننا لا نعتقد أبدا ما نريده ، ولكن ما نرى أنه الأكثر وضوحا : ومع ذلك نستطيع أن نقنع أنفســنا بما نريده بطريقة غير مباشرة ، بان نحول الانتباه من موضوع غير مقبول الى آخر يسرنا • مما يجعلنا عند مواجهة مبررات الجانب الذى نفضله نعتقد فيه بصورة تبدو حقيقية • أما الاعتقادات التى لا نجد فيها مصلحة والتى نصل اليها بمبررات خفيفة ولا نلاحظ فيهــا ما يعترضها فاننا نجد اعتقادنا فيها يفوق كثيرا الاحساس المقابل والذى لا يوجد ما يؤيده فى ادراكنا ، أى لا يوجد المبرر الذى يؤيد هذا الجانب أو ذاك لأن الفارق بين الصفر والواحد مثلا أو بين الاثنين والثلاثة هو نفس الفارق بين تسعة وعشرة ، أننا ندرك هـــذه الميزة دون أن نفكر فى فحص ما هو ضرورى للحكم ولكن حيث لا يوجد ما يحثنا •

فيــــلاليت :

القياس الخاطىء الأخير للاحتمال ، الذى أريد ذكره هو الســلطة التى أسىء فهمها والتى تجعل غالبية الناس فى جهل وفى خطأ أكثر من كل ما عداها • كم من النــاس ليس لديهــم أى أســاس لمشاعرهم

الا الاعتقادات الســائدة بين الأصدقاء ، أو بين أعضاء المهنة أو الحزب أو البلدة ؟ مثل هــذه النظرية كانت مقبولة لدى القدماء وانتقلت اليها عبر القرون الســابقة ، وخضع لها اناس آخرون ، ولهذا أكون فى مأمن من الخطأ عندما أقبلها وقد يكون من الأصوب قبول هــذه المعتقدات عن طريق الرهان بدلا من اختيارها بناء على مثل هــذه القواعد . علاوة على أن الجميع عرضة للخطأ . فانى أعتقد أنه اذا أمكننا رؤية الدوافع الخفيه التى تدفع العلماء ورؤساء الأحزاب فاننا سنجد كل شىء الا الحب الخالص للحقيقة . من المؤكد على الأقل أنه لا يوجد اعتقاد غير معقول بحيث لا يمكن قبوله بناء على هــذا الأساس ، مادام لا يوجد خطأ الا وهنــاك من يشايعه .

تيوفيــــل :

يجب أن نعترف أنه ليس فى الامكان تجنب الخضوع للسلطة فى عــديد من المقــابلات . لقــد ألف القــديس أوغســطين كتابا رائعا فى هــذا الموضــوع جدير بأن يقرأ . أما عن الاعتقادات السائدة فهى قريبة لمــا نسميه فى القانون بالقرائن ، ومع أن المرء غير مضطر لاتباعها دائما بدون أدلة ، الا أننا لا نملك تحطيمها لدى الآخرين ما دمنا لا نملك الأدلة المعارضة . غير مسموح تغيير أى شىء بدون مبرر . لقد تنازعوا كثيرا حول الدليل المستمد من عدد كبير من الموافقين لرأى ما . وذلك منذ أن نشر المرحوم نيقولا Nicole كتابه عن الكنيسة . ولكن كل ما يمكن أن نستمده من هــذا الدليل عندما يتصل الأمر بتأييد مبرر ما وليس بتقرير واقع ، لا يمكن أن يخضع الا لمــا سبق أن ذكرته وما دام مائة حصان لن يجروا أسرع من حصان ، كذلك الامر بالنسبة لمــائة رجل عندما نقارنهم برجل واحد . أن يستطيعوا أن يسيروا أقوم وانمــا سيعملون بفاعلية أكثر ، لن يحكموا أحسن وانما فى امكانهم أن يمدونا بمادة أكثر يمكن أن نمارس فى ضوئها الحكم . وهذا ما يقصده المثل plus vident oculi quam oculus وهــذا ما نلاحظه فى الاجتمــاعات

يطرح عديد من الاعتبارات وقد لا يتنبه بتجاهلها فرد أو اثنين ولكن قد نتعرض أحيانا لعدم الانتباه للجانب الافضل عند الحكم على كل هذه الاعتبارات اذا لم يوجد اشخاص بارعون يتولون توجيهها وتقييمها • ولهذا اخضع بعض اللاهوتين المتفقهين من حزب روما موضوع الاستدلال الذهنى لتقرير الوقائع تحت أسم العرف عندما رأوا أن سلطة الكنيسة ، أي سلطة أصحاب المقام العالى المؤيدة بالاغلبية لم تستطع التأكد منه • هكذا كان رأى هنرى جولدن الانجليزى والدكتور فى الســوربون ومؤلف كتاب « تحليل الايمان » وبناء على مبادىء commonitorium de vincent de Lerins يقــرر اننــا لا نســتطيع أضـــدار قرارات جديدة للكنيسة وأن كل ما يمكن أن يفعله القساوسة مجتمعين هو تقرير لواقع لنظرية سائدة فى اسقفيتهم • يكون المبدأ خادعا طالمـا نظل فى الموميات ولكن عندما نصل الى الواقع ، سنجد أن الدول المختلفة تقبل اعتقادات مختلفة منذ زمن طويل ، وفى نفس البلد ننتقل من الابيض الى الاسود ، رغم ادلة أرنولد ضد التغييرات غير المحسوسة ، علاوة على أنه احيانا قد لا نكتفى بالتقرير دائما نندفع الى الحكم وهذا هو ايضا اعتقاد Grester العالم الجيزويتى فى Baviére ومؤلف لتحليل آخر للايمان يؤيده اللاهوتيون الذين فى نفس منصبه : يمكن للكنيسة أن تحكم فى الخصومات بأن تزيد اقساما جديدة من عقيدة تساعدها الروح المقدس مهما حاول البعض اخفاء هذا الشعور ، وخاصة فى فرنسا ، كأنما الكنيسة لا تعمل سوى توضيح نظريات مقررة فعلا • ولكن التوضيح اعلان مقبول فعلا ، أو هو نبأ نعتقد استدلاله من نظرية مقبولة : • تتعارض الممارسة احيانا مع المعنى الاول ، وبالمعنى الثانى ، الاعلان الجديد الذى نقرره هل يمكن أن يكون مجرد قسم جديد من العقيدة ؟ مع ذلك لست من الرأى الذى يحتقر القدماء فى مجال الدين ، واعتقد أنه يمكن القول أن الله قد حفظ المجالس المسكونية الحقيقية (التى تدعو الى توحيد الكنيسة) حتى الان من كل خطأ يعارض النظرية السليمة • وما عدا ذلك فمن الغريب أن يحرم من الحزب : لقد رأيت اشخاصـا

يتمسكون بحماس باعتقاد ما بحجة أنه سـائد فى نظامهم ؛ أو حتى لانه يعارض اعتقاد رجل من دين أو من أمة لا يحبها ، حتى ولو كان الامر لا يتصل اطلاقا بهذا الدين أو بمصالح الشعوب • ربما أنهم لا يعرفون مطلقا أن هذا هو مصدر حماسهم ، ولكنى اعرف أنه بالنسبة للخبر الأول ، أى ما يكتبه أى شخص ، فانهم يقلبون فى المكتبات ويعقدون الامور ليجدوا ما يمكن دحضه • هذا ما كان يحدث احيانا من أولئك الذين تمسكون بآرائهم فى الجامعات ويسعون الى تأييدها ضد خصومهم • ولكن ماذا نقول عن النظريات التي سجلها البروتيستنت فى الكتب الرمزية للحزب التى نضطر احيانا الى حلف اليمين لقبولها ؟ أن البعض يعتقد أنها لا تعنى عندنا سوى الاضطرار الى الاعتراف بما فى هذه الكتب والصيغ من الكتاب المقدس • مع ما فيها من تعارض مع غيرها ، اما فى النظم الدينية لحزب روما فقد فرضوا ، دون أن يقتنعوا بالنظريات المقررة فى كنيستهم ، حدودا ضيقة لاولئك الذين يتولون التدريس والدليل على ذلك القضايا التى منع جنرال الجيزويت ، كلود أوافينا Claude Aquaviva (اذا لم أكن مخطئا) تدريسها فى مدارسهم • من الأفضل عمل سجل منظم للقضايا التى تقررها أو تحرمها المجالس البابوات ، القساوسة ، رؤساء الكليات ، والتى تخدم تاريخ الكنيسة يمكن أن نميز بين تدريس واعتناق رأى ما • لا يوجد أى قسم فى العالم ولا أى منع يمكن أن يرغم الشخص على أن يظل متمسكا بنفس الاعتقاد ، لأن المشاعر غير ارادية فى ذاتها ، ولكننا نستطيع بل يجب أن نمتنع عن تدريس نظرية خطرة وأن كان ضميرنا لا يرغمنا على ذلك وفى هذه الحالة يجب أن نعلن ذلك باخلاص وأن نتخلى عن المنصب عندما نكلف بالتدريس • على فرض أن هذا ممكن ، دون أن نتعرض لخطر كبير يرغمنا على تركه بدون ضجة • لا نجد أي وسيلة أخرى لنوفق بين الحقوق العامة والخاصة : احدهما يحتم علينا منع ما نرى أنه سىء والآخر لا يجعلنا نعفى انفسنا من الواجبات التى يقررها الضمير •

فيـــــلاليت :

١٨ ـــ هــذا التعارض بين العام والخاص ، بل بين الاعتقادات العامة للاحزاب المختلفة شر لا يمكن تجنبه • ولكن احيانا لا يكون التقابل بينها الا ظاهريا ، ولا يكون الا فى الصياغة • أنى مضطر ايضا الى القول لاكون عادلا بالنسبة للجنس البشرى ، أنه لا يوجد كثير من الناس ينغمسون فى الخطأ الذى نفترضه عادة ، ولكنى لا اعتقد انهم يتمسكن بالحقيقة • ونظرا لانه فى الواقع لا تملك النظريات التى تثير ضجة كبرى أى اعتقاد ايجابى على الاطلاق فانها تقرر التمسك بالحزب دون فحص ودون أن يكون لديها أفكارا ولو سطحية عن الموضـــوعات التى يناقشوها • أنهم كالجنود الذين لا يناقشون أبدا السبب الذى من أجله يدافعون ، واذا كانت حياة المرء تظهر أنه لا يهتم بالدين فيكفيه أن يكون لديه اليد واللسان المستعدين لقبول الاعتقاد العام ليكون جديرا فى نظر أولئك الذين يمكن أن يكونوا سندا له •

تيوفيـــــــل :

هذه العدالة التى تقررها للجنس البشرى ، ليست مديحا له ، وسيكون البشر معذورين أكثر فى اتباعهم باخلاص اعتقاداتهم من أن يزيفوها من أجل مصالحهم • ربما يوجد أخلاص أكثر فى واقعهم والذى يبدو لى انك لم تفهمه لانه بدون معرفة السبب يمكن أن يصلوا الى أيمان ضمنى بألا يستسلموا استسلاما أعمى وعام ، وغالبا ما يكون بحسن نية ، لاحكام الآخرين ، الذى عرفوا السلطة ذات مرة ، حقا أن المصلحة التى يريـــد منها تتفق مع هذا الخضوع ؛ ولكن هذا لا يمنع اطـــلاقا الا يتشـــكل الاعتقاد • تكتفى الكنيسة بالرومانية بهذا الايمان الضمنى تقريبا • وعلى من لا يملك قاعدة جديدة للايمان أن يرجع الى الوحى الذى يعتبر أساسيا تماما وضروريا ضرورة necessitate medii تجعل الثقة شرطـــا ضروريا للخلاص • أنهم يدرسون جميعا فى الكنيسة هذه الضرورة الـــ

necessitate praecepti والتي تلفت النظر الى ما يقترحون • الكل واقع تحت وطأة الخطيئة المميتة ولكن هذه الضرورة لا تتطلب سوى طاعة معقولة ولا ترغم مطلقا على التصديق ، فى نظر علماء هذه الكنيسة • لقد اعتقد الكاردينال بل ارمان Bel Armin انه لا يوجد افضـــل من إيمان الطفل الذى يخضع لسلطة مقررة يحكى مؤيدا لذلك قدرة شخص يحتضر على التخلص من الشيطان بناء على هذه الترنيمة التى نسمعه يكررها : انى اعتقد كل ما تعتقده الكنيسة والكنيسة تعتقد ما أعتقد •



شخصيات الفصل

(١) Jean) Calvin) مصلح مشهور ولد سنة ١٥٠٩ وتوفى سنة ١٥٦٤ في جنيف حيث ادخل الاصلاح وحيث مارس طوال حياته سلطة دكتاتورية حقيقية أكبر اعماله Institition Chretienne وهو لاهوتى أكثر منه فلسفى .

(٢) (theod . de Béze) صديق وتلميذ كالفن ولد سنة ١٥١٩ وتوفى سنة ١٦٠١ .

(٣) Philippe Melanchon صديق وتلميذ لوثر ولد سنة ١٤٩٧ وتوفى سنة ١٥٦٧ وفق بين الاصلاح وفلسفة ارسطو ، من اهم اعماله dialecia سنة ١٥٣٦
و commentarium de anima سنة ١٥١٠
و initiae doctrine physicae; epitome philosophia moralis. سنة ١٥٥٠.

(٤) لوثر (مارتن) مصلح مشهور ، لا جدوى من ذكر تاريخه ، ولد سنة ١٤٨٤ وتوفى سنة ١٥٤٦ له اعمال لاتينية وأخرى بالالمانية فى ١٢ مجلد نشرت فى المانيا سنة ١٥٦٥ ترجمت الى اللاتينية فى فرانكفورت سنة ١٥٧١ وترجمها ميشيليه الى الفرنسية تحت عنوان مذكرات لوثر فى باريس سنة ١٨٣٧ .

(٥) Henri Holden دكتور فى كلية اللاهوت فى باريس ؛ ولد سنة ١٥٧٦ فى انجلترا وتوفى فى باريس سنة ١٦٦٥ له divinae fidei analysis سنة ١٦٣٢ ،
tractatus de schismate ; tractatus de usura ; divers tratié de controverse.

(٦) st. Vincent de Lerius عاش فى القرن الخامس المسيحى ونشر بالارد أعماله الكاملة سنة ١٦٦٣ .

(٧) Jacque Grester جيزويتى ولد سنة ١٥٦١ وتوفى سنة ١٦٥٠. نشرت أعماله الكاملة فى ١٧ مجلد فى الاعوام ١٧٣١ وما تلاها .

(٨) Aquavias (كلود) جنرال جيزويتى ولد فى نابولى سنة ١٥٤٣ وتوفى سنة ١٦١٥ يعرف بوجه خاص بنصائحه التى عنوانها Ratio studiorum روما سنة ١٥٦٦) وهو عمل حذفه الجزويت بناء على قرار محكمة التفتيش الدينية ثم أعيد طبعه بعد تعديله سنة ١٥٩١ .



تيوفيـــــل :

هذا التقسيم كان معروفا مثلا لدى القدماء ، لأنهم يضعون ضمن المنطق ، كما فعلت،كل ما يتصلبالأحاديثوتفسيرأفكارنا artes discendi ومع ذلك تعترضنا صعوبة هنا ، لأن علم التفكير ، الحكم ، الاختراع ، يبدو مختلفا تماما عن علم اشتقاق الكلمات etymologie واســـتخدام اللغات وهو شيء غير محدد وتعسفى • علاوة على ذلك ، تفســير الكلمات يضطرنا الى العمل فى العلوم بنفس الطريقة التى نتبعها فى المعاجم ، ومن جهة أخرى لن نستطيع تناول العلم دون أن نعرض فى نفس الوقت لتعريفات الحدود • ولكن الصعوبة الرئيسية التى نجدهـا فى هذا التقسيم للعلوم ، هى أن كل جزء منها يبدو أنه يبتلع الكل ، أولا الاخلاق والمنطق سيدخلان ضمن علم الطبيعة ، اذا أخذ بالمعنى العام • لان الحديث عن الاذهان ، أى عن الجواهر التى لديها فهم وارادة ، وتفسير هذا الفهم يتطلب التعرض للمنطق • كما سيتعرض ، فى نظرية الأذهان لكل ما يتصل بالارادة ، ويلزمك الحـديث عن الخـير والشر السعادة والشقاء ، ولن تتوقف عن دفع هذه النظرية لتدخل فى علـم الفلسفة العملية • كذلك الأمر بالنسبة للفلسفة العملية ، يمكن أن يدخـل فيها الكل باعتباره يساعد على تحقيق سعادتنا • أنك تعرف أن اللاهوت يعتبر بحق علما عمليا كذلك علم القانون والطب بحيث تستوعب نظريـة السعادة البشرية ، سواء لخيرنا أو لشرنا ، كل هذه المعارف ، ما دمنا نريد تفسير كل الوسائل التى تستخدم الغاية التى يقترحها العقل تفســيرا كافيا • وهذا ما فعله Zwingerus فى المسرح المنهجى للحياة البشرية وما أفسده Beyerling عندما رتبه ترتيبا أبجديا • أن تناول كل المواد بطريقة المعجم وحسب الترتيب الابجدى يجعل نظرية اللغات (التى تضعها ضمن المنطق كالقدماء) تحتل بدورها أرض النوعين الآخرين • وهكذا ستصبح ولاياتك الثلاثة الكبرى فى حرب مستمرة ما دام احدهمـا يعتدى باستمرار على حقوق الآخرين • لقد أعتقد الاسميون وجود

علوم جزئية بقدر ما يوجد من حقائق ، وتشكل مجموعات حسب ترتيبها ويفارق آخرون الجسم الكلى لمعارفنا بمحيط من قطعة واحدة لا يقسم الى المحيط ابداليدونى والأطلنطى والاثيوبى والهندى الا بخطوط تعسفية . أحيانا يحدث أن توضع نفس الحقيقة فى مكان مختلف ، حسب الحدود التى تحتويها أو حسب الحدود المتوسطة أو الأسباب التى تعتمد عليها، او حسب النتائج والآثار التى يمكن أن نحصل عليها . القضية المقولية البسيطة ليس لها سوى حدين ولكن القضية الشرطية يمكن أن يكون لها اربعة حدود ، دون أن نعرض للتعريفات المركبة . أن حدثا خالدا يمكن أن يوضع فى حوليات التاريخى الكلى ، وفى تاريخ البلد الذى حدث فيه ، وتاريخ حياة الرجل الذى يهمه وعلى فرض أن الأمر يتصل ببعض الحكم الاخلاقية الرائعة أو ببعض المناورات الحربية أو اختراع يفيد فى الفنون ويفيد فى رفاهية الحياة أو صحة البشر . سيسجل نفس الحدث التاريخى فى العلم أو الفن الذى يخصه ويمكن أيضا ذكره فى مجالين من هذا العلم ، أى فى تاريخ العلم لنحكى تقدمه المتزايد وكذلك فى أصوله لنؤيده أو نوضحه بالأمثلة . مثلا ما يحكى عن حياة الكاردينال Ximénes الذى شفى من حمى طويلة الأمد وميئوس منها تقريبا ، على يد امرأة بواسطة الدلك . هذا الامر يستحق أن يذكر فى مجال الطب ضمن الفصل الخاص بالحمى ما دام الأمر يتصل بحمية طبية جديرة بالممارسة وتساعد هذه الملاحظة على اكتشاف أسباب هذا المرض . ويمكن أيضا أن نتحدث عنها فى المنطق الطبى حيث يتصل الأمر بفن اكتشاف الادوية وكذلك فى تاريخ الطب لتظهر كيف توصل الانسان الى معرفة الادوية أحيانا عن طريق العمليات التجريبية البسيطة بل وعن طريق الشعوذة أحيانا . وكان الاجدر أن يتوسع Beverovicus فى كتابه الرائع عن الطب القديم والمستمد كله من مؤلفين غير أطباء ، ليصل حديثه الى المؤلفين المحدثين . نرى من هذا أن نفس الحقيقة يمكن ذكرها فى أكثر من مكان حسب العلاقات المختلفة التى يمكن أن نحصل عليها : وأولئك الذين ينظمون مكتبة ما أحيانا لا يعرفون أين توضع

بعض الحتب ، لأنها نتعلق بمجالين أو أكثر مناسبين • والآن ان نتحـــدث الا عن النظريات العامة ، ونستبعد جانبا الوقائع الفردية ، التاريخ ، واللغات • أجد نظامين رئيسيين لحل الحقائق النظريه ولحل منها جدارتـــه ومن الأفضل ان نربط بينهما ، أحدهما تركيبيا نظريا يرتب الحقـــائق وفق نظام الأدله ، كما يفعل الرياضيون بحيث تاتى كل قضية بعد تلك التى تعتمد عليها والنظام الاخر تحليليا عمليا يبتدىء بهدف البشر ، أى الخبرات التى تكون السعادة فى قمتها ، ويبحث بنظام الوســـائل التى تستخدم لاحتساب هذه الخبرات أو تجذب الشرور المعارضة • نجـــد هذين المنهجين فى دائرة المعارف بوجه عام ، كما يمارسها البعض فـــى العلوم الجزئية ، فى الهندسة مثلا عندما تناولها أقليدس تركيبيا كعلم فى حين نناولها البعض على أنها فن ، كما يمكن تناولها استدلاليا تحـــت هذه الصورة التى تظهر الاختراع وقد اقترح أحد الأشخاص قياس كل أنواع الأشكال المسطحة مبتدئا بالمستطيلات قصد تقسيمها الى مثلثات ، ويصبح كل مثلث نصف متوازى أضلاع ، ويخضع متوازى الاضـــــلاع للمستطيل الذى يسهل قياسه • ولكن كتابة دائرة المعارف وفق هـــذين النظامين معا يجعلنا نحصل على مقاييس للرد لنتفادى التكرار • ويجب أن نضيف الى هذين النظامين نظـــام ثالث خاص بالحدود ولن يكون فى الواقع سوى نوعا من الفهرس • أما مذهبى يرتب الحدود وفق محمولات معينة تكون عامة لكل الأمم ، أو ابجديا وفق اللغة المعترف بها لـــدى العلماء • الا أن هذا الفهرس سيكون ضروريا للحصول على كل القضايا التى يدخل فيها الحد بطريقـــة ملحوظة ، لأنه حسب الطريقتين السابقتين ترتب الحقائق وفق أصلها أو وفق استعمالها ولن توجد معا كل الحقائق التى تخص نفس الحد • مثلا لم يكن مسموح لدى اقليدس ، عنــــدما كان يعلم ، أن يجد نصف الزاوية بأن يضيف للوسيلة للحصول على الثلث، لأنه كان يلزمه الحديث عن المقاطع المخروطية التى لا يمكن معرفتهـــا فى هـــذا المجال • ولكن بالفهرس يمكن ويجب أن يذكر الأماكن التى يوجد فيها القضايا الهامة التى تهم نفس الموضوع وما زال ينقصنا مثل هـــذا

الفهرس فى الهندسة حيث سيكون ذا فائدة كبرى ويسهل الاكتشافات ويدفع العلم لأنه سيخفف عن الذاكرة ويوفر الجهد الذى يبذل فى البحث من جديد عما حصلنا عليه فعلا • تستخدم هـذه الفهارس فى العلوم الأخرى أيضا حيث ما زال سلطان فن الاستدلال ضعيفا • وسـيكون ضروريا أكثر فى الطب بصفة خاصة • لكن فى عمل مثل هـذه الفهارس لن يكون من الأمور التافهة • ومن العجيب أن يبدو اعتبار هذه النظـم الثلاثة متمشيا مع القسمة القديمة التى حددتها والذى يقسم العلم أو الفلسفة الى نظرى وعملى واستدلالى أو الى علم طبيعة وأخلاق ومنطق ، لأن التنظيم التركيبى يتمشى مع النظرى والتحليلى يتمشى مع العملى ، وذلك الخاص بالفهارس حسب الحدود مع المنطق بحيث نقبل التقسـيم القديم ونفهمه بالصورة التى شرحتها فى هذه الانظمة • أى ليس باعتبارها علوما متميزة وانما باعتبارها ترتيبات مختلفة لنفس الحقائق بقدر ما نجد من المناسب أن نكررها • هناك أيضا تقسيم مدنى للعلوم وفق الملكـات والمهن • ويستخدم فى الجامعات وفى تنظيم المكتبات ، وقد ترك لنـا كل من Lipenius , Draudis كتالوجا للكتب لم يتبع فيه منهج كل من Gesner , Pandectes المذهبى ، وانما اكتفيـا باستخدام التقسيم الكبير للمواد (تقريبا كما يفعل أصحاب المكتبـات) وفق الملكات الاربعة كما يسمونها : اللاهوت والتشريع والطب والفلسفة، ورتبوا فى داخل كل ملكة الحدود الرئيسية التى تدخل فى تحرير الكتب ترتيبا أبجديا • ومما يخفف عنهم أنهم لم يحتاجوا الى رؤية الكتـاب أو فهم المـادة التى يتناولها ، ولكنه لن يخدم كثيرا الآخرين ، مالـم تذكر إشارات للعناوين ذات دلالة ، لانه بغض النظر عن كمية الأخطـاء التى وقعوا فيهـا ترى أنهم أحيانا يسـمون نفس الشىء بأسـماء مختلفة مثلا :

observationes juris, mis cellnea , conjectanea , electa, semestria, probabilia , benedicta.

وقدر آخر من الاوصاف المشابهة • بحيث تصبح كتب التشريع مجرد خليط من القانون الرومانى لهذا يصبح التنظيم المذهبى للمواد هو الافضـل

بلا شك ، ويمكن أن نضيف اليها ملاحق أبجدية كاملة حسب الحـــدود والمؤلفين • لا يجب احتقار التقسيم المدنى السائد حسب الملكـات الأربعة • اللاهوت يبحث السعادة الابدية وكل ما يتصل بها بقدر ما يعتمد ذلك على الروح والضمير أنه يشبه التشريع الذى يهتم بما نقــول منه ue fora interno ويستخدم جواهر وعقول غير مرئية • موضوع التشريع هو الحكومة والقوانين التى هدفها سعادة البشر بقــدر ما يمكن ممارستها خارجيا وبالحس ولكنها لا تهتم أساسا الا بما يعتمــد على طبيعة الذهن ولا تتدخل فى تفصيل الأشياء الجسدية ، التى تفترض طبيعتها لتستخدمها كوسائل • وهكذا تتحلى أولا عن نقطة كبرى تتصل بالصحة والعافية وكامل الجسم البشرى التى انتقل الاهتمام بهـــا الى ملكة الطب • اعتقد البعض بحق أنه يمكن اضافة الى هذه الملكات ، الملكة الاقتصادية التى تشمل فنون الحساب والميكانيكا وكل ما يتصـــل بتفاصيل جوهر البشر ورفاهية الحياة ، ويدخل فيها الزراعة وفـــن المعمار • وتركوا لملة الفلسفة كل عالم يدخـــل فى الملكـــات الثلاثة الاخرى التى يسمونها العليا • لقد أساءوا اليها لأنهم لم يقيمـــوا أولئك الداخلين فى هذه الملكة فرصة الاتقان عن طريق الممارسة كما يفعـــل أولئك الذين يعلمون الملكات الاخرى وهكذا ، باستثناء علماء الرياضـــة، لا تعتبر ملكة الفلسفة الا مجرد مدخل للملكات الأخرى • لهذا نريد للشباب أن يتعلم التاريخ وفن الحديث ، وبعض اصول اللاهوت والشريعة الطبيعية ، المستقلة عن القوانين الالهية ، والبشرية ، تحت اســم ما بعد الطبيعة ، أو علم الظواهر الروحية ، الأخلاق ، الساسة ، مــع قليل من علم الطبيعة للاطباء الشبان ، هذا هو التقسيم المدنى للعلوم وفق الجسم ومن العلماء الذين يعلموها ، دون الحديث عن مهن أولئـــك الذين يعملون للجمهور علاوة على حديثهم الذى يجب أن يخضـــع لتوجيه العلماء الحقيقيين واذا ما أخذنا مقاييس المعرفة بدقة ، حتى فى الفنون اليدوية السامية ، وجدنا ارتباط المعرفة بالعمل قويا ويمكن أن يتزايد الترابط ، كما حدث فى الواقع فى الطب ، ليس قديما فقط (حيث كان

الاطباء جراحين وصيادلة فى نفس الوقت) وانما اليوم كذلك وخاصة لدى الكيمائيين • هذا الارتباط بين العمل والنظرية نراه فى الحرب ولدى أولئك الذين يدرسون ما نسميه بالتمرينات ولدى الرسامين والنحاتين والموسيقيين ولدى بعض الأنواع الأخرى من Virtuosi واذا تعلم عمليا الفلسفة مبادىء كل هذه المهن بل والحرف واذا اطلع العلماء على هذه الملكات فسكنوا حقا معلمى الجنس البشرى • لكن يجب تغيير الحالة الحاضرة فى كثير من المجالات الخاصة بالأدب وتربية النشء والسياسة وعندما اعتبر كم تقدم البشر فى المعرفة منذ قرن أو قرنين ، وكم سيكون من السهل أن نذهب أبعد بكثير جدا لنصبح سعداء لا يأس مطلقا من أننا سنصل الى اصلاح معتبر فى زمن أهذا تحت رعاية أمير عظيم يرسله الله لخير الجنس البشرى •



الشخصيــات

(١) H. Zwinger يوجد ثلاثة اشخاص بهذا الاسم اولهم او أقدمهم أو رئيس الأسرة طبيب ولد فى بال سنة ١٥٣٣ وتوفى سـنه ١٥٨٨ ومؤلف theatrum vitae humanae وهو الكتاب الذى ذكره ليبنتز . الثالث ابن الثانى طبيب ولاهوتى ولد سنة ١٥٩٧ وتوفى سنه ١٦٥٤. ومؤلف theatrum sapientiae caelestis سنة ١٦٥٢ .

(٢) laurent Beyerling ولد سنة ١٥٧٨ وتوفى سنة ١٦٢٧ نشر مع اضافات وتعديلات كتاب le theatrum الذى الفه Zwinger ويقال انه خليط من اللاهوت والتاريخ والسياسة والفلسفة .

(٣) Bevcrwck, Boveroviciious طبيب ولـد سـنة ١٥٩٤ دحض اعتراضات موتنتى على الطب تحت عنوان Montanus eleuchomenos وكتاب آخر de excellentia feminei sexus.

(٤) George Draud. صاحب تصنيفات ولد سـنة ١٥٧٢ وتوفى سنة ١٦٣٥ له bibliotheaca classica, bibliotheca exotica.

(٥) Lipenius عالم لغوى ولد سنة ١٦٣٠ وتوفى سنة ١٦٨٢ له medica, pnilosophica, juridica, bibliotheca realis theologica. وعدد من الابحاث عن المعرفة .

(٦) Gesner مؤلف مشهور فى القرن ١٨ ولد سنة ١٦٩١ وتوفى سنة ١٧٦١ الف تصنيفا عقلانيا catalogue raisonbée لمكتبة دوق ويمبر وهو المؤلف الذى يشير اليه ليبنتز . له أيضا بحث فى الفلسفة هـو socrates sanctus pederasta. سنة ١٦٩٨ .



المراجـــــع

(أ) ابحاث باللغـــة العربية :

١ ـــ ابو العلا عفيفى :
المدخل الى الفلســـفة

٢ ـــ جورج طعمه :
ليبنتـــــز

٣ ـــ د . زكى نجيب محمود :
برتراند رســـل
نحـــو فلسفة علمية
المنطق الوضــــعي
خرافة الميتافيزيقا

٤ ـــ د . عبد الغفار مكاوى :
المونادولوجيا والمبادىء العقلية للطبيعة والفضل الالهى

٥ ـــ د . عبد الرحمن بدوى :
فلســـفة العصور الوسطى

٦ ـــ د . عثمان امين :
ديـــكارت
محاولات فلسفية

٧ ـــ د . عزمى اســـلام :
جون لوك (نوابغ الفكر الغربى)

٨ ـــ د . محمد فتحى الشنيطى :
جون لوك (مجلة تراث الانســـانية)

٩ ـــ د . نجيب بلدى :
بســـــكال (نوابغ الفكر الغربى)

١٠ ـــ يوسف كرم :
تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط
تاريخ الفلســـفة الحديثة

(ب) ابحاث باللغـــات الأجنبية :
١ ـــ مؤلفات ليبنتز
٢ ـــ مؤلفات عن ليبنتز
٣ ـــ مقالات فى الدوريات الأجنبية

المراجع باللغة الاجنبية

١ ــ ابحاث باللغات الاجنبيـــة :

١ ــ مؤلفات ليبنتز :

1 — (Louis) Couturat, Opuscues et Fragement inédits de Leibniz.

2 — Langley, (alfred giden) ; New Essays Concerning human understanding by G. W. Leibniz.

3 — Latta (Robert) ; Monadology and Other Philosophical Writings of Leibniz.

4 — Morris (Mary); The Philosophical Writings of Leibniz.

5 — Piajet ; Nouveaux Essais de l'entendement.

6 — Stark (9 W.) ; Theodicy of Leibniz.

7 — Thouvry (Emile) ; Discours de Mrtaphysique.

8 — Wiener (Philip P.) ; Leibniz - selections.

٢ ــ مؤلفات عن ليبنتز :

1 — Archambault (Paul) ; Leibniz.

2 — Biéme (Emile van); Iéspace et lc temps chet Leibniz et Kant .

3 — Brunschvig (Leon) ; les étapes de la philosophie mathematique.

4 — Chatelet (Francois) ; Histoire de la philosophie , idées et doctrines; T. 3.

5 — Cresson (André) ; Leibniz.

6 — Freodmann (Georges) ; Leibniz et Spinora .

7 — Hampshire (Stuart) ; Spinoza; pelican book no . 253.

8 — Joseph (H.W.) ; lectures on the philosophy of Leibniz.

9 — Morris (Cohen) , Ernest Nrnest Nagel ; Introduction to logic and scientific method.

10— Martin (Gottfried) ; Leibniz and metphysics.

11— Mauy (Paul) ; Logic.

12— Piat (Clodius) ; Leibniz.

13— Russell (Bertrand) ; Critical exposition of the philosophy of Leibniz.

14— Saw (Ruth Lydia) ; Leibniz.

مقـــالات فى الدوريـــات الأجنبيـــة

1 — The Philosophical Review. : July 1954.

1 — Leibniz : Theodicy ; translated by E. M. Huggard; p. 110 - discourse on metaphysics ; p. 441 - 444.

2 — Belaval., Y; pour connaitre la pensée de Leibniz;P. 451 - 453.

2 — Revue philosophique ; 1946.

1 — Jalabert ; la psychologie de Leibniz , P. 453 - 472.

2 — G. Lewis; la critique leibnizienne du dualism cartesien P. 473 - 485.

3 — L. Prenant; le raisonable chez Leibniz , P. 486 - 512.

4 — A. Hannequin ; theorie de la connaissance chez Leibniz, 1925, T. xcix, P. 321.

5 — Servien; le progrés de la metaphysique de Leibniz, 1937. T. CXXIV.

3 — Revue de Métaphisique et Morale;

1 — A.Hannequin :la preuve ontologique cartesienne defondue contre Leibniz . 1896, p. 433.

2 — P. Boutroux; études critiques sur la philosophie de Leibniz.

3 — L. Courat: sur la métaphysique de Leibniz 1902.

4 — sur une des germes de la philosophile de Leibniz, 1902. P. 552.

5 — M. Cassirer; systéme de Leibniz; 1903 p. 83.

6 — le germe de lantinomie Kantienne chez Leibniz 1908. P. 905.

7 — M. Ivan Jagodnsky ; textes inédite de Leibniz; 1913 . P. 177.

8 — Henri Lestienne; discours de métaphysique de Leibniz 1930 p. 8.

9 — Joseph Iwanicki; Leibniz et les demonstrations mathem-atiques de Iéxistence de Dieu 1936 p. 10.

10— Martiel Gueroult: Dynamique et métaphysique Leibniziennes 1937 . p. 8.

11— Brunner, études sur la signification historique de la philosophie de Leibniz, 1952 . p. 94.

12— Guiton, J.; Pascal et Leibniz, étude de deux types de penseurs



تمت

رقم الإيداع: ٩٦/ ٤٩٩٣
الترقيم الدولي
I.S.B.N
977 - 03 - 9850 - 0

مركز الدلتا للطباعة
٢٤ شارع الدلتا - اسبورتنج
تليفون : ٥٩٥١٩٢٣



هى قصة شاب ولع فى السادسة والعشرين من عمره بالأبحاث النفسية ، فعقد جلسات روحية مع عائلته على غرار ما يقوم به أهل الغرب ، فاتصل بسكان العالم الأثيرى عن طريق وسطاء من كلا الجنسين اكتشفهم من بين أفراد أسرته وفى قالب قصصى ممتع يسرد نتيجة أبحاثه واختباراته

٢١٥/٣٩